

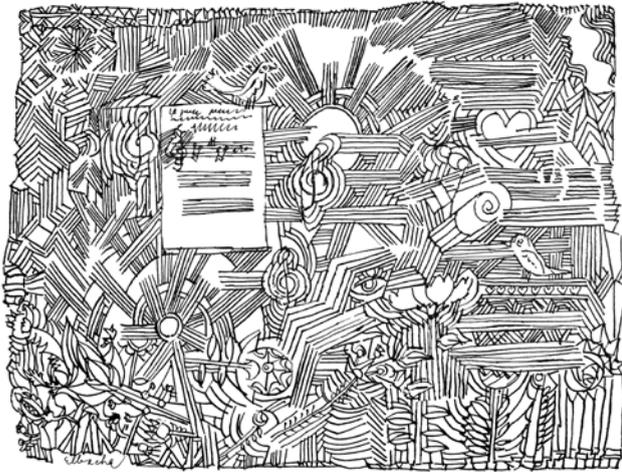
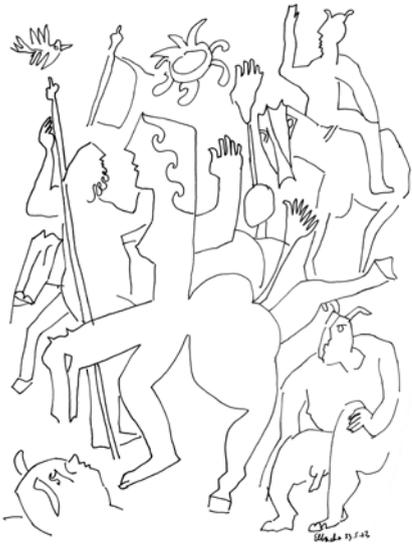
# بدايات

فصلية ثقافية فكرية العدد ٢٢ ♦ ٢٠١٩

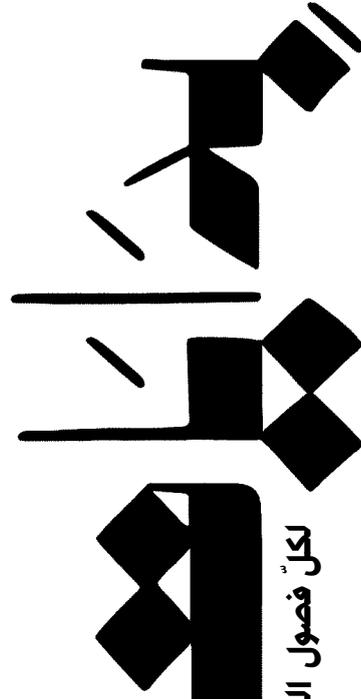


♦ السودان والجزائر: استئناف البدايات  
♦ احمد فارس الشدياق في لندن ♦ نجيب محفوظ  
♦ في اليمن ♦ امين الباشا سيّد الفرح والالوان  
♦ عمر الزعني، شاعر الشعب

ملف  
**روزا الحمراء**  
التي قادت ثورة



فصلية ثقافية فكرية  
العدد ٢٢ ♦ ٢٠١٩



لكل فصول التغيير

#### بدايات

رئيس التحرير: فواز طرابلسي  
تحرير وترويج: زينب سرور  
ادارة فنية: جنى طرابلسي  
تصميم واخراج: لين الحوت  
أبحاث الصور والرسوم: فيليبيا دحروج  
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز  
اشتراكات وتوزيع: لينة بعلبكي  
المدير المسؤول: حسان الزين

#### مجلس التحرير الاستشاري

آدم هنية، الياس خوري، بشري  
المقطري، زهير رحال، جليب أشقر،  
رشا السلطي، فؤاد م. فؤاد، سحر  
مندور، سلامة كيلة، ليلي الداخلي،  
سليم تمري، سينثيا كريشاتي،  
صبيحي حديدي، عساف كفوري،  
غسان عيسى، فاروق مردم بك، كامل  
مهدي، محمد العطار، ميسون سكرية،  
اكرم الرئيس.

تصدر عن بدايات ش.م.م.

صندوق البريد ١٣/٥٧٤٨

شوران، بيروت - لبنان

التوزيع: شركة «الناشرون»

لتوزيع الصحف والمطبوعات، ش.م.م.

بيروت - لبنان

[www.bidayatmag.com](http://www.bidayatmag.com)

[info@bidayatmag.com](mailto:info@bidayatmag.com)

[facebook.com/bidayatmag](https://facebook.com/bidayatmag)

صدر هذا العدد من «بدايات»  
بالتعاون مع مؤسسة روزا لوكسمبرغ،  
مكتب بيروت



٤ السودان، الجزائر، إلخ.  
استئناف البدايات  
فواز طرابلسي

١٧ في سيرة «الثورة»  
تجاة إدريس إسماعيل  
٢٢ كيف انتهى حلم مسيرات العودة  
في غزة؟  
أسماء الغول

١٠ الجزائر تعود للبدايات  
رفض الراهن وفتح الحاضر أمام التغيير  
ملكة رحال  
١٢ الحراك الشعبي في السودان  
كي لا يعود حكم الإسلاميين  
طارق علي حامد



ملف

٤٨ تراكم رأس المال وإشكالية  
«إعادة الإنتاج» من ماركس  
إلى لوكسمبورغ  
وسام سعادة

٢٨ روزا لوكسمبورغ  
في أزمة الاشتراكية الديمقراطية  
ومفارقات الطبقة العاملة الألمانية  
وسام سعادة



ملف  
روزا الحمراء  
التي قادت ثورة

٦٧ رسائل روزا من السجن  
المرأة التي تفهم لغة الطير

٤٠ الحذاء  
إدواردو غالبانو

٧٤ روزا لوكسمبورغ بعيني  
رايا دونايفسكايا: في البدء كان الفعل  
الكنسندرا المصري

٤١ إعادة اكتشاف روزا لوكسمبورغ  
أرنا المعجزة! أين معجزتك؟  
ميكايل بري

١١٤ ثلاثة أيام في اليمن مع الجنود المصريين  
نجيب محفوظ

٨٢ الكتابة والألم  
اللياس خوري

١٢٤ ١٣٠ عاماً على ولادة  
«ناسك الشخروب» ما خفي من  
رحلة ميخائيل نعيمة السوفياتية  
عماد الدين رائف

٨٨ أجد فارس الشدياق في بريطانيا:  
١٨٤٨ - ١٨٥٦  
طريف الخالدي



١٠٥ بدايات في «فَرْزجة التسطير»  
كيف واكب الشدياق انتقال الكتاب  
من النخبة إلى العامة  
هالة البزري

١٥٥ سجاد عرسال الملون  
مواسم الكرز وأرض البقاع  
وفصول السنة  
محمد الحجيري

١٣٠ بعد حدثتي  
وأول محاولة لاغتيال رفيق الحريري  
وليد صادق



١٤٢ أمين الباشا  
سيد الفرح والألوان

الغلاف ١:

أمين الباشا، ألوان  
مائة، ٢٠٠٢

الغلاف ٢ و٣:

أعضاء أمين الباشا،  
بنك عودة

الغلاف ٤:

أمين الباشا، ألوان  
مائة، ١٩٩٢

١٦٥ ردّاً على ليلى الداخلي  
فراة تونس لا تنفي انتماءها العربي  
صفوان المصري

١٦٠ هل تونس استثناء عربيّ  
ليلى الداخلي

كتاب 

١٧٧ ماركس هجاءً:  
الأدب مدخلاً لتلقّي ماركس  
نائر ديب

١٦٨ ماركس والشرق الأوسط ٢/٢  
جليبير الأشقر

في المنظر 

٢٠١ المفكرة المسكويّة  
وموسيقى المستقبل  
عاطف علي

١٨٦ مذكرات جلال الله عمر ٧  
التعددية، أم النفط،  
أم الوحدة الفورية؟  
حاورته ليلى ودين

ذاكرة 

١٩٤ كتاب السجن  
العنف، الحب، الجنس  
رؤوف مسعد

٢١٠ موزيكا! عمر الزعني، شاعر الشعب  
أكرم الرئيس

ثقافة  
للناس 

٢٣٠ الفنّانة التّونسيّة أمال الحمروني:  
أغاني الفرح والحرية واللذة  
أجرى الحوار أسامة سليم

نهوند 

## السودان، الجزائر، إلخ. استئناف البدايات

فواز طرابلسي

القصرين وسيدي بوزيد، التي انتقلت إلى الأحياء الشعبية في تونس العاصمة، والإضراب العمالي العام لموظفي القطاع العام، بقيادة الاتحاد العام التونسي للشغل من أجل زيادة الأجور،

♦ الحراك العراقي المستمر بين مدّ وجزر منذ العام ٢٠١٥ ضدّ نهب الأحزاب الحاكمة للمال العام («باسم الدين باكونا الحراميّة») وللاحتجاج على اهتراء الخدمات العامّة وتفشي البطالة، إلخ.

انطلق الحراك الشعبي في السودان ضدّ تعديلات دستورية تجيز ترشح عمر البشير لولاية جديدة في الانتخابات الرئاسية العام ٢٠٢٠. والرجل قد أتمّ العقد الثالث في حكم هو أسوأ ما شهده تاريخ السودان الحديث، عرف الحروب الأهلية، وحملات القمع الحكومية، وارتكاب الجرائم ضدّ الإنسانية، وانفصال الجنوب، وأزمات اقتصادية واجتماعية أطلقت حراك العام ٢٠١٣ عندما بدأت الخرطوم تنفيذ إجراءات التقشّف والخصخصة ورفع الدعم الحكومي على الموادّ المعيشية التي أملاها صندوق النقد الدولي.

تحت شعار «تسقط، بس»، انطلقت التظاهرات الشعبية من عطبرة، المدينة العمالية، ومنها إلى أمّ درمان وسائر المدن والبلدات. كسرت التظاهرات حالة الطوارئ التي أعلنها البشير مطلع مارس. فسلبت على المتظاهرين الشرطة والأمن وعصابات الجنجويد (مرتكبة جرائم دارفور). وقع في المجابهات عشرات القتلى واتسعت حملة الاعتقالات لتشمل الشباب والنساء والصحافيين ومناضلي الحزب الشيوعي.

يوم الخميس في ٧ شباط / فبراير من هذا العام، أقدم المواطن اللبناني جورج زريق على إحراق نفسه أمام مدرسة أولاده. خسر جورج عمله فقرّر نقل أولاده من مدرسة خاصة إلى المدرسة الرسمية لعجزه عن الاستمرار في دفع أقساط الأولى. رفضت مديرة المدرسة الخاصة منح الأولاد إفادة عن أدائهم الدراسي قبل أن يسدّد الوالد الأقساط المتبقية عليه.

لم يطلق انتحار جورج زريق في منطقة طرفية من شمال لبنان حركة احتجاج كالتي أطلقها انتحار محمد بوعزيزي في منطقة طرفية من وسط تونس، لكنّه ذكر بأنّ القضايا والمشكلات والصراعات التي أطلقت أول موجة انتفاضات عربية العام ٢٠١١ لم يخدم أوارها على الرّغم من الرّدات المضادة للثورات واندلاع الحروب الأهلية وتكالب التدخّلات الإقليمية والدولية.

جاء انطلاق الحراكين الشعبيين الأخيرين في السودان والجزائر للتذكير بأنّ زلزال العام ٢٠١١ لا يزال يرسل موجاته الارتدادية. وما الحراك إلا ذرورة جديدة في سلسلة من حركات شعبية تتشارك في الاحتجاج على أنظمة الاستبداد ذات الركيزة العسكرية - الأمنية التي تتزاح مع أصحاب المليارات والمنتفعين من المال العام، وعلى النتائج الكارثية للتطبيقات النيوليبرالية خلال ثلاثة عقود من الزمن. ومن أبرز تلك الحركات:

♦ انتفاضة الريف المغربي ٢٠١٦ - ٢٠١٧ ضدّ التهميش الجهوي والاجتماعي الذي واجهه القمع السلطوي والاعتقالات والأحكام بالسجن القاسية على المناضلين،  
♦ الحراك الاجتماعي الأردني العام الماضي الذي فرض التراجع عن قرار رفع الدعم عن الموادّ الغذائية والمحروقات ومراجعة قانون ضرائب يلقي أعباءً ثقيلة على المواطنين،  
♦ انتفاضات الأطراف التونسية العام ٢٠١٦، في

انطلق الحراك الشعبي الجزائري هو أيضاً للاحتجاج على ترشيح رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة لولاية (عُهدة) خامسة، ومعروف أنّ الرجل العجوز والمریض يختبئ خلفه فريق حاكم خفي من عسكريين وأمنيين ورجال أعمال مستفيدين من المال العام. يقول عنه الجزائريون، بكثيرٍ من الشعور بالاذلال، إنه يحكمهم من القبر.

رداً على أول موجة من التظاهرات، أعلن بوتفليقة عزوفه عن الترشح، وعزل رئيس وزراءه، وعين رئيساً جديداً لم يستطع تشكيل حكومة بعد ووعده الرئيس بتشكيل ندوة للحوار الوطني تدرس الإصلاحات المطلوبة. تصاعد الرفض الجماهيري بدلاً من أن يهدأ لما اعتبره المتظاهرون لا أكثر من تمديد للعهد الرابعة. أيام الجمعة طوفان من تظاهرات مليونية لم تشهدها الجزائر في تاريخها غطت الولايات كافة، اختلط فيها عربٌ وأمازيغ، رفعوا شعارات بالفرنسية والعربية والأمازيغية، واحتشد بها ريفيون ومدنيون، وأبناء مهنة حرة وطبقات متوسطة، واعتصم الطلاب في مدارسهم ينظمون تظاهراتهم الخاصة أيام الثلاثاء، ووصل الحراك إلى أعماق الصحراء بمشاركة عمال النفط والغاز في حاسي مسعود.

هكذا انتقل الاحتجاج ضدّ العهد الخامسة إلى الدعوة لرحيل الفريق الحاكم وتغيير النظام. رفض المتظاهرون عقد ندوة الحوار وأدانوا مسبقاً أي تدخل خارجي. هاجموا الدبلوماسية المخضرم الأخضر إبراهيمي، لاتصالاته الفرنسية والأميركية، ووزير الخارجية رمطان لعمامرة، لزيارته موسكو.

سريعاً برزت التصدعات في جسيم النظام. بدأت حركة انسحابات نواب وقادة وموظفين من جبهة التحرير الوطني، الحزب الحاكم ومن الحكومة، أخذ بعضهم يشارك في التظاهرات لتستقبلهم يافطات تقول «نريدكم أن ترحلوا لا أن تأتوا إلينا». ثم جاء دور «النقد الذاتي» والاعتذارات العلنية التي توالى من قيادات جبهة التحرير وحليفها التجمع الوطني الديمقراطي (هذا الأخير استقال رئيسه) على أمل ركب موجة الاحتجاج، فتلقفهم شعار المتظاهرين «نحن تسونامي ليغرقكم، ولسنا موجة لتركبوها».

في تقدير التطورات اللاحقة، يتوقف الكثير على سلوك القوات المسلحة في البلدين. هل يلبي الجيش السوداني، وكبار ضباطه من الإسلاميين، مطلب الانتفاضة الشعبية السلمية بتحيةة البشير وتأمين الانتقال السلمي والديمقراطي للسلطة؟

إلى أي مدى تبقى هذه العملية بمنأى عن التدخل والتأثير الخارجيين، علماً أنّ الأزمة السودانية مدوّلة، بسبب الملاحقة الجزائرية الدولية بحق البشير، التي ترعاها الإدارة الأميركية، ومعزبة بالدعم السعودي والمصري للبشير. لكن هذه التدخلات تبدو أقرب إلى ترتيب خروج البشير أكثر منها دعم بقاءه. فقد بدأ تداول فكرة تنحيته مقابل وقف الملاحقات الجزائرية الدولية ضده. ويجري، في المقابل، تجهيز البديل بشخص مدير الأمن صلاح القوش، وقد تداول الإعلام أنباء اجتماع بين ممثلين عن السعودية ومصر وممثلين عن الحكومة الإسرائيلية لتسويق الرجل.

في المقابل، نجح الحراك السوداني في عزل النظام سياسياً وثمة اتجاه واضح لتجميع قوى المعارضة حول مطلب تنحي البشير، بمبادرة من «تجمع المهنيين السودانيين»، انشط طرف في الحراك. وأبرز القوى المتألفة «نداء السودان»، الذي يضم حزب الأمة والشباب المستقلين وحركات معارضة مسلحة، و«قوى الإجماع الوطني»، التي تضم أحزاب الشيوعي والبعث والناصريين، بالإضافة إلى تحالف لمنظمات المجتمع الأهلي.

في الجزائر ثمة ما يؤكد أنّ الجيش نفسه لا يتحمل منزلة جديدة مع شعبه بعد عقدين من الزمن على «العشرية السوداء». يضاف إلى ذلك المشاهد المؤثرة لتأخي بين أفراد الشرطة والمتظاهرين.

يقال إنّ لكل ثورة وكل حركة تغيير مرجعية، سلبية أو إيجابية، في الثورات أو الحركات التي سبقتها.

يلجأ الحراك السوداني إلى مرجعية الحركات الشعبية السلمية التي أسقطت عهدي الديكتاتورين إبراهيم عبود العام ١٩٦٤ جعفر النميري العام ١٩٨٥، وأسست لفسحات من الحكم المدني الديمقراطي.

من جهته، اعتمد الحراك الجزائري مرجعية الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي. منذ البداية، رفع المتظاهرون شعار «بطل واحد هو الشعب» العائد لتلك



الفترة، وقدّموا حراكهم على أنّه هادفٌ إلى تحرير الجزائر من بقايا الاستعمار الفرنسي، في إشارة واضحة إلى رعاية فرنسا للعسكر الحاكم، ثم أخذوا يستعيدون ذكرى شهداء الثورة يعاهدونهم على مواصلة الكفاح والتحلي بصبرهم والعناد.

آثار ٢٠١١ لم تكن غائبة. اضمحل في الجزائر خصوصاً، الابتزاز السلطوي بمصائر انتفاضات ذلك العام والقول الشائع «بدأ الربيع العربي في سورية بالورود وانتهى بالدماء». أبرز الدروس عدم الانجرار إلى شعارات ومطالب لا قبل للحراك بأن يحققها، والإصرار على الطابع السلمي والمدني للحراك. وإذا كان لا بدّ من ذكر الثورة فلتكن «ثورة الأبتسام» كما سمى الجزائريون حراكهم.

ولكن ماذا يعني التغيير في السودان والجزائر؟ بل ما هو التغيير الذي يتناسب مع حجم قوى الاحتجاج وتطلعاتها ونضارة لغتها وفتوة من تمثّل وجدة وابتكار وسائلها؟ المتداول أشبه بخريطة طريق: تنحّي الرئيس، تسلّم طرف حيادي الإشراف على مرحلة انتقالية، سنّ قانون انتخابي جديد، عقد جمعية تأسيسية والانتقال، عبر دستور جديد، نحو «جمهورية ثانية». وما الأولويات في التنفيذ؟ ومن عندما يصير وقت التنفيذ، سوف يمثّل الملايين الهادرة في الشوارع؟ أيّ طاقات جديدة سوف تبرز في خضمّ هذه المهرجانات التي تضجّ بالفرح والتصميم على الوحدة والتضامن والعناد والسيطرة على النفس في آن معاً؟ ولعلّ أبرز الاسئلة في القريب العاجل ستكون كيفية تأمين حياذ الطرف الذي سوف يشرف على المرحلة الانتقالية واستقلاليتها.

كيف يمكن إبعاد مؤسسات النظام الحالي، قوّاته المسلحة وأجهزته الأمنية وأحزابه، عن أن تكون «فيها الخنصام وهي الخنصم والحكم»، كما تسعى لأن تكون؟ وهل يمكن إبعاد كل هذه الاطمم القديمة من المشاركة في الحل وبلورة البديل؟

في نهاية الأمر، يتوقّف التغيير، من حيث نوعه ومداه، على ما سوف يسمح به توازن القوى بين قوّة الحراك وقوّة السلطات القائمة، ومن يقف وراءها. فهل سوف نشهد في هذا البلد وذاك انتقالاً سلمياً للسلطة يعبر عن الإرادة الحرّة للمواطنين، أي عن سيادة الشعب؟ البدايات في أولها. والأمل لا شفاء منه.







# أوليات

- ١٠ الجزائر تعود للبدايات  
رفض الراهن وفتح الحاضر أمام التغيير  
ملكة ربحال
- ١٢ الحراك الشعبي في السودان  
كي لا يعود حكم الإسلاميين  
طارق علي حامد
- ١٧ في سيرة «الثورة»  
بجاة إدريس إسماعيل
- ٢٢ كيف انتهى حلم مسيرات العودة في غزة؟  
أسماء الغول

## الجزائر تعود للبدايات رفض الراهن وفتح الحاضر أمام التغيير

ملكة رحّال

باحثة جزائرية في التاريخ، «معهد الزمن الحاضر»، «المركز الوطني للبحث العلمي»، فرنسا.

عرفت الجزائر منذ أسابيع مسيراتٍ غير مسبوقه في تاريخ البلد من أجل معارضة العهدة الخامسة للرئيس بوتفليقة. غطت التظاهرات الضخمة كلّ التراب الوطني حتى أصغر بقعة مأهولة فيه.

مؤلم أن أكون بعيدةً ووطني يمزّ بلحظاتٍ على هذا القدر من الأهميّة. لكنّ معاشة هذه الأحداث من خلال وسائل الاتصال المجتمعيّ والصحافة والمراسلات مع أصدقاء وأفلام الفيديو والصور المتداولة، بالنسبة إلى باحثة في التاريخ، تعني أن تشاهد ولادةً موارد سوف تسمح غداً بتدوين الحدث في التاريخ.

منذ ما قبل يوم ٢٢ شباط / فبراير ٢٠١٩ جرى تداول أفلام فيديو ورّعها المرشّح للرئاسة رشيد نكاز، أحد كبار هواة وسائل الاتصال المجتمعي، خلال حملة تجميع التّواقيع اللازمة لإعلان ترشيحه، يظهر فيها مئات الأشخاص، من مؤيدين أو فضوليين، في قسنطينة أو في ساحة الأمير عبد القادر بالجزائر العاصمة. ولا شكّ في أنّ هذه الصور لعبت دوراً في إطلاق مسيرات يوم الجمعة في ٢٢ شباط / فبراير التي جاءت تلبيةً لنداءات متواصلة للتظاهر يصعب تعيين هويّتها. وفي حين كانت تظاهرات ذلك اليوم ذكوريّة في الغالب، في بلد متعلّم حيث للنساء حضورٌ وازن في الجامعات، نجحت مسيرات الطلاب يوم ٢٤ شباط / فبراير في إخراج حشودٍ مختلطة، على الأقلّ في المدن الجامعيّة.

اختيار الشعارات، استعادة الشعارات القديمة وتحويرها، إهمال شعاراتٍ أحدث عهداً. كان لا يكفي إشهار المطالب بل كفيّة التموضع إزاء مروحةٍ واسعةٍ من الأحداث الماضية. لم نسمع كثيراً شعار «الشعب يريد إسقاط النظام»، وهو واحدٌ من الشعارات الرائدة لانتفاضات الربيع العربي، ومثله شعار «جزائر حرّة وديمقراطيّة»، وهو

شعارٌ نهاية الثمانينيّات من القرن الماضي وحقبة الانتقال السياسيّ التي أعقبت اضطرابات تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩٨٨ وأعمال القمع الذي تعرّضت له، هذا أيضاً نذر تداوله وإن لم يغب كلياً. مع ذلك يُسمع هذا الشعاران في الجزائر العاصمة أكثر من أيّ مكانٍ آخر. وسُمع منوع آخر للشعار الأخير، عندما تظاهر صحافيّو وسائل الإعلام الحكوميّة ضدّ غياب تغطية محطّاتهم للأحداث الجارية، فهتفوا في محطة الإذاعة الوطنيّة «إذاعة حرّة وديمقراطيّة». فيما بعد، تمحورت شعارات ٢٢ شباط / فبراير والأول من آذار / مارس مباشرةً ضدّ الرئيس بوتفليقة والعهدة الخامسة. تواترت في كلّ مكانٍ شعارات «الجمهورية ليست ملكيّة»، «هذا الشعب لا يريد بوتفليقة ولا أخاه سعيد» أو «هيه، بوتفليقة، لن تكون لك عهدة. أرسل فوج التدخّل البوليسي، أطلق مغاويرك علينا، لن تكون عهدة خامسة».

تعطي المسيرات الانطباع بجموع متماسكةٍ جدّاً: تعبّر عن سعادةٍ محسوسةٍ لأنّها تسيرٌ وأنّها تسير معاً، سعادة الإبداع، والشباب الذي ربّما يتفارق مع شعار «سلميّة، سلميّة» الحاضر أبداً. سيّان كنّ فتيات يافعات ذوات شعورٍ طويلة يعبرن شارعاً من شوارع العاصمة يوم ٢٤ شباط / فبراير، أو رجالاً يتظاهرون في مدينة ما من مدن الجنوب يوم الأول من آذار / مارس: الكلّ يكرّر اللازمة إياها «سلميّة، سلميّة» الأمر الذي يضيف فكرة «المدنيّة»، بل حتى التهذيب، على رفض العنف. ويا له من شعارٍ لافتٍ عندما يتعلّق الأمر بمسيرات مليونيّة! وسوف تلقاه يعكس في الممارسات المدهشة للمتطوعين الشباب الذين يلتفون النفايات في أعقاب مسيرة الأول من آذار / مارس، أو يكتسبون ساحة الأوّل من أيار في العاصمة، في ساعة متأخّرة من الليل.

لجُم الحماسة تضارعه سعادةً عامرة تغمر المشاركين معاً في المسيرة. كلُّ ما يُقال ويكتب محوَّره الحاضرُ أو الغد المباشر. كثيرون يفكِّرون بالتجارب الأخيرة في تونس ومصر، وأيضاً بالتجارب الجزائرية الأقدم عهداً، وخصوصاً قطع العملية الانتخابية في كانون الثاني / يناير ١٩٩٢. في ما يُقال وما لا يُقال، في الآمال التي يُراد لها أن تكون متحفظةً، محتتملةً، عاقلة، وفي إرادة تفادي الأخطار المعروفة معرفةً تامّة - تحضر تجربة تاريخيةً كاملة.

من بعيد، يُغري طرح السؤال عن مستقبل الحركة ومستقبل البلد. والميل عند الخبراء - في فرنسا خصوصاً - هو التعبير عن التشكك، وإطلاق التنبؤات الكارثية، كأنما ليقال لاحقاً: ألم نقل لكم ذلك؟

أما في شوارع الجزائر، فالرسالة مكتوبةً بالقلم العريض: شاغل المتظاهرين هو مجابهة مستقبل مباشر يرفضونه، وهم يحاولون فتح الحاضر من أجل تغيير وتيرة الزمن، دون أن يغرقوا في استعجال رومنتيقي. إنَّ التظاهر بالتعاطف يُقلق، وإن يكن صادقاً، وهو يتوقَّع للجزائر، من الخارج، مستقبلاً يرحب أنه قائم، يعلّق أبواب هذا الحاضر الذي يعمل المتظاهرون الجزائريون على فتحها. إنَّ تبني مثل هذا الموقف يعني اتِّخاذ موقفٍ ضدَّ هؤلاء.

بناءً على مجريات الأمور الحالية، كلُّ ما نقول ونكتب، بما فيه هذه السطور، قد يمرّ عليه الزمن في الساعات المقبلة. إنّه مجازفة صغيرة جداً بالنظر إلى هذا الزمن الذي ينفتح، منذ مسيرات برج بو اريج، وسيدي بلعباس، ووهران، ولغوات، أو الجزائر العاصمة، بأقلام وأصوات المتظاهرات والمتظاهرين.

كانت مسيرات ٢٢ و ٢٤ شباط قد فاجأت، لكن توقّعات يوم الجمعة في الثامن من آذار / مارس رجّحت موجات عاتية من البشر، وقد اختلط التوقُّع بالقلق. الهاشتاغ «#لا للعهد\_الخامسة» الذي سمح بمتابعة الحراك على تويتر، عبّر عن زمن الانتظار هذا. صباح الجمعة، نشر كثيرون صور شوارع فارغة تحت شمس الشتاء الرائعة، حيث سوف يتقرّر مصير كلِّ شيءٍ للتوّ. الفرح، الأمل، القلق (مع التضمرّعات كي لا يصيب البلد أيُّ سوء، وبعض الصلوات أيضاً) تتواتر مع الرهبة التي اتَّخذت شكل إحالاتٍ تاريخية: صور أبطال الثورة، والإشارات إلى أعياد الاستقلال في تموز / يوليو ١٩٦٢، تشاهدها في ذلك الفنّ المميّز الذي هو وسائل الاتصال المجتمعية، على شكل مناشير مصوّرة: صور تظاهرات اليوم، منشورة بالأسود والأبيض، لتأكيد التّواصل مع صور يعرفها الجميع عن الماضي التأسيسي للبلد. الجمعة بعد الظهر، باتت الإحالات التاريخية سافرة: هذا هو شعار العام ١٩٦٢ «بطل وحيد هو الشعب» مخطوطاً على يافطة عريضة في مقدّمة تظاهرة سيدي بلعباس. الرغبة في البدء من الصفر، أو استعادة البلد من اللصوص الذين أكلوه، تسمع عنها أو تقرأها هنا وهناك. إرادة الارتقاء بحدّث اليوم إلى مستوى الاحتفالات بولادة الدولة، تعني تكريس الحدث الراهن بما هو منعطفٌ تاريخي. واحدٌ يعلن على يافطته موت «جبهة التحرير الوطني»، لا يعلن موت الثورة، بل موت الحزب الأوحده الذي تولّد عن الاستقلال، كأنما تعبيراً عن الرغبة في العودة إلى تلك اللحظة. ومع ذلك، لم يردّ في التظاهرات أيُّ ذكر لـ«ثورة» جديدة، أو التطلع لحلمٍ مستقبليٍّ مُشرق. الالفُّ هو



## الحراك الشعبي في السودان كي لا يعود حكم الإسلاميين

طارق علي حامد

صحافي وعضو الحزب  
الشيوعي السوداني.

بـ«بيوت الأشباح» التي أسسها الإسلاميون السودانيون في بداية حكمهم، لتعذيب الوطنيين والديمقراطيين المعارضين لسياساتهم. وهي السياسات التي كرسّت الإفقار والتجويع والمرض عبر سياسة التحرير الاقتصادي، وخصخصة القطاع العام (مشروع الجزيرة، السكّة الحديد، النقل النهري) والمؤسسات المنتجة التي كانت تشكّل العمود الفقري للاقتصاد السوداني. وقد ارتهن الإسلاميون السودانيون لسياسات التكييف الهيكلي التي يفرضها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، فجزّوا حملات الفصل من الخدمة المدنية تحت مسمى «الصالح العام» و«إخلاء الوظيفة» وما تبع ذلك من سياسة التمكين والتعيين لشرائح تنتمي للحركة الإسلامية في كلّ مفاصل الدولة دون مراعاة للكفاءة، الأمر الذي قاد إلى الفساد وتدمير الخدمة المدنية.

وتطوّر الوضع الثوري في السودان إلى أشكالٍ مختلفةٍ ومتنوعةٍ من المقاومة لسياسات حزب «المؤتمر الوطني» الممثل لمصالح وتوجهات الرأسمالية الطفيلية. فكانت إضرابات الأطباء، والوقفات الاحتجاجية للمفصولين من الخدمة العامة، وإضرابات هيئة الموانئ البحرية في بورتسودان، ووقفات المتضررين من إقامة السدود في شمال السودان، وإضرابات عمال السكّة الحديد، والنقل النهري، فضلاً عن نضالات الحركة الطلابية. وقد وصلت قوى المعارضة السودانية، المدنية والمسلحة، إلى طرح شعار «إسقاط النظام» في منتصف عام ٢٠١٢ في أعقاب حركة الاحتجاجات الشعبية الواسعة ضدّ سياسة التقشف الاقتصادي. ثمّ تطوّر الوضع تطوّرًا نوعيًا في انتفاضة ٢٠١٣ التي قدّم فيها الشعب السوداني أكثر من ٢٠٠ شهيد حصدهم رصاص النظام.

منذ أكثر من شهرين، لا يزال الحراك الشعبي في السودان مستمرّاً دون توقّف، متّخذاً أشكالاً متنوّعة من الاحتجاج والرفض لنظام الرأسمالية الطفيلية ممثلاً في حزب المؤتمر الوطني، وحلفائه من الأحزاب البرجوازية البعيدة عن هموم ومشاكل الجماهير، (تظاهرات - رفع مذكّرات - وقفات احتجاجية - تسيير المواكب) في الوقت الذي يشتدّ فيه القمع والقتل والإخفاء القسريّ لعددٍ كبيرٍ من الثوار من قبل الثورة المضادة التي يمثّلها النظام القائم. في هذا المقال نحاول أن نحلّل ونقترب من تلك الأسباب والدوافع التي قادت إلى انفجار الثورة في السودان، وفي ذات الوقت نحاول أن نحلّل اتجاهات هذه الانتفاضة الشعبية والقوى الاجتماعية المضطّعة داخلها منذ بداية تفجّر الاحتجاجات في السودان وماقبل ذلك، لتعرّف علي مواقف بعض تلك القوى من الانتفاضة، وإلى أيّ درجة - تقترب أو تبتعد - مواقف بعض تلك القوى الاجتماعية المتصارعة داخل الانتفاضة من مواقع الثورة المضادة في السودان، وأخيراً نحاول أن نقرب من الآفاق التي يمكن أن تنتهي إليها انتفاضة الشعب السوداني على المستويين البعيد والقريب.

### مقاومة لم تتوقّف لحكم الإسلاميين

ظلت جذوة المقاومة السودانية لحكم الفاشية الدينية في السودان متقدّمةً منذ الأيام الأولى لانقلاب الجبهة القومية الإسلامية في الثلاثين من حزيران / يونيو عام ١٩٨٩، حيث جاء إضراب نقابة الأطباء السودانيين الشهير رافضاً لسياسات هذا النظام وتوجهاته المرتبطة بالرأسمالية ومعاداته للفئات والطبقات الشعبية، وقدّم الأطباء أوّل الشهداء، الشيوعي الدكتور علي فضل أحد قادة إضراب الأطباء الذي مات من التعذيب فيما يعرف

وبفعل تراكماتٍ كميّةٍ في أشكالِ المواجهة مع النظام، جاءت انتفاضة كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٣ توتيجاً لحركة المقاومة السودانية المستمرة منذ عام ١٩٨٩، وكموجةٍ ثوريةٍ جديدةٍ تغوص جذورها بعيداً في الإرث النضالي العميق للشعب السوداني. فكانت انتفاضة ديسمبر أكثر تنظيمياً عبر ظهور «تجمع المهنيين السودانيين» - والذي سوف نفصل في نشأته في مكان آخر. إنّ الوضع الاقتصادي السيئ، والشعور بالظلم الاجتماعي والتهميش وانخفاض مستوى الدخل، وانهيار العملة الوطنية أمام الدولار والعملات الأجنبية، من الأسباب الرئيسية لتفجر الأوضاع. إلا أنّ الإحساس بوطأة الظلم من غالبية الشعب السوداني لم يكن هو المحفز الأوحده للانتفاضة، ثمّة عوامل أخرى موضوعية لعبت دورها، من ضمنها الأزمة العميقة للنظام وعدم قدرته على الاستمرار في السلطة.

### ليست انتفاضة شباب فقط

منذ انتقال الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في السودان إلى وضع ثوري في الثامن عشر من كانون الأول / ديسمبر من العام الماضي، جرت عدة محاولات لإجهاض الانتفاضة الشعبية، والانتكاس بالوضع إلى ما قبل ديسمبر. ومن ضمن هذه المحاولات انعقاد ما يسمى «ملتقى تحديات الانتقال السلمي للسلطة في السودان» الذي انعقد في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» بالعاصمة القطرية الدوحة، في يومي ١٦ و١٧ من شهر شباط / فبراير ٢٠١٩، وشارك فيه عدد من المثقفين والسياسيين السودانيين، حيث

---

**تعريف الانتفاضة وكأنها انتفاضة للشباب فقط**  
**تعريف غير علمي وغير دقيق وفيه الكثير من التعميم. هي انتفاضة الشعب السوداني بكل منظماته المدنية والديمقراطية وأحزابه ونقاباته ونسائه وطلابه.**

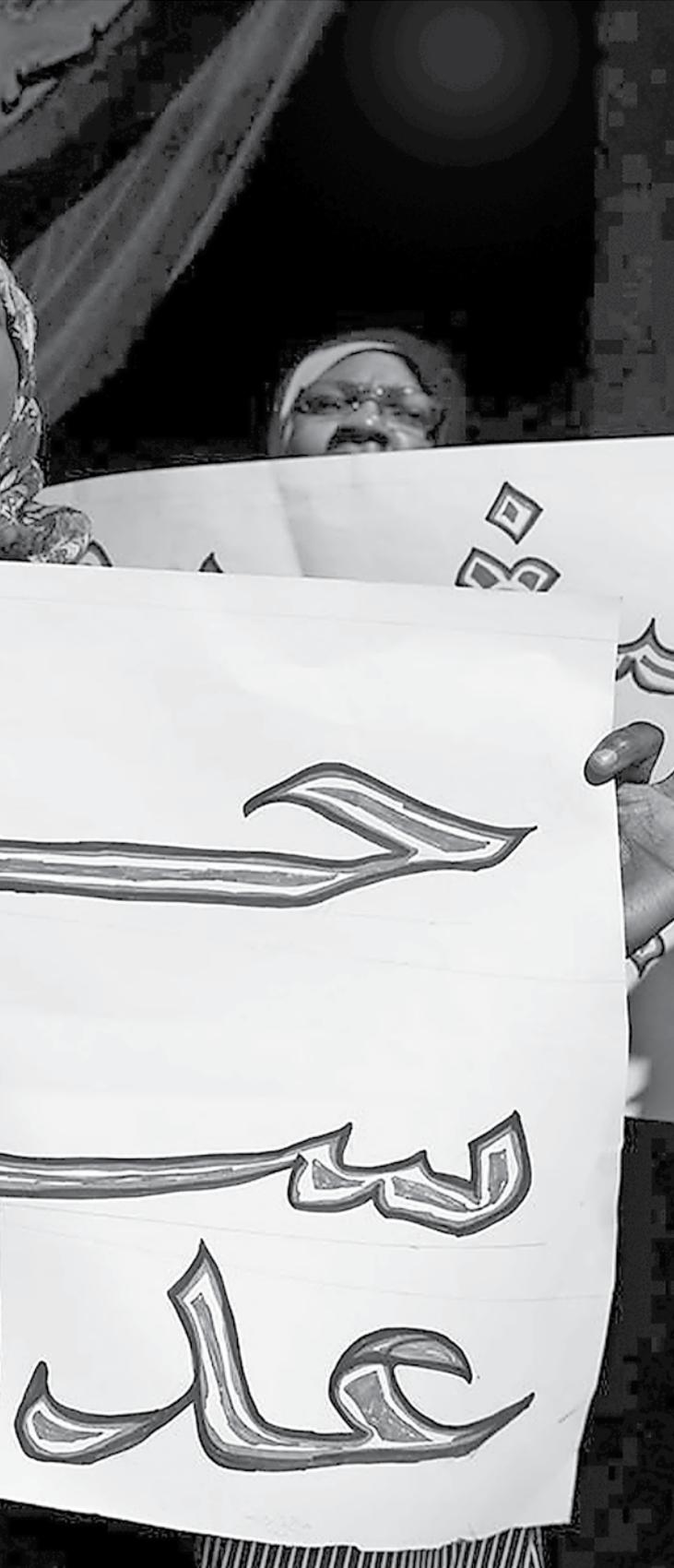
---

مدنيّ ونساء وطلاب وعمّال ومزارعين وغيرها من قوى الانتفاضة. فتعريف الانتفاضة وكأنّها انتفاضة للشباب فقط تعريف غير علمي وغير دقيق وفيه الكثير من التعميم. بدايةً، الشباب ليسوا كتلة واحدة. فهناك شباب حزب «المؤتمر الوطني» الذين يعملون جنباً إلى جنب مع قوى الثورة المضادة في قمع الاحتجاجات الشعبية. وهناك أيضاً قسم كبير من الشباب ما زال واقفاً على الرصيف ويتفرّج على الوضع من بعيد دون الانخراط في الحراك الثوري. ولذلك يجب الانتباه لمثل هذه التعريفات الفضفاضة وكشف زيفها ومراميها. فالانتفاضة في السودان هي انتفاضة الشعب السوداني بكل منظماته المدنية والديمقراطية وأحزابه ونقاباته ونسائه وطلابه، فشعار «تسقط بس» على سبيل المثال أصبح شعاراً يردده حتى الأطفال الصغار في البيوت.

إلى هذا، لا يرى المشاركون في ملتقى الدوحة أي حلّ سياسي للواقع المأزوم في السودان دون أن يكون الرئيس السوداني وحزبه وحلفاؤه من أحزاب الحوار الوطني جزءاً من ذلك الحلّ، فقد جاء في ورقة الدكتور الراحل كيمر القيادي السابق في الحركة الشعبية لتحرير السودان المقدّمة إلى المؤتمر والمعونة «انتفاضة الشباب وتحديات الانتقال والتحوّل الديمقراطي - أسئلة تبحث عن إجابات» والتي نشرتها صحيفة «أخبار اليوم» السودانية يوم ٢٠ شباط / فبراير ٢٠١٩: «وفي الصّفّة الأخرى هناك القوى السياسيّة المنضوية تحت لافتة الحوار الوطني، والمشاركة منها في حكومة الوفاق، أو تلك التي سحبت ممثليها من الأجهزة التنفيذية والتشريعية أخيراً، والتي قد لا ترى بأساً في القبول بإعلان الرئيس تخليه عن الترشح مجدداً في انتخابات ٢٠٢٠ حتى ولو تمّ تأجيلها لمدة عامٍ آخر، فهل نتجاوز هذا الخيار برمته؟».

ويقول في مكان آخر: «وبغضّ الطرف تماماً عن قوى الحوار الوطني، حقاً هناك عددٌ مقدّر من الأحزاب التي تصطبّق وتحالف مع المؤتمر الوطني، ومن بينها الحزب الاتحادي الديمقراطي بزعامة محمّد عثمان الميرغني، والمؤتمر الشعبي، إضافةً إلى حركاتٍ مسلحةٍ موقّعة على اتّفاقيات سلام مع الحكومة ومتضمّنة في الدستور، اتفاقيّة شرق السودان واتفاقيّة الدوحة، ومع فصائل من الحركة الشعبية في جنوب كردفان والنيل الأزرق، أم أنّ الأمر لا يزال مثيراً للجدل، ونحتاج إلى التوقف عنده وأن نترك باب الحوار مفتوحاً حوله؟»، ويواصل دكتور

تلخّصت الأوراق البحثية التي قدّمت له والمخرجات في التشكيك في شعارات الانتفاضة، فضلاً عن الفصل الميكانيكي الحاد بين قوى الانتفاضة، وتوصيفها وكأنّها فقط «انتفاضة للشباب» لم تشارك فيها كلّ فئات المجتمع السوداني الأخرى من أحزاب ومنظمات مجتمع



الواثق: «من المهم أن نقرأ بعمق طبيعة القوى المشاركة في انتفاضة ديسمبر والهادفة إلى إسقاط النظام في مقابل الحزب الحاكم وحلفائه، والتبصّر بتحديات انتقال السلطة التي تواجه هذه القوى، والعقبات التي تقف في طريق تحقيق التحوّل الديمقراطي والتغيير المنشود وذلك في سياق المشهد السياسي العام».

عليه فإنّ بعض القوى مازالت تجتهد في إيجاد طريق أمن لخروج نظام البشير بأقلّ الخسائر، وهذه القوى بالتأكيد عاجزة تماماً عن قراءة حركة الشارع السوداني الذي يغلي بالاحتجاجات الشعبية المطالبة برحيل النظام، وقدّم في سبيل ذلك أكثر من ٦٠ شهيداً منذ بداية الاحتجاجات الأخيرة في مدينة الدمازين بالنيل الأزرق، ثمّ انتقال الاحتجاجات إلى مدينة عطبرة ذات الكثافة العمّالية في شمال السودان، وهذه القوى عاجزة أيضاً عن قراءة طبيعة الصراع الطبقي المحتدم بين جماهير مسحوقة سحقها الجوع والمرض وارتفاع تكلفة الدواء، وقوى اجتماعية أخرى تسيطر على كافة موارد الدولة.

فالمطلوب في هذه المرحلة من عمر الانتفاضة عدم الالتفات لأيّ مبادرة من المبادرات التي أصبحنا نقرأ عنها كثيراً في الصحف، وتهدف لإطالة عمر النظام، وضمان فرص له للمشاركة في الحكم فيما بعد عملية التغيير الآتية، وحماية رموزه والإفلات من المحاكمات على ما اقترفوه من جرائم لا تحصى في حقّ الشعب السوداني، وذلك عبر تسوياتٍ سياسية مكشوفة المرامي. للحيلولة دون ذلك، على جماهير الانتفاضة التواجد اليوميّ في الميادين العامّة والشوارع حتى سقوط النظام وتصفية آثاره المتراكمة لسنواتٍ طويلة وبناء البديل الوطني الديمقراطي الذي توافقت عليه القوى السياسية المعارضة في كلّ من وثيقة البديل الديمقراطي، وميثاق الخلاص الوطني، وأخيراً ميثاق الحرّيّة والتغيير الذي وقّعت عليه كلّ قوى المعارضة السودانية ممثّلة في قوى الإجماع الوطني، وقوى نداء السودان، وتجمّع المهنيين السودانيين، والذي ينصّ البند الأوّل منه على رحيل النظام وتنحّي رأس النظام عن السلطة.

#### دورٌ رائد لتجمّع المهنيين

أيّ حراك شعبيّ هو بالضرورة قادرٌ على إفراز قيادته من خضمّ المعارك الجماهيرية التي تخوضها جماهير هذا الحراك أو ذاك، وعمل مستوى التجربة السودانية،



والمظاهرات الليلية التي انتظمت في مدن السودان المختلفة، تصدر عبر تجمع المهنيين السودانيين. كذلك ظلّ تجمع المهنيين السودانيين منذ تأسيسه يتمتع باحترام وترحيب معظم القوى السياسيّة المعارضة.

### لا عودة لحكم الإسلاميين

في يوم ٢٢ من شهر شباط / فبراير من هذا العام، أقدم رئيس الجمهورية على إعلان حالة الطوارئ، وحلّ الحكومة المركزيّة وحكومات الولايات، وإرجاء النظر في التعديلات الدستوريّة، وتعيين ولاية للولايات من العسكريين. لكنّ للأسف الشديد، وقّع النظام في ذات الأخطاء التي وقّع فيها أنظمة دكتاتوريّة سابقة - قبل سقوطها - فبدلاً من النظر في الأسباب الحقيقيّة التي من أجلها تظاهر المواطنون وتقديم الحلول المناسبة لها، شرع النظام في تحصين نفسه بترسانة من القوانين والإجراءات الأمنيّة عبر فرض حالة الطوارئ، الأمر الذي قاد إلى إطلاق يد النظام في حملة اعتقالات واسعة لقيادات المعارضة وللناشطين على مواقع التواصل الاجتماعي فضلاً عن قطع خدمة الإنترنت، بالإضافة إلى التضييق على الحريّات الصحافيّة واعتقال الصحفيين وعودة الرقابة القبليّة على الصحف من قبل جهاز الأمن والمخابرات، بل وحتى حرمان عددٍ من كتّاب الرأي في الصحافة السودانيّة من الكتابة الصحافيّة المنتظمة في الصحف ومنع صحيفتيّ «الجريدة» و«الميدان» من الصدور لأكثر من شهر.

لا شكّ أنّ انتفاضة ديسمبر سوف تفتح آفاقاً متعدّدةً وواسعة بحجم هذا الحراك ضدّ نظام الرأسماليّة الطفيليّة الحاكم في السودان، منها بابٌ للمشاركة الحقيقيّة للنساء ومساهمتهنّ في التنمية والقرار السياسيّ، حيث شاركت المرأة بنسبة عالية في الاحتجاجات والتظاهرات، بل وكانت هناك مواكب نسائيّة خالصة. بالإضافة إلى هذا سوف تضع الانتفاضة حدّاً لتجربة الإسلام السياسيّ في الحكم التي أثبتت فشلها تماماً عبر ٣٠ عاماً من التسلط والفساد وانتشار الحروب والنزوح وانفصال جنوب البلاد وغيرها من الكوارث التي خلفها حكم الإسلاميين. بعد تجربة البشر لن يسمح الشعب السودانيّ لأيّ حكم دينيّ بالحكم. الآفاق مفتوحة وفي مقبل الأيام مع توسّع حركة الاحتجاجات الشعبيّة وتطوّرها إلى ثورة مكتملة الأركان تعمل على هدّ وتحطيم النظام القديم بالكامل وبناء نظامٍ وطنيّ ديمقراطيّ على أنقاضه.

أفرزت ثورة أكتوبر في عام ١٩٦٤ «جبهة الهيئات» التي نظّمت وقادت الشوارع والوصول به إلى العصيان المدنيّ والإضراب السياسيّ الذي أدى في نهاية الأمر إلى سقوط دكتاتوريّة إبراهيم عبود (١٩٥٨ - ١٩٦٤)، والأمر كذلك أيضاً في انتفاضة الشعب السودانيّ في آذار / مارس ١٩٨٥ حيث أنتج الشارع قيادته التي تمثّلت في «التجمع النقابي». والآن والشعب السودانيّ يقود انتفاضه الثالثة ضدّ فاشيّة الجبهة القوميّة الإسلاميّة، فقد تبلور وبرز «تجمع المهنيين السودانيين» الذي أصبح هو القائد الفعليّ للحركة الجماهيريّة.

ظهر هذا التجمع المهنيّ أوّل مرّة على المسرح السياسيّ في عام ٢٠١٤ خلال فترة مشحونة بالاضرابات والتظاهرات والوقفات الاحتجاجيّة في أعقاب انتفاضة أيلول / سبتمبر ٢٠١٣. وفي تموز / يوليو من العام الماضي أعلن عن برنامج واضح المعالم يهدف إلى توحيد وبناء النقابات المستقلة بين أصحاب المهن الأخرى التي لم تظهر بينها اللجان النقابيّة الشرعيّة بعد، ووقّع على ميثاق التجمع وقتذاك كلّ من: لجنة المعلمين، لجنة أطباء السودان المركزيّة، رابطة الأطباء البيطريين الديمقراطيّين، التحالف الديمقراطيّ للمحامين، تجمع أساتذة الجامعات، نقابة أطباء السودان الشرعيّة، لجنة مبادرة استعادة نقابة المهندسين. بدأ التجمع منذ تأسيسه في دعم نضالات هذه الفئات، وسعى في ذات الوقت إلى توسيع قاعدته عبر المساعدة في إنشاء النقابات المستقلة كان آخرها تأسيس نقابة للصيادلة، وإيجاد مساحة عامّة لتوحيد كلّ الحراك المهنيّ والعملّي. وقد توجّ التجمع هذه المساعي عندما باشر التحرك في مسألة الحدّ الأدنى للأجور مطالباً برفعه من ٤٥٠ جنيهاً إلى ٨٠٠٠ جنيه. هذا وقد فتح التجمع خلال الشهور التي سبقت الحراك الجماهيريّ حواراً مستفيضاً مع البرلمان السودانيّ والقوى السياسيّة لتوحيد الصفّ حول الحدّ الأدنى للأجور. ونقّدت فصائل تجمع المهنيين ووقفات احتجاجيّة عديدة أمام مقرّ الاتحاد العامّ لنقابات عمّال السودان المعروف بانحيازه لـ«حزب المؤتمر الوطني» الحاكم، للضغط على الاتحاد لتبنيّ رفع الحدّ الأدنى للأجور. ومنذ تفجّر حركة الاحتجاجات الشعبيّة في السودان كان لتجمع المهنيين السودانيين الدور الرياديّ في قيادة حركة الاحتجاجات في الشوارع وتنظيمها والاستمرار بها لأكثر من شهرين، حيث كانت كلّ الدعوات إلى المواكب والوقفات الاحتجاجيّة

## في سيرة «الثورة»

نجاة  
إدريس إسماعيل

قاصّة وصحافيّة،  
السودان.

الوطنية، وبدلاً من أن تنخفض أسعار الدولار بعد أن حدّدت الآلية سعراً يفوق بكثير ما كان عليه سعر السوق الموازي، ارتفع سعر الدولار إلى أسعار فلكية وانعكس هذا الأمر على التضخم والذي وصل بدوره إلى حدود ٧٠٪. كما انعكس الأمر على سوق الدواء الذي شهد ندرة في عدد كبير من الأدوية الحيوية والأدوية المنقذة للحياة بينما ارتفعت أسعار الأدوية الأخرى ووصلت إلى أرقام فلكية. بالإضافة إلى كلّ هذا، فقد أحدثت الندرة في الأوراق المالية والصفوف الطويلة المترابطة المطالبة بالخبز والأموال والوقود إلى إخراج الشارع السوداني «عن طوره» وجعلته يثور بالرغم من أنّ كثيرين منهم كانوا يتخوّفون من «فعل الثورة» باعتبار أنّ هنالك بلداناً «بالجوار» تحوّلت إلى «ساحات اقتتال» على الرغم من أنّ أوضاعهم المعيشية كانت في صورة أفضل بكثير من أحوال السودانيين الآن.

شباب ونساء و«مندسّون» منذ اليومين الأولين للتظاهرات، أعلنت الجهات الرسمية عن تخريب طاول العديد من المؤسسات الحكومية ودور «المؤتمر الوطني» - الذي يمثّل واجهه للنظام - ولم تسلم من الحرق حتى «دواوين الزكاة» التي تعرضت للنهب. بالمقابل، وجدت السلطات مسوّغاً لإطلاق النار وقتل المتظاهرين بحجة حماية الممتلكات وردع المتفلّتين، ممّا أوقع قتلى وجرحى كثيرين. واعترفت السلطات بسقوط ١٩ قتيلاً - بينهم نظاميان، فيما رصدت منظمات حقوقية الرقم على أنّه بلغ الأربعين. وقد سجلت السلطات الرسمية ٢٠٣ حالات بلاغ إتلاف، وأظهر ناشطون فيديو مصوراً عن حرق دار المؤتمر الوطني بمدينة عطبرة فيما تابعت الأخبار تنبئ عن حرائق بمدن أخرى، وأضاف آخرون بأنّ

بالتزامن مع تاريخ إعلان الاستقلال من داخل البرلمان السوداني في التاسع عشر من كانون الأول / ديسمبر الماضي انطلقت شرارة التظاهرات من مدينة «الحديد والنار» عطبرة في ولاية «نهر النيل» شمالي البلاد وفي مدينة «الثغر» بورتسودان بولاية البحر الأحمر شرقي البلاد، إثر الزيادات المتلاحقة في أسعار الخبز والتي وصلت إلى خمسة جنيهات للقطعة الواحدة من الخبز في هاتين الولايتين، بالإضافة إلى أزمة حادة في «السيولة النقدية» وأزمة في الوقود. وبحسب والي ولاية نهر النيل الحفوي حاتم الوسيلة فإنّ التظاهرات بدأت في ولايته بصورة عفوية لكن سرعان ما ارتفعت وتيرتها، ثمّ أعقب ذلك حرق لدور المؤتمر الوطني - الحزب الحاكم - بمدينة عطبرة وحرق لمكتب المجلس التشريعي - مقرّ الحكومة - بولاية نهر النيل. ثمّ سرعان ما امتدّت التظاهرات إلى كلّ من الولاية الشمالية وولاية القضارف وولاية شمال كردفان وشملت نحو تسع ولايات. ومن ثمّ جاء حراك العاصمة الخرطوم في تظاهرات عفوية متفرقة في عدّة أحياء ثمّ أعلن عن الحراك المنظم من «تجمع المهنيين السودانيين» في الخامس والعشرين من كانون الأول / ديسمبر والذي ارتفعت فيه مطالب المحتجين لتصبح المطالبة بتنحي الرئيس ومنظومته عن الحكم هي مطلبهم الأساسي.

سبق انطلاق التظاهرات في الولايات والعاصمة أن شهدت البلاد أزمات في الخبز والوقود والمواصلات والسيولة النقدية بالإضافة إلى تدني أسعار العملة الوطنية مقابل العملات الأجنبية، وكانت الحكومة السودانية قد اتخذت تدابير لمعالجة الارتفاع الجنوني للدولار وذلك عن طريق «آلية صنّاع السوق» وهي آلية حكومية متخصصة تعمل على السيطرة على سعر الدولار مقابل العملات

الخطاب المعارض - جاءت لتغيّره الآن فقد خرجت عده شبابات شوهدن في يوم الثلاثاء ٢٥ من كانون الأول / ديسمبر في «تجمع المهنيين السودانيين» وهن بجانب رفاقهنّ من الرجال، يطلقن هتاف «سلمية»، وقد شوهدت إحدى الفتيات في وسائل التواصل الاجتماعي وهي تحاول أن تعتلي ظهر زميلها الرجل لكي تصل إلى إحدى البنائيات العالية وتبين أنّ الفتاة طيبة تريد أن تصل للمتظاهرين الذين أصيبوا في أعلى البناية. وفي أنباء أخرى نظمت النساء تظاهرة خاصة بهنّ في أحد أحياء الخرطوم - «امتداد الدرجة الثالثة». إضافةً إلى أنّ الاعتقالات شملت عدداً من الناشطات - من المهنيات - أثناء التظاهرات أو الإضرابات.

## تدابير حكومية

منذ اليوم الثاني للتظاهرات التي غطت اثنتي عشرة ولاية من ولايات السودان الـ١٨، عمدت الحكومة إلى تدابير وصفها مراقبون بأنها «أمنية» ومنها إغلاق المدارس والجامعات وحتى رياض الأطفال، بالإضافة إلى نشر أعداد كبيرة من الجيش بكامل عتاده الحربي في الطرقات إلى جانب كل من الشرطة والأمن والدعم السريع، كما أغلقت الجهات الرسمية كلاً من تطبيق «الواتساب» و«الفيسبوك» عن المستخدمين. بالمقابل أعلن الرئيس عمر البشير في لقائه مع «اتحاد العمال السودانيين» - الذي يؤيد الحكومة - عن منح الدولة مبلغ ٥٠٠ جنية كحدّ أدنى للعمال والمعاشيين (المحالين على المعاش) بينما ترتفع القيمة المالية الممنوحة على حسب الدرجة الوظيفية حتى تصل إلى ٢٥٠٠ جنية للدرجات القيادية بالخدمة المدنية وذلك للتغلب على غلاء المعيشة. فيما أعلن رئيس الوزراء معتز موسى عن قرب انتهاء أزمة السيولة النقدية بعد إصدار فئة المائة جنية في نهاية شهر كانون الثاني/ يناير الماضي، كما أطلق اتحاد أصحاب العمل مبادرة «إيداع» الرامية إلى إعادة الثقة في القطاع المصرفي بعدما عجز المواطنون عن إيداع أموالهم فيها إثر تكسّس آلاف المواطنين أمام المصارف والصرفّات الآلية للحصول على أموالهم.

## مواقف الأحزاب

بعد تعدد التحركات الشعبية العفوية بالإضافة إلى «تجمع المهنيين السودانيين» وتمدد راياته، أعلنت مجموعة من الأحزاب عن نيّتها الحضور والمشاركة وتبني الحراك

هناك من ترك مراكز المؤتمر الوطني يعجّ في ناره بينما مورست عمليات إطفاء على مؤسسات أخرى. وفقاً للناطق الرسمي للحكومة، على لسان وزير الإعلام بشارة جمعة أرو، فإنّ التظاهرات السلمية انحرفت عن مسارها وتحوّلت بفعل «المندسين» إلى نشاط تخريبي استهدف المؤسسات والممتلكات العامة والخاصة بالحرق والتدمير وحرق بعض مقار الشرطة. واتهم بعض الجهات السياسية بمحاولة استغلال الأوضاع لزعزعة الأمن والاستقرار تحقيقاً لأجندتهم السياسية.

**معظم المنقّلين على الحكومة كانوا من الشباب الذين لم يروا في حياتهم يوماً حكومة ديمقراطية كما لم يعيشوا تعليماً مجانيّاً أو صحة مجانية. بل دفع أبائهم ثمن كل هذه الخدمات من حرّ فقرهم فخرجوا غير مبالين بالرصاص الحيّ يعوي في آذانهم وكانت غالبية الشهداء من صفوفهم.**

على الرّغم من أنّ الحكومة السودانية، التي انقلبت على الحكم الديمقراطي منذ ثلاثين عاماً وفرضت سيطرتها على الشعب بالدبابة وعمدت إلى تغيير المنهج التعليمي القديم بمنهج آخر أضعف من سابقه، وإلى تغيير السلم التعليمي باختصار مرحلة دراسية بأكملها هي المرحلة المتوسطة، والتضييق على الحريّات إلا أنّ معظم المنقّلين على الحكومة - من المتظاهرين - كانوا من الشباب الذين لم يروا في حياتهم يوماً حكومة ديمقراطية كما لم يعيشوا تعليماً مجانيّاً أو صحة مجانية بل دفع أبائهم ثمن كل هذه الخدمات من حرّ فقرهم فخرجوا غير مبالين بالرصاص الحيّ يعوي في آذانهم وكانت غالبية الشهداء من صفوفهم.

على الرّغم من أنّ كثيراً من المراقبين والمحلّلين السياسيين رأوا أنّ حكومة «الإنقاذ» لم تستمرّ لمدة ثلاثين عاماً إلا بمنصرة النساء فكل الانتخابات التي أعدتها الحكومات على مرّ تاريخها كان أكثر المنخرطين فيها من فئة النساء مناصرة لنظام «الإنقاذ» بينما قاطع الرجال الانتخابات، الأمر الذي جعل الفرصة تأتي على طبق من ذهب لحزب المؤتمر الوطني إذ وجد الساحة دون منافسة تُذكر من الأحزاب التي قاطعت الانتخابات فيما وجد نصيرته «المرأة» تفوده من فوزٍ لآخر. وما فعلته المرأة في ذلك الزمان وجنت نتائجها فقراً ومرضاً وبطالة - حسب



جاين تفاهاتهم  
سجنونا باسم الدين

حقوقنا باسم الدين  
قتلونا باسم الدين

والدين بريء، يمّة  
الدين بقول الزول

إن خلى حقو يموت  
بيخاوي في شيطان

الدين بيقول تمرق  
مرق تقف في الضد وتواجه الحكام!

ظهرت هاشتاغات كثيرة مع بروز الاحتجاجات السلمية، لعل أبرزها هاشتاغ «#مدن\_السودان\_تنتفض» و«#تسقط\_بس» والذي نشره مناصرو الثورة. ردّ علي الهاشتاغين آخران مضادّان من مناصري الحكومة، وبدلاً عن «#مدن\_السودان\_تنتفض» ظهر «#مدن\_السودان\_أمان»، وبدلاً عن «#تسقط\_بس» ظهر «#تقعد\_بس»، وما بين هؤلاء وأولئك ضجّت وسائط الاتّصال الاجتماعي بالمدافعين والمعارضين اللذين امتدّت بينهما الحروب الإلكترونية.

**حديث شباب: التغيير في صندوق الاقتراع**  
الإعلامي ناجي الكروشابي - القيادي بمنبر «السلام العادل»، الحزب الذي يمثّل أحد تيارات الحركة الإسلامية - قال في حديثه لـ «بدايات» إنّ الذي حدث في الساحة السودانية نتاج لأزمة اقتصادية طاحنة اعترفت بها الحكومة نفسها في أقصى هرم للدولة وهو الرئيس. على الطرف المقابل يرى معظم السودانيين أنّ الضائقة المعيشية سبب كافٍ لزوال النظام وأنّ معظم السودانيين يعتقدون بأنّ الحكومة الحالية فشلت فشلاً ذريعاً في إدارة الشأن السوداني. ويرى الكروشابي أنّ الرئيس نفسه يمثّل أحد أذرع الأزمة باعتبار أنّه غير مقبول خارجياً وغير مرصّي عن تصريحاته ومطلوب من المحكمة الجنائية الدولية. وأضاف كروشابي أنّ «المؤتمر الوطني» إذا غير الرئيس وأتى بأيّ شخصٍ آخر مقبول خارجياً فإنّ بإمكانه أن يحلّ مشكلة السودان وربما استطاع أن يوهّم الشعب السوداني بأنّه أحدث تغييراً وجنّب بلادنا كثيراً من الاحتقان السياسي.

الشعبي، ومن هذه القوى المعارضة السودانية قوى «الإجماع الوطني» وقوى «نداء السودان» بينما أعلنت قوى حزبية سبق أن شاركت في الحكومة عن انسحابها من الحكومة، ومن هذه القوى «الجبهة الوطنية للتغيير» - التي تضمّ ٢٢ حزباً - وعلى رأسها حزب «الإصلاح الآن» بقيادة د. غازي صلاح الدين العتباتي، وحزب «الأمة» بقيادة مبارك الفاضل المهدي، و«الاتحادي الديمقراطي» بقيادة إشراقة سيّد محمود و«تيار الأمة» و«تيار المستقبل». وطالبت «الجبهة الوطنية للتغيير» بحلّ الحكومة والبرلمان والمجالس التشريعية وتشكيل حكومة انتقالية من كفاءات ذات تمثيلٍ سياسيّ دون محاصصة، وكان «المؤتمر الوطني» قد قلّل من أوزان الأحزاب المنسحبة وصرّح رئيس قطاع الإعلام د. إبراهيم الصديق بأنّ انسحاب هذه الأحزاب مخالفٌ للممارسة السياسية واعتبره خروجاً عن الإجماع الوطني، مضيفاً بأنّ بعض رموز المجموعة المنسحبة يجيد «المغامرة السياسية»، ممّا يشير إلى افتقادها «المبدئية» في العمل السياسي. وقد عرّض الرئيس عمر البشير في خطاب له بتلك القوى واصفاً إيّاهما بالانتهازية السياسية!

## الأهازيج

مقطوعاتٌ كثيرة انطلقت من حناجر المتظاهرين لم يهتموا بناظميها - ربما لحمايتهم من الاعتقال - بقدر ما اهتموا بحفظها وترديدها ونشرها في الوسائط الاجتماعية لاسيّما تطبيقي «الفيسبوك» و«الواتساب» ومنها هذه القصيدة:

«الطلقة ما بتقتل  
بتقتل سكات الزول [الرجل]

يا والدة اعفيلي  
وعدي القطعتو معاك

أن الكلام ممنوع  
في شلة الحكام

يا والدة، دمي بيفور  
لما البلد تغلي

لما العساكر ديل  
الشوهو الإسلام

ويستطرد كروشابي بأنّ «فعل الثورة» يجب أن يكون جزءاً من كيميائه كشابّ ثلاثيني: يجب أن يثور على الطغيان وعلى كبت الحريّات. لكنّه يرى أنّ الثورة لا تلبّي تطلّعات الجماهير: «الثورة لا تبني مستشفى ولا تعبّد طريقاً، بل تصل الثورة إلى نقطة معيّنة ليأتي آخرون ويثوروا ضدها ثم يأتي أناس آخرون ليبدأوا من الصفر». وهو يؤكّد أنّ هذا هو عين ما حدث فعلاً في ثورتي «أكتوبر» و«أبريل». ويقترح البحث عن أدوات الثورة الحقيقيّة، مؤكّداً أنّ فعل الثورة ليس بتغيير. التغيير الحقيقي يحدث عبر «صناديق الاقتراع»، مؤكّداً أنّ أزمة الأحزاب ليست بأزمة فكريّة إنّما أزمة حضور ناشط في «الشارع». ويضيف: «المؤتمر الوطني» هو الذي أفقد الأحزاب السودانية هيبتها وفّت عضد الجماهير تجاه الأحزاب السودانية، وقد فعل ذلك حتى يبقى في الحكم. وأوضح أن «التظاهر محفوف بمخاطر كثيرة أشدها «القناصة» وأخفها إطلاق الغاز المسيل للدموع على الجماهير»، وختم بأنّ التظاهر يُسقط

**إنه نظام يترنح الآن. فاقدا توازنه. فقد صرح إعلامه اليوم بأنه مستعد للحوار مع الثوار الذين وصفهم في وقت سابق بأنهم مخربون ينتمون لمجموعات تلقّت تدريبا في دولة إسرائيل ويتبعون لحركة عبد الواحد نور المعارضة للنظام.**

نظاماً بقدر ما يزيد من أيام عمره. وإنّ ما يسقط النظام هو أن تجتهد الأحزاب وتجهّز لانتخابات ٢٠٢٠ منذ الآن حتى يحدث التغيير السلس. صحيح أنّ الأحزاب السودانية تتخوّف من تزوير الانتخابات، لكنّ هناك تجارب لمستقلين دخلوا الانتخابات وفازوا في دوائر تحسب للحزب الحاكم. فلذلك على الأحزاب أن تستفيد من مثل هذه التجارب وتجهّز لها بنفس الكيفيّة التي استخدمها هؤلاء المستقلون.

**حديث شباب: ثورة لا مجرد احتجاج**

أمّا الأديب الهادي راضي - وهو مؤيد للثورة - فقال في حديثه لـ«بدايات» إذا أسقطنا «الثورة» كمفهوم على الحراك الجماهيريّ الذي يحدث في السودان في الوقت الراهن فإنّه يطابق أحد تعريفات الثورة بأنّها «تحرك شعبيّ واسع يهدف إلى تغيير شرعيّة سياسيّة حاكمة لا يعترف بها، واستبدالها بشرعيّة جديدة». ويضيف: «وبناءً على ذلك

فإنّ ما يحدث في السودان هو ثورة بمعناها الحرفي وليست احتجاجات كما يروّج الثائرون عليهم. فإنّ ما حدث بمدينة عطبرة في ١٩ كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠١٨ هو إيذان بانطلاق ثورة». وأضاف: «ثمّة سطر جديد سيكتب في تاريخ هذه البلاد العظيمة. فمن تلك المدينة الباسلة انطلق المدّ الثوريّ ليشمل مدناً أخرى، وسوف يستمرّ حتى لحظة التغيير المنشودة، وسيحقّق مكاسبه المستقبلية بعدما حقّق مكاسبه الآتية المتمثلة في ارتفاع درجة الوعي الجمعيّ بضرورة التغيير، إلى جانب إرباك النظام الحاكم الذي جاء قبل ثلاثين عاماً حاملاً بذرة فنائه بسلوكه الإقصائيّ كي ينفرد بالسلطة ويستولي على موارد البلاد الاقتصادية ويوظفها لصالح أفرادهم ومن شايّعهم».

ويقول: إنّه نظامٌ يترنح الآن، فاقداً توازنه. فقد صرح إعلامه اليوم بأنه مستعدّ للحوار مع الثوار الذين وصفهم - في وقت سابق - بأنهم مخربون ينتمون لمجموعات تلقّت تدريباً في دولة إسرائيل ويتبعون لحركة عبد الواحد نور المعارضة للنظام. وبموجب ذلك أطلق النظام ترسانته الأمنيّة ومليشياته لقمع الثوار وأعاد إنتاج أساليبه القذرة في استخدام الصراع الإثنيّ من أجل بقاءه. لكنّ الثورة تجاوزت هذه الفرضيّة المقتة وباتت تنتج أدوات مقاومتها لتمضي إلى غاياتها السامية. أسئلة الثوار لم تعد أسئلةً مطلبيّةً تنادي بتوفير الخبز والدواء، بل أضحت أسئلةً وجود، أسئلةً تبحث عن قضايا الحريّة والسلم والعدل والتي لن تتحقّق إلّا في ظلّ دولة القانون. مشيراً إلى هتاف الثوار «حريّة، سلام، عدالة». لم يعد الأمر خافياً على النظام ولذلك لجأ للاعتقالات واستخدام العنف المفرط أثناء المواقب التي انتظمت في البلاد.

وأشار راضي إلى خرق النظام لقانون العدالة وحقوق الإنسان وهو يوجه كلّ ترسانته الأمنيّة ضدّ ثوار لا يملكون سوى الهتاف لتحقيق مطالبهم المشروعة والمضمّنة في دستور جمهوريّة السودان، مؤكّداً أنّ الثوار الذين شاركوا في المواقب والتظاهرات يدركون أنّ مصيرهم هو الموت أو الاعتقالات ومع ذلك يمضون بكلّ بسالة في الأماكن المحدّدة لانطلاق المواقب، وبذلك تنتفي فرضيّة تحريض المواطنين من قبل جهات - كما يروّج لها النظام الحاكم - ملاحظاً أنّ كلّ من شارك يعني أنّه آمن بالتغيير وسعى مع الناس كفردٍ متحملاً مسؤوليّة الشخصيّة مقرونه بمسؤوليّة تجاه مجتمعه ووجوده، فهو ممثّل لكلّ المقهورين في محيطه الجغرافيّ إذ يعبر عن رفضه للظلم على المستوى الكونيّ.

## كيف انتهى حلم مسيرات العودة في غزة؟

### أسماء الغول

كاتبة فلسطينية  
مقيمة في فرنسا.

لم يبقَ من ألق مسيرات العودة سوى هؤلاء الأبرياء غير المتحزبين من عامة الشعب الذين يذهبون كلَّ يوم جمعة إلى الحدود دون أية دوافع سوى المشاركة في الحلم، حلم العودة إلى الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨. وقد كانت الدعوات إلى المشاركة في مسيرات العودة قبل عام من الآن، تبدو طوباوية وصعبة التصديق، ففعل التظاهر ضدَّ الاحتلال أصبح مكروراً ويبدو صغيراً أمام خراب ثلاث حروب لا تزال تحيط بملئوني فلسطيني يعيشون في قطاع غزة.

إلا أنَّ غزة كانت على الدوام مدينة المفاجآت السياسيَّة. فاز فيها الإسلاميون في انتخابات برلمانيَّة نظيفة في عام ٢٠٠٦، وسرعان ما انقلبَتْ على نفسها ذات الحكومة الإسلاميَّة التي فازت في هذه الانتخابات وحسَّمت الحكم لها أمام منافسة قوتين عائدتين لمحمَّد دحلان ومحمود عباس في الشارع عام ٢٠٠٧. وبدأ قطاع غزة يعاني الويلات طوال ١٢ عاماً من حصارٍ دوليٍّ وصل الآن لدرجة أنَّ مشهد طرد العائلات من الشقق المستأجرة لتعيش في الشارع داخل خيمٍ قماشيةٍ يصبح اعتيادياً.

وهكذا كان. أرسلت غزة إلى العالم مفاجأة جديدة، ما يجعل هذه المدينة تصنع الأخبار على الدوام دون أن تكون فيها حرب بالضرورة لتفعل ذلك. خرج عشرات الآلاف للمشاركة في مسيرات العودة الكبرى في يوم الأرض الموافق في الثلاثين من آذار / مارس من العام الماضي، واستمرَّت لشهور في فعل عفويٍّ تماماً، يحركهم كثيرٌ من أمل ومكبوتات اقتصاديَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة يشهدها واقع القطاع. تحوَّلت ساحات الحدود المفتوحة مع الأراضي المحتلة، على امتداد محافظات قطاع غزة، إلى مهرجانٍ وثورةٍ كحلْم ميدان التحرير في مصر الذي

استمرَّ ثمانية عشر يوماً. عائلاتٌ جلبت طعامها معها، واحد يغني، واحدة تنصب سُنْدَة اللوحة لتبدأ بالرسم، وشباب اخترعوا أدوات جديدة تحميهم من غاز مسيلٍ الدموع، أو عمَّروا رقصة الدبكة وسَط الدخان. لكلِّ جمعة اسمٌ في تقليدٍ لمسارات الثورة السوريَّة. هو ربيعٌ جديدٌ ينهي خريف النضال الفلسطيني الذي لا يزال مشدوداً لاسترجاع فلسطين في سلْمه وحربه. منحَتْ هذه المسيرات للمؤيدين في أميركا والغرب وفي الأروقة السياسيَّة صوتاً قوياً بعدما كانوا مجبرين على السكوت أمام صواريخ غزة، والنار مقابل النار، فبات بإمكانهم أن يصرخوا عالياً «إنَّهم عزَّل».

كان كلُّ شيء يبدو جيِّداً، عادت القضيَّة إلى الصفحات الأولى في مقالاتٍ وقصصٍ مؤيِّدة بوضوح دون خوفٍ من أيِّ «لوبي» إسرائيليٍّ في هذا البلد أو ذاك. فالصورة واضحة ولا محتاج إلى تفسير خصوصاً بعدما تسرَّبت فيديوهات لجنود الاحتلال وهم يقنصون الشباب السلميين كما لو أنَّهم يصطادون بطاً أو يلعبون «PUBG» (لعبة إلكترونية اشتهرت أخيراً)، الأمر الذي زاد من إحراج رئيس الوزراء الإسرائيليِّ بنيامين نتنياهو وحكومته.

خصَّصت جريدة «نيويورك تايمز» لأوَّل مرَّة زاويةً ومحرراً خاصاً لاستقطاب مجموعةٍ من الكُتَّاب، من المحترفين أو الهواة داخل قطاع غزة، ليكتبوا عن هذه المسيرات أو يرووا قصصاً عنها، ولعب الإعلام العالميُّ دوراً كبيراً في إرجاع القضيَّة إلى مرتبِّها الأوَّل: التجمُّعات السلمية في مواجهة رصاص الاحتلال. كان هذا على عكس الصحف والإذاعات داخل غزة والتي لم تستوعب هذه الحالة الجماهيريَّة السلمية، لأنَّها اعتادت التعبئة والطوارئ في حالات حرب، كانت مسيرات العودة يلزمها كثير من الترويج المحليِّ لاستقلاليتها وسلميتها،

لم يبقَ من ألق مسيرات العودة سوى هؤلاء الأبرياء غير المتحزبين من عامة الشعب الذين يذهبون كلَّ يوم جمعة إلى الحدود دون أية دوافع سوى المشاركة في الحلم، حلم العودة إلى الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨. وقد كانت الدعوات إلى المشاركة في مسيرات العودة قبل عام من الآن، تبدو طوباوية وصعبة التصديق، ففعل التظاهر ضدَّ الاحتلال أصبح مكروراً ويبدو صغيراً أمام خراب ثلاث حروب لا تزال تحيط بملئوني فلسطيني يعيشون في قطاع غزة.

إلا أنَّ غزة كانت على الدوام مدينة المفاجآت السياسيَّة. فاز فيها الإسلاميون في انتخابات برلمانيَّة نظيفة في عام ٢٠٠٦، وسرعان ما انقلبَتْ على نفسها ذات الحكومة الإسلاميَّة التي فازت في هذه الانتخابات وحسَّمت الحكم لها أمام منافسة قوتين عائدتين لمحمَّد دحلان ومحمود عباس في الشارع عام ٢٠٠٧. وبدأ قطاع غزة يعاني الويلات طوال ١٢ عاماً من حصارٍ دوليٍّ وصل الآن لدرجة أنَّ مشهد طرد العائلات من الشقق المستأجرة لتعيش في الشارع داخل خيمٍ قماشيةٍ يصبح اعتيادياً.

وهكذا كان. أرسلت غزة إلى العالم مفاجأة جديدة، ما يجعل هذه المدينة تصنع الأخبار على الدوام دون أن تكون فيها حرب بالضرورة لتفعل ذلك. خرج عشرات الآلاف للمشاركة في مسيرات العودة الكبرى في يوم الأرض الموافق في الثلاثين من آذار / مارس من العام الماضي، واستمرَّت لشهور في فعل عفويٍّ تماماً، يحركهم كثيرٌ من أمل ومكبوتات اقتصاديَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة يشهدها واقع القطاع. تحوَّلت ساحات الحدود المفتوحة مع الأراضي المحتلة، على امتداد محافظات قطاع غزة، إلى مهرجانٍ وثورةٍ كحلْم ميدان التحرير في مصر الذي

ومن التغطية الإبداعية، وأن يلعب الإعلام المحلي دوراً في حمايتها من أمة أيدٍ حزبية.

### بين «سلمية» حماس وسخرية السلطة

إلا أن هذا لم يحدث، ولم يدرك أحد أهمية بقاء هذه المسيرات مستقلةً سوى تلك القلة من الشباب الأوائل الذين دعوا إليها، وكانت حركة حماس قد شذّعت بالصدى العالمي الكبير الذي تحدّثه هذه المسيرات، ولحقّت بالركب، ولو متأخرةً عن الأسابيع المبكرة. ومن أولى محاولات اللحاق بالركب، خطاب إسماعيل هنية رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، في التاسع من نيسان / أبريل ٢٠١٨، عن أهمية الجنوح إلى السلم، وهو واقفٌ على منصّة أمام الجماهير في أرض المسيرات، تعلوها صور ضخمة لغاندي ونيلسون مانديلا ومارتن لوتر كينغ. ولم يكن يخطب من منبر مسجدٍ كما اعتاد أن يفعل باعتباره قائداً ثيوقراطياً. بعدها صرّح يحيى السنوار في الخامس من أيار / مايو من العام ذاته، وخلال اجتماع مع الصحافيين، بـ«أننا نرغب في حلّ مشاكل غزّة والفلسطينيين بالطرق السلمية».

وعلى الرّغم من أنّ القناعة بالنّضال السلمي تحتاج إلى عمق وإلى سيرٍ جادٍ وإيمانٍ جذريّ، لا إلى فاصلٍ إعلانيّ أو تجربة تهجين للنّضال، إلا أنّ حركة حماس حاولت أن تمضي في الأمر بجديّة على الأرض. حافظ رجال الأمن في وزارة داخلية غزّة التي تقودها الحركة، يرتدون زيّاً مدنيّاً وستراتٍ واقية، على سلمية خطوط التماس، ومنعوا أيّ استخدام لسلاح أو قنابل، بل اعتبروا استخدامها وسط المسيرات السلمية أمراً مشبوهاً ويخدم الاحتلال.

---

**لم يدرك أحد أهمية بقاء هذه المسيرات مستقلة سوى تلك القلة من الشباب الأوائل الذين دعوا إليها. وكانت حركة حماس قد شذّعت بالصدى العالمي الكبير الذي تحدّثه هذه المسيرات. ولحقّت بالركب. ولو متأخرة عن الأسابيع المبكرة.**

---

تضمنت خطابات إسماعيل هنية ويحيى السنوار (الرئيس الحالي لحركة حماس منذ ٢٠١٧) الموازية لمسيرات العودة تلميحاً إلى أنّهم يتأهلون، خلال هذه المرحلة الجديدة من النضال، ليكونوا الورثة الشرعيين

للمشروع الوطني الفلسطيني. ولعلّ هذا ما كان يخشاه محمود عباس وجماعته: سحب البساط من تحت أقدامهم، لذلك لم يتبنّوا هذه المسيرات ولم يعلنوا دعمها، بل سخروا من توجهات حماس الجديدة، واستعارتها لأدوات النضال الشعبوي العلماني والثوري واليساري. ردّ صائب عريقات، أمين سرّ اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، على خطاب هنية السلمي قائلاً «لو أنّ مانديلاً وكينغ وغاندي بُعثوا إلى الحياة من جديد ليستمعوا إلى ما اقتبس عنهم على لسان هنية، لتعجبوا»، ولم تتأخّر سخرية محمود عباس الرئيس الفلسطيني حين قال، في كلمته خلال اجتماع المجلس الوطني برام الله في الثلاثين من نيسان / أبريل العام الماضي، «أبعدوا الأولاد عن الرصاص، لا نريد أن نصبح شعباً مصاباً بعاها».

مع كلّ اقتراب ليوم الجمعة، تعمّد المسؤولون في سلطة رام الله نشرَ وعودٍ بنزول راتب شهر كامل، أو أن يعلنوا فجأةً عن فتح معبر رفح البرّي مع مصر في فتراتٍ متقاربة، وهذا ما لم يكن يحدث وقتها منذ سنوات. وجميعها محاولاتٍ من معسكزي أو سلو وكامب ديفيد لكسر إيقاع المسيرات، وخفض الأعداد المشاركة فيها. نجحت هذه الوسيلة خلال جمعة أو جمعتين فقط، فمن الصعب خداع أهالي القطاع الذين أصبحوا خبراء بالوعد الفارغة والألعاب السياسية بعد ١٢ عاماً من الحرب والانقسام وفشل المصالحة.

لكنّ إرهابات التحوّل هذه لدى حركة حماس بدت مترددةً بين الدفع نحو التغيير والخشية من النقد. والتحوّل في كلّ الأحوال تحوّلٌ معقّد. فإمّا أن يكون مدوّياً يتمثّله للواقعية السياسية أو تراجعاً عنها وانكفاءً مرحلياً. فحركة «رايكاليتة» كحماس تحتاج إلى «مهرجان» لتحقيق مثل هذا الانتقال. ومن الممكن تسمية ذلك الانتقال «دائرة حياة الكائن الوطني الفلسطيني» التي مرّت بها حركة فتح من قبل فأصبح عندنا النهج الفتحاويّ في العمل إلى توليد نموذج مقبولٍ عالمياً على غرار نموذج ياسر عرفات، وهذا ما يتطلع إليه إسماعيل هنية ليختم به حياته السياسية ولكنّ هذه المرة بنسخة إسلامية لا القومية أو العلمانية.

لم يحدث أيّ من هذا، لم تصبح حركة حماس حركة فتح جديدة، كما أنّها لم تعدّ حماس الزمن الماضي، فقد ارتفع صوت التردّد، وبقي هذا التهجين النضاليّ دخيلاً لا أصلياً، وأصبح التدخّل في مسيرات العودة ورموزها فاضحاً، بل تغيّر اسمها إلى «مسيرات العودة وكسر الحصار»، وتمّ تخصيص تمويل للحافلات التي تنقل

جزءاً من المتظاهرين، والحيم ووجبات الطعام، وتعيين لجنة من مختلف الفصائل الفلسطينية، وفي فلسطين إذا أردت أن تقتل فعلاً إبداعياً فاجعل له لجنة أو هيئة فصائليّة، وهذا ما كان.

## تراجع الوجه السلمي للمسيرّة

وما كان انتصاراً إعلامياً عالمياً انقلب ضدنا حين بدأ مزيد من القادة الذين لا يسمعون سوى صوت السلاح بإطلاق تصريحات تسيء لعفوية هذه التظاهرات، وكأنهم لا يأبون أن يخرج من القطاع ما لا يحمل بضمتهم عليه. وقال القيادي في حركة حماس صلاح البردويل، في السادس عشر من مايو / أيار ٢٠١٨ على قناة «بلدنا»: «نحو ٦٢ شخصاً استشهدوا في التظاهرات، ٥٠ منهم ينتمون لحماس»، في إشارة إلى مسيرات يوم الرابع عشر من مايو خلال العام ذاته. هذا النوع من التصريحات هو الصيّد الذي تنتظره إسرائيل، ليصبح رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ناشطاً على مواقع التواصل الاجتماعي مهمته إثبات أن مسيرات العودة ليست بريئة، ويصوّر فيديوهات شخصية شوهدت ملايين المرّات. لاح تراجع الاهتمام في التغطية العالميّة لمسيرات العودة، إذ إنّ هذا النوع من التصريحات الحزبيّة الضيقة، يجعل كثيرين يشعرون بالخداع على الرّغم من أنّ هذا لم يكن حقيقياً إذ بقي الناس على الحدود يدافعون عن سلميّتها، لا يأبهون لمخاطبات حركة حماس ما دام عناصر أمنها لا يمنعونهم من المشاركة في التظاهر.

على امتداد الأسابيع بدأ يتراجع النهج السلمي للمسيرات، وظهرت وحدات «الكاوتشوك» و«مجموعات الإرباك الليلي» و«الطائرات الورقيّة الحارقة». اعترض الشباب الذين دعوا إلى هذه المسيرات على هذه الأساليب والوسائل، ولو كانت مجرد رمي حجارة، فالفلسفة التي قامت عليها مسيرات العودة، ونظر لها أحد مؤسسيها الكاتب أحمد أبو ريمة، تقوم على اعتصام سلمي مفتوح، ونضب الخيام، وإقامة حياة طبيعيّة بالقرب من السلك العازل مع أراضٍ احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨، وهو شكل نضاليّ جديد، ومختلف حتى عن الانتفاضة الأولى. إلا أنّ الأمور خرجت من بين أيدي هؤلاء الشباب، فهناك قوّة حاکمة على الأرض في حاجة لأن تصبح هذه المسيرات ورقة ضغط أقوى، فتحوّلت مسيرات العودة إلى ساحة ابتزازٍ سياسيٍّ أخرى للتفاوض على شروط أفضل للحصار.

❖  
مشاركات  
في إحدى  
مسيرات العودة



وعلّت زفرات الفقراء وشكوى مليوني إنسان في واحدة من أكثر المدن كثافة في العالم، لكنّ شريطة ألا تتحوّل هذه الشكوى إلى منشوراتٍ على وسائل التواصل الاجتماعيّ فلا تزال سياسات حماس الداخلية القمعيّة بالمرصاد، لا توازيها غيرُ سياسات العقاب العنصريّ التي يتّخذها محمود عبّاس بحقّ غزّة عبر اقتصاص حصّة غزّة من أموال الكهرباء، ووقف رواتب الموظّفين ومنع التحويلات الطيّبة.

لم يبق غير أيقونات جديدة ولا تزال غزّة على الحافة، كما كانت طوال تلك الفترة: حافة السلم، وحافة الحرب. فإذا كان عدد الشهداء على الحدود كبيراً سرعان ما تعقبه رشقاتٌ من الصواريخ الفلسطينية ومن ثمّ القصف الإسرائيليّ. وهذه الحالة الضبابيّة التي عاشتها غزّة طوال عام من مسيرات العودة كانت أشدّ على أعصاب أهلها من أيّ وقت كان، فهذا النضال الذي بدأ كحلم لم يتحوّل يوماً إلى السلم، كما أنّه لم يجلب الحرب، وما بينهما ألف احتمال وإشاعة. وإنّ الحديث اليوم عن تلاشي الحلم وخفوت ألق هذه المسيرات تخنقه غصّة كبيرة. فقد تطلّب الإيمان بهذه المسيرات والمبادرة إليها انطلاقاً من الصفر، مواردٍ كبيرة من الشجاعة، فلم يبق على السطح سوى اليأس.

إنّ تربية الأمل في قلوب أهالي قطاع غزة وتليينها بعد ثلاث حروب وانقسام وأربعة آلاف شهيد، احتاج إلى عملٍ قاسٍ وشغفٍ فيه إصرار، لتقفز تلك القلوب بالفعل عامرةً بالضوء الذي في نهاية النفق، فتسرع الخطى إلى الحدود، وتركض بالرغم من مئات السيقان التي بترتها رصاصات المحتلّ. وهنا سرّ الحياة في غزّة. تُلغى كلّ مرحلة لترقى إلى نقيضها والاستمرار في النجاة. وهذه هي المفارقة المتكرّرة بين المُستهي والمعيش، والمحاولات الحثيثة للوصول إلى الأوّل. وقد صنعتُ هذه المسيرات أيقوناتٍ وخلدتها في حياتها ومماتها في أسابيع قليلة، فهؤلاء الشهداء البسطاء الذين أصبحوا بموتهم غير المحسوب رموزاً، لم يكونوا ضحايا حرب بل ضحايا سلم، وأعطوا فرصة للعالم لن تتكرّر بأن يشهد ولادة قديسي عصرنا: الطفل محمّد أيوب، والممرضة رزان النجار، والصحافي ياسر مرتجى، والمُتعد إبراهيم أبو تريّا.

لم تعد هناك حاجة إلى استعارة غاندي أو لوثر كينغ أو مانديلا، ولو على سبيل الاستعراض!

قبل ساعاتٍ من مليونيّة مسيرات العودة التي كانت بمناسبة ذكرى النكبة في الرابع عشر من أيار / مايو ٢٠١٨ صعد إسماعيل هنية إلى طائرةٍ عسكريّةٍ مصريّة بغرض لقاء مسؤولين في النظام المصريّ الذي ارتكب واحدةً من أكبر المذابح في تاريخ مصر الحديث وقتل أقران إسماعيل في الفكر والحركة خلال فض اعتصام رابعة عام ٢٠١٣. منذ تلك اللحظة بدأت حماس تساوم على المسيرات، فتراجع إيمان الناس بجداولها، ولم يمْز وقتٌ طويلٌ حتى بدأت حرب الأكفان والمنافسة على تبني الشهداء بين حركتي فتح وحماس، ومن يغطّي الجثمان بعلمه الأخضر أو الأصفر! وهكذا سقطت مسيرات العودة في أتون الانقسام والاحتراب، وما هي إلا أشهرٌ قليلة أخرى حتى بدأت تصل حقائب المال القطريّ بإذنٍ إسرائيليّ عن طريق معبر بيت حانون «إيرتس» كرواتب لموظّفي حماس.

**صنعت هذه المسيرات أيقونات وخلدتها في حياتها ومماتها في أسابيع قليلة. فهؤلاء الشهداء البسطاء الذين أصبحوا بموتهم غير المحسوب رموزاً. لم يكونوا ضحايا حرب بل ضحايا سلم: الطفلة محمد أيوب. والممرضة رزان النجار. والصحافي ياسر مرتجى. والمُتعد إبراهيم أبو تريّا.**

هكذا فقد أهالي القطاع ما أحبّوه في تلك المسيرات التي كانت تشبههم بعفويّتها وحيويّتها، وتراجعوا عن المشاركة فيها، بمجرد أن أصرت الفصائل السياسيّة على تسجيل براءة الاختراع باسمها، وانتشرت على مواقع التواصل الاجتماعيّ، فيسبوك وتويتر، أو سمة «هاشتاغات» تدلّ على عداءٍ حقيقيّ لهذه المسيرات كوسميّ #مكذبة\_السلك\_الكبرى، و#مسيرة\_الرواتب\_الكبرى. وهكذا تعاونت على قلب الطاولة على أنفسنا مرّةً أخرى. وخفّ الرعب الإسرائيليّ من أن تظهر إسرائيل في الإعلام العالميّ كنظام وحشيّ يواجه مسيراتٍ سلميّة بالعنف، فقد لوثت هذه السلميّة والعفويّة الشعبيّة، وخسرنا معركة جديدة بكلفة عالية. ففي نهاية الجمعة الواحدة والأربعين كان عدد الشهداء قد بلغ ٢٢٨ شهيداً وأكثر من ٢٤ ألف مصابٍ بالرصاص والاختناق. وارتفع صراخ المصابين من الألم، وسط ضعف الإمكانيات الطيّبة،

# ملف روزا الخمراء التي قادت ثورة

٢٨ روزا لوكسمبورغ  
في ازمة الاشتراكية الديمقراطية  
ومفارقات الطبقة العاملة الألمانية  
وسام سعادة

٤٠ الخداء  
إدواردو غالبانو

٤١ إعادة اكتشاف روزا لوكسمبورغ  
أنا المعجزة! أين معجرتك؟  
ميكايل بري

٤٨ تراكم رأس المال وإشكالية  
«إعادة الإنتاج» من ماركس  
إلى لوكسمبورغ  
وسام سعادة

٦٧ رسائل روزا من السجن  
المرأة التي تفهم لغة الطير

٧٤ روزا لوكسمبورغ بعيني  
رايا دونافسكايا: في البدء كان الفعل  
لكسندرا المصري

## روزا لوكسمبورغ

### في أزمة الاشتراكية الديمقراطية ومفارقات الطبقة العاملة الألمانية

وسام سعادة

أستاذ جامعي  
وصحافي، لبنان.

«كان السلافيون في سنة ١٨٤٨ بمثابة صقيع أباد زهور ربيع الشعوب. أما الآن، فرّما كتب لهم أن يكونوا ذلك الإعصار الذي سيحطم جليد الرجعية ويحمل في طياته للشعوب ربيعاً جديداً تملؤه السعادة».  
كارل كاوتسكي، ١٩٠٢

بهزيمة كومونة باريس كان تاريخ من الثورات الفرنسية المتتابعة (١٧٨٩، ١٨٣٠، ١٨٤٨، ١٨٧١) يبلغ نقطة الختام. بدت الثورات كأنها تنسحب من التاريخ الأوروبي. أمّا الحركة الاشتراكية فعظم شأنها في مرحلة ما بعد الكومونة. على الرغم من أن «الأممية الثانية» اختارت عقد مؤتمرها التأسيسي في باريس نفسها، في ١٤ تموز / يوليو ١٨٨٩ - الذكرى المئوية للثورة الفرنسية الكبرى، إلا أن مركز الثقل كان في ألمانيا. بخلاف سابقتها، لم تعرف هذه الأممية هيكلية تنظيمية غير مؤتمراتها إلى حين تأسيس «المكتب الاشتراكي الأممي» مطلع القرن العشرين.

لم يفلح الاشتراكيون الفرنسيون قبل الحرب الكبرى في بناء حزب جماهيري، حتى بعد توخدهم في صيغة «الفرع الفرنسي للأممية العمالية» عام ١٩٠٥. الاشتراكية الديمقراطية الألمانية نجحت في ذلك، وبدا حزبها الجماهيري شديد التنظيم، راسخ العلاقة بالطبقة العاملة المتسارعة في النمو في فترة ما يعرف بالثورة الصناعية الثانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

مفارقات الاشتراكية الأوروبية في فترة انقطاع الثورات بعدما كانت ألمانيا منقسمة سياسياً ومتأخرة عن اللحاق بركب الثورة الصناعية الأولى، ثورة آلة البخار والأفران عالية الحرارة لصهر الحديد وصناعة النسيج الممكنة،

انقلبت الآية في «الرايخ الثاني» لتصبح ألمانيا بنهاية القرن التاسع عشر ثاني أكبر بلد صناعي بعد الولايات المتحدة الأميركية، وثاني أكبر بلد تجاري بعد بريطانيا، متفوّقة في صناعة الآلات والأدوات الكهربائية والصناعات الكيميائية. تحقّق هذا التسارع في التحديث والتصنيع والتمدين في كنف نظام «ملكي بيروقراطي عسكري» على النمط البروسي، بهرمية اجتماعية فظة، تسيطر فيها الأرستقراطية على الوظائف الأهم في الإدارة وتكاد تحتكر سلك الضباط كلّ في الجيش. كما حافظ كبار الملاك العقاريين من «اليونكرز» على العلاقات الإقطاعية شرق نهر الإلبا، هذا في مقابل برجوازية متشظية وأكثر تعلقاً بجهاز الدولة من أي بلد أوروبي آخر. هذا التفاوت في التطور الاجتماعي والاجتماعي لألمانيا، سيكون له عميق الأثر على مسار الاشتراكية - الديمقراطية. ارتبط ذلك أيضاً مع اختلاف العلاقة بين الحزب السياسي والنقابات بين فروع الأممية الثانية.

في فرنسا «الحقبة الجميلة» (الفترة السابقة على الحرب الكبرى)، هيمنت «النقابوية الثورية» المنادية بالعمل المباشر، على «الكونفدرالية العامة للشغل»، في مقابل تشكيلات حزبية اشتراكية ذات طبيعة نخبوية ومنبرية. وبشكل معكوس، انبثق «حزب العمال» كذراع سياسية للنقابات في بريطانيا. أمّا في ألمانيا فنجني الحزب الجماهيري أولاً ثم ازدهرت النقابات الدائرة في فلكه بنهاية القرن التاسع عشر، واعتمد مبدأ الاستقلالية المتبادلة بين الحزب والنقابات، بيد أن تقسيم العمل بينهما حمل معه عناصر أزمة الاشتراكية - الديمقراطية نفسها، إذ تحوّلت النقابات إلى موئل النزعة الإصلاحية المتخوفة على المكاسب الاقتصادية المحققة من مغبة الانقياد وراء الشعارات الثورية.

كان أثر الماركسيّة محدوداً على الاشتراكية الفرنسيّة في زمن «الأميّة الثانية»، بخلاف ألمانيا، حيث تحوّلت الماركسيّة إلى زادٍ نظريّ وأيديولوجيّ للصمود في وجه «القوانين الاستثنائية» ضدّ الاشتراكيين، وتعمّق هذا الأثر بعد رفع هذه القوانين، وبخاصّة في البرنامج الذي أقرّه مؤتمر الحزب في إرفورت ١٨٩١. في حقبة القوانين الاستثنائية، صُنّف الاشتراكيون أعداءً للإمبراطوريّة وجرت ملاحقتهم، وتأمّنت بذلك أرضيّة الابتعاد عن برنامج مؤتمر غوتا ١٨٧٥، الأكثر تأثراً بفكر فرديناند لاسال (١٨٥٤) والذي يغضّ الطرف عن أيّ بحثٍ في السمة الطبقيّة للدولة، في وقتٍ تزامنت فيه قوانين أوتو فون بسمارك ضدّ الاشتراكيين مع تشريعاتٍ اجتماعيّة متينةٍ بادر إليها المستشار نفسه.

### كان أثر الماركسية محدوداً على الاشتراكية الفرنسية في زمن «الأميّة الثانية». بخلاف ألمانيا. حيث تحولت الماركسية إلى زادٍ نظريّ وأيديولوجيّ للصمود في وجه «القوانين الاستثنائية» ضدّ الاشتراكيين.

في سنوات الملاحقة، أقلع الحزب عن أحاديّة الالتزام بـ«السبل المشروعة»، وكان عليه التركيز على السمة الطبقيّة للدولة الإمبراطوريّة القائمة، والمساجلة ضدّ المروّجين لـ«اشتراكية بسمارك». لكنّ الحزب لم يصعُج برنامجاً جديداً لنفسه إلّا في أعقاب انتهاء قوانين الاستثناء وعزل بسمارك.

ماركسيّة «برنامج إرفورت» وحدودها وهكذا، جاء البرنامج المقرّر في إرفورت، والذي لعب كارل كاوتسكي الدور الأساس في صياغته، ليشدّد على أنّ «صراع الطبقة العاملة ضدّ الاستغلال الرأسماليّ هو بالضرورة صراعٌ سياسيّ، من دون الحقوق السياسية، لا يسع الطبقة العاملة أن تنهض بنضالاتها الاقتصادية وأن تطوّر منظومتها الاقتصادية. كذلك لا يمكنها أن تدفع باتجاه تحويل وسائل الإنتاج إلى ملكيّة المجتمع من دون الحصول على السلطة السياسيّة بادئ ذي بدء».

استهلّ برنامج إرفورت بإطار «نظريّ» يُقدّم فيه التطوّر الاقتصاديّ للمجتمع البرجوازيّ على أنّه يقود لا محالة إلى تضعف المصالح الصغيرة، واحتكار وسائل

الإنتاج أكثر فأكثر من لدن فئة قليلة من الرأسماليين وكبار ملاكي الأرض، بحيث يتحوّل «الصراع الطبقيّ بين البرجوازيّة والبروليتاريا الذي يقسّم المجتمع الحديث إلى معسكرين متعادين إلى سمةٍ مشتركة لكلّ البلدان المصنّعة»، ليكون التشديد من ثمّ على أنّ المخرج الوحيد يتقوّم في تشريك ملكيّة وسائل الإنتاج والمناجم والأرض والنقل. طرحت بعد ذلك الأهداف المباشرة، وفي مقدّمها الاقتراع العامّ المتساوي والسريّ والمباشر، لكلّ مواطني الرايخ دون تمييز في الجنس، والتمثيل النسبيّ، وعدم التمييز في الحقوق السياسيّة، وإفساح المجال للتشريع المباشر من الشعب، وتدريب الجميع على حمل السلاح بحيث يستعاض عن الجيش النخبويّ الدائم بـ«المليشيا»، ويكون للمجالس المنتخبة مرجعيّة تقيريّة في أمور الحرب والسلم، وإلغاء كلّ القوانين التي فيها إجحاف بحقّ المرأة، إلى رزمةٍ من الأهداف الديمقراطيّة، تتضمّن على صعيد العمل تحديد ساعاته بثمانٍ يومياً، ومنع عمالة الأطفال.

على الرّغم من محاكاته لغة «البيان الشيوعيّ»، وتجاوزه الأفكار اللاسالية، غاب الربط بين قسميّ برنامج إرفورت «النظريّ» و«العمليّ»، وكان ذلك مدعاةً لتوجيه فريدريك إنغلز سهام النقد له. فالبرنامج، وإن جاء متقدّماً على الوثيقة المقرّرة في غوتا، إلّا أنّه احتوى مفارقةً خطيرة: حزبٌ يناهز بالصراع الطبقيّ وإلغاء الطبقات من جهة، وبرزمةٍ من الأهداف المباشرة الديمقراطية الاجتماعية من جهة ثانية، من دون أن يكون بإمكانه في التّين بين أن يطالب بإحلال الجمهوريّة بدل الإمبراطوريّة في ألمانيا. كما أنّه حزبٌ يطالب بالاقتراع العامّ المباشر والمتساوي، فيما تعيش ألمانيا منذ توحيدها على يد بسمارك مفارقة انتخاب الغرفة السفلى في الرايخستاغ بالاقتراع العامّ المتساوي للرجال فقط، وبنظام انتخابيّ أكثر تقدّماً في ذلك الوقت من المعتمد في بريطانيا، في مقابل بقاء مجلس الشيوخ من جهة، وبرلمانات الممالك والإمارات التي منها يتشكّل الرايخ ككلّ من جهة ثانية، بعيدة كلّ البعد عن مفهوم الاقتراع العامّ، لا سيّما في المملكة - القاعدة لهذا الرايخ، بروسيا، التي بقيت جمعيّتها التمثيليّة «اللانداغ» تنتخب على أساس «نظام الطبقات الثلاث» حتى سقوط الإمبراطوريّة عام ١٩١٨. لم يتطرّق برنامج إرفورت إلى هذا التفاوت الرهيب الذي يحمي الطبيعة العسكريّة للملكيّة البروسيّة وسيطرة الأرستقراطية على مفاصل الدولة. هذا بخلاف إنغلز، الذي شدّد في نقده



على أنّ هذا النوع من الفدرالية يتعارض تماماً مع التطور الديمقراطي لألمانيا، مطالباً بتبني نموذج «الجمهورية الواحدة التي لا تتجزأ»، وداعياً مباشرةً إلى حلّ الكيان الملكيّ - العسكريّ البروسيّ: «ينبغي ألا تستمرّ بروسيا نفسها في الوجود، وأن تجزأ إلى أقاليم مستقلة عن بعضها البعض، كي تتحرّر ألمانيا من هذه الروح المحض بروسية التي تنوء تحت ثقلها».

## عكست معضلة الاشتراكية الديمقراطية مفارقة نموذج التحديث على الطريقة الألمانية. تطور صناعي متسارع في نهاية القرن التاسع عشر. في مقابل هيمنة العلاقات شبه الاقطاعية شرق نهر الإلبا. ملكية دستورية وعسكرية في الوقت نفسه.

غابت «الوصلة الجمهورية» بين الأهداف الديمقراطية والاجتماعية المباشرة وبين النظرة الشاملة إلى التطور الاجتماعيّ التاريخي تبعاً لمقولة الصراع الطبقيّ. ارتبط ذلك بواقعة صدور البرنامج مباشرةً بعد كّف التعقّبات بحق الاشتراكيين، إنّما مع بقائهم قيد النبذ السياسيّ من طرف الرايخ ومعظم الأحزاب الأخرى، كما ارتبط بالتوسّع المتواصل للحزب وتنامي نجاحاته الانتخابية. من جهة، لا يريد الاشتراكيون - الديمقراطيون العودة إلى زمن الملاحقة القانونية لهم، ومن جهة ثانية يريدون أن تبقى معارضتهم متّصفةً بالثورية لكنّهم يشكون من استمرار وضعيّة النبذ.

النزعة الإصلاحية ومعادلات «الرايخ الثاني» عكست معضلة الاشتراكية الديمقراطية مفارقات نموذج التحديث على الطريقة الألمانية. تطوّر صناعي متسارع في نهاية القرن التاسع عشر، في مقابل هيمنة العلاقات شبه الاقطاعية شرق نهر الإلبا، ملكية دستورية وعسكرية في الوقت نفسه. رايخستاغ منتخب لا يمكنه عزل المستشار ولا تنتق الحكومة منه، بل يكتفي بالمراقبة. سلطة تنفيذية شبه مطلقة، وسلطة تشريعية محدودة. مجلس فدرالي يرأسه الإمبراطور ويضم ملوك الرايخ وأمراءه، ضامن لسطوة بروسيا، ويمكنه أن يعطل كلّ مبادرة تصدر عن الرايخستاغ. دولة هرمية بمسك الأرستقراطيون بأهمّ الوظائف الإدارية والعسكرية فيها، لكنّها المبادر

الأساسي للتشريعات الاجتماعية منذ ١٨٨٠. في تركيبة كهذه، لم تكن الأحزاب تبتغي الوصول إلى السلطة، بل أن تمارس تأثيراً على من هم في السلطة، كما لو أنّها تسلم بالهوة العميقة بين الحاكم والمحكوم.

من هنا، يخلّص كريستيان بايشلر إلى أنّ الأحزاب في الإمبراطورية الألمانية لم تكن سياسية «بل إمّا طائفية وإمّا طبقية اقتصادية»، وهذا يصحّ بخاصة بالنسبة إلى أكبر حزبيّن من حيث عدد الأصوات نهاية القرن، الحزب الاشتراكيّ - الديمقراطيّ وحزب الوسط (الكاثوليكيّ). الحزبان تعرّضا للنبذ بوصفهما «أمميين»، مشكوكاً في ولائهما للرايخ. وفي حين نُظر إلى حزب الوسط على أنّه يتحدّى الاستبلاشمنت البروتستانتيّ المسيطر، بدا حزب الطبقة العاملة أشبه بحركة خلاصية لا يتردّد بايشلر في تعريفها «كحزب شعبيّ بروتستانتيّ بأكثرية عمالية ساحقة».

كحركة خلاصية، لم يكن بمقدور الحزب أن يتخلّى عن مفهوم الثورة، وبحكم أنّ مرحلة ما بعد تصفية كومونة باريس كانت مرحلة انقطاع الثورات عن التاريخ الأوروبيّ اتّشح هذا المفهوم بمسحة دينية أكثر من أيّ وقت سابق، في الوقت نفسه الذي كان فيه هذه المسحة تكتسي بلباسٍ وضعي. من هنا، أتاح برنامج إيرفورت قراءتين مختلفتين له، فكما يلاحظ المؤرّخ الأميركيّ كارل إميل شورسك (ت ٢٠١٥) جاء هذا البرنامج ليقول للثوريين «صبراً، لم تأت الساعة بعد. تذكروا فقط أنّ التاريخ إلى جانبكم»، وليقول للإصلاحيين «تذكروا أنّ عليكم التّضال من أجل الإصلاحات، والإيمان بإشراق مجتمعة جديد هو سلاح في نضالكم هذا. لا تتجاهلوه». وفقاً للمنظار الذي يعتمده شورسك، طالما بقي الحزب منبذاً سياسياً وغير ملاحق قانونياً كانت التسوية النصّية المعمول بها في إيرفورت بين الإصلاحيين والثوريين قابلةً للاستمرار، فما أن أخذت الأمور تتطور على نحوٍ مختلف حتى أخذت هذه التسوية بالتفسّخ، بالشكل الذي اتجهت فيه الأمور أكثر فأكثر نحو الاستقطاب داخل الحركة الاشتراكية. يميّز شورسك بين ثلاثة مصادر مختلفة للنزعة الإصلاحية التي صارت تتعامل أكثر فأكثر مع إبقاء الحزب على المفهوم الثوري من دون أيّ سبيل إلى ترجمته العملية كوطاة.

فمن جهة، أخذ الجناح الجنوبيّ للحزب يضيق ذرعاً أكثر فأكثر بمقاربة المركز للمسألة الزراعية التي كانت ترى أنّ الملكيات الصغيرة في طريقها إلى الزوال، الأمر الذي كان يعاكسه تماماً الواقع الزراعيّ في بافاريا. الجناح



❖  
الثورة الروسية  
في ١٩٠٥،  
ايفان فلاديميروف



مكاسب على حساب أرباح أصحاب المشاريع، والإسهام في تحسين الأجور الفعلية للعمال وحصّتهم من الرأسمال الاجتماعي. أمّا بالنسبة إلى لوكسمبورغ، فالنضال البرلمانيّ كما النقابيّ يظلّ في نطاق إعداد العنصر الذاتيّ (الوعي الطبقيّ) للثورة الاشتراكية، ونتيجة ذلك وظيفة النقابات «دفاعيّة» محض، بل لم تتردّد روزا في تشبيهها بـ«عمل سيزيف» الذي يحاول - في الأسطورة - أن يدفع الصخرة إلى القمّة بلا جدوى، وهذا تشبيه أثار استياءً في الوسط النقابيّ. يبقى أنّ هذه التناقضات، سواءً بين النقابات والحزب أو بين تصوّر روزا عن النقابات وعملها والنقابات نفسها، بقيت «تحت السيطرة» طالما أنّ مفهوم الثورة نفسه في مقال الاشتراكية - الديمقراطية الألمانيّة لم يخضع للاختبار بعد، وطالما أنّ آخر حدّث ثوريّ «يقتات» عليه مخيال الاشتراكية الأوروبيّة عموماً كان كومونة باريس.

طلت فترة انتظار اندلاع ثورة جديدة بعد الكومونة. بدت «الثورة» مجرّدة، منقطعة عن الزمن الراهن، حتى في مقال المدافعين عن ضرورتها وحتيمتها في وجه «التحريفية» البرنشتاينية. بيد أنّ كتاب كارل كاوتسكي «الثورة الاجتماعية» ١٩٠٢ مثل مفترقاً في هذا المضمار، إذ شدّد على أنّ الاستيلاء على السلطة هو العنصر الذي يفرّق الثورة الاجتماعية عن تراكم الإصلاحات، كما أنّ الثورة السياسيّة يمكنها أن تتحوّل إلى ثورة اجتماعيّة عندما تقوم بها طبقة اجتماعيّة مضطّهة. في الفترة نفسها، كتب كاوتسكي في «الإيسكرا» (الشرارة) الروسيّة، يستشرف فيها «أنّ مركز الثورة ينتقل من الغرب إلى الشرق. ففي النصف الأوّل من القرن التاسع عشر كان المركز في فرنسا، وأحياناً في إنكلترا. وفي سنة ١٨٤٨ انضمت ألمانيا أيضاً إلى صفوف الأمم الثوريّة... إنّ القرن الجديد يبدأ بوقائع تبعث بفكرة أنّنا نواجه انتقال مركز الثورة، وبالضبط: انتقاله صوب روسيا... إنّ روسيا التي استوعبت من الغرب مثل هذا القدر من المبادرة الثوريّة قد تكون نفسها الآن مصدراً لإمداده بالطاقة الثوريّة. وقد تغدو الحركة الثوريّة الروسيّة المتصاعدة أقوى وسيلة لاستئصال روح ضيق الأفق الهزيلة والمحاكاة السياسيّة التي بدأت تنتشر في صفوفنا». استندت هذه الكلمات إلى المتابعة الدؤوبة من قبل كاوتسكي لديناميّة الإضرابات في روسيا، واختلاف الأهداف الاقتصاديّة بالشعارات السياسيّة فيها، وتحديدها القمع الوحشيّ ببسالة. لكنّ الحرب الروسيّة اليابانيّة ١٩٠٤ - ١٩٠٥

الجنوبيّ أراد حماية مصالح الفلاح، مرتكزاً على أنّ ثقة أمّاطاً جديدة من الزراعة أكثر فاعليّة مع تمكك قطع الأرض المحدودة، وثمة أيضاً مصالحة في الانفتاح على القوى الليبراليّة في بافاريا. ومن جهة ثانية، شكّلت النقابات العماليّة قاعدةً أساسيّة للتفكير العماليّ، الإصلاحيّ، الذي لم يكن بمقدور الحزب احتواؤه إلاّ بالموافقة على استقلاليّة النقابات الصديقة له وحيادها السياسيّ، سواءً لأجل اتّساعها لغير الاشتراكيّين أو لتعاونها مع النقابات غير الاشتراكية. أمّا المصدر الثالث للتزعة الإصلاحية فجمّدته المراجعة التي قام بها إدوارد برنشتاين، نهاية القرن، للمقولات الماركسيّة الأساسيّة، إذ رأى برنشتاين أنّ الرأسماليّة طوّرت قدرةً على التكيف وعلى ضبط أزماتها لا يمكن من بعدها الرهان على انهيارها بنتيجة تناقضاتها، وأنّه ما عاد بالإمكان النظر إلى الاشتراكية على أنّها تستمدّ ضرورتها من التطوّر الرأسماليّ نفسه، بل فقط من المثل الأخلاقيّة وملّكة التقرير العقلائيّ والحزب، وهذه الملّكة لا يمكن أن تحصر في طبقة اجتماعيّة دون سواها. اعتبر برنشتاين أنّ المادّيّة التاريخيّة تُخفي نزعةً دينيّةً متناقضة «كالفينيّة من دون إله»، ولا بدّ من إنقاذ البرنامج الاشتراكيّ بإعادة العرف من فلسفة إيمانويل كانط.

لوكسمبورغ: استعادة الأميّة الأولى في زمن الثانية لمع نجم روزا لوكسمبورغ القادمة حديثاً إلى ألمانيا، بخوضها السجال ١٨٩٨ - ١٨٩٩ بشكل منهجيّ ضدّ «تنقيحيّة» برنشتاين. بخلاف المدافعين الآخرين عن الأرثوذكسيّة الماركسيّة، لم تكتف لوكسمبورغ بإظهار استفحال تناقضات الرأسماليّة، بل أدخلت «الوعي الطبقيّ» بقوة إلى عمق السجال، وربطت هذا الوعي بالديناميّات التاريخيّة الخلاقة. الثورة الاشتراكية ضرورة مزدوجة: بحكم استفحال التناقضات الموضوعيّة للرأسماليّة، وبحكم تنامي الوعي الطبقيّ للبروليتاريا. بدت روزا وكأنّها تستعيد المقولة المفتاحيّة للأمّيّة الأولى (تحرّر العمال من صنع العمال أنفسهم) في شروط الأميّة الثانية، الأمر الذي سيجعلها تتصادم مع برنشتاين من جهة، ومع تعريف لينين للثوريّ الاشتراكيّ - الديمقراطيّ كـ«يعقوبيّ ملتحم بالبروليتاريا». لئن دار تناقضها مع لينين لاحقاً حول مفهوم الحزب ودوره، فقد تعلق تناقضها مع برنشتاين قبل أيّ شيء آخر بدور النقابات. فالأخيرة، «هجوميّة» عند برنشتاين، بمستطاعها انتزاع

جاءت تغلب الحمية القومية وتشي بمنحى مختلف كثيراً، إلى أن جاءت هزيمة روسيا بالحرب لتفجر الثورة الشعبوية الروسية الأولى.

استئناف الثورات من بوابة روسيا وانعكاساته  
حيال ثورة ١٩٠٥ الروسية انقسم الرأي. ثمة من رآها ثورةً برجوازيةً وبالتالي تعود قيادتها للبرجوازية على أن تكتفي الطبقة العاملة بالضغط الثوري على الشرائح الأكثر تقدماً من البرجوازية، وهو ما سبق للمنشفي ألكسندر مارتينوف أن شدّد عليه قبل اندلاعها، في كراسته «ديكتاتوريتان» (١٩٠٤) الذي رفض فيه ما اعتبره «الزواج غير الشرعي الذي يعقده لينين بين الماركسية واليعقوبية». بالضدّ من منظار مارتينوف هذا، تقاطع البلاشفة وتروتسكي ولوكسمبورغ وكاوتسكي في ثورة ١٩٠٥ على اجترار دور للبروليتاريا يتخطى مساندة البرجوازية في وجه النظام الأوتقراطي، إلى التطلع للاستيلاء على السلطة، ولو كان للنهوض بأذى ذي بدء بمهام الثورة الديمقراطية البرجوازية، وأنّ الثورة آيلة إلى الفشل إذا لم تتمكّن البروليتاريا من الظفر بالسلطة.

---

**بخلاف المدافعين الآخرين عن الأثرثوذكسية الماركسية. لم تكتف لوكسمبورغ بإظهار استفحال تناقضات الرأسمالية. بل أدخلت «الوعي الطبقي» بقوة إلى عمق السجال. وربطت هذا الوعي بالديناميات التاريخية الخلافة.**

---

استند هذا التقاطع إلى نظرة لتاريخ الثورة الفرنسية، بأنّها لم تنجح إلا بفضل الديكتاتورية اليعقوبية، ذات الجذر العمالي، التي أخذت السلطة بالضدّ من البرجوازية نفسها، وأنّ ثورة ١٨٤٨ فشلت في ألمانيا لأنّ البرجوازية أصابها الهلع من البروليتاريا. وفي هذا الإطار، كان لافتاً ما كتبه لوكسمبورغ في كانون الثاني / يناير ١٩٠٥: «الثورة الروسية ترتدي طابعاً طبقياً بروليتارياً أكثر من كلّ الثورات السابقة. بالتأكيد، الأهداف المباشرة للانتفاضة الحالية في روسيا لا تذهب أبعد من صياغة دستورٍ ديمقراطيٍّ برجوازيٍّ، ويبدو أنّ الحصيصة النهائية للأزمة، التي يمكن أن تستمرّ والأرجح أن تستمرّ سنواتٍ إضافية في صعودٍ وهبوطٍ - لن تكون إلاّ دستوراً بائساً. على الرّغم من ذلك، فإنّ الثورة المحكوم عليها أن تولّد

مثل هذا المسخ السياسي هي الأكثر بروليتاريةً من أيّ ثورة سابقة عليها».

ساهمت الـ«١٩٠٥ - ١٩٠٧» الروسية في الدفع قدماً بالاستقطاب داخل الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، بحيث صارت ثنائية «إصلاح أم ثورة» أكثر ملموسية. ففي الفترة السابقة على اندلاعها، ساد التوتر والجدل بين خطّ النقابات الذي يميل إلى الإضراب الموضوعي، حيث يُضرب خطّ إنتاج معيّن ويضمن خطّ إنتاج آخرُ الدعم الماليّ للمُضربين، وبين دعاة «الإضراب السياسيّ الجماهيريّ» وقد اعتبره النقابيون شعاعاً مستوراً من البلدان «اللاتينية»، ضاراً بالنضال المطليبيّ الألمانيّ، ويفسد التضامن الطبقيّ المتحرّك الذي يضرب من خلاله قسمٌ من العمّال ويتبرّع لهم بالمال القسم الآخر، وعلى هذا الأساس رفضوه في المؤتمر النقابيّ بكونلونا ١٩٠٤.

**إقرار «الإضراب العام» لأغراض دفاعية**  
بيد أنّ النمساويّ رودولف هيلفردينغ كان قد أسهم أواخر ١٩٠٣ بتحديد إطارٍ للتّقاش حول الإضراب العامّ في البلدان الناطقة بالألمانية، من خلال مقاربة ترى أنّ تنامي القوّة العماليّة سيقود الطبقات المسيطرة إلى الانقلاب على الاقتراع العام، وبالتالي لحماية الاقتراع العام ينبغي أن تتصّف الطبقة العاملة بالجهوزيّة للإضراب العامّ دفاعاً عنه، فيعتدّ هذا الإضراب كشعار دفاعيٍّ وليس كشعارٍ ثوريٍّ زائف، للانقضاض الوهميّ على البرجوازية، على ما كان دارجاً في منابر الاشتراكية الفرنسيّة.

جاءت الأنباء الواردة من روسيا من جهة، واندلاع إضرابٍ واسع متفّلت من الأطر النقابية في حوض الروهر من جهة ثانية، لتقوي شوكة يسار الحزب الذي يرى في الإضراب السياسيّ الجماهيريّ عنوان المرحلة. استفزّت لوكسمبورغ النقابيين من خلال دمجها إضرابات الثورة الروسية وإضراب حوض الروهر في منحى واحد ينظر إلى العمّال غير المنظمين نقابياً على أنّهم تحوّلوا إلى العنصر الحيويّ للحركة العماليّة. استخدم كاوتسكي في المقابل لهجةً أكثر تحوّطاً تجاه النقابيين، لكنّه اعتبر أنّ التريديونيوتية الصرفة ما عادت تفي بالحاجة، والمرحلة لتسييس النضال الاقتصاديّ، وبالتالي لإعادة النظر في مبدأ الحياد السياسيّ للنقابات. في المقابل، ميّز برنشتاين بين المصلحة التشارؤميّة للحزبيين والتفأول الضروريّ بالنسبة إلى النقابيين لكنّه كان من جملة الذين دعوا إلى تبني مقولة «الإضراب العام» كخيارٍ دفاعيّ.



روزا لوكسمبورغ

بَتَّ مؤتمر الحزب في فيينا (أيلول / سبتمبر ١٩٠٥) في المسألة، مُقرّاً لأول مرة منذ برنامج إيرفورت ١٨٩١ بأنه مستعد، في ظروفٍ معيّنة، للجوء إلى الإضراب العام. اجترح الزعيم التاريخي للحزب أوغست بيبل المخرج في ظلّ الاستقطاب الحادّ بين النقيضين - الإصلاحيين، أنصار الإضرابات القطاعية، وبين من يرى إلى الإضراب السياسي الجماهيري على أنه طبيعة المرحلة، وإلى الثورة المندلعة في روسيا على أنها مصدر إلهام حيويّ للفكرة الثورية. انتقد بيبل النزعة لدى يسار الحزب للتأثر بالنموذج الروسي، كما أوجد صيغة للمواءمة بين مفهومَي التطوّر والثورة: الحزب ماضٍ في تحقيق أهدافه «التطورية»، لكنّه لن يلجأ إلى الثورة إلا في حال أرادت البرجوازية معاكسة هذا المنحى التطوري بالقوّة. بالتالي، الإضراب السياسي الجماهيري هو أداة دفاعية، تخضع للتخطيط في ألمانيا، ولا تترك الأمور للعفوية والعشوائية

## جسدت لوكسمبورغ صلة الوصل بين الثورة الروسية في نطاقها البولوني وبين فكرة «الإضراب السياسي الجماهيري».

كما في روسيا. على الرّغم من أنّ موقف بيبل هذا كان مناقضاً تماماً لطرّحات المرجعية النظرية الماركسية الأهم في الحزب، كارل كاوتسكي، وكتابه «الثورة الاجتماعية»، إلا أنّ إقرار المؤتمر، بنتيجة لموقف بيبل، للإضراب العام كخيارٍ دفاعي، عُدد انتصاراً ليسار الحزب، بل اعتبرته لوكسمبورغ مؤشراً إلى قدرة الحزب على التطوّر في الاتجاه الثوري. بعد عامٍ بالتمام، سيظهر كم كانت مخطئة، ففي مؤتمر الحزب بمانهايم (أيلول / سبتمبر ١٩٠٦) انتقلت النقابات، موئل الإصلاحية، من الدفاع عن استقلاليتها بإزاء الحزب إلى التحكّم بالحزب نفسه. يومها سيكتب كارل كاوتسكي بأنّ عشر سنوات من النضال ضدّ التحريفية داخل الحزب ضاعت سدى.

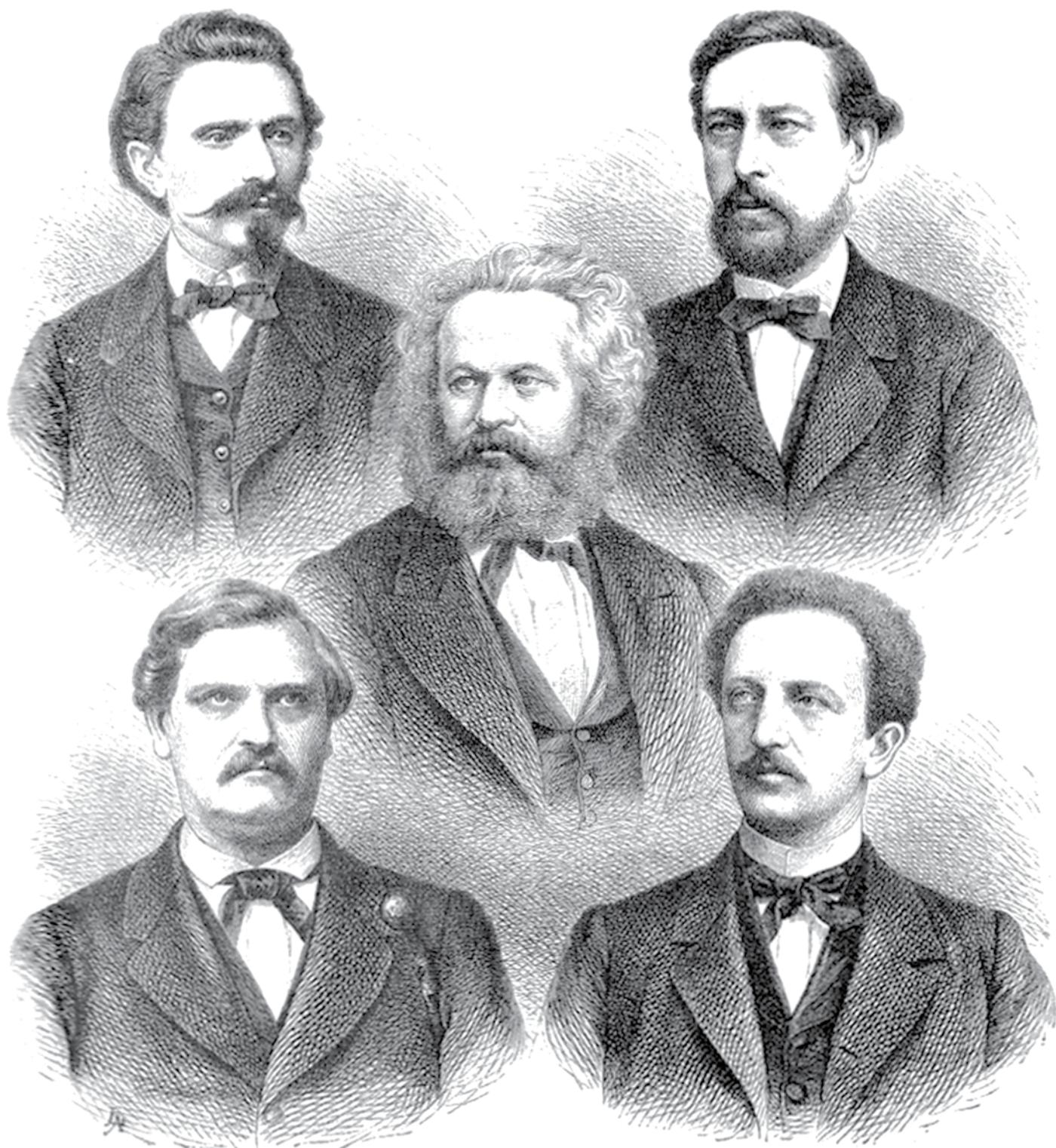
## روزا على جبهتين: فرصياً ١٩٠٥ - ١٩٠٦

ما بين المؤتمرين، جسدت لوكسمبورغ القادمة أساساً من الاشتراكية الديمقراطية البولونية إلى تلك الألمانية، صلة الوصل بين الثورة الروسية في نطاقها البولوني وبين فكرة «الإضراب السياسي الجماهيري» التي أخذت تشكّل

هويةً كفاحية ليسار الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. ففي كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٠٥، قرّرت روزا التي كانت محرّرة في جريدة الحزب الألماني «الفورفرترس» وقيادية في «الاشتراكية الديمقراطية لمملكة بولونيا وليتوانيا» أن تنتقل سرّاً إلى فرصيا المنتفضة. كانت التوتّرات في بولونيا الروسية (رسمياً ولاية «بلاد فيستول» في ذلك الوقت) قد ظهرت فور اندلاع الحرب الروسية اليابانية مطلع العام ١٩٠٤. كذلك، بعد أيام قليلة على «الأحد الدامي» في سانت بطرسبرغ الذي فجر الثورة، نجح الإضراب العام في بولونيا الروسية، باستجابة ٤٠٠ ألف عامل لنداءٍ وجهه الحزبان الاشتراكيان، «الاشتراكي البولوني» الذي يعطي الأولوية للاستقلال الوطني، و«الاشتراكي الديمقراطي» الأصغر منه، والذي يعطي الأولوية لوحدة الصراع الطبقي في الإمبراطورية الروسية، والذي ينظر إلى لوكسمبورغ كمنظرة أساسية فيه، هي التي خلصت في أطروحتها للدكتوراه «التطوّر الصناعي في بولونيا» أنّ ما من طبقة اجتماعية أساسية ترفع مطلب الاستقلال الوطني في بلدها، وأنّه تمّ تجاوزه كهدف.

سيظهر أنّ حمل «الحزب الاشتراكي البولوني» بقيادة جوزيف بيلسودسكي لواء الاستقلال الوطني سبيح له التحوّل إلى حزبٍ جماهيري خلال فترة الثورة. هذا بخلاف «الاشتراكيين الديمقراطيين» بقيادة ليو يوغنيسيس وروزا لوكسمبورغ. كان «الحزب الاشتراكي البولوني» التشكيل الأساسي الذي أُنجح الإضراب العام في بداية انتفاضة فرصياً ١٩٠٥، لكنّه أثر بعد ذلك الانكباب على الكفاح المسلح، وزار زعيمه طوكيو بهذا القصد بغية تشكيل «فيلق بولوني» من سجناء الحرب لدى اليابان.

قبيل انضمامها إلى نضال رفاقها في فرصيا، تناولت لوكسمبورغ مسألة العلاقة بين الحزبين الاشتراكيين البولونيين، وكوّنت جهداً لظاهرة اعتبرتها ذات دلالة بالغة: انتقال الإضراب السياسي الجماهيري الكبير في كانون الثاني / يناير ١٩٠٥ إلى سلسلة متفرقة من الإضرابات الاقتصادية. رأث في هذه الظاهرة انعكاساً للسمة مزدوجة للثورة، كثورة برجوازية (بمقدار تمخورها حول الحزبات السياسية والشكل البرلماني من السلطة السياسية) وذات سمة بروليتارية في الوقت نفسه (نظراً إلى الدور القيادي فيها للطبقة العاملة التي تفرض الأشكال النضالية الخاصة بها). هذه السمة تعبّر عن نفسها بالضرورة من خلال النضال المباشر ضدّ رأس المال لأجل تحسين الأوضاع العمالية، وليس للاشتراكية الديمقراطية أن





روزا لوكسمبورغ

تعارض هذه الإضرابات الاقتصادية بذريعة أنها ضغوط على البرجوازية الحليفة في الصراع ضد الأوتقراطية، بل أن تسعى لتأطير هذه الإضرابات في منحى ثوري.

**لم يحدث كراس «الإضراب الجماهيري» الصدى المرجو منه. لكنه تحول إلى منصة الافتراق مع الاشتراكية الديمقراطية. بينت فيه روزا أنه إذا كانت معارك المتاريس هي الشكل المناسب للنضال في الثورات البرجوازية الأولى. فقد تحول الإضراب الجماهيري إلى السبيل الطبيعي لتجنيد أوسع الشرائح البروليتارية للنضال.**

الإضرابات الاقتصادية تحمل معها إذاً مدىً توسيعياً للنضال، وعلى الاشتراكية الديمقراطية الإسهام في إبراز المطالب الجامعة بين المضربين. ابتغت روزا من وراء ذلك دحض التفسير الذي ينتهجه «الاشتراكي البولوني»، المتأسف لأن الثورة انكفأت إلى حركة مطلّبة. بخلاف ما واجهته روزا في ألمانيا من جناح يميني للاشتراكية الديمقراطية يجد موثله في النقابات العمالية ويعتبر عن نفسه بالنزعة الإصلاحية، وبالضبط ضد «الإضراب العام»، فإنها تواجهت في الوضع البولوني مع التشكيل الأكبر في ذلك الوقت للاشتراكيين، تشكيل أتهمته بالشوفينية القومية. لكن هذا التشكيل كان يعتبر نفسه الأكثر ثورية، ويفصل بين الإضراب السياسي الجماهيري الذي يتبناه كلياً، وبين الإضرابات الاقتصادية التي يشارك فيها على مَضض. كانت هذه هي الحال في أيار / مايو ١٩٠٥. بعد أسابيع قليلة، ومع تراكم الإضرابات الاقتصادية المتفرقة في اتجاه إحداث إضراب شامل جديد، انقلبت الآية، وصار «الاشتراكي البولوني» يعطي الأولوية للفصل بين حركة الاستقلال الوطني لبلاده وبين الثورة الروسية، مؤثراً الكفاح المسلح لهذا الغرض. سمح ذلك في المقابل لـ«الاشتراكيين الديمقراطيين» بممارسة تأثير أقوى في صفوف العمال، وشكل النطاق البولوني للثورة الروسية مدرسة كفاحية لأسماء برزت لاحقاً إما في الثورة البلشفية وإما في ثورة ١٩١٨ - ١٩١٩ الألمانية، أو في كل منهما، شأن فليكس دزرجنسكي، المسؤول العسكري للاشتراكية الديمقراطية البولونية، ويوليان كارسكي وكارل راديك وليو يوغيشيس.

اعتُقلت روزا في ٤ آذار / مارس ١٩٠٦، بعد ثلاثة أشهر على مجيئها إلى فرسوفيا، وكذلك اعتُقل

يوغيشيس. اكتُشفت الهوية الحقيقية لروزا بعد اعتقالها بأسبوع، وتأخر اكتشاف حقيقة يوغيشيس أشهراً طويلة، وفيما كانت المساعي قد نُحِث في إطلاق سراح روزا في ٢٨ حزيران / يونيو، نظراً لجنسيتها الألمانية، وبمساعي حزبها الألماني، في حين يشير بول فروليش إلى أن وراء سرعة إطلاقها تخوف جهاز «الأوخانا» (الشرطة السريّة) الروسي من ردة فعل التنظيم القتالي للحزب الاشتراكي الديمقراطي. تمكّنت روزا إثر ذلك من السفر إلى العاصمة الروسية ثم إلى كيوكالا بفنلندا التي كان يقيم فيها عددٌ من الثوريين الروس في تلك الفترة بينهم لينين (وقد التقى به). وفي كيوكالا كتبت روزا كراسة «الإضراب الجماهيري والحزب والنقابات»، لترجع بعدها إلى ألمانيا على عتبة مؤتمر مانهايم الذي مثل خيبة كبيرة بالنسبة إليها.

الإصرار على أنه ليس للألمان ما يتعلّمونه من الروس والبولونيين هو الذي انتصر في الحزب. لم يحدث كراس «الإضراب الجماهيري» الصدى المرجو منه، لكنّه تحوّل إلى منصة الافتراق مع الاشتراكية الديمقراطية. بينت فيه روزا أنه إذا كانت معارك المتاريس هي الشكل المناسب للنضال في الثورات البرجوازية الأولى، فقد تحوّل الإضراب الجماهيري إلى السبيل الطبيعي لتجنيد أوسع الشرائح البروليتارية للنضال، وأن من الخطأ الفاحش اعتبار الثورة الروسية خصوصية روسية، وأن نتائج الثورة الروسية ستكون ذات بالٍ وغير مهمة إطلاقاً لو أن البروليتاريا الألمانية لم تستخلص منها الدروس.

**نضال لوكسمبورغ ضدّ الحرب من داخل «الأممية»**  
واجهت روزا الخيبة من رؤية الحزب الألماني يستلهم تجربة ١٩٠٥ الروسية بالانخراط في التدريس في مدرسة الحزب، وفي إيلاء موضوع الإمبريالية ومخاطر الاحتراب بين الدول الأوروبية شأناً أكبر في كتاباتها ونضالها، وكانت أزمة المغرب الأولى المعروفة بأزمة طنجة، الناشئة عام ١٩٠٥ أيضاً على خلفيّة مطالب «الرايخ الثاني» بأقصى الشمال الأفريقي، قد أثارت المخاوف بشأن اندلاع حربٍ شاملة.

آخر تأثير سياسي حقيقي لروزا لوكسمبورغ ضمن إطار «الأممية الثانية» تمثّل في نجاحها في المؤتمر السابع لـ«الأممية الثانية» (شتوتغارت، آب / أغسطس ١٩٠٧) بإدخال تعديل على الاقتراح المقدم من القيادي التاريخي في الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية أوغست بيبل

بخصوص تنامي النزعة العسكرية في أوروبا. جاء التعديل مهوراً بتوقيع روزا لوكسمبورغ والروسيين «البلشفيين» فلاديمير إيليتش لينين و«المنشفيين» يوليوس مارتوف، وينص على أن «من واجب الاشتراكية - الديمقراطية عندما تقع الحرب النضال من أجل إيقافها في أسرع وقت ممكن، والسعي بأسرع ما أوتي لها من قوة لأجل استغلال الأزمة الاقتصادية والسياسية التي تسبب بها الحرب لأجل تحريض أعمق الشرائح الشعبية، وبما من شأنه تسريع الإطاحة بالسيطرة الرأسمالية». أمكن تمرير التعديل بعدما كانت مسألة الحرب بين الدول الأوروبية، والخطط الواجب اعتمادها من قبل الاشتراكيين حيالها، قد استأثرت بقسط وافر من النقاشات في المؤتمر، إذ احتدم الجدل تحديداً بين المندوبين الفرنسيين والمندوبين الألمان.

---

**توافق رموز الاشتراكية الفرنسية في مؤتمر شتوتغارت على دعم فكرة الإضراب العام في وجه شبخ الحرب. تبرم المندوبون الألمان. وعلى رأسهم بييل. في المقابل من عبثية المناداة بالإضراب العام لمواجهة المناخات الحربية. بيد أن بييل لم يكن لديه ما يقترحه في المقابل سوى الدعوة الهلامية لـ«بذل ما في الوسع» كي لا تقع الحرب.**

---

كان الاشتراكيون الفرنسيون منقسمين للغاية فيما بينهم، سواء بين الخط الرافض للمشاركة في الحكومات البرجوازية أو المسوغين للمشاركة، أو بين من يقلل من أهمية الرابطة الوطنية - شأن غوستاف هيرفيه في تلك المرحلة، وبين من ينظر إلى الأمة كتعاقد بين وطنيات، ويرى إلى الرابطة الوطنية بوصفها البيئة التي تنمو فيها الحركة العمالية بخصائص مختلفة في كل بلد - وهذه كانت وجهة جان جوريس وادوار فايبان. الأخير من رموز كومونة باريس ١٨٧١، لكن سيحوّل إلى أحد رموز «الائحاد المقدس» مع البرجوازية الفرنسية ضد ألمانيا في حرب ١٩١٤. أمّا جوريس فبدأ نشاطه السياسي ككاتب جمهوري برجوازي، وتطور تدريجياً نحو الفكر الاشتراكي، لكن اعتداله في هذا الفكر لم يمنعه من أن يدفع حياته ثمناً لموقفه المضاد للحرب عشية وقوعها إذ اغتاله قومي متطرف. في المقابل، غوستاف هيرفيه، رمز الجحود القصوي بالفكرة الوطنية، والمنادي بالتمرد في اللحظة نفسها الذي ينهمك فيها الجيش على الجبهة، فلم تمرّ بضغ

سنوات على مؤتمر شتوتغارت حتى انقلب رأساً على عقب على غلوه الأيمّي هذا، واستبق حرب ١٩١٤ بشعار «الدفاع الوطني أولاً»، والتحق لاحقاً بالفاشية الفرنسية. على الرغم من انقسامهم، واختلاف المصائر، توافق رموز الاشتراكية الفرنسية في مؤتمر شتوتغارت على دعم فكرة الإضراب العام في وجه شبخ الحرب. تبرم المندوبون الألمان، وعلى رأسهم بييل، في المقابل، من عبثية المناداة بالإضراب العام لمواجهة المناخات الحربية. بيد أن بييل لم يكن لديه ما يقترحه في المقابل سوى الدعوة الهلامية لـ«بذل ما في الوسع» كي لا تقع الحرب. تعرّض التزامه الأيمّي للمطاعن، هو الذي برهن في شبابه عن تجرّد هذا الالتزام، يوم حوكم هو ورفيقه فيلهلم ليبكنخت (المخضرم - إذ كان إلى جانب ماركس وإنغلز في «عصبة الشيوعيين») في لايبزيغ عام ١٨٧٢، وكانا عضوين في الرايخستاغ، لتنديهما بالغزو البروسي لفرنسا ووقوفهما إلى جانب كومونة باريس وضد ضم ألمانيا الموحدة للإلزاس واللورين، وسجناً لعامين ونيف. في حينه، استخدم بسمارك هذه المحاكمة للتشهير بالاشتراكيين حونة الأوطان، الأمر الذي تكرر في قوانين الاستثناء ضد الاشتراكيين ١٨٧٨ - ١٨٩٠. لعبت فترة الملاحقة والتضييق هذه دوراً في تعزيز خطاب «الصراع الطبقي» داخل الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية التي ظلّت تتوسع وترتفع نسبة التصويت العمالي لها، يمثل ما فرضت نفسها بوصفها القوة الأكثر ثقلًا وتنظيماً في «الأمة الثانية» المؤسسة في باريس عام ١٨٨٩.

وقف بييل ضد نزع إدوارد برنشتاين «التنقيحية» الداعية إلى إحلال مقولة «التطور» مكان مقولة «الثورة» في برنامج الحزب، لكنّه كان سياسياً أقرب إلى تمثيل «نقطة الوسط» في الاشتراكية - الديمقراطية إلى حين وفاته عام ١٩١٣. فقد تحوّل مع الوقت إلى موقف «احترازي»، يريد تجنب الحزب الجماهيري شديد التنظيم، والذي أخذ يتعرّض فيه عديد الموظّفين الدائمين في أجهزته ومؤسساته والنقابات التابعة له، أي اضطهاد سياسي أو أمني جديد، فضلاً عن الرغبة في الخروج من وضعيّة «النبد» المستمر له بتصويره على أنه «عدو الإمبراطورية» سواء من قبل البلاط والسلطة، أو من قبل الأحزاب الأخرى. وعندما فرض سؤال الحرب المقبلة على أوروبا نفسه أكثر فأكثر، كان بييل من جملة الذين يشددون على أن «البربرية الروسية» تمثّل خطراً وجودياً على الطبقة العاملة الألمانية، الأمر الذي من شأنه إفساح المجال لخطاب تسويغي للحرب.

اعتبروا أنهم تبادوا ربط العمل ضدّ الحرب بمفهوم الإضراب العامّ. أمّا الفرنسيّ جان جوريس فسيعتبره «انتصاراً للاشتراكية الفرنسيّة في سياستها الدوليّة». مع هذا، يعتبر هوبت، أحد أهمّ المؤرّخين لـ«الأممية الثانية» أنّ مؤتمر شتوتغارت شكّل منعطفاً، ضعفت فيه مرجعيّة الاشتراكية الديمقراطيّة الألمانيّة على صعيد الأمميّة، في مقابل تقدّم الاشتراكية الفرنسيّة. وهكذا، تجدد التوتّر بين الاشتراكيين الألمان والفرنسيين في المؤتمر الثامن للأممية بكونهاغن ١٩١٠، الذي كان محوره الأساسيّ كفيّة محاربة شبح الحرب، ولّد ذلك الشعور بأنّ الاشتراكيين في البلدان الأيلة للاحتراب لا يتحرّكون بنفس الوتيرة والحماسة ضدّ الحرب، الأمر الذي تبيّن لاحقاً أنّه سيلعب دوراً إضافياً في تسوية الحرب ما أن وقعت. وهكذا، من بعد قرارات مؤتمر شتوتغارت ١٩٠٧، وكونهاغن ١٩١٠ وبازل ١٩١٢، لم تستطع الأممية عقد مؤتمرها في فيينا ١٩١٤ بسبب اندلاع الحرب، وجارث معظم أحزابها سريعاً الحكومات المتحاربة، كلٌّ يدافع عن وطنه.

#### الجماهير العماليّة سبقت قياداتها إلى الحرب

التزم نواب الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ في الرايخستاغ كلهم يوم ٤ آب / أغسطس ١٩١٤، بمن فيهم المعارضون مثل كارل ليبكنخت وهوغو هازيه، على إجازة الاعتمادات الحربيّة. اغتيل جوريس في فرنسا قبل اندلاع النزاع، وتسابق الاشتراكيون إلى النداعي للدفاع عن فرنسا الثورة والجمهورية، ضدّ اليونكرز الإقطاعيين الألمان. وحدهم البلاشفة والمناشفة، معاً، وقفوا ضدّ الحرب في الدوما الروسيّ، لكنّ أبا الماركسيّة الروسيّة بليخانوف سارع لمناصرة القيصر في حربه ضدّ «البربريّة البروسيّة». استعاد الألمان أقوالاً لماركس وإنغلز ضدّ الاستبداد الروسيّ. اكتشفوا أنّ تأييدهم الحرب يلغي بين ليلة وضحاها تاريخاً من نبيذهم السياسيّ. سبقهم رفاقهم الفرنسيون إلى دخول حكومة «الوحدة المقدّسة»، خرجت التنظيرات من كلّ حدب تنظر إلى الحرب على أنّها ثورة من نوع آخر. حربٌ اجتماعيّة لمصلحة الطبقة العاملة في البلد المعنيّ. أمام كلّ هذه الانعطافات بدا موقف كارل كاوتسكي وهو يتأتّى في تحديد طبيعة الحرب رخواً ومكشوفاً، سواءً بالنسبة إلى الذين كانوا لا يزالون يعولون عليه في قيادة يسار الأممية، مثل لينين، أو الذين كانوا قد يسّسوا منه منذ فترة (روزا لوكسمبورغ). بخلاف لينين الذي ركّز على «خيانة» الأممية الثانية

كما يلاحظ جيمس مول «لئن كان ببيل وبقية الزعماء الاشتراكيين الألمان خائفين من روسيا، فإنهم كانوا يخشون أكثر سلطة الدولة الألمانيّة نفسها. لم ينسوا يوماً الاثني عشر عاماً من قوانين مكافحة الاشتراكية في ظلّ بسمارك». من هنا، ضاق ببيل ذرعاً في مؤتمر شتوتغارت بلهجة كارل - ابن فيلهلم - ليبكنخت، الحادّة ضدّ العسكرية، وأسف لأنّه كان يعقد الآمال على هذا الشابّ كي يكون في موقع قياديّ مثل والده - علماً أنّ كارل انتُخب لقيادة أممية الشبيبة الاشتراكية في مؤتمر شتوتغارت - لكنّ هذه اللهجة العنيفة من شأنها أن تستثير السلطات العسكريّة البروسيّة. وبالفعل، بعد شهرين على المؤتمر، حوكم ليبكنخت بتهمة الخيانة العظمى وشُجن لعام على الكراس الذي كان أصدره قبل ذلك بعام «العسكريّة والانتية - عسكريّة» الذي نُقل فيه إلى الشباب العماليّ الألمانيّ تجارب الشبيبة البلجيكية والسويدية في النضال ضدّ العسكرية. كما يشير بول فروليش، كان لمحاكمة كارل ليبكنخت في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٠٧ وقع الصدمة في صفوف الحزب، إذ كانت الملاحظات ضدّ الاشتراكيين - الديمقراطيّين نادرة في ذلك الوقت، بعد زهاء العقدين على انتهاء قوانين الاستثناء ضدّهم. إلّا أنّ نجم ليبكنخت ارتفع بعد تجربة السجن هذه، فدخل بعدها إلى لانغدتاغ (برلمان) بروسيا عام ١٩٠٨، ثمّ إلى الرايخستاغ عام ١٩١٢. هذا في مقابل عزلة سياسيّة تعرّضت لها لوكسمبورغ في السنوات التي أعقبت مؤتمر شتوتغارت، الأمر الذي يرده المؤرّخ جيلبير باذيا إلى موقفها في المؤتمر نفسه، من خلال التعديل الذي نُحِث بتمريره هي ولينين ومارتوف على مشروع قرار الأممية بشأن الحرب الذي صاغ اقتراحه الأوّل أوغست ببيل.

إذ أنّ الجدال المحتدم حول الحرب العتيدة وكفيّة مواجهتها دار أساساً بين المندوبين الألمان والفرنسيين (زائد الإنكليز) على كفيّة الضغط لتفادي اندلاعها، في حين أنّ التعديل المقدم ركّز بالأحرى على كفيّة بلورة الردّ الاشتراكيّ على الحرب في حال وقوعها. وبيدو، على ما يذهب إليه جورج هوبت، أنّ يمين «الأممية الثانية» ووسطها لم يتوقّف كثيراً أمام هذا التعديل، إذ اعتبراه افتراضياً، ولا يتطلّب منهما شيئاً ملموساً في الأمد المنظور، وهكذا نُظر إلى القرار الختاميّ للمؤتمر مأخوذاً ككلّ على أنّه بُرضي الجميع. بالنسبة إلى الثوريين، اعتبروا أنّهم قرّضوا أجندتهم على الإصلاحيين. بالنسبة إلى الإصلاحيين،

صدمة لينين كانت بكاوتسكي ورخاوتيه حيال الحرب. أما صدمة روزا فكانت من الجماهير البروليتارية نفسها، على الرغم من أنها خبرت الموقف سابقاً في النموذج الروسي، لكنّها خيرةٌ ما كانت لتكفيها لفهم الحاصل عام ١٩١٤. تبدو هذه نقطة ارتكاز أساسية لفهم كتابات ومواقف روزا لوكسمبورغ خلال الحرب الكبرى وصولاً الى الثورتين الروسيّة ١٩١٧ والألمانيّة ١٩١٨، وهو القسم الثاني من هذا البحث في أزمة الأُمّية الثانية.

#### الهوامش

- ١ في مقالته «الأُمّية الثالثة ومكانها في التاريخ» (أيار / مايو ١٩١٩) يقابل لينين بين نموذج الأُمّية الأولى (١٨٦٤ - ١٨٦٤) التي «أرست أسس تنظيم العمال على نطاق عالمي بغية تحضير هجومهم الثوري على الرأسمال» وبين الأُمّية الثانية (١٨٨٩ - ١٩١٤)، التحقيب كما يعتمده، من حيث هي «منظمة عالميّة للحركة البروليتاريّة تنامت أفقيّاً، الأمر الذي أدّى إلى هبوط موقّت في المستوى الثوري، إلى اشتداد موقّت في الانتهازية، ممّا أدّى في آخر المطاف إلى إفلاس هذه الأُمّية افلاساً مخزياً». لينين، المختارات ٨، دار التقدم، موسكو، ط ١٩٧٧، ص ٥١٤
- ٢ حمل اسم «الحزب العمالي الاشتراكي لألمانيا» بعد المؤتمر التوحيدي في غوتا ١٨٧٥، وعدّل الاسم إلى «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» عام ١٨٩٠
- ٣ <https://www.marxists.org/history/international/social-democracy/1891/erfurt-program.htm>
- ٤ F. Engels, *Critique du programme du programme social - démocrate de 1891* <https://www.marxists.org/francais/engels/works/1891/00/18910000.htm>
- ٥ Christian Baechler, *L'Allemagne de Weimar 1919 - 1933*, Paris, Fayard, 2007, p. 36 - 41
- ٦ Carl E. Schorske, *German Social Democracy 1905 - 1917: The Development of the Great Schism*. Harvard University Press; Reprint edition, 1983, p. 6
- ٧ يورد لينين في «مرض اليسارية» الطفولي في الشيوعيّة مقاطع من مقالة «السلافيون والثورة» لكاوتسكي التي نشرتها «اليسكر»
- ٨ Paul Frolish, Rosa Luxemburg, Paris, Maspero, p. 123
- ٩ C. Schorske, op.cit. p. 34
- ١٠ Idem, p. 44
- ١١ Norman Davis, *God's Playground. A History of Poland*, volume II, Columbia University Press, New York, 2005, p. 273
- ١٢ P. Frolish, op.cit. p. 146
- ١٣ Idem, p. 155
- ١٤ يشير جيلبير باديا الى حصول هذا اللقاء السري بين لينين وروزا لوكسمبورغ في فنلندا، فيما لا تأتي السيرة التي كتبها بول فروليش على ذكره
- ١٥ Rosa Luxemburg, *Textes*, Edition réalisée par G. Badia, Editions sociales, Paris, 1982, p. 190
- ١٦ James Joll, *The Second International and War*, In: *Opinion publique et politique extérieure en Europe. 1. 1870 - 1915*. Actes du Colloque de Rome (13 - 16 février 1980) Rome: École Française de Rome, 1981. pp. 245 - 262. (Publications de l'École française de Rome, 54 - 1); Paul Frolish, op.cit. p. 226
- ١٨ Georges Haupt, *Le Congrès manqué. L'Internationale à la veille de la première guerre mondiale. Étude et documents*, «Bibliothèque socialiste», 1965, p. 26
- ١٩ Idem, p. 27
- ٢٠ Arno Mayer, *La persistance de l'Ancien régime. L'Europe de 1848 à la Grande Guerre*. Paris, Flammarion, 2010

لنفسها، ذاهباً عام ١٩١٦ إلى أنّه «ستحيل تفسير «الخيانة» بدون ربطها بالانتهازية بوصفها تياراً له تاريخ طويل، هو تاريخ الأُمّية الثانية كلّها»، ومقترحاً تعميم القسمة بين بلاشفة ومناشفة لتصبح قسمة متجدّرة في كل البلدان، على الرغم من كون معظم المناشفة ضدّ الحرب، فقد امتازت مقارنة روزا بالتوقّف مليّاً، وبحزنٍ شديد، أمام واقعة تبخّر كلّ الأفكار الأُمّية التي كانت تسري في الجماهير بين ليلة وضحاها. الجماهير العماليّة بدت متعطّشة للقتال أكثر من قياداتها.

ما لم تقرّ به لوكسمبورغ في المقابل أنّ هذه الجماهير العماليّة كانت متعطّشة للحرب أكثر من البرجوازيّة نفسها. تعاملت روزا مع «ديكتاتورية البرجوازيّة» كما لو كانت قائمة بالفعل في ألمانيا، وهذه أساساً الخلفيّة الفعلية لبرنامج إيرفورت ١٨٩١: تجاوز الوقائع الماثلة لاستمرار نظام ملكيّ يعتمد أساساً على أرسنقراطيةٍ مهيمنة على البيروقراطية والجيش، ومتكئة على علاقاتٍ شبه إقطاعية شرق نهر الإلبا، لأجل اختصار الاستقطاب بين بروليتاريا وبرجوازيّة. كانت البرجوازيّة الألمانيّة أكثر الطبقات تردداً حيال الحرب، والأرسنقراطية أكثرها انغماساً، تليها الطبقة العاملة، أكثر من الفلاحين أنفسهم المّالين في ألمانيا للتّيّارات المحافظة. في مطلع الثمانينيّات من القرن الماضي، قدّم المؤرخ الأميركيّ أرنو مايير مساحةً وافية لإعادة تقويم الصورة حول ألمانيا وأوروبا عشية الحرب الكبرى من خلال كتابه «استمرارية النظام القديم». بالنسبة إلى مايير، مرحلة ١٩٠٥ - ١٩١٤ كانت حتى مرحلة الهجوم المضادّ التي سنّته قوى النظام القديم لإعادة التحكّم بالمجتمعات الأوروبيّة، وتنامي النزعة الحربيّة يفسّر في هذا المنحى، وهو يعتبر أنّ أوروبا حافظت على الطابع ما قبل البرجوازيّ حتى ١٩١٤، وأنّ الثروات العقارية استمرّت المصدر الأوّل للمداخيل، وأنّ البرجوازيّة هي التي كانت تتكيّف مع الأرسنقراطية وتبحث عن نيل الألقاب، والنبالة لم تكن فقط أكثر عدداً من البرجوازيّة، بل أكثر تضامناً وثقةً بنفسها. في وضع كهذا، بدت الأمة أشبه بمشروع تلاحم أرسنقراطيّ - بروليتاريّ حيث يمكن أن تقصّي البرجوازيّة، أو أن يجري ترهيبها بهذا الأمر على الدوام. لم تر روزا لوكسمبورغ المشهد التاريخيّ نفسه الذي أعاد أرنو مايير تركيبه. لكنّها رأّت جزءاً أساسياً منه، عندما أدركت أكثر من سواها على يسار الأُمّية، حماسة الجماهير للحرب، مباشرةً بعد سنواتٍ من حماسيتها لمناهضة الحرب. كيف أدركت ذلك وكيف تعاملت معه؟

## الحذاء

♦♦♦♦♦ إدواردو غالينو ♦♦♦♦♦

في العام ١٩١٩ اغتيلت الثورية روزا لوكسمبرغ في برلين.  
صرعها قتلتها بضربات من أعقاب البنادق ورموها  
في مياه إحدى القنوات.  
على الطريق، فقدت روزا فردة حذاء.  
امتدت يدها والتقطته، التقطت ذلك الحذاء الذي سقط  
في الوحل.  
كانت روزا تتطلع الى عالم لا يضحى فيه بالعدالة  
باسم الحرية،  
ولا بالحرية باسم العدالة.  
في كل يوم، تمتد يدها لرفع هذه الراية،  
التي سقطت في الوحل  
مثل فردة الحذاء.

من «كتاب أطفال الأيام، روزنامة التاريخ البشري»  
(٢٠١٣)

# إعادة اكتشاف روزا لوكسمبورغ أرنا المعجزة! أين معجرتك؟

## ميكائيل بري

فيلسوف اجتماعي  
في مؤسسة «التحليل  
الاجتماعي النقدي»  
في مؤسسة روزا  
لوكسمبورغ ببرلين.  
تركز أبحاثه على  
نظرية الاشتراكية  
الديمقراطية  
وتاريخها والتحويلات  
الاجتماعية البيئية  
في المجتمعات  
الحديثة والمسائل  
الاستراتيجية للسيار  
في أزمة النيوليبرالية.

حتى بعد مئة عام من ميبتها الشنيعة بين ليلة ١٥ وصباح ١٦ من كانون الأول / ديسمبر من عام ١٩١٩، لا تزال تدوي أصداء كلمات روزا لوكسمبورغ التي وردت في كتابها «في الثورة الروسية»، إذ تقول إن الديكتاتورية المنشودة هي ديكتاتورية «طبقة، وليست ديكتاتورية حزب أو طغمة [...]، ومعنى هذا أنها ديكتاتورية تمارس بأرحب عمومية، وبأنشط مشاركة شعبية، تمارس بديمقراطية من دون قيود». حتى الأعداء يجب أن يحظوا بحرية التعبير السياسي، وفق لوكسمبورغ، التي كانت تطالب باتباع مباشر لمسالك اشتراكية في البناء الاجتماعي لعملية الإنتاج. ميشائيل بري يسلط الضوء على اشتراكية لوكسمبورغ الحيوية والمعيشية، وذلك في ضوء السؤال عن أهمية عملها بالنسبة إلى مساعٍ حالية ترمي إلى تأسيس استراتيجي لسياسة اشتراكية يسارية.

دولة كما فعل لينين، ولم تترك عملاً مُدهشاً على نحو «رأسمال» ماركس. أثرها السياسي بقي محدوداً، وأعمالها الاقتصادية لا تنقصها الأهمية، غير أنها تماثل أعمال مجموعة من معاصريها الماركسيين.

بالاعتماد على الأثر المباشر لأعمالها سيتعدّر على المرء إدراك أثر روزا لوكسمبورغ الواقعي الباقي، فثمة ما يُعطي من شأنها: إنّه حياتها ذاتها. [...] في هذه الحياة تنجلي عبقرية لوكسمبورغ، إذ فيها يمتزج قدران كبيران من التيسيس والخصوصية، ويتزامن انخراط عملي وجودي العواقب مع تفكير نظري، لقد كانت حياة لوكسمبورغ منخرطة بقضايا الناس بصفتها صحافية وخطيبة مُبرزة، وفي حين ذاته عاكفة على نفسها، على الرسم والموسيقي والنباتات والحيوانات. مراراً وتكراراً كانت تغوص في الكتابة والرسم وعلم النبات «من الصباح حتى المساء دونما فعل شيء آخر»، وكأنّها سكرى (GM 5: 74,234).<sup>٢</sup> بيد أنّها كانت عقب ذلك تجوب المظاهرات واحدة تلو الأخرى. لم تكن هذه مناحي تتجاوز في حياتها فحسب، بل أضداداً تُعاش على نحو مكثف وتتفاعل فيما بينها. يذكر فالتر ينس (Walter Jens) أنّ لوكسمبورغ سعت إلى شكل حياة «يُنتج فيه من الشخص الخاص والحيوان السياسي كائنٌ منسجمٌ ومطبوعٌ بهويته الذاتية وبالعلاقة

«سألني مرّة عمّا ينقصني. في الحقيقة: الحياة»<sup>١</sup>

الكثير من السياسيين يمكن اختزالهم بمبدأ واحد. غير أنّ لوكسمبورغ كانت فضاءً من التناقضات المعيشية. فعلى الرغم من حرصها على تحصين حياتها الخاصة وحفظ مساحاتها الحرة في أدق التفاصيل، لم تكن حياتها الخاصة هذه من جهة، ونشاطها السياسي من جهة أخرى سوى وجهين لحياة واحدة مُتحققة الإمكانيات. ولعلّ من المستحيل الفصل بين فهمنا لوكسمبورغ وفهمها لذاتها. فلطالما كانت مستعدة للتضحية بنفسها، وذلك منذ أن كانت طالبة في الثانوية، ومن ثم في خضم الثورة الروسية (١٩٠٥ - ١٩٠٦)، وكذلك في السجون الروسية والألمانية كما في ثورة تشرين الثاني / نوفمبر. كانت تستمتع بالحياة بوعي وكثافة تعمقاً مع تقدّمها بالعمر. لا بدّ لمن يريد فهم لوكسمبورغ من قراءة رسائلها إلى جانب أعمالها. فالرسائل توضح معنى الحياة الناجحة بالنسبة إليها كاشتراكية. إنّ العلاقة المتبادلة بين أعمالها السياسية والنظرية من جهة ورسائلها من جهة أخرى تعكس التوترات التي وسمت حياتها، ومن يعجز عن فهم ذلك، يفشل في فهم أيّ شيءٍ من لوكسمبورغ. لا تُقاس حياتها بأعمالها فحسب، إذ إنّها لم تؤسس

١ رسائل روزا لوكسمبورغ الكاملة بالألمانية: «Gesammelte Briefe, 6 Bände. Dietz Verlag, Berlin».  
٢ أعمال روزا لوكسمبورغ الكاملة: «Gesammelte Werke, 7 Bände. Dietz Verlag, Berlin».



مفتوحة بالعالم في آن معاً» (Jens 1995: 13). في إطار وحدة بين تغيير العالم من جهة وتغيره الذاتى من جهة أخرى، عاشت لوكسمبورغ الاشتراكية كحركة تحررية - تضامنية على نحو يُحتذى. [...]

**بنظـر** **الثورة الروسية تعبيراً عن قدرة الناس على التنظيم ذاتياً وتقرير مصيرهم بأيديهم. فى ذات الوقت كانت تغفل وعلى نحو تام تقريباً الدور الضروري للتنظيمات المتراصة. واجمها أحياناً بوصفها أدوات سلطة.**

تجرنا قراءة أعمال لوكسمبورغ السياسية والنظرية إلى لغة ماركسية الأهمية الثانية، والتي باتت اليوم بحكم المنقرضة إلى حد بعيد. الكثير مما يرد في نصوصها من كلمات مفتاحية لم يعد يمتلك معادلاً حياً، أو أنّ هذا المعادل صار يجب إعادة إنتاجه من جديد. البدهة التي تسم كلامها عن طبقة العمال والبروليتاريا والإصلاح والثورة وعن الحزب والاشتراكية هي بدهة تنتمي إلى عصر آخر غير عصرنا. لكن ما أن يخترق المرء حاجز اللغة هذا حتى يكشف واقع الحياة المحجوب خلفه، ومعه السبب الباقي لألق لوكسمبورغ المستمر لأزيد من قرن من الزمان، أي علاقتها الشعاعية بالعالم. في كلّ شيء كانت تبحث عن «أنت»، والعالم كانت تخاطبه بـ«أنت». طاقة هذا الخطاب تصدر عن قوة شخصيتها، عن «روحها». ضدّ ليو يوغيشيس Leo Yogiches علقت مرّة في إحدى رسائلها: «محدداً شكل الكتابة لا يرضيني، أشعر أنّ شكلاً أصيلاً يينع في روحي، شكلاً لا يتكوّن من الصيغ والقوالب، بل يفجرها - بطاقة الروح والقناعة. أحتاج إلى أن أكتب على هذا النحو، أن أوثر في الناس كصاعقة وأمسك بهم من جماجمهم، طبعاً ليس بالحماسة، بل ببعد النظر وقوة الإقناع وطاقة التعبير» (GB 1: 307).

**مُبصرة وعمياء معاً**

ثمّة مفارقة دائمة في حالة لوكسمبورغ، فهي كانت مُبصرة وعمياء في آن معاً. لم يكن لتفاؤلها حدود حينما يتعلق الأمر بقدرة العمال والعمال على الفهم والاستيعاب والتي تمكّنهم من تجاوز تبعيتهم للنظام الرأسمالي. بدا لها أنّ لكلّ معركة أفقاً يجاوز الآن والهنا. القناعة بالمعطى

والاكتفاء بالذات لم يكونا ممّا تطيقه أو تصبر عليه. بنظر ناخب استطاعت أن ترى في الثورة الروسية تعبيراً عن قدرة الناس على التنظيم ذاتياً وتقرير مصيرهم بأيديهم، في ذات الوقت كانت تُغفل وعلى نحو تام تقريباً الدور الضروري للتنظيمات المتراصة، وتهاجمها أحياناً بوصفها أدوات سلطة. كانت تصرّ على تضامنٍ طبقيّ عابر للحدود القومية والعرقية والجنسية، ولذا كانت تُعرض عن تسييس «آلام اليهود» الخاصة وعن الاعتراف باستقلالية المارك ضدّ البطيركية أو ضدّ عدوان أمة على أمة. لم تكن تعترف إلاّ بنضال اشتراكيّ مشترك ممنوع عليه أن يبدي أيّ تصدّعات. لذا يفقد قارئ أعمال لوكسمبورغ إجابات مُقنعةً استراتيجيةً على السؤال عن كيفية اتّباع سياسة تضامنية تتعدى مناشدة المشترك، وذلك في ظلّ الاعتراف بالتصدّعات، لا بل بالانقسامات أحياناً. لقد كانت ترى نفسها مثالية بقدر اعتمادها في تحليلاتها على المصالح الاقتصادية.

لم تكن روزا لوكسمبورغ استراتيجيةً مثل لينين، ولا منظرةً مثل كاوتسكي، ولا مرتابةً كبرنشتاين ولا مثقفة عضوية كغرامشي، بل كانت نبيةً بمعنى العهد القديم وبالمعنى الحديث للكلمة في آن معاً - كانت «محررةً من بيت العبيد» (Veerkamp 2013: 53).

كانت لوكسمبورغ [...] تبحث في الواقع عمّا يلائمها - عن متعة جعل العالم أكثر إنسانية بثقة وفخر، عن جذرية أن يريد المرء التحرر بأكمله غير منقوص، عن الحب الذي يشمل الآخر بأسره ويصيبه في صميمه، عن الجمال في كلّ ورقة شجر وفي كلّ تغريدة طير وكلّ نغمة، وعن كلّ فكرة تفتح رؤية جديدة إلى العالم. [...] أمّا أنها فلا يجوز أن يتلاشى في اتصالها بالعالم الخارجي (GM 2: 290). من سجنها إبان الحرب كتبت: «لم أكن طريّة في حياتي، غير أنني غدوت في الفترة الأخيرة بقساوة فولاذ مصقول، ولن أقدم على أية تنازلات، سياسية كانت أو شخصية» (GM 5: 151).

لكن، وبموازاة ذلك، كان لحياة لوكسمبورغ وجه آخر ينضح بالهشاشة، كما كتبت في ٣٠ آذار / مارس عام ١٩١٧ لصديقها هانس ديفنباخ Hans Diefenbach الذي سقط في الحرب في تشرين الأوّل / أكتوبر من عام ١٩١٧، إذ تقول: «في وسط توازني الجميل الذي حكته بأناة اعتراني أمس قبيل النوم يأس أحلك من الليل، واليوم كان أيضاً رمادياً، ريح شرقية باردة بدلاً من الشمس [...] أحسست أنني نحلة متجمدة [...]»

ذاتها «كأرض ملأى بالإمكانات»، وتبحث في الواقع عن تلك الحركات السياسية، أولئك الناس، تلك الأفكار والأشكال التي تطمح لتفجير الحدود الموضوعية.

في السجن - خلوة مع نفسها ومع العالم  
لا تنكشف شخصية الإنسان بوضوح أشد مما يحدث عندما يُسلب منه حيزه الخاص الذي يحميه. السجنون أماكن من هذا النوع. تعرضت روزا لوكسمبورغ للاعتقال مرات عدة قبل الحرب العالمية الأولى. وأثناء الحرب قضت سنة كاملة في «سجن النساء» في شارع بارنيم ببرلين، ليُعاد اعتقالها - بعد إفراج قصير عنها في ربيع عام ١٩١٦ - في «إجراء احترازي» في فرونكه وبريسلاو حتى تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٩١٨ حين أُطلق سراحها. أثناء هذه «الاستراحة القسرية» في سجنها البرليني عكفت على تأليف «كتيب يونوس» وخاضت نقاشاً مع النقد الموجّه لعملها «تراكم رأس المال»، وأنهت مؤلفها «ضدّ النقد». في أواخر فترة سجنها ترجمت الجزء الأول من مذكرات الثائر الاشتراكي الروسي - الأوكراني فلاديمير كورولينكو Wladimir G. Korolenko، وكتبت مقدمة لها، كما تكنت من تهريب الكثير من المقالات ووقفت على الثورة الروسية على نحو خاص.

من اللافت - إلى جانب نصوصها النظرية والسياسية التي كتبها في السجن - ومما يُعد شرطاً لإنجاز هذه النصوص هو قدرتها وعزيمتها الجبارة على العيش في السجن. لقد كتبت مرة أنها اتبعت مبدأ يقول: «الأهم أن يحيا المرء في كلّ وقت كإنسان كامل» (GB 5: 177).

وطالما كانت تسمح الظروف والسجانون وأمروهم، لم تكن لوكسمبورغ تآلو جهداً في جعل السجن مكاناً يليق بالحياة، وفي إضفاء ملامح الوطن عليه، وإن في أشع الظروف. كانت تحاول مواصلة عاداتها القديمة. الشفق التي سكنتها سابقاً كانت شديدة الأهمية بالنسبة إليها، كان يجب أن تليق بها، مرتبةً وطبيعيةً ما أمكن. كذلك السجن جعلته «قابلاً للسكن» بقدر المستطاع. في سجن فرونكه أنشأت حديقةً وملائها بالنباتات. كانت تلتزم دوماً بنظام يوميّ بقدر ما يتاح لها ذلك. ثم إنَّها تابعت نقاشاتها مع صديقاتها وأصدقائها وعقدت علاقات جديدة. إعاقة السجن للتواصل المباشر تخطتها عبر مراسلاتها المكتتفة. من جهةٍ أخرى، بقيت لوكسمبورغ على نشاطها السياسي المعهود، تتدخل وتُحاول بكلامها الوصول إلى الناس وتنويرهم. أخيراً، استثمرت الوقت في السجن

الانحناء إلى نخلات كهذه وإنعاشها بالزفرات الدافئة كان دائماً جزءاً من عملي، ليت الشمس تشرع بإيقاظي، أنا البائسة، من برودتي القاتلة!» (GM 5: 195).

«أن أكون دوماً أنا ذاتي، بمعزل عن نظرات المحيط والآخر» هو مبدأ لوكسمبورغ الأعلى، التي تضيف: «أنا [...] مثالية وسأبقى، سواء في الحركة الألمانية أو البولونية» (GB 1: 323). لقد كانت تبحث في العالم وفي الآخرين من حولها عمّا يلائم صميمها. وعندما كانت تتحدث بأحاسيسها عن الاشتراكية، أو عن روح الإبداع الجوهرية في الناس الذين شرعوا بالتحرك، أو عمّا ينبغي على الحزب فعله، عن مجتمعات ما قبل الرأسمالية وما بعدها، فإنَّها كانت تقارب هذه الموضوعات من التي كانت تلقى في نفسها صدئاً وتسحرها. وحينما كانت تتحدث عن موت إنسانٍ في أحد منازل الفقراء، أو عن ضحايا الاستعمار أو الحرب أو عن جاموسة معدّبة، فإنَّها كانت تعتبر في الوقت نفسه عن معاناتها الخاصة.

بهذا المعنى كتبت لوكسمبورغ أنّ «أؤمن ما في تركة» ماركس هو الرّبط بين ضدّين اثنين: «التعمق النظري حتى نقود كفاحنا اليوميّ وفق مبدأ، وقوة الفعل الثورية الحازمة كيلا يُخَيَّبَ أمل العصور المقبل علينا من ليسوا أهلاً له» (GW 3: 184). بهذا ترسم لوكسمبورغ بورتريه لنفسها. إعجابها بالإضراب العامّ السياسي عبّرت عنه بكلمات تتواءم مع ما تتمناه لنشاطها: «من عواصف وزوابع الإضرابات العامة، ومن نار وجمر قتال الشوارع تنبثق النقابات الفتية والقوية والبهيجة، كما تخرج فينوس من زبد البحر» (GW 2: 118).

عن نشاطها في المنظّمات الاشتراكية كتبت عام ١٩١٥: «بمصادر الاشتراكية أنعشنا الروح العطشى لإنسانيةٍ حُرّة، ومن هذه المصادر نهلنا حياةً جديدة، غير أننا لن نكون أهلاً لهذا إن اكتفينا بكلّ ما تلميه علينا اللحظة الراهنة. ما نقوم به عبر التنظيم ومن أجله يجب أن يُملأ بروح اشتراكية كالوعاء حتى أطرافه. بذلك فقط تحصل الروح الاشتراكية على معناها الحقيقي وقداستها» (GW 2: 118).

كانت لوكسمبورغ تحسب نفسها المعبرة عن هذه الروح. من دون هذه الروح ما كان للوعاء أن يكون أكثر من قشرة ميتة وبمثابة جهنم بالنسبة إليها شخصياً. عن هذه الوحدة بين صميم شخصيتها وذلك الحراك العالمي الذي تبنته صدر استعدادها لمواجهة الهزائم، أو حتى الموت على ألا تتباين حياتها عن مُثلها. لقد كانت ترى

في التفكير السياسي والثقافي. وجزءاً تألق شخصيتها  
تمكنت لوكسمبورغ، على الأقل في سجن فرونكه، من  
الحصول على امتيازات جوهرية. (انظر مذكرات مدير  
السجن الدكتور إرنست دوسمان Dr. Ernst Dossman في:  
GW 7: 971 - 995).

### قول الحقيقة

في أحاديثها ومقالاتها كانت لوكسمبورغ تعيد وتكرّر:  
«كما قال مرّة لا سال Ferdinand Lassalle، فإنّ الفعل  
الأشدّ ثورية كان وسيبقى الجهر بالأشياء كما هي.»  
(GW 2: 36)، انظر كذلك إلى المصادر لدى لا سال في  
الهامش في GW 7.2: 577) غير أنّ لقول الحقيقة لدى  
لوكسمبورغ أبعاداً عديدة:

أولاً: عن مبدأ قول الحقيقة لزم مطلب خلق وحفظ  
فضاءات سياسية تُصان فيها حرّية مغايري الفكر كقيمة  
عليها. طالما كان يتكلم، فإنّ العدو أيضاً لا يجوز المسّ  
بحرّيته. فقط في فضاءات الكلام الحرّ يمكن للإنسان  
أن يحصل على حقّ تقرير مصيره وامتلاك قراره. ولذا  
ليست الديمقراطية مرحلة انتقالية، كما أنّ ديكتاتورية  
البروليتارية لا بدّ أن تتسم بـ«صحافة حرّة لا يضيق  
عليها... وتجمّعات ومحادثات من دون عوائق». تتساءل  
لوكسمبورغ، كيف يمكن بغير هذا أن تتحقّق «سلطة  
الجماهير»؟ (GW 4: 358).

ثانياً: لا يجوز الخلط بين ما تعنيه لوكسمبورغ من  
قول الحقيقة والثرثرة المجانية. [...] توجد الحقيقة، بادئ  
ذي بدء، في المتكلمة والمتكلم، متخذة شكل مزاعم عن  
الذات ومكفولة بالفعل ذاته. تكمن وصية لوكسمبورغ  
في المقام الأول في أنّها، كاشتراكية، قد واجهت تناقضات  
الحياة بأقصى درجات الاتّساق بين القول والفعل، حتى  
تجاوزت تلك النقطة التي يغدو عندها الاتّساق مع الذات  
بمثابة أبلغ درجات إهمال الذات، اتّساق قد يعني الموت.  
عندما همت السلطات القيصريّة عام ١٩١٣ باحتجاز  
لوكسمبورغ بذريعة إمكانية هروبها، دوّت كلماتها في  
نهاية المحاكمة: «الديمقراطي الاشتراكي لا يهرب، إنّه  
يتحمّل مسؤولية أعماله ويهزأ من معاقبته جرّاءها.  
فلتحاكموني إذن!» (GW 3: 406).

الالتزام فعلياً بالكلام كان من الخصال التي ميّزت  
لوكسمبورغ، لا بل إنّها كانت راديكالية في هذا الصدد.  
وحدها هذه الخصلة ما جعلها أهلاً لأن يجهر بالحقيقة.  
وحقيقة كلامها كانت تكمن في حقيقة حياتها، فقول





الحقيقة كان تعبيراً عن الحقيقة التي تكفلها حياتها ذاتها. يتضح هذا أكثر في رؤيا يوحنا حيث يرد: «سأتيتوك من فمي لأنك فاتر، لا حار ولا بارد» (رؤيا يوحنا ٣: ١٦).

**انبثق مذهب قول الحق عند لوكسمبورغ عن الماركسية نفسها. فهي عاشت تناقضات الماركسية التي لم تكن بالنسبة إليها علما محضاً ولا مجموعة من المؤمنين. لا أيديولوجيا شكلانية ولا محض أداة سياسية. بل ممارسة حياتية وكذلك السياسة الواقعية - الثورية الوحيدة الممكنة.**

ثالثاً: يدفع قول الحقيقة المخاطب بهذا القول أيضاً إلى الالتزام. فكذلك الآخرون لا ينبغي أن يبقوا فاترين، وهو ما اتخذ عند لوكسمبورغ معنىً سياسياً وإنسانياً في الوقت نفسه. بهذا المعنى كتبت لصديقتها كوستيا تسيكتين Kostja Zetkin، وذلك في إطار تحضيرها لـ «كتيب يونس»: «حضرت اليوم في دار الأوبرا حفلة بيانو لبيتوفن. لقد كانت رائعة، غير أنني وأثناء الاستماع انتابني مشاعر كره بارد تجاه الرعاع الذين يتوجب عليّ العيش بينهم. أشعر بأنه بات من الضروري تأليف كتاب عمّا يحصل، كتاب لم يسبق أن قرأه رجل ولا امرأة، ولا حتى أطلع الناس في السن، كتاب يهوي على رؤوس القطعان كما تهوي الهراوات» (GB 5: 28). بقول الحقيقة كانت لوكسمبورغ تدفع الآخرين إلى حياة حقيقية، لا بل تجبرهم عليها بعنفوان اللغة. لم تكن علاقاتها الخاصة بمنأى عن سعيها هذا. فنحن نقرأ في رسالة كتبها إلى شريك حياتها ليو يوغيش في ٢١ آذار / مارس ١٨٩٥: «أيها الغالي! أتدري بنواياي الفظيعة؟ لقد قلبت علاقتنا في رأسي قليلاً، وعندما أعود، سأستبد بك حتى يعلو صراخك، ستري! سأرهبك بشدة. عليك أن تخضع وترك، هذا هو شرط استمرار حياتنا المشتركة. يجب أن أكسرك وأقلم أظافرك، وإلا لن أتمكن من تحمل العيش معك. أنت إنسان سيئ، أرى ذلك بوضوح الشمس في كبد السماء، بعدما تأملت في ملامح روحك بأكملها. سأطفي نار غضبي هذا فيك، طالما بقيت أحياء حياة حقيقية، فلا يجوز لأمثالك أن يعيشوا فساداً دون رادع. يحق لي فعل هذا، فأنا أفضل منك بعشر مرات وأستهجن عن وعي أقوى جوانب شخصيتك هذا» (GB 1: 56f).

رابعاً: كان قول الحقيقة لدى لوكسمبورغ بمثابة إنتاج

لواقع حقيقي - علاقات حقيقية وأشكال حياة حقيقية وسياسة حقيقية، وإن ظل هذا مظهرًا، كما كان يسميه إرنست بلوخ Ernst Bloch. الممارسة اللغوية لوكسمبورغ كانت تحسب نفسها استحضاراً معيشياً لما هو ممكن ولما يمكن أن يتحقق عندما يعيش الناس في الحقيقة. في مؤلفها «في الثورة الروسية» تصوغ لوكسمبورغ رؤيتها بالصد من «الاشتراكية الواقعية» بلشفية الطابع على النحو التالي: «إن نظام المجتمع الاشتراكي لا يمكن ولا ينبغي أن يكون إلا منتجاً تاريخياً، مولوداً من رحم التجربة الخاصة في ساعة انقلاب الإمكان إلى واقع، مولوداً من صيرورة التاريخ الحيوي الذي - تماماً كالطبيعة العضوية حيث يكون الجزء في نهاية المطاف هو الكل - يُعهد عنه أنه يُنتج بالتساوق مع الحاجة الاجتماعية الواقعية الوسيلة لتبليتها، أي أنه يُرفق السؤال بالجواب» (GW 8: 360). إن اشتراكية من هذا النوع لهي مجتمع تُنظمه أعلى درجات التنوع، الذي كانت لوكسمبورغ قريبة منه في دخيلتها. عن لوكسمبورغ هذه كتب بول ليفي Paul Levi عام ١٩٢٢: «لم تكن روحها المنسجمة في صميمها تعرف الانفصالات والجدران. كل شيء كان عندها عملية صيرورة حيوية لا يمكن فيها للروافع الميكانيكية وعبوات الأكسجين أن تنوب عن عمل الطبيعة، صيرورة تتخذ شكل معارك الإنسان ومطامحه، أي شكل النضال العظيم المفروض على الفرد والأجناس والطبقات. لذا لم تكن تسعى لوكسمبورغ لأن يكف المرء عن النضال في هذه الطبيعة تحت ذريعة أن كل شيء سيحدث تلقائياً من ذاته، بل على العكس، كانت ترمي إلى النضال الأشد حيوية، لأنه الشكل الأشد حيوية للصيرورة» (Levi 1990: 223f).

خامساً: انبثق مذهب قول الحق عند لوكسمبورغ عن الماركسية نفسها. [...] فهي عاشت تناقضات الماركسية التي لم تكن بالنسبة إليها علماً محضاً ولا مجموعة من المؤمنين، لا أيديولوجيا شكلانية ولا محض أداة سياسية، بل ممارسة حياتية وكذلك السياسة الواقعية - الثورية الوحيدة الممكنة. لقد وجدت نفسها لوكسمبورغ، كما كتبت عام ١٩٠٣، في مواجهة مع حقيقة «أن تأثيراً معيناً ضاعطاً لماركس على حرية الحركة النظرية لدى بعض طلابه لا يمكن نكرانه» (GW 1.2: 364). ثمة «حرص مخجل على إبقاء التفكير على أرض ماركسية» (المصدر نفسه). بيد أن هذا قد يُضرب في بعض الحالات بعمل الفكر [...] ذات الضرر الذي قد يتسبب به الطرف الآخر، أي السعي

المخجل لإثبات «استقلالية الفكر» عبر التبرؤ الكامل من منهج التفكير الماركسي» (المصدر نفسه). وهذا بدوره يطرح السؤال: هل يمكن العيش البتاء مع التناقضات التي عاشتها لوكسمبورغ في إطار الماركسية، أو في إطار أي ماركسية يمكن هذا؟

### الحرية هي دوماً حرية الآخر

في مجابهتها كل انتهازية، كانت لوكسمبورغ تطالب بأن تحفز الحرية، لكي تكون حرية حقيقية وليست إكراهاً مقنعاً على التكيف، حرية الآخر. بهذا المعنى كانت لوكسمبورغ قد استبقت الحركات الاجتماعية الحديثة. فمطمحها كان عالماً حياً يتسع لكل العوالم: التساوي في الحرية هو تساوي بين المختلفين. إن سلوك الإنسان الحر، كما كانت تفهمه، يكمن تحديداً في تمكين الآخرين - بوصفهم آخرين - من أن يكونوا أحراراً. وقبل أن تصبح هذه الحرية حقاً، تظهر بمظهر المطلب يوجهه كل منا إلى تصرفاته ذاتها، مطلب يتجاوز علاقات استغلال واضطهاد المختلفين فكرياً في المقام الأول.

غير أن الحرية عند لوكسمبورغ تختلف كلياً عن أُنانية ليبرالية السوق أو عن عبادة تحقيق الذات. إن الحرية التي مارسها لوكسمبورغ بوصفها فضيلة اجتماعية هي نضالاً لأجل حرية الآخرين. مجتمع الأحرار ليس هو ذلك المجتمع الذي تناضل مواطنائه ومواطنوه حصراً ضد القمع الذي يتعرضون هم له. فالتجربة تعلمنا أن هؤلاء سينقلبون حالاً إلى مضطهدين للآخرين ما أن تتيح لهم ذلك توازنات القوى وتغريهم أنانياتهم الخاصة. لا أحراراً حقاً سوى أولئك الذين يناضلون ضد قمع الآخرين حتى لو كانوا يستفيدون من هذا القمع. الحرية في عيون لوكسمبورغ هي سلوك يكون علاقات توفّر للمغاييرين شروط الحرية. لكن هذا يتعلق بالسؤال عن الوسائل الأساسية لتحقيق الحرية، كما بإلغاء الامتيازات التي لا تساهم في تخطي اللامساواة الاجتماعية. غير أن هذا يظلّ ممنعاً إذا لم تطاول تغييرات جذرية علاقات السلطة والملكية، ولم يتم تجاوز هيمنة مفهوم الربح على الاقتصاد والمجتمع. لهذا السبب كانت لوكسمبورغ اشتراكية.

لا مجتمع يمكن وسمه بالحرية إلا عندما يكون كل أفراد أحراراً. بيد أن هذا لن يكون ممكناً إلا إذا ساهم التطور الحر لكل فرد في التطور التضامني للجميع. وحدهم المتزمتون والكلييون، حسب لوكسمبورغ، يمكنهم أن يصدّقوا أن أيادي السوق «الحفية» أو أيادي الدولة

«الجلية» يمكنها العناية بذلك من دون تدخّلنا. وهذا تحديداً ما قد يكون معناه أن نتخلّى لآخرين عن مسؤوليتنا تجاه الحرية براحة أو جبن، وأن نغدو بذلك غير أحرار. لذلك لم تكن السياسة بالنسبة إلى لوكسمبورغ سوى مشاركة مقاومة بالممارسة التضامنية التحررية.

إن حرية استثمار المال والذي تؤول حركته إلى ارتفاع توالياتاري من رأس المال - ارتفاع يوزع الغنى والفقير، الصحة والمرض، التعليم والأمية، السلم والحرب على جماعات وطبقات وشعوب متناحرة على هذه الأرض - إن هذه الحرية بالنسبة إلى لوكسمبورغ ليست سوى اضطهاد وحشي. كما أن حرية تمكّن نسبة ضئيلة من سكان الأرض من أن تمتلك النسبة العظمى من مواردها لن ترى فيها لوكسمبورغ سوى سلطة متوحشة. أما «النظام العالمي الليبرالي» عالي التسليح فكانت تصفه بأنه سياسة إمبريالية عسكرية، والحرية التي فرضت نفسها مؤخراً، أي حرية الاستحواذ على الشيفرات الوراثية واحتكار العلم، كان لا يمكن لوكسمبورغ إلا أن تزدرها بصفتها سلباً إجرامياً. وكذلك تدمير التنوع الحيوي على كوكب الأرض، كانت ستعتبره، وهي من كانت تتألم لكل حيوان مشرد ونبات متداس، بريرة ملعونة.

لعله ليس هناك من بين أحكام المجتمع الليبرالي المسبقة ما هو أعند من اعتبار أن الحرية من جهة والمساواة والعدالة من جهة أخرى يقفان على طرفي نقيض. بنت لوكسمبورغ فهمها للحرية على أرضية التكافل، فقط من يوقر للآخر إمكانيّة الحياة الحرّة، يكون عادلاً في ممارسته. [...] إن ترك وصية من هذا النوع والشهادة من أجلها لهو معجزة لوكسمبورغ.

### المصادر

Heraklit (2011): Fragmente. In: Marciano, Laura Gemelli (Hrsg.), *Die Vorsokratiker. Band 1. Griechisch - Deutsch*. Berlin, 284 - 329

Hetmann, Frederik (1998): *Eine Kerze, die an beiden Seiten brennt*. Freiburg

Jens, Walter (1995): Rosa Luxemburg. Weder Poetin noch Petroleuse. In: Soden, Kristine von (Hrsg.), *Rosa Luxemburg*. Berlin, 6 - 17

Levi, Paul (1990): Einleitung zu «Die Russische Revolution. Eine kritische Würdigung. Aus dem Nachlass von Rosa Luxemburg». In: Institut für Geschichte der Arbeiterbewegung (Hrsg.), *Rosa Luxemburg und die Freiheit der Andersdenkenden. Extraausgabe des unvollendeten Manuskripts» Zur russischen Revolution» und anderer Quellen zur Polemik mit Lenin*. Zusammengestellt und eingeleitet von Annelies Laschitzka. Berlin, 177 - 231

Veerkamp, Ton (2013): *Die Welt anders. Politische Geschichte der Großen Erzählung*. Hamburg/Berlin

## تراكم رأس المال وإشكالية «إعادة الإنتاج» من ماركس إلى لوكسمبورغ

وسام سعادة

أستاذ جامعي  
وصحافي، لبنان.

شهد الفكر الاقتصادي الماركسي مساهمتين تجديديتين استثنائيتين عشية الحرب العالمية الأولى. «الرأسمال المالي» لرو돌ف هيلفردينغ و«تراكم رأس المال» لروزا لوكسمبورغ. الأول صدر في فيينا عام ١٩١٠. عُد بمثابة المجلد الرابع لـ«رأس المال» حال صدوره. رفض صاحبه مقولة الانهيار الحتمي للرأسمالية، لكنه اعتبر أنّ رأسمالية القرن التاسع عشر الحرّة التزاحمية صارت من الماضي، وأنّ «النموذج البريطاني» الارتكازي في تحليلات ماركس بـ«رأس المال» والذي يظهر فيه الرأسماليون أنصاراً حرّة التبادل ما عاد يغطي واقع الحال، بخاصة مع الصعود الصناعي لألمانيا والولايات المتحدة، حيث حاجة الرأسماليين إلى الحماية الجمركية، ودور الدولة وتشريعاتها المساند لهم، وحيث تتنامى نزعة التمركز في عمليات تحقيق فائض القيمة، مع ظهور الشركات المساهمة، ثمّ الكارتيلات الصناعية والاحتكارات الائتمانية<sup>٢</sup>. درس هيلفردينغ الترابط المتنامي بين المصالح المصرفية والمصالح الصناعية، ووجد أنّ المصرفي في عصره ما عاد يكتفي بإقراض الصناعي لرأس المال والاكتماء بالفائدة. أمّا الصناعي فما عادت مصلحته في الإبقاء على تملكه الفردي لمشروعه، وأنّ بمسطاعه إذا باع قسماً من هذا المشروع في شكل أسهم، أن يبقى متحكماً به كلياً، طالما معه أكثرية الرأسمال. الأفضل له أن يستثمر الرأسمال الذي سحبه من هذا المشروع لأجل إنشاء فروع له وفقاً للمسار نفسه، وشيئاً فشيئاً يمكنه أن يحافظ على تحكّمه ولو اكتفى بثلث أو ربع الرأسمال طالما لا يزال يحتفظ بـ«امتيازات المؤسس». سلطته التقريرية على رأسمال شركائه الأصغر منه أهمّ من التملك الخاصّ بحدّ ذاته، مثلما أنّ شركة مساهمة أسهل لها الاقتراض من المصارف من المشروع الصناعي الفردي.

من المدرسة الحزبية إلى «التراكم»  
يوم صدر كتاب هيلفردينغ كانت روزا لوكسمبورغ تتابع التدريس في مدرسة «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» الألماني ببرلين. أنشأها هذا الحزب العمالي الماركسي الأكبر في أوروبا في ذلك الوقت عام ١٩٠٦ لتجهيز كوادره، وكانت بحقّ «التعبير عن قوّة الحركة العمالية المنظمة»<sup>٣</sup> كما يصفها بول فروليش الذي يصنّفها أقرب إلى الجناح اليساري للحزب<sup>٤</sup>. كان المفترض بهيلفردينغ أن يعطي مدخلاً للنظريات الاقتصادية لكارل ماركس في هذه المدرسة الحزبية، غير أنّ تهديد الشرطة البروسية بطرد هيلفردينغ، النمساوي، وبانيكوك، الهولندي، أدى إلى تكليف روزا لوكسمبورغ بتدريس الاقتصاد السياسي، بتوصية من «بابا الماركسية» في ذلك الوقت كارل كاوتسكي. لاحقاً ستعترف روزا، أمام مؤتمر الحزب في نورمبرغ (أيلول / سبتمبر ١٩٠٨)، وفي سياق مواجهة المطالبين بتخفيض ميزانية المدرسة الحزبية، بأنّها تلقت في البداية خير تأسيسها بمنتهى الارتياح والخشية من أن تؤدي إلى انعزال مثقفي الحزب بدلاً من انخراطهم في النضال الجماهيري للطبقة العاملة. بيد أنّ المهارات التربوية التي أظهرتها روزا سريعاً في حصص التدريس، وتعاملها الفطن مع كوادر متفاوتة من حيث الخبرة والتحصيل والاضطلاع، جعل من دروسها أوّل محاولة للقراءة الجماعية لـ«رأس المال»، الذي كان على هالته مقروءاً بشكل محدود، في حين أنّ كراس روزا الشائبة «إصلاح اجتماعي أم ثورة؟» (١٨٩٨) الصادر في سياق المعركة ضدّ «التنقيحية»، لقي رواجاً كبيراً في القاعدة الشعبية وصدّرت منه طبعات عدّة متتالية.

انبثق عن محاضرات روزا لوكسمبورغ في المدرسة الحزبية ١٩٠٧ - ١٩١٢، «مدخل إلى الاقتصاد

السياسي». إذ عكفت روزا في فترة سجنها بعد اندلاع الحرب، على مراجعة المخطوطات وتشذيبها لأجل إصدار هذا الكتاب دون أن تتمكن من ذلك، كما اختلف جزءٌ منها أثناء مدهمة العناصر المعادية للثورة منزلها غداة قمع انتفاضة السبارتاكيين، ولم يصدر «المدخل» بصورته غير المكتملة، إلا عام ١٩٢٥، بعد ست سنواتٍ على اغتيال روزا.

سبب أساسي لعدم تمكن روزا من إكمال «المدخل» المعد لتيسير أمر النظرية الاقتصادية الماركسية أثناء حياتها، أثناء تدريسها «رأس المال»، أخذت تتحير أمام كيفية تبسيط وعرض السيرورة الشاملة للإنتاج الرأسمالي سواء من جهة العلاقات الملموسة التي تنظم هذه السيرورة أو من جهة الحدود التاريخية الموضوعية لها. وشيئاً فشيئاً أدركت لوكسمبورغ أنّ المشكلة أبعد من تبسيط منطق هذه السيرورة، وأنها أمام معضلة نظرية، تظهر بشكل أوضح كلما تعدت تدريسها لفصول المجلد الأوّل من «رأس المال»، الوحيد الصادر (١٨٦٧) في حياة ماركس، والمكرّس لعملية إنتاج رأس المال (أي تحوّل النقد إلى رأسمال وإنتاج فائضي القيمة المطلق والنسبي) إلى محتويات المجلدين الثاني (١٨٨٥) والثالث (١٨٩٤) الصادرة بعد وفاته من مخطوطات جمعها فردريك أنغلز، وتحديداً صعوبة المزاوجة بين ما يتضمّنه المجلد الثاني المكرّس لشرح عملية تداول رأس المال وشروط إعادة إنتاجه والتصور التخطيطي للتراكم، وبين ما يتضمّنه المجلد الثالث الذي ينظر في «عملية إنتاج رأس المال ككل». لقد أعطى المجلد الثاني الانطباع بأنّ نمط الإنتاج الرأسمالي قادر دائماً على التوسّع إلى ما لا نهاية، وعلى إعادة إنتاج علاقات إنتاجه، وإعادة تثوير نفسه، في مقابل المجلد الثالث، الذي يشدّد تحديداً في الفصل ١٥ منه على التناقض بين التطوّر اللامحدود للقوى المنتجة وبين محدودية لا يمكن أن يتجاوزها الاستهلاك الداخلي ضمن السوق الرأسمالية. كما في حال هيلفردينغ (١٩١٠) ارتبط «تراكم رأس المال» الذي اعتكفت روزا عن التدريس الحزبيّ عام ١٩١٢ للانشغال فيه وصدوره في العام التالي، بالسؤال حول مصير الرأسمالية.

### رأس المال المالي: تعدّد الخلاصات

نظرية هيلفردينغ في «الرأسمال المالي» ستغدّي لاحقاً خلاصاتٍ على يمينها وأخرى على يسارها. فمن جهة، سيستعيد بوخارين في «الاقتصاد العالمي والإمبريالية»

(١٩١٦) ولينين في «الرأسمالية أعلى مراحل الإمبريالية» (١٩١٦) خلاصات أساسية من «الرأسمال المالي» (اندماج الرأسمالين المصرفي والصناعي في الرأسمال المالي وارتباط ذلك بتزايد النزعة الحربية بين الدول الصناعية) لترجيح كفة بدء انهيار الرأسمالية في حال لينين، بحيث تصبح لحظة انطلاق الحرب العالمية الأولى لحظة بداية النهاية للرأسمالية، في حين سيطوّر بوخارين نظراً تتعلق بصعود نماذج «رأسمالية الدولة» في مرحلة الإمبريالية. استعان لينين بممثل النقد الليبرالي للإمبريالية البريطانية، جون إتكينسون هوبسن وكتابه عن الإمبريالية (١٩٠٢)، مع أنّه كتاب يطمس تماماً حركة التداخل بين الرأسمالين الصناعي والمصرفي، ويني على ترجيح تنامي حركة المضاربة وتصدير الرساميل نحو المستعمرات وأشباه المستعمرات، ليخلص إلى أنّ المتحكّمين بالاقتصاد العالمي يصبحون أكثر فأكثر طفيلية. انتزع لينين هذه السمة الطفيلية من هوبسن، ليدمجها بالنزعة إلى تمركز رأس المال الذي سبر حركتها هيلفردينغ.

من الجهة المقابلة، سيطوّر هيلفردينغ بعد الحرب الخلاصة «اليمينية» لنظريته. هو شدّد سابقاً على أنّ النزعة إلى التمركز أبعد ما تكون عن تجنب الرأسمالية اشتداد أزماتها، وكان يحتسب أقرب إلى الجناح اليساري من الاشتراكية - الديمقراطية، ومن القلة التي عارضت جنوح الحزب لتأييد السياسة الحربية للرايخ الثاني. ما استخلصه من نهاية الحريق العالمي نفسه هو أنّ النزعة التمركزية لرأس المال انتقلت من دور الحرب الشاملة، حرب الكّل ضدّ الكّل على صعيد الإمبريالية، إلى حقبة «الرأسمالية المنظّمة» المديدة، التي يمكن فقط المراهنة على تشريكها التدريجيّ.

وفي الوسط، جاء تعريف كارل كاوتسكي للإمبريالية، بوصفها «نتاج الرأسمالية الصناعية عالية التطوّر»، و باعتبارها نزعة تتجه من خلالها كلّ أمة رأسمالية صناعية إلى استتباع أقاليم زراعية أكثر فأكثر. لكنّ كاوتسكي، وبخلاف لينين، أعاد تطبيق معادلة التمركز على الإمبريالية نفسها، بحيث إنّ توقع - في وسط أتون الحرب الكبرى - أن ينبثق من الحرب الطاحنة بين القوى الإمبريالية تحالف بينها. بالتالي، هذه «الإمبريالية العليا» لن تعود أسيرة سباق محموم على التسلّح، ولن تعود تشكّل تهديداً للسلام العالميّ.

بخلاف الاهتمام اللافت الذي حظي به «الرأسمال المالي» ومسارعة كلّ فصيل في الحركة الاشتراكية إلى

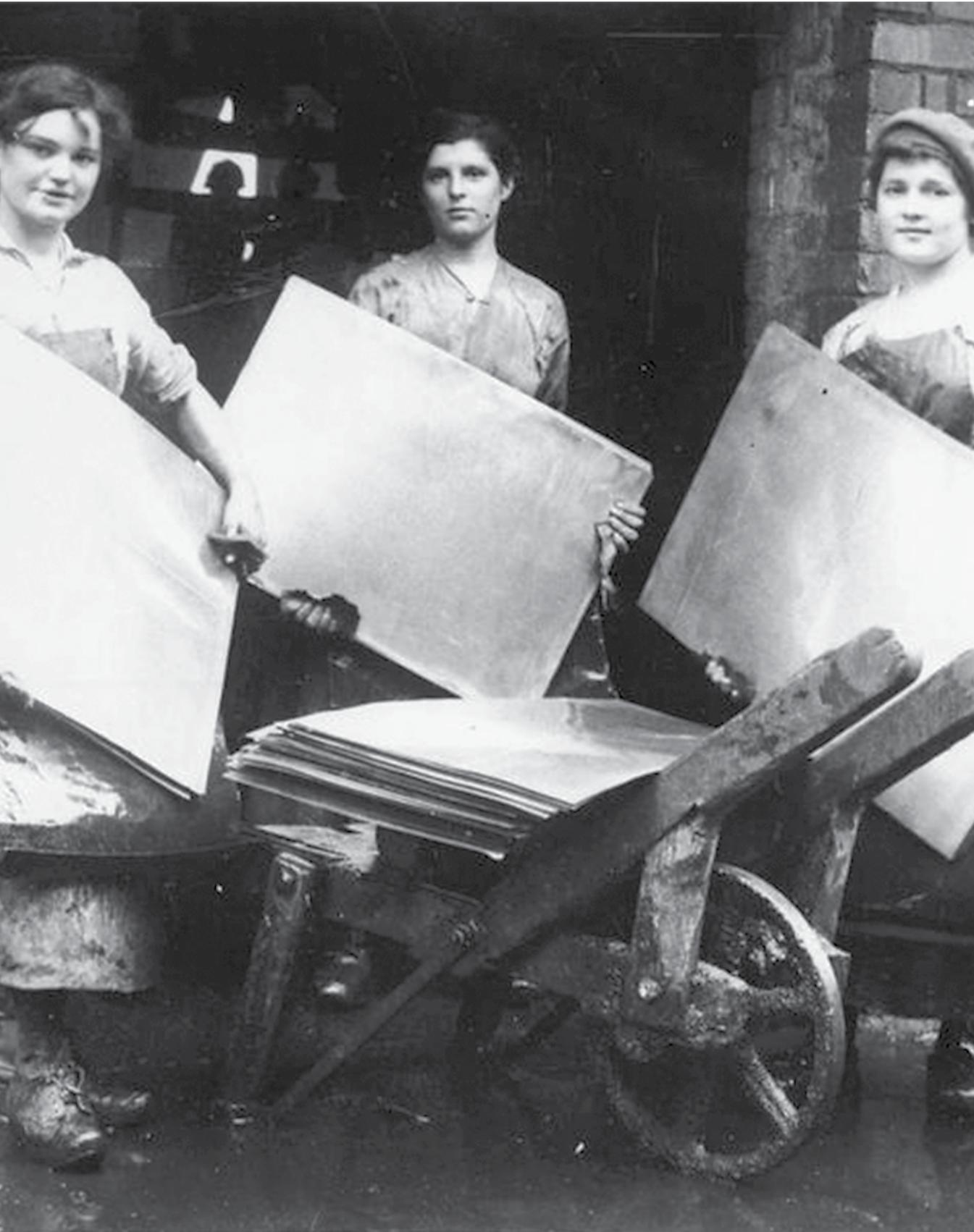
التزاحم. هم يؤؤلون وقائع التحسّن التدريجيّ للأجور الفعلية للعمال في الدول الصناعية بمقارباتٍ مختلفة، وهي لا تزال تكابر على الإقرار بهذا التحسّن، مع أنّ ما كان يمكنها استجماعه من أسانيد في هذا الصدد عام ١٨٩٨ في سياق المساجلة مع إدوارد برنشتاين والتنقيحيين، أصبح من الأصعب التسويق له بعدها بخمسة عشر عاماً، يوم صدور «التراكم».

عناصر الضعف والوهن في كتابها بدت للثّقاد كثيرة، وهي حاولت إعادة تصويب الفحوى في سياق «الردّ على النقد» الذي صدر كمؤلّف لوحده، وكتبت أكثره من داخل السجن أثناء الحرب. يبقى أنّ عنصر قوّة أساسياً ميّز كتابها، يتركز في سؤال بسيطٍ اعتبرت روزا أنه لم يلقَ جواباً شافياً لا في «رأس المال» لماركس ولا عند أيّ من المفكرين الماركسيّين في فترتها. السؤال: «من أين يأتي الطلب؟»، الطلب على الإنتاج السلعيّ المتنامي للحواضر الصناعيّة؟ هل يأتي الطلب على الاستهلاك، الذي لا غنى عنه بالنتيجة لتأمين شروط إعادة الإنتاج، وإعادة تحريك عجلة الإنتاج وتوسيعها، بطلبٍ من الرأسماليّين أنفسهم، بنتيجة من الرأسمال لوحده، بتزايد الضغط الاستهلاكيّ للطبقة العاملة لوحده؟ ما استخلصته روزا أنّ هذا الطلب، الضروريّ في سياق توسعة فضاء التراكم الرأسماليّ هو طلبٌ تفرضه السوق الرأسمالية فزواً على القطاعات والأقاليم التي لم ترسمل بعد. منطوق الإمبريالية عضويّ في منطوق الرأسمالية ذاته بالنسبة إليها. ذلك أنّ الرأسمالية يستحيل عليها استخراج فائض القيمة من داخل السوق الرأسمالية نفسها، ومن العلاقات المقتصرة على قطبين، الرأسماليّين والعمالّ المأجورين. منطوق التراكم الرأسماليّ أنّ يبقى يتوسّع، وألا يكون بمقدوره الاكتفاء بالعودة سنويّاً إلى النقطة التي انطلق الإنتاج منها، لكن إذا أراد أن يتوسّع على كرة أرضيّة معزولة في هذا الفضاء فإن لهذا التوسّع حدوداً، هي قبل كلّ شيء آخر حدود الجغرافيا. إذا ما أراد التراكم الرأسماليّ أن يتواصل، عليه أن يبقى يتوسّع، وكي يتوسّع عليه إلحاق القطاعات والأقاليم غير الرأسمالية به، باستتباعها ورشملتها، وتصريف فائض إنتاجه وفائض استهلاكه فيها. في الوقت عينه، كلّما ترسملت القطاعات والأقاليم ما قبل الرأسمالية، اقتربت الرأسماليّة من صعوبة الاستمرار في استخراج فائض القيمة، ومن النقطة التي ليس بإمكانها إعادة إنتاج شروط استمرارها.

توظيف تحليلاته وخلاصاته، قوبل «تراكم رأس المال» بمزيج من الفتنور والسلبية. هذا يرى فيه «تطاولاً» على ماركس، الذي خطّات روزا جزءاً أساسياً من عمله النظريّ حول إعادة الإنتاج الموسّعة، بحيث ذهبت إلى أنّ نمط الإنتاج الرأسماليّ، مأخوذاً بذاته، لا يمكنه أن يفسر كفيّة استخراج فائض القيمة على الصعيد الشامل، وثمة اختلافٌ نوعيٌّ بين منطوق استخراج فائض القيمة على صعيد مشروع اقتصاديّ فرديّ مأخوذ على حدة، وبين منطوق استخراجها على صعيد مجتمع بأسره وسوق رأسمالية مأخوذة ككلّ. وذاك يرى في الكتاب مراوحة عند معطيات القرن الماضي، وتأخراً في الإدراك بأنّ الرأسمالية التزاحميّة صارت وراءنا، وأنّ ظاهرة الإمبريالية وتزايد النزعة الاحترازية بين الدول الصناعيّة تحيل إلى المنحى المتزايد لتمركز الرساميل، واندماج المصرفيّ منها بالصناعيّ. بإزاء حركة اشتراكية أخذت تتقبّل بشكل أسرع نظريّة «الرأسمال الماليّ» وتنقسم بين من يحاول أن يأخذ هذه النظريّة إلى اليمين أو إلى اليسار، ووجدت روزا نفسها في موقع ضعيف، ومتهمة بأنّها تقوم بتخطئة ماركس عن عبث، ولا تدرك أنّ العصر تغيّر عن فترته في ذات الوقت.

**إذا ما أراد التراكم الرأسماليّ أن يتواصل — عليّ — أن يبقى يتوسّع. وكي يتوسّع عليه إلحاق القطاعات والأقاليم غير الرأسمالية به. باستتباعها ورشملتها. وتصريف فائض إنتاجه وفائض استهلاكه فيها.**

بعض هذه السلبية أتى من هيلفردينغ نفسه، الذي تتهمه روزا في مراسلاته بأنّه سعى في أروقة الحزب إلى إعاقة إصدارها كتاب «التراكم». في نهاية الأمر بدت روزا كمن يكسر «الإجماع» على نظريّة «الرأسمال الماليّ» التي وافق عليها الجميع في الحركة الاشتراكية وتسايق كلّ إلى أخذها في الاتجاه الذي يراه منسجماً أكثر مع تحديد سمات الإمبريالية وأثر هذه السمات في تكوين الطبقة العاملة ودور الحركة الاشتراكية. بدت روزا لهيلفردينغ، كما للينين، كما لكاوتسكي، كمن يحاول تفسير إمبريالية القرن العشرين بإحداثيات القرن التاسع عشر. فالتراكم الرأسماليّ تزاحميّ بالضرورة عندها، وهم يرونه أخذاً في التمركز أكثر فأكثر بحيث يتزايد الاحتكار على حساب



❖  
عمل النساء في  
الصناعات الحربية،  
١٩١٨ - ١٩١٤



## التوسّع الامتداديّ والتوسّع التكتيفي

جذّر هذه المقاربة طرحته روزا منذ سجلها مع المراجعة البرنشتاينية. فمنذ «إصلاح اجتماعي أم ثورة؟» وهي تشدّد على أنّ الرأسمالية تحتاج كي تبقى إلى أن تتوسّع، وتحتاج كي تتوسّع إلى رسملة القطاعات والأقاليم غير الرأسمالية قسراً، وأنها تقترب مع ضيق توسّعها هذا، بما أنّ رقعة الأرض محدودة بالنهاية، إلى اللحظة التي لا يعود من الممكن أمامها التوسّع. الرأسمالية تستمرّ ما دام أنّها ليست لوحدها في العالم، وما دام أنّها ليست نمط الإنتاج الوحيد القائم، وما دامت قادرة على التوسّع وإلغاء الأنماط الأخرى تبعاً، ولا تعود كذلك حين تنسدّ أمام توسّعها السبل. كلّما اقتربت من حسم الأمور لصالح منطقتي تراكمها على الصعيد العالمي اقتربت لحقتها.

غداة السجال بين خطّ المراجعة الذي قاده إدوارد برنشتاين وبين خطّ الماركسيّة الأرثوذكسيّة، اتّهم زعيم التنقيحيين روزا بالترويج لواحدة من طبعات «نظرية الكارثة»، أي توقّع اختفاء النظام الرأسماليّ نتيجة لحظّ بيانيّ متصاعدٍ يجعل أزماته تتراكم على بعضها البعض إلى حين الانهيار التامّ. بالنسبة إلى برنشتاين، نظرية الانهيار الكارثيّ للرأسمالية هي في الظاهر يسارويّة، لكنّها في العمق محافظة وتلغي المسوّغ الفعليّ للنضال طالما تعلق الفرج على التناقضات الداخلية للتراكم الرأسماليّ. لأجل هذا، سعّت روزا إلى التأيّ بنفسيها عن هذا التفسير الانتظاريّ للكارثة المقبلة، معتبرة أنّه ليس المطلوب الاستعداد لاستقبال الكارثة بجهوزيّة عماليّة حزبيّة ونقابيّة عالية، إنّما المطلوب استباق السقوط المدوّي والأخير للرأسمالية، وذهبت إلى أنّ البروليتاريا قادرة بالفعل على الإطاحة بالنظام الرأسماليّ حتى قبل وصوله إلى لحظة انفجاره. وهذا عبّرت عنه تحديداً في كلمتها أمام مؤتمر «الأممية الثانية» بباريس ١٩٠٠، عندما توقّعت أن يحدث انهيار النظام الرأسماليّ نتيجة أزمة سياسيّة بسبب تنامي السباق العسكريّ المحموم بين الدول الأوروبيّة من ناحية، وتنامي الحركة الاشتراكية في كلّ القارّة من ناحية ثانية، أزمة تدفع إليها «السياسة العالميّة» بالدرجة الأولى - في إشارة إلى «السياسة العالميّة» للإمبراطور غليوم الثاني المبنية على «مظلوميّة» ألمانيا والمطالبة بأن يكون لها حصّة وافرة من المستعمرات في أفريقيا وآسيا. بالتوازي، تحوّطت روزا في كلمتها بباريس ونبّهت إلى أنّ «سيطرة النظام الرأسماليّ ربّما تستمرّ لفترة لا تزال طويلة، إنّما عاجلاً

أو آجلاً ينبغي أن نكون حاضرين للاضطلاع بدورنا في اللحظة الفاصلة»<sup>٥</sup>.

يبقى أنّ التناقض المحموم بين لوكسمبورغ وبرنشتاين لا يلغي تقاطعاً في الإشكالية بينهما، فكلّ منهما طوّرت وعياً مبكراً إلى أنّ فائض الإنتاج المرمي في الأسواق ليس بإمكان الرأسماليين والبروليتاريين وحدهم استهلاكه، لكنّ برنشتاين اهتدى إلى خلاصة مختلفة، وهي أنّ الفئات الوسطية وبدلاً من أن تندثر تدريجياً تبعاً للاستقطاب بين طبقتين متناقضتين في المجتمع فإنّها تطوّر كتلاً ونوعاً، وتشكّل القاعدة البشرية الأساسية للسوق الاستهلاكية، كذلك التنامي في القدرة الشرائية للعمّال بفعل ميل معدّل الأجور الفعلية إلى الارتفاع من شأنه عند برنشتاين امتصاص وتحقيق جزء من فائض القيمة.

يضعنا جيلبير باديا أمام مفارقة عرقلت تفكير روزا. فهي لم تحتل فكرة أنّ الأجور الفعلية يمكنها أن تتنامى في النظام الرأسماليّ، وجنحت إلى ربط تحقّق فائض القيمة برسملة القطاعات والأقاليم غير الرأسمالية فحسب. أكثر من ذلك، انطلقت روزا في فهمها للفضاءات الآيلة للإخضاع والرسملة من فهم شامل من الناحية النظرية، لا يختصر في التمدّد الجغرافيّ إلى المستعمرات، بل يتعلق برسملة المناطق الريفية في البلدان ذات السمة الرأسمالية الصناعيّة الغالبة أيضاً، لكنّها أخذت شيئاً فشيئاً تختزل التوسّع إلى التمدّد الجغرافيّ بأجّاه المستعمرات ولم تولّ العناية الكافية لدراسة التوسّع التكتيفيّ لحركة رأس المال في الحواضر نفسها، بل أنكرت تماماً إمكانية تكيف الإنتاج الرأسماليّ مع فضاءات تبادلية جديدة في هذه الحواضر. يقتضي الاعتراف بأنّ برنشتاين كان في موقع قوّة، جزئياً، في هذا النقاش، وبخاصّة حين أبرز لروزا أنّ التصديرات بأجّاه البلدان المستعمرة لا تلعب هذا الدور الأساسيّ الذي تختيّه، وأنّ التصديرات إلى المستعمرات الأقدم أعلى من الكمّ الهزيل جدّاً لتصدير المنتوجات إلى المستعمرات التي غنمها بريطانيا مثلاً في فترة ١٨٨٠ - ١٨٩٠. لا يتردّد باديا هنا في الحديث عن «مكابرة نفسيّة» التزمّت بها روزا لوكسمبورغ أمام وقائع أساسيّة للتطوّر الرأسماليّ في عصرها، وهو يسجل في الوقت عينه مفارقةً أخرى، ذلك أنّ روزا نفسها التي جعلت من الاستعمار قاعدةً أساسيّة للتراكم الرأسماليّ، ونددت بتدمير مجتمعات السكّان الأصليين بشكل لا لبس فيه، لم يكن بإمكانها أن تأخذ بعين الاعتبار بعمق، انتفاضات السكّان المحليين ضدّ المستعمرين، ولا أن تشبك بين هذه

الانتفاضات وبين الصراع الطبقي بين العمل ورأس المال كما فعل لينين، ولا أن تنظر إلى وحدة الكادحين الكليّة انطلاقاً من ثنائية العمال والفلاحين أيضاً على غرار لينين. ويميل باديا هنا أيضاً إلى تعليل الأمر بنشأة روزا لوكسمبورغ في الطرف الأكثر تصنيعاً من الإمبراطورية الروسية، بولونيا، وإلى ضعف مركزيّ في نتائجها عندما يتعلّق الأمر بالمسألة الزراعية والجماهير الفلاحية<sup>٦</sup>.

### إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي: الإطار النظري

تعاملت روزا مع الرأسمالية بوصفها أوّل تشكيّة اقتصادية تمتلك قوّة توسّعية وترويجيّة بهذا الحجم، وأنها تشكيّة تنحو إلى التمدّد على كلّ الكوكب وإزاحة كلّ التشكيلات الاقتصادية الأخرى "لكنّها في الوقت نفسه التشكيّة الوحيدة التي لا يمكنها أن تستمرّ لوحدها طويلاً، لأنّها تتغذى من التشكيلات الاقتصادية الأخرى"، على ما خلصت إليه في آخر كتاب «التراكم» مُطلقةً على الرأسمالية صفة «التناقض التاريخي الحيّ» حيث «حركة التراكم فيها هي التعبير عن هذا التناقض»<sup>٧</sup>.

من هنا، اتخذت نصوص ماركس حول شروط إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي، أي الشروط التي تمكّن الرأسمالية من تجديد نفسها، أهميّة استثنائية في تفكير روزا لوكسمبورغ، وإلى حدّ ما جاء هذا على حساب البُعدين الآخرين لمقولة «إعادة الإنتاج» في الفكر الماركسيّ، فمن ثلاثية إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي، وإعادة إنتاج القوى المنتجة، وإعادة إنتاج علاقات الإنتاج، ركّزت روزا على البعد الأوّل، وظلّت تتعامل مع تنامي القوى المنتجة على أنّه مسلّمة شبه بديهية في التفكير الماركسيّ، ولم تميّز في المستويات كثيراً بين إعادة الإنتاج التي تعنيها، أي إعادة الإنتاج الموسّعة التي تؤمّن قاعدة التراكم، وبين إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية التي هي مسألة أكثر شموليّة.

لقد حيّرت معضلة إعادة إنتاج ماركس طويلاً، لكنّه شدّد في الوقت عينه على أنّها بديهية بالنسبة إلى كلّ الناس! ففي رسالته إلى لويس كوغلمان المؤرّخة في ١١ تموز / يوليو ١٨٦٨، يشير ماركس إلى أنّ «أيّ طفل يدرك أنّ أيّ أمة ستؤول إلى الهلاك إذا توقفت عن العمل، لن أقول في عام واحد، بل في غضون بضعة أسابيع. كذلك، يدري الطفل أنّ كمّيّات المنتجات ترتبط بكمّيّات مختلفة من الحاجات، وهذه تفترض بدورها كمّيّات مختلفة ومحدّدة من إجماليّ العمل الاجتماعيّ». التشكيّة

الاجتماعيّة التي ليس بوسعها إعادة إنتاج شروط إنتاجها في فترة محدودة من الوقت لن يكون بوسعها الاستمرار. إعادة الإنتاج تعني إذًا في المقام الأوّل إعادة إنتاج شروط الإنتاج. اقتفى ماركس أثر شيخ مدرسة «الفيزيوقراط» فرنسوا كيناي، صاحب كتاب «الجدول الاقتصاديّ» (١٧٥٨) الذي كان أوّل من نظر لاقتصاديات مجتمع كدائرة شاملة. بالنسبة إلى كلّ من كيناي وماركس، لا يمكن الخوض بصدد إعادة إنتاج شروط الإنتاج على مستوى كلّ وحدة إنتاجيّة معزولة عن سواها، بل على مستوى المجتمع ككلّ في مدّة من الوقت. بعد كيناي، وقبل ماركس، لن يكون بوسع الاقتصاد السياسيّ النظر بكلّيّة إلى «الرأسمال الاجتماعيّ»، أمّا ما يجمع كيناي بماركس فهو هذه النظرة الشاملة إلى موضوع الرأسمال الاجتماعيّ الذي هو شرط إمكان النظر في عمليّة إعادة الإنتاج، وفهم - تحديداً في حالة ماركس - أنّ كلّ عمليّة إنتاج هي في الوقت نفسه عمليّة إعادة إنتاج.

لقد تعامل كيناي في القرن الثامن عشر مع وجود الرأسمال الاجتماعيّ كـ «ظاهرة قائمة بذاتها وفاعلة»<sup>٨</sup> ودرس معه من ناحية عمليّة دوران الرأسمال في حركة التبادل السلعيّ. كفيزيوقراطيّ، لم يكن يعترف بإنتاج غير ذلك الزراعيّ، وبمصدر قيمة غير الأرض. المجتمع عنده ينقسم إلى ثلاث طبقات، المزارعين، و«العقيمين» - كما يسمّيهم - سواء تعاطوا في الصناعات أو في التجارة، وطبقة الملاك العقاريّين، بمن فيهم الملك والمستفيدون من ضريبة العشر. تبدأ المرحلة الإنتاجيّة عنده من لحظة حصاد آخر محصول، والهدف منها تغذية كلّ قطاعات المجتمع، المنتجة والعقيمة - المساهمة في دوران الإنتاج - والمالكة العقاريّة، كلّ بمقداره، والعودة إلى النقطة التي جرى الانطلاق منها بسلام.

الإنتاج اجتماعيّ عنده طالما أنّ له مصدراً زراعياً واحداً، والمنشأة أو «المانيكفاتورة» حالها عنده حال التجارة: ليست بإنتاج. هي تدويرٌ للإنتاج، إذ تعتمد على «الرأسمال المتحرّك» فقط، ولا تتملّ بحدّ ذاتها «رأس مال قارّاً». في المقابل، سيضبط آدم سميث تعريف «الرأسمال القارّ» على أنّه هذا الجزء من الرأسمال الذي لا يندرج في المداخل البحثية في المجتمع، والمكوّن من «الموادّ الأوّليّة، والمستخدّمة في صيانة الآلات والأدوات» ومن «إنتاج العمل الضروريّ لتحويل هذه الموادّ إلى الشكل المطلوب». في شرحها، تجازف روزا لوكسمبورغ بالمواءمة تماماً بين مقولة «الرأسمال القارّ» عند سميث وبين مقولة

بيد أنّ إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي، أي إعادة تشكيل شروط وعلاقات الإنتاج، مسألة أخذت تتبلور تدريجياً في فكر ماركس الاقتصادي. أسس لها في «مقدمة نقد الاقتصاد السياسي» ١٨٥٧، من خلال التشديد على الحاجة إلى دراسة الترابط العام بين الإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك وكيفية اشتراط كلّ مستوى للآخر، وبخاصة من خلال مقولة «الإنتاج هو أيضاً استهلاك» حيث إنّ «الإنتاج هو مباشرة استهلاك، والاستهلاك هو مباشرة إنتاج. كلّ واحد هو مباشرة معكوسه»، في ابتعاد عن التعاقب الذي أوجده جون ستيوارت ميل بين الإنتاج كنقطة انطلاق، والتوزيع والتبادل كمرحلة وسيطة، والاستهلاك كمرحلة نهائية منحة عن الاقتصاد<sup>١٠</sup>. بيد أنّ طرق المسألة على نحو منهجي سيتأخر إلى مرحلة الإعداد لـ «رأس المال»، حيث سيتطور التمييز بين «إعادة الإنتاج البسيطة» و«إعادة الإنتاج الموسعة».

فبدءاً من المجلد الأول، سيقابل ماركس بين ثلاثية «س.ن.س» (سلعة - نقد - سلعة) وثلاثية «ن.س.ن» (نقد - سلعة - نقد) جاعلاً من الأخيرة سمة الإنتاج الرأسمالي. الأولى هي الشكل المباشر لتنقل السلع (البيع من أجل الشراء). السلعة فيها نقطة الذهاب والإياب والنقد يكتفي بدور الوسيط. نقطة الوصول سلعة تُستهلك وينتهي معها الدوران، «إشباع حاجة، قيمة استعمالية، هو هدفها النهائي»<sup>١١</sup>. أما «ن.س.ن» فنقطة الانطلاق فيها النقد، وتعود للنقد، والهدف المحدد هو القيمة التبادلية (الشراء من أجل البيع)، أما السلعة فتلعب دور الوسيط. حركة الدوران لا تستمدّ مسوغها في هذه الحالة من الاستهلاك الذي يخرج منها، بل من «الاختلاف النوعي» بين النقد الموظف في «ن» الأولى وبين النقد المعزّز «ن»<sup>١٢</sup>. القيمة هنا متنامية في تعريفها: نقد لا يسعى إلى الخروج من الدوران، ويصبح بصفه هذه رأس مال. «الشراء من أجل البيع، أو بالأحرى، الشراء من أجل البيع بسعر أعلى، ن - س - ن»<sup>١٣</sup>. رغم أنّ ماركس يعتبر هذه الصيغة مرتبطة أكثر بالرأسمال التجاري، يتابع بأنّ «الرأسمال الصناعي هو أيضاً نقدٌ يتحوّل إلى سلعة، ومن خلال بيع هذه الأخيرة، يتحوّل إلى مزيد من المال. ما يجري بين الشراء والبيع، خارج نطاق الدوران، لا يبدل شيئاً في شكل هذه الحركة». بالتالي «ن - س - ن» هي الصيغة العامة للرأسمال بالشكل الذي يظهر فيه في حركة تجواله. ويقابل هذا بالرأسمال المرابي حيث يجري

«الرأسمال الثابت» (الجزء من الرأسمال الموجود في كلّ وسائل الإنتاج المادية في مقابل «الرأسمال المتبدّل» الموظف في قوّة العمل)<sup>١٤</sup>، مع أنّ ماركس نفسه يستخدم المفهومين، لدالتين مختلفتين في «رأس المال».

وآدم سميث، انطلاقاً من هذه القسمة بين الرأسمال القارّ والرأسمال المتجوّل، يخلص إلى أنّ ثمة بالفعل رأس مال متجوّلاً على مستوى المجتمع ككلّ، إنّما هذا الرأسمال وبعد أن يُطرح منه الجزء المتعلّق بالرأسمال القارّ، لا يتبقى منه إلا وسائل الاستهلاك، وهذا لا يشكّل عنده رأس مال بالنسبة إلى المجتمع، بل مدخول صرف، وقاعدة استهلاك. يتبع هذا أنّ الإنتاج الاجتماعي لا يمكن التفكير به من زاوية سميث، ذلك أنّ قيمة الإنتاج الكليّ السنوي في مجتمع ما، ستتوزّع بالنسبة له ما بين أجور، وأرباح، وربوع. تتكشف هنا حدود نظرية القيمة عنده، فهو يعتبر أنّ العمل مصدر كلّ قيمة، لكنّه غير قادر على التمييز على هذا الصعيد بين عمل المأجور وعمل الرأسماليّ نفسه، وهو تمييز لا يمكن أن يسوّغ نظرياً إلا من التمييز الأساسي الذي يجريه ماركس بين «العمل الملموس» أي العمل الذي ينتج القيمة الاستعمالية، والعمل المجرد، أي العمل الذي ينتج القيمة التبادلية. لقد استعان ماركس بسميث (العمل مصدر القيمة) على ريكاردو (العمل قيمة) لكنّه تجاوز ثنائية «الرأسمال القارّ - الرأسمال المتحرّك» عند سميث إلى ثنائية «الرأسمال الثابت - الرأسمال المتبدّل» من خلال تمييزه الرأسمال المتبدّل على أنّه ذلك الموظف في شراء قوّة عمل العمّال، وليس العمل ذاته، وأنّه المتعيّن من خلال الأجور الفعلية في مجتمع معيّن في مدّة من الوقت.

### رأس المال الثابت ورأس المال المتبدّل

بدورها، ثنائية «العمل المباشر - العمل الوسيط» عند ريكاردو استصلحت من قبل ماركس من خلال هذه الثنائية «الرأسمال الثابت - الرأسمال المتبدّل» ما دام أنّ الرأسمال الثابت هو العمل الميت، أي العمل الذي سبق له أن صنع وسائل الإنتاج لكنّ الذي لا يمكن أن يحييه إلا التشغيل بواسطة العمل الحيّ - قوّة العمل، أي الرأسمال المتبدّل. سمح هذا التأليف النقديّ بين فكري ريكاردو وسميث لماركس أن يعود إلى حيث إمكانية تمثّل حركة الرأسمال الاجتماعي وإعادة إنتاجه، الذي كان قد استهلّه في منتصف القرن الثامن عشر كيناي في «المجدول الاقتصادي».

اختزال صيغة «ن - س - ن» إلى «ن - ن» أي في هذه الحالة «نقد يصير مساوياً لنقدٍ مزيد، قيمة تصبح أكبر من نفسها»<sup>١٣</sup>.

**تشدد روزا على أن ما يصنع الفارق بين المفهوم العام لـ«الإنتاج» وبين عملية «إعادة الإنتاج» هو عنصر يمكن تمييزه بحد ذاته وتصفه بـ«التاريخي الثقافي». ومعنى ذلك أن التجدد المنتظم لعملية الإنتاج هو القاعدة العامة للاستهلاك المنتظم كما أنه قاعدة الوجود الثقافي للمجتمعات. في كل أشكالها التاريخية.**

الألمانية والروسية حول المنحى الذي يمكن أن تتخذه إعادة الإنتاج الموسع، لا سيما أن هذه المخططات التي تتصور منحى العلاقة بين قطاع إنتاج وسائل الإنتاج وقطاع إنتاج وسائل الاستهلاك تبدو قابلة لإمكانية أن يستمر التراكم الرأسمالي نظرياً في التوسع إلى ما لا نهاية، هذا بخلاف محتويات «المجلد الثالث» من رأس المال، وخصوصاً ما يتصل منها بـ«قانون منحى معدّل الأرباح إلى الانخفاض» المتأثري «قانون ارتفاع التكوين العضوي لرأس المال» حيث عملية التراكم تميل إلى زيادة نسبة العمل الميت (الرأسمال الثابت) بالنسبة إلى العمل الحي (قوة العمل)<sup>١٤</sup>.

التبادل بوصفه العلاقة الاجتماعية الوحيدة في الرأسمالية تشدد روزا على أن ما يصنع الفارق بين المفهوم العام لـ«الإنتاج» وبين عملية «إعادة الإنتاج» هو عنصر يمكن تمييزه بحد ذاته وتصفه بـ«التاريخي الثقافي»<sup>١٥</sup>. ومعنى ذلك أن التجدد المنتظم لعملية الإنتاج هو القاعدة العامة للاستهلاك المنتظم كما أنه قاعدة الوجود الثقافي للمجتمعات، في كل أشكالها التاريخية. وروزا هنا، تستند في جلّ مقاربتها إلى القسمة بين «البدائي» ما قبل التاريخي وبين مجتمعات تقسيم العمل التاريخية، وفقاً بطبيعة الحال لمستوى المعارف بهذا الخصوص في عصرها، وعلى هذا الأساس تجدها تفصل بين «المراحل الأكثر بدائية للتطور الثقافي، في بداية عملية سيطرة الإنسان على الطبيعة» وبين ما يلي ذلك من أطوار. في الطور البدائي إذًا، كانت إمكانية استئناف الإنتاج تتعلق بالصدف عند كلّ عتبة. ما دامت القاعدة الأساسية لقيام المجتمع تركز إلى القنص والصيد ستبقى سيرورة تجديد الإنتاج متقطعة بفترات من المجاعة الواسعة. فقط مع حراثة الأرض واستئناس الحيوان وتربية المواشي يصبح من الممكن تحقيق دورة انتظام للإنتاج والاستهلاك. يظهر حينها مفهوم «إعادة الإنتاج» بما هو شيءٌ يزيد على مجرد التكرار والمعاودة في عملية الإنتاج. فهو يستدعي درجة من التحكم بالطبيعة من لدن المجتمع، ومستوى من الإنتاجية في العمل. بما أن عملية الإنتاج تنقسم في كلّ أطوار التطور الاجتماعي إلى عنصرين مختلفين، هما الشكل المحدد لعلائق البشر مع الطبيعة - مع ما يتضمنه من شروط تقنية واجتماعية - وعلائق البشر فيما بينهم، تدمج عملية إعادة الإنتاج العنصرين معاً، وهو ما يتخذ منحىً مختلفاً تماماً مع المجتمع الرأسمالي عنه في كامل مجتمعات تقسيم العمل المعروفة التي سبقته.

تؤسس صيغة «ن - س - ن» للشروط الأولى للتراكم: أن يتمكن الرأسمالي من بيع سلعه وإعادة تحويل القسم الأكبر من النقد الذي حصل عليه إلى رأسمال، لكنّ ماركس ينبه إلى أن الحركة الوسيطة للدوران وتجزؤ فائض القيمة إلى أقسام شتى من شأنها تعقيد وعرقلة فهمنا لعملية التراكم هذه، ولأجل هذا «بغية تبسيط التحليل»، ينبغي الانصراف بادئ ذي بدء لدراسة «التراكم من وجهة نظر الإنتاج»<sup>١٦</sup>. بسط ماركس لإشكالية إعادة الإنتاج يندرج في هذا الإطار. في الفصل ٢٣ من المجلد الأول من «رأس المال» يكتف بكلمات بسيطة مقصده: «إن مجتمعا لا يمكنه أن يتوقف عن الإنتاج، ولا عن الاستهلاك، إذ يجري اعتبارها لا بشكل معزول، إنّما في مجرى تجدها الذي لا يتوقف، فإنّ كلّ عملية إنتاج اجتماعي هي في الوقت عينه عملية إعادة إنتاج»<sup>١٧</sup>. إعادة الإنتاج تعني بهذا المعنى الإنتاج بشكل متواصل، و«عملية الإنتاج الرأسمالية من حيث طابعها المتواصل، أي من حيث إعادة الإنتاج، لا تنتج سلعةً فقط ولا فائض قيمة فقط، بل تنتج وتؤيد العلاقة الاجتماعية بين الرأسمالي والأجير»<sup>١٨</sup>. يميّز ماركس هنا بين إعادة الإنتاج البسيطة وبين إعادة الإنتاج الموسعة. البسيطة بمعنى إبدال وسائل الإنتاج المستهلكة في غضون سنة مثلاً، بكمية موازية من الوسائل، وهي تبقى بكمية ولادة فائض القيمة من الرأسمال، في حين أن إعادة الإنتاج الموسعة تنبني على كيفية ولادة الرأسمال من فائض القيمة، أي تكرار لعملية الإنتاج بشكل تصاعديّ بفضل تحويل فائض القيمة إلى رأسمال. لاحقاً في المجلد الثاني من «رأس المال»، سنأتي «مخططات إعادة الإنتاج» الموسع الإيضاحية التي استجمعها أنغلز لتشعل نقاشاً داخل كلّ من الاشتراكية - الديمقراطية



❖  
عاملات الذخيرة  
يقمن بفرز القذائف  
خلال الحرب  
العالمية الاولى





قبل الرأسمالية، تنحو عملية إعادة الإنتاج إلى الانتظام من داخلها، وترجع معظم أسباب تعطلها إلى عوامل خارجية، سواء الحروب المدمرة أو الأوبئة بما تحده من فجوات سكانية ودمار واسع النطاق في القوى العاملة ووسائل الإنتاج، أو بكارث يتسبب بها الاعتباط الاستبدادي حين يتعسف في محاولاته تثبيت مخططات الإنتاج. مع الرأسمالية، لا تعود العوامل الخارجية والاعتباطية الاستبدادية هي المتسببة الأساسية للانقطاعات والكبوات في سيرورة إعادة الإنتاج.

**الرأسمال هو عمل ميت. شبيهه في ذلك بمصاص الدماء. لا يحببه سوى امتصاص دم العمل الحي. ولا تبهجه حياته إلا بمقدار ما أنه يضخ كمية أكبر. الوقت الذي يشتغل خلاله العامل هو الوقت الذي يستهلك الرأسمالي في غضونه قوة العمل التي اشتراها من العامل.**

هذه الأخيرة ستشمل أكثر فأكثر كلاً من الإنتاج والدوران - عملية التبادل، انطلاقاً من كون التبادل، في الرأسمالية، هو «العلاقة الاجتماعية الوحيدة»<sup>١١</sup> بين المنتجين. بناءً عليه، ما التحدي الذي يواجه مقتضى إعادة الإنتاج الرأسمالي الاجتماعي، أي إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، أنه لا يمكنها في المجتمع الرأسمالي، تحديد كم الحاجات الاجتماعية المطلوب من الإنتاج إشباعها إلا بناءً على تجارب إشباع سابقة، في سلسلة متصلة من الأشكال اللولبية، ذات المنحنيات التي تضيق ثم تتسع ثم تضيق. وإذ تُظهر روزا كيف أنّ التعاقب الدوري لأوضاع الرواج والعسرة ثم الأزمة الكابحة لإعادة الإنتاج هو الشكل الخاص بحركة الإنتاج الرأسمالي، تعود فنتبه إلى أنّ هذا التعاقب ليس هو هذه الحركة بحد ذاتها، وأنه، لأجل عرض مشكل الإنتاج الرأسمالي بتمامه، ينبغي قبل كلّ شيء عدم استقراره من خلال التعاقب الدوري للأوضاع والأزمات لوحده، تماماً مثلما أنه، بغية عرض مشكل القيمة بتمامها، ولأجل إيجاد حلّ لها، لا ينع الانطلاق من تذبذب الأسعار. وتذكر بأنّ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي من آدم سميث إلى كارل ماركس يتعامل مع تراجع العرض والطلب على أنه يفسّر الفارق في السعر، فوق قيمة السلعة أو دون هذه القيمة، لكنّه لا يفسّر القيمة ذاتها. لأجل إدراك ما قيمة سلع معينة، لا

يمكن الافتراض أنّ العرض والطلب يتوازنان، ولا أنّ ثمن السلع يناسب قيمتها الحقيقية. «المشكلة الحقيقية للقيمة تبدأ بالتالي حينما يتوقف أثر العرض والطلب. والشيء نفسه تماماً بالنسبة إلى مشكلة إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي. نتيجة التعاقب الدوري للأوضاع والأزمات تتأرجح إعادة الإنتاج الرأسمالية اعتيادياً على صعيد الحاجات التي يمكن إشباعها في المجتمع، مرّةً إذ تتجاوزها، ومرّةً إذ تنهوى إلى حدّ الانقطاع، يكاد يكون التام، عن إشباع هذه الحاجات». فالإنتاج الرأسمالي ينهض به عدد لا محدود ومنتام دوماً من المنتجين المستقلين عن بعضهم البعض، ولا يخضع لأيّ تحكم اجتماعي غير ذلك الذي تفرضه مراقبة تأرجحات الأسعار، ومن دون أيّ رابطة اجتماعية غير التبادل السلعي. الهدف الأساسي للإنتاج الرأسمالي ليس إشباع حاجات اجتماعية، ولا حتى تصريف السلع المنتجة. ذلك أنّ المنتج لا ينتج فقط سلعاً بل رأس مال أيضاً، وعليه أن يولد قبل كلّ شيء فائض القيمة. «فائض القيمة هو هدف المنتج الرأسمالي ومحركه الأول» بحسب روزا لوكسمبورغ، وهذه صيغة تحيل إلى ما كتبه ماركس في الجزء الثالث (إنتاج فائض القيمة المطلق) من المجلد الأول من «رأس المال» حيث الرأسمالي من حيث هو كذلك «هو الرأسمال مشخصاً، مهجته ومهجة الرأسمال واحد. بيد أنه ليس للرأسمال غير منزع طبيعي واحد، وغير محرك واحد، إذ ينزع إلى التنامي، وإلى خلق فائض - قيمة، وامتصاص وسائل الإنتاج، وأكبر كتلة ممكنة من العمل الإضافي. الرأسمال هو عمل ميت، شبيهه في ذلك بمصاص الدماء، لا يحببه سوى امتصاص دم العمل الحي، ولا تبهجه حياته إلا بمقدار ما أنه يضخ كمية أكبر. الوقت الذي يشتغل خلاله العامل هو الوقت الذي يستهلك الرأسمالي في غضونه قوة العمل التي اشتراها من العامل، حتى إذا استهلك الأجير لحسابه الوقت المتوفّر له يسرق بذلك الرأسمالي». تركّز روزا على أنّ الإنتاج الرأسمالي ليس إنتاجاً محدداً بدواعي الاستهلاك، إنّما بقصد إنتاج القيمة، حيث إنّ روابط القيمة تسيطر على كلّ من مسارات الإنتاج وإعادة الإنتاج. أمّا في النماذج الاقتصادية السابقة على الرأسمالية، فالاستهلاك يلعب دوراً تحديدياً أكبر، سواء بالنسبة إلى الإنتاج أو بالنسبة إلى شروط إعادة الإنتاج. نقطة الارتكاز عند ماركس تبقى نظرية القيمة زائد القسمة التي يعتمد عليها بين الرأسمال الثابت والرأسمال المتبدّل. نظرية القيمة عند ماركس تستعيد

تعريف ريكاردو لقيمة سلعة ما بأنها كميّة العمل المباشر وغير المباشر اللازم لصناعة سلعة، لكنّها وبدلاً من التعامل مع العمل كسلعة - شأن ريكاردو - تجعله المصدر الأساسي للقيمة، ما يجعل فائض القيمة محصّلاً من خلال استثمار قوّة العمل من قبل الرأسمال وليس من خلال استثمار الرأسمال للرأسمال، إنّما بالشكل يحتاج فيه الرأسمال لأجل التنامي إلى الدوران الذي يسمح به التبادل السلعيّ.

استحالة تحقيق فائض القيمة من دون التوسّع على أساس هذا المفهوم للقيمة، وللعمل كمصدر للقيمة، يعتمد ماركس القسمة بين الرأسمال الثابت والرأسمال المتبدّل - حيث الثابت (ث) مجموع الوسائل التي أنتجها عمل سابق، والمتبدّل (ت) هو قوّة العمل المؤجّرة الموظّفة في الإنتاج. رأس المال المستثمر هو «ت+ث»، ومع إضافة فائض القيمة (ف) تكون القيمة الإجمالية للسلعة المنتجة «ت+ث+ف»، أو بالمطلق، التعبير عن الإنتاج الاجتماعي. بالنسبة إلى ماركس، الرأسمال الثابت هو الرأسمال الميّت، الأبنية والآلات والأدوات، التي لا يحييها سوى الرأسمال المتحرّك، قوّة العمل المؤجّرة. تتقاطع هذه القسمة، لكنّها تبقى مختلفة، عن أخرى يستعيدها ماركس من آدم سميث، بين «رأس المال القارّ» و«رأس المال المتحوّل».

ما تريد أن تعرفه روزا لوكسمبورغ هنا هو إذا كانت صيغة ماركس المكثّفة للإنتاج الاجتماعي في المجتمع الرأسماليّ «ت+ث+ف» هي تصوّر نظريّ مجرد أو أنّ لها إحالة ملموسة إلى واقع اجتماعيّ موضوعيّ محدّد<sup>٢٠</sup>: «الرأسمال الثابت» (ث) يحيل إلى واقعة فعلية (وسائل الإنتاج من حيث هي رساميل خاصّة) و«الرأسمال المتحرّك» (ت) يحيل بدوره إلى كتلة فعلية (مجموع الأجور المسدّدة بالفعل). الجمع «ت+ث» هو الرأسمال الاجتماعيّ (مجموع رأس المال في مجتمع معيّن). أمّا فائض القيمة الذي هو الشكل الرأسماليّ لتحقيق «فائض العمل» - بالإضافة إلى التملك الخاصّ لوسائل الإنتاج - فيجمعه إلى «ت» نحصل على إجماليّ العمل الحيّ المحقّق في مجتمع معيّن في مدّة من الزمن (سنة).

بيد أنّ نمط الإنتاج الرأسماليّ لا يقوم على تنظيم منهجيّ للإنتاج الاجتماعيّ، فعلى أيّ أساس يمكن إذاً الحديث عن إنتاج اجتماعيّ هو حصيلة الوجود المستقلّ لوحدات استثماريّة رأسمالية خاصّة؟ هذه العشوائية في

حركة الرساميل التي تجعل التنظيم الاجتماعيّ لحركتها أشبه بالمستحيل، تتمخّض عنها في الوقت نفسه حركة عامّة تتابع كما لو كانت «جفلاً واحداً». ففيما يرتبط كلّ نظام منظمّ للإنتاج - أي ما قبل رأسماليّ في تقسيم روزا - بتنظيم العمل المحقّق أو المعدّ للتحقيق كما بتنظيم العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك، فإنّ العمل الاجتماعيّ الضروريّ لصيانة وتجديد وسائل الإنتاج كما لصيانة وتجديد قوى العمل الحية لا يأخذ صفته «الكلية» في النظام الرأسماليّ إلا حين يوضع قبالة فائض العمل المحقّق من حيث هو في هذا النظام فائض القيمة. وعلى هذا الأساس تعتبر روزا لوكسمبورغ أنّ العلاقة بين «ف» و«ت+ث» هي علاقة فعلية، موضوعيّة، ملموسة، في المجتمع الرأسماليّ، هي «معدّل الربح الوسطي»، حيث كلّ رأسمال خاصّ لا يكون إلا جزءاً من الرأسمال الاجتماعيّ الكليّ، ومعدّل الربح الوسطيّ هذا هو الذي يوجّه كلّ عمليّات التبادل بواسطة قانون القيمة. في مخطّط روزا النظريّ إذاً، «الرأسمال الاجتماعيّ يسيطر تماماً، بواسطة معدّل الربح الوسطيّ، على الحركات، التي هي في ظاهرها مستقلة بذاتها، للرساميل الفردية». من هنا، جوابها على السؤال حول السند الواقعيّ لصيغة «ت+ث+ف» في الخطاطة النظرية، هو أنّ هذه الصيغة لا تعبّر فقط عن تكوين القيمة في كلّ سلعة، بل أيضاً تسري على مجموع السلع المنتجة في مجتمع رأسماليّ مدّة معيّنة، لكنّها تتعلّق فقط بتشكيل القيمة. لكنّ ذلك يختلف على صعيد كلّ وحدة إنتاجيّة من جهة، وعلى صعيد الإنتاج الاجتماعيّ من جهة أخرى. فعلى الصعيد الفردي، صيغة «ت+ث+ف» هي قاعدة تقسيم المال (الرأسمال النقديّ) بين جزء يذهب لشراء وسائل إنتاج، وجزء لشراء قوّة عمل، وجزء للاستهلاك الشخصيّ للرأسماليّ، في حالة إعادة الإنتاج البسيطة، أو إلى التوزّع بين جزء معدّل للاستهلاك وجزء للاستثمار بغية تنامي الرأسمال، في حال إعادة الإنتاج الموسّعة. بالنسبة إلى الرأسماليّ الفرديّ، وسائل الإنتاج وقوى العمل التي يحتاج إليها، هي أمور يري من البديهيّ أنّها مطروحة في السوق، وكذلك بالنسبة إلى «الاقتصاديّ المتبدّل» أي «الأيديولوجيّ» هذا الرأسماليّ الفرديّ، على حدّ تعبير لوكسمبورغ. الحال تختلف تماماً على مستوى المجموع، الإنتاج الاجتماعيّ، ففي حين أنّ «الرأسماليّ الفرد لا يكترب أبداً بمعرفة ما إذا كانت السلعة التي يصنعها هي آلة، أو سكر، أو سجاد اصطناعيّ أو صحيفة لبرالية،

الإنتاج شيئاً واقعياً لا يتضمّن مباشرة مفهوم الإنتاج. التمييز بين قطاعي الإنتاج، إنتاج وسائل الإنتاج وإنتاج وسائل الاستهلاك يصبح ضرورياً في حالة الإنتاج الاجتماعي. القطاعان ينتجان فائض القيمة. بالتالي صيغة «ت+ث+ف» تسري بالتوازي في كلّ منهما.

الشروط التاريخية للتراكم وتراكم أزمات الرأسمالية انطلاقاً من هذا الإطار النظري تناولت روزا المخططات الإيضاحية «الدياگرام» لإعادة الإنتاج الموسعة في المجلد الثاني من «رأس المال». هل يمنح ماركس من خلال هذه المخططات إمكانيّة تطوّر لامتناهٍ للرأسمالية بشرط الحفاظ على التناسبات بين قطاعي الإنتاج، قطاع إنتاج وسائل الإنتاج، وقطاع إنتاج وسائل الاستهلاك؟ أنكرت روزا على «دياگرام» المجلد الثاني سريانه على إعادة الإنتاج الموسعة، وأنه ناشئ من تركيبة كتاب «رأس المال» نفسها الحكومة بنتائية الرأسماليين والعمّال مع تغييب الآخرين في عمليّة تحقيق فائض القيمة. لكنّ العنصر الأساسي النوعي الذي أدخلته روزا هو سؤال «من أين يأتي الطلب الإضافي؟» أي ما هو دافع الرأسماليين من أجل توسعة الإنتاج، ومن أجل من يقومون بتوسيعه؟ وجدّ أنّ الربح ليس جواباً كافياً. لا يمكن أن يحصل الربح إلا بمقدار ما أن هناك شارين للإنتاج الموسع، لكن الأطروحة المركزيّة لـ«رأس المال» يستحيل معها إيجاد هؤلاء الشارين داخل المجتمع المشكّل أساساً من رأسماليين وعمّال.

تكرّس روزا لوكسمبورغ الجزء الثالث من كتابها لمبحث الشروط التاريخية للتراكم، هذه الشروط التي لا يسمح التقيّد الحرفي بالمخطط التوضيحي في آخر المجلد الثاني من «رأس المال» بالوصول إليها، ما دام أنّ هذا المخطط التوضيحي يخلق الانطباع بأنّ الإنتاج الرأسمالي يحقّق كلّ فائض القيمة في داخل نطاقه ويستخدم فائض القيمة المرسل لاحتياجاته هو، وهذا الانطباع يقوّيه التحليل الذي يجريه ماركس انطلاقاً من «الدياگرام» المعتمد، إذ يختزل حركة دوران رأس المال إلى الطلب على الاستهلاك من لدن الرأسماليين والعمّال، الأمر الذي يتناقض مع ما توصّل إليه ماركس في المجلد الثالث بصدد التشكّل العضوي المتنامي لرأس المال، أي التنامي المتسارع للرأسمال الثابت بالنسبة إلى الرأسمال المتحرّك، الذي يجد تعبيره الماديّ في تنامي إنتاج وسائل الإنتاج (القطاع ١) بشكلٍ أسرع من تنامي إنتاج وسائل

بشرط أن يستلها بغية استعادته الرأسمال الذي وظّفه، + فائض القيمة، فإنّه بالنسبة إلى طبقة الرأسماليين ككلّ، من الأهميّة بمكان معرفة ما إذا كان إنتاجها عنده نمطاً استخدامياً محدّداً» وما إذا كان يتضمّن وسائل الإنتاج الضرورية لتجديد سيرورة العمل، ووسائل الاستهلاك البسيطة لصيانة الطبقة العاملة، ووسائل الاستهلاك الأرفع مستوى، من أجل تزف الطبقة الرأسمالية. أكثر من هذا، تشدّد روزا على أنّ هذه الرغبة في معرفة إلى أين يذهب الإنتاج لا تعود مصاغة، على مستوى الكتلة الطبقيّة لمجموع الرأسماليين، فقط بطريقة عامّة وغامضة، بل بشكلٍ لافٍ في دقته، وعلى هذا الصعيد بالذات فإنّ صيغة «ت+ث+ف» لا تعود فقط متعلّقة بمجموع الرأسمال الاجتماعيّ أو الرأسمال الفرديّ، وتتعدّى بذلك كونها تقسيماً كمّياً للقيمة المحملة، تقسيماً لكميّة العمل المتضمّن في الإنتاج السنوي للمجتمع، وتصير قاعدةً للتقسيم الماديّ للإنتاج. من منظار الرأسماليّ الفرد، عليه أن يعيد إنتاج رأسماله الثابت والمتبدّل عند كلّ عتبة، فضلاً عن تحصيل فائض القيمة، من دون أن ينقسم الإنتاج بحدّ ذاته على صعيده الماديّ بين ثلاثة أصناف. أمّا بالنسبة إلى مجموع الرأسماليين، فهم ينتجون كلّ قسم من قيمة إنتاجهم السنويّ في شكل ماديّ مختلف عن سواه. الـ«ث» من حيث هو وسائل إنتاج، و«ت» كوسائل استهلاك للعمّال، و«ف» كوسائل استهلاك للرأسماليين. في إعادة إنتاج الرأسمال الفرديّ، ما يحسبه المستثمر هو علاقات القيمة فحسب، على افتراض أنّ الشروط المادية هي بمثابة التعبير الطبيعيّ التلقائيّ للتبادل السلعيّ. يختلف الوضع على مستوى الإنتاج الاجتماعيّ. لأجل إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعيّ، علاقات القيمة لا يمكن أن تحتسب بمعزل عن شروطها المادية، أو أن تعتبر هذه الشروط معطاةً فقط في الأسواق، وفي أقلّ تقدير لو أنّ كلّ الرأسمال الثابت «ث» في المجتمع لا يعاد إنتاجه كلّ عام في شكل كمّيّة وسائل الإنتاج نفسها، فإنّ كلّ رأسماليّ فرد ولو مشط السوق كلّها مع رأسماله الثابت «ث» المحقّق في شكل نقد، فإنّه لن يجد حينها الشروط المادية الضرورية لإعادة الإنتاج على مستواه الفرديّ. على صعيد الرأسماليّ الفرد، صيغة «ت+ث+ف» ملموسة، أمّا على صعيد الرأسمال الاجتماعيّ مأخوذاً ككلّ فإنّها تبقى مجرّدة، ولا يمكن أن يركن إليها وحدها لتأمين شروط إعادة الإنتاج، ولأجل هذا بالتحديد تمثّل إعادة

الاستهلاك (القطاع ٢). مثل هذا الاختلاف في إيقاع التراكم بين القطاعين هو بالنسبة إلى روزا مستحيل تماماً إذا ما أخذنا بالمخطط التوضيحي للمجلد الثاني<sup>٢١</sup>. هذا المخطط يفترض إذاً حركة لرأس المال الكامل مختلفة تماماً عن المجرى الفعلي للتطور الرأسمالي، ذلك أن تاريخ الإنتاج الرأسمالي يتسم بالتوسع الدوري لحقل الإنتاج من جهة، وبالتطور المتفاوت للغاية بين مختلف فروع الإنتاج من ناحية أخرى.

قبل استعمارهما - وتسميه اقتصاداً «طبيعياً» لأن وسيلة الإنتاج الأساسية فيه (الأرض) مرتبطة عضوياً بالقوة التي تشغل هذه الوسيلة. وتتميز الاقتصاد السلعي الفلاحي والحرفي عن كل من الاقتصادين «الطبيعي» و«الرأسمالي». تاريخ التراكم الرأسمالي يصبح إذاً في هذا الترتيب تاريخ صراع، استثنائي، ضد الاقتصاد الطبيعي، وهيمن على الاقتصاد السلعي، قبل الانتقال إلى مرحلة الإمبريالية، حيث الصراع على المستوى العالمي حيال ما تبقى من أقاليم غير مترسمة.

لا هودة للتراكم الرأسمالي مع الاقتصاد الطبيعي، وروزا تُدرج هنا الثورات والحروب التي أتت على الإقطاعية في أوروبا، كما الاستعمار وعنفه ضد السكان الأصليين في المستعمرات. فمن ناحية، هذا التحطيم للاقتصاد الطبيعي يتعلق أساساً بمرحلة التراكم البدائي لرأس المال، منذ نهاية العصر الوسيط حتى منتصف القرن التاسع عشر، تبعاً للمرحل الذي تبناه روزا، التي تعتبر أن من الوهم تصور أن التراكم الرأسمالي كان يمكنه أن يكتفي بانتظار تصدع العلاقات الاجتماعية في الاقتصاد الطبيعي. لا يسمح التوسع بالقفزات لرأس المال بأن ينتظر تحلل المجتمعات «البدائية» كما تسميها روزا، أو دخولها في ركب الاقتصاد السلعي شيئاً فشيئاً. والعنف عندها وسيلة متأصلة في التراكم كسيرورة تاريخية منذ بداياتها إلى اليوم.

### نماذج من الهند والجزائر والصين

لعل أضعف النماذج التي تقدمها روزا حديثها عن البنية المشاعية للقرية الهندية. تعتبر أن المشاعة القروية الهندية استطاعت أن تحافظ على نفسها رغم كل الغزاة المتعاقبين لشبه القارة، الذين اكتفوا بالإتاوة السنوية وتركوا الريفين لحالهم إلى أن جاء الاستعمار البريطاني لمصادرة الأرض، انطلاقاً من تسويق تجده عند جيمس ميل وهو أن ملكية الأرض كانت للسلطان المغولي وتحوّل من بعده لسلطان «شركة الهند الشرقية» البريطانية. اختزال طبقة «الضامن دار» في الهند ما قبل البريطانية إلى مجرد جباة للإتاوة، بما يترك القرية تتدبر شأنها مشاعياً، هو تصور متقدم بالنسبة إلى الهند. اللافت هنا أن روزا كتبت «التراكم» بعد أربع سنوات على إصدار موهنداس غاندي لكتاب «هند سواراج» الذي يستعيد فيه نموذج الجماعة القروية المستقلة بذاتها، ويدعو فيه إلى جعل الهند جمهورية من القرى تشكّل فيها كل قرية جمهورية قائمة بذاتها.

**تاريخ التراكم الرأسمالي يصبح إذاً في هذا الترتيب تاريخ صراع استثنائي. ضد الاقتصاد الطبيعي. وهيمن على الاقتصاد السلعي. قبل الانتقال إلى مرحلة الإمبريالية. حيث الصراع على المستوى العالمي حيال ما تبقى من أقاليم غير مترسمة.**

المسألة كما تعيد طرحها روزا: كيف تتم عملية إعادة الإنتاج الاجتماعية تبعاً لواقعة أن فائض القيمة لا يستهلكه الرأسماليون بكليته، بل أن جزءاً متنامياً منه يُحفظ لتوسعة الإنتاج؟ في مقارنة روزا لا يسع العمال والرأسماليين سوى تحقيق الرأسمال المتحرك، والجزء المستخدّم من الرأسمال الثابت والجزء المستهلك من فائض القيمة، وإذ يقومون بذلك يعيدون خلق الشروط الضرورية لمواصلة إعادة الإنتاج على الصعيد نفسه، فيما لا العمال ولا الرأسماليون بإمكانهم تحقيق الجزء من فائض القيمة المخصّص للرسملة لوحدهم<sup>٢٢</sup>.

تدرجياً تنتقل روزا في كتابها من تحديد الإطار النظري لمشكل إعادة الإنتاج وعدم كفاية ثنائية رأس المال والعمل لتحقيق فائض القيمة، مع ترجيح كفة اللاتناسب بين القطاعين ١ و ٢، قطاع إنتاج وسائل الإنتاج وقطاع إنتاج وسائل الاستهلاك، إلى الفصول التي تظهر فيها الأشكال التاريخية للتراكم المرتبط عضوياً بتوسع الرأسمالية إلى الأقاليم والقطاعات ما قبل الرأسمالية. كما تشدّد في مستهل فصل «الصراع ضد الاقتصاد الطبيعي»، «الرأسمالية، تنشأ وتتطور تاريخياً في محيط اجتماعي غير رأسمالي»<sup>٢٣</sup>. تناول روزا «الاقتصاد الطبيعي» كما تسميه، الذي يشمل بالنسبة إليها الإقطاعية في أوروبا الغربية، والمشاعية الريفية والقبلية التي تعتبرها متأصلة في الهند والجزائر



❖  
مسيرة الحائكين؛  
كاته كولفيتز،  
١٨٩٣ - ١٨٩٧





الاقتراض الذي يتحوّل إلى شكلٍ للاستتباع في حال أشباه المستعمرات، مُدرجاً النموذجين العثمانيّ والإيرانيّ في هذا السياق. تتناول أيضاً الاستتباع الألمانيّ للإمبراطوريّة العثمانيّة عشية اندلاع الحرب الكبرى، فتصف الدولة العثمانيّة بأنها تحوّلت إلى «جهازٍ سياسيٍّ لاستثمار الاقتصاد الفلاحي لحساب الرأسمال الألمانيّ». بالنسبة إلى روزا، لا يكفي القول إنّ الرأسماليّة تعيش على البنى غير الرأسماليّة، بل هي تتغذى من عمليّة انهيار هذه البنى. وهكذا، نجد تصف التراكم الرأسماليّ على أنّه شكّل من «الميتابوليزم» (الأبيض) بين نمط الإنتاج الرأسماليّ وأنماط الإنتاج ما قبل الرأسماليّة. فالتراكم لا يسجن نفسه في إطاره الداخليّ، بين قطاعي إنتاج وسائل الإنتاج وإنتاج وسائل الاستهلاك، بل أكثر، كلٌّ من قطاعي الإنتاج هذين يمكنه أن يحقق التراكم جزئياً بطريقةٍ مستقلةٍ إلى حدٍّ ما عن القطاع الثاني.

### النزعة العسكريّة حقلاً لتراكم رأس المال

أمّا الإمبرياليّة، فهي بخلاف التراكم البدائيّ لرأس المال، بمثابة «التعبير السياسيّ عن عمليّة التراكم الرأسماليّ التي تتجلّى بالتزاحم بين الرأسماليّات القوميّة حول ما تبقى من أقاليم غير رأسماليّة في العالم»، وتلاحظ روزا هنا<sup>٢١</sup> أنّ معظم الكوكب في عصرها لا يزال خارج التوسّع الرأسماليّ. في المرحلة الإمبرياليّة تزايد النزعة العسكريّة، التي تصاحب أساساً بالنسبة إلى روزا كلّ أطوار التراكم الرأسماليّ، وأهميّة معالجتها للنزعة العسكريّة أنّها ترى فيها «حقلاً لتراكم» قائماً بذاته، فهذه النزعة تحرم كلاً من الطبقة العاملة والشرائح غير المرسّلة بعد أو القائمة على الإنتاج السلعيّ البسيط من جزءٍ من قوّتها الشرائيّة، كما أنّ استهلاك أجهزة الدولة لا يساهم في شيءٍ من عمليّة تحقيق فائض القيمة المعدّ للرسملة.

بالضدّ من مقولات الانتقال من مرحلة رأسماليّة التزاحم الحرّ إلى رأسماليّة التمرکز الإمبرياليّ (هيلفردينغ، لينين، بوخارين)، تذهب روزا إلى أنّه لم يكن هناك أبداً «مرحلة تبادل حرّ» في تاريخ الرأسماليّة، بل نزعات إلى مثل هذا تقابلها نزعاتٌ حمائيّة، وأنّه بشكل عامّ، الرأسمال التجاريّ في المدن التي يرتبط نشاطها الاقتصاديّ بالتجارة الدوليّة، هي التي تميل إلى التبادل الحرّ، في حين أنّ الرأسمال الصناعيّ ينحو إلى الحمائيّة، والذي تراجع هو أو هام التبادل الحرّ مع صعود الرأسمال الصناعيّ. وهنا (الفصل ٣١، «الحمائيّة والتراكم»)

«المشاعيّة» أيضاً تُسقطها روزا على الجزائر ما قبل الفرنسيّة، وإن كانت تنبّه إلى أنّ العثمانيّين (الترك كما تسمّيهم) صادروا قسماً من هذه الأراضي، فيما بقي نصف الأراضي الزراعيّة ملكاً مشتركاً للقبائل. يتميّز نموذج الجزائر في تحليل روزا بأنّ السيطرة «التركيّة» مهّدّت لزعة التنظيمات الاجتماعيّة «المشاعيّة»، وهي تعتبر أنّ الفرنسيّين استغلّوا لاحقاً خرافة أنّ الترك صادروا كلّ الأراضي من أجل تحصيل الإتاوة، ولا تردّد في التسجيل أنّه «فقط الأوروبيون يمكنهم تخيل فكرة بهذه العبنيّة تعارض مع كلّ الأسس الاقتصاديّة للإسلام والمؤمنين. بالعكس، الترك احترموا بشكل عام المملكيّة الجماعيّة للقوى والعائلات الكبرى». يبقى أنّ ما يصنع الاختلاف بين النموذجين البريطانيّ في الهند والفرنسيّ في الجزائر هو أنّ الاستعمار استيطانيّ في الحالة الثانية، وهو ما تستعرضه روزا من خلال آليّة فرز الأراضي إلى ملكيّات خاصّة مع إرهاب مالكيها من السكّان الأصليّين بالدين لإعادة بيعها، وما تعرضه بالفعل من حركة هجرة للجزائريّين في ذلك الوقت باتجاه «آسيا التركيّة» (سورية العثمانيّة) حيث تمنحهم الحكومة أرضاً ووسائل للزراعة (هذه الظاهرة بطبيعتها الحال بقيت جزئيّة، لا المجتمع الاستيطانيّ الفرنسيّ بقي بعد استقلال الجزائر، ولا معظم الجزائريّين هاجروا إلى سورية!)<sup>٢٤</sup>.

يبدو استخدام «المشاعيّة» لتفسير العلاقات الاجتماعيّة المرتبطة بالأرض في الهند أو الجزائر ما قبل الاستعمار أكملّ عليه الدهر وشرب اليوم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاستخدام واسع النطاق لصفة «المجتمعات البدائيّة» عند روزا. في المقابل، يكتسب تحليلها لصراع التراكم مع الاقتصاد الفلاحيّ جدارةً لافتة، لا سيّما أنّها تعتبر أنّ عمق هذا الصراع يقوم على فصل الزراعة عن الحرف، والغاء المهن الفلاحيّة من الاقتصاد الفلاحيّ. الرأسمال يمهدّ لاختزال الاقتصاد الفلاحيّ إلى فرع واحد: الزراعة. يتشابه ذلك مع عمليّات «إدخال الاقتصاد السلعيّ» سواء بمدّ سكك الحديد وتطوّر الملاحة البحريّة وشقّ القنوات - وهو ما ترى فيه روزا «طابعاً سلمياً مخادعاً» - أو بالقوّة، كما في نموذج «حرب الأفيون» الذي أجبر من خلالها البريطانيّون الصين على «شراء هذا السمّ من الفلاحين الهنود لمساعدة الرأسماليّين الإنكليز على مراكمة النقد»<sup>٢٥</sup>. وبعدها تضيف المديونيّة، مميّزةً بين اقتراض روسيا وأميركا من الرأسمال الأوروبيّ لبناء سكك الحديد في منتصف القرن التاسع عشر، وبين

تتمكّن روزا من تكثيف إشكالية أساسية في فكرها: التناقض التاريخي بين مصالح التراكم (تحقيق ورسملة فائض القيمة) وبين التبادل السلعي!

## مثل «تراكم رأس المال» محاولة مهمة للغاية في التصويب على مسأله إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي من حيث هي عمق التفكير الاقتصادي الماركسي.

بسبب هذا التناقض «التاريخي» لا يمكن للرأسمالية الذهاب بعيداً في تحقيق التناسب بين الإنتاج والاستهلاك. بسببه أيضاً، التراكم في عالم مسيطر عليه تماماً من الإنتاج الرأسمالي مستحيل. يعني ذلك إذا أخذنا بقناعة روزا اليوم، إنّما أنّ الرأسمالية لا تزال تتوسع، ولا تزال ثمة قطاعات وأقاليم غير رأسمالية تتوسع إليها، وإما أنّ الرأسمالية توسعت بالفعل لتبلغ تمامها الذي هو منطق نهايتها بالنسبة إلى روزا... وإما أنّ نظرة روزا الأساسية لم يصادق التاريخ على صحتها.

باعتراف روزا نفسها في «الردّ على النقّاد» (أو «النقد المضاد»)، كان أخطر نقد يوجّه لكتابها هو الذي أتى من طرف قطب الماركسية - النمساوية أوتو باور بمقال حمل عنوان «تراكم رأس المال». صمّم باور «دياغرام» لإعادة إنتاج رأسمالية موسّعة مختلفاً عن ذلك الذي نشره ماركس في «المجلد الثاني» وبلحظ تنامي التكوين العضوي لرأس المال، لكنّه يثبت أنّ الرأسمالية يمكن أن تنمو في مجتمع واحد على حدة، وليست هناك علاقة عضوية بينها وبين الإمبريالية، إذ كان باور يرى أنّ نظرية روزا تقود إلى اعتبار كلّ مجتمع تنمو فيه القوى المنتجة إمبريالياً بالفطرة، سواء كان هذا المجتمع رأسمالياً أو اشتراكياً، ويرى أنّ منطق كتابها مضرّ بالحركة الاشتراكية. في المقابل، الدياتغرام المركّب الذي طرحه باور أظهر أنّ من الممكن أن يشهد التطور الرأسمالي تراجعاً في أرباح الرأسماليين، وتحسناً في الأجور للعمّال في الوقت نفسه. لم ينكر باور الأزمات الدورية للرأسمالية، لكنّه ذهب إلى أنّه بخلاف نظرة ماركس وأنغلز، الأزمة الدورية تتطور ليس بسبب فائض الإنتاج السلعي، لكن عندما يفشل الرأسماليون الصناعيون في تأمين قوّة عمل كافية لزيادة الإنتاج. قاده ذلك في المقابل إلى ربط مسار التراكم بالتزايد السكاني، ف«التراكم يفترض التزايد السكاني».

ما لم يستطع أوتو باور رؤيته أنّ هذا الميل في المجتمعات الأوروبية للابتعاد عن نظرية الإفكار لا يمكن أن يفسر بعزل عن الإمبريالية، مثلما لم تستطع روزا لوكسمبورغ الإقرار بأنّ ربطها الرأسمالية عضوياً بالإمبريالية يترتب عليه مساراً أكثر تعقيداً في مجتمعات الحواضر الإمبريالية، بحيث لا يعود الاستقطاب الطبقي بالحدّية نفسها الذي طبعته في فترة الثورة الصناعية، من دون تسهيل عملية رسملة المستعمرات وأشباه المستعمرات مسار تشكّل الطبقات الاجتماعية فيها على أساس استقطابي بين الرأسمال والعمل.

### هل الازمات ضرورية للرأسمالية؟

فهل يعني هذا أنّ النظام الرأسمالي قادرٌ دائماً على الإفلات من الأزمات التي تلّم به - هنا لا بدّ من طرح المعادلة التي يُعملها ديفيد هارفي في «معضلة رأس المال» وهو أنّ الأزمات ضرورية لتطور الرأسمالية ضرورة المال والقوّة والعمل ورأس المال نفسه<sup>١٧</sup>، وأنّ هذه الأزمات هي «لاعقلانيات» تعقلن في كلّ مرّة لاعقلانية الرأسمالية.

أياً يكن من شيء، الاختلاف بين روحية المجلدين الثاني والثالث لرأس المال ليس من الميسر حسمه، وعدم تمكّن ماركس من الانتهاء من كتابة عمله الضخم يعود إلى حدّ بعيدٍ إلى إشكال كهذا، إلى تناقض أخذ يتطور فصلاً بعد فصل، ويمكن اقتفاء أثره منذ بداية الكتاب، بين اتجاهين، أحدهما ينحو إلى اعتبار انهيار الرأسمالية حتمياً، وآخر يتخوّف، بالعكس، من إمكانية تمددها أكثر بكثير ممّا كان متوقّعاً من قبل ماركس.

مثل «تراكم رأس المال» محاولة مهمة للغاية في التصويب على مسألة إعادة إنتاج الرأسمال الاجتماعي من حيث هي عمق التفكير الاقتصادي الماركسي، ومثّل في المقابل مجازفةً غير مكتملة الشروط في ترجيح الكفة لمنطق المجلد الثالث (التراكم مسدود الأفق) بالصدّ من المجلد الثاني (التراكم اللامتناهي). بيد أنّه، من وراء هذه المجازفة، كان لروزا إسهامٌ مهمّ في طرح مسألة «من أين يأتي الطلب» الذي يدفع إلى المزيد من الإنتاج، وجواب روزا بأنّه لا يمكن أن يأتي من ثنائية الرأسماليين والعمّال لوحدها يحتفظ براهنية أساسية.

في المقابل، كثير من المواد النقدية في «تراكم رأس المال»، بخاصة التي تتناول النقاشات بين المفكرين الاقتصاديين في روسيا القيصريّة حول إمكانات التطور الرأسمالي تحتاج إلى التأنّي في النظر إليها، وإعادة قراءة



روزا لوكسمبر

هل يمكن أن يُبطل هذا في المقابل كل إمكانيتة للانهايار  
الرأسماليّ الشامل؟ أبداً. لا شيء مضموناً في الرأسماليّة،  
بما في ذلك عدم انهايارها الشامل.

المنقودين. وجّهت روزا النقد في هذا الصدد لكلّ من  
النزعة «النارودنيّة» التي تقول باستحالة توطيد الرأسماليّة  
في روسيا أو من ثمّ بإمكانيتة تفادي الرأسماليّة، وللمدرسة  
المقابلة، ممثّلة خصوصاً بميخائيل توغان بارانوفسكي (ت  
١٩١٩) الذي رصد شكلاً روسياً من عمليّة تراكم رأس  
المال منذ القرن الثامن عشر. تميل روزا إلى اختزال أعمال  
بارانوفسكي، الذي تحلّ مؤويته السنويّة هذا العام أيضاً،  
في «توتولوجيا» الإنتاج المكتفي بنفسه كعلّة ومعلول،  
كسبب للطلب على الإنتاج وكإطار للاستهلاك، في حين  
أنّ قيمة بارانوفسكي الأساسيّة تكمن في النقد الذي  
وجّهه لمقولة «فائض القيمة» نفسها، وإعادة اعتباره لكلفة  
الإنتاج مأخوذةً ككلّ على حساب مركزية كلفة العمل  
في «رأس المال»، مؤسساً بذلك لتاريخ من التشكيك، من  
موقع يريد المراكمة بشكل نقديّ على ماركس، بنظريّة  
الأخير حول «فائض القيمة».

#### الهوامش

- ١ يمكن تحميل ترجمة مارسيل اوليفيه الفرنسية لكتاب هيلفردينغ على:  
[https://www.marxists.org/francais/hilferding/1910/lcp/hilf\\_lcp.pdf](https://www.marxists.org/francais/hilferding/1910/lcp/hilf_lcp.pdf)  
وهي ترجمة تصدّرها مقدّمة شارحة لايفون بورديه
- ٢ الكارتيل والتراست نوعان من «احتكار القلّة» ظهر أولهما أواخر القرن التاسع  
عشر وثانيهما مطلع القرن العشرين.  
الكارتيل تعاضد مؤقت لمشاريع مختلفة تعمل في نفس الفرع الصناعي وتتفق  
على توحيد عمليّة توريد الموادّ الأوليّة وتوزيع طلبات الزبائن فيما بينها من  
دون أن يكون الكارتيل مشروعاً قائماً بذاته. هذا بخلاف الاحتكار الائتمانيّ  
أو «الترست» الناشئ عن اندماج كتلة ماليّة للسيطرة على قطاع بكامله من  
قطاعات الإنتاج، الأمر الذي تبيّن عنه ظاهرة «الرأسمال الماليّ» بالمعنى المحدّد  
للاصطلاح
- ٣ Paul Frölich, *Rosa Luxemburg*. Traduit de l'allemand par Jacqueline Bois.  
Paris, Maspero, 1965, p. 187
- ٤ بول فروليش (١٨٨٤ - ١٩٥٣) مؤرّخ وصحافيّ ومناضل شيوعيّ ألمانيّ،  
وأحد مؤسّسي الرابطة السبارتاكية والحزب الشيوعي الألمانيّ مع روزا  
لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت واصطدم لاحقاً بالستالينيّة من موقع تمثّله بنهج  
ورويّة روزا لوكسمبورغ الذي اشتهر بسيرته عنها (١٩٣٩)
- ٥ Rosa Luxemburg, *Intervention sur le militarisme  
et la politique coloniale au Congrès de l'Internationale*,  
<https://www.marxists.org/francais/luxembur/works/1900/09/congres.htm>
- ٦ Gilbert Badia, *L'analyse du developpement capitaliste chez Rosa Luxemburg  
in Histoire du marxisme contemporain*, t2, 10 / 18, 1976, 97 - 116
- ٧ جرت العودة أثناء إعداد هذه الدراسة إلى كلّ من الترجمتين الإنكليزيّة  
والفرنسيّة لكتاب التراكم  
Rosa Luxemburg, *The Accumulation of Capital*,  
translated by Agnes Schwarzschild, with a new introduction  
by Tadeuz Kowalik. London, Routledge, 2003. Rosa Luxembourg,  
*L'accumulation du capital*, traduction d'Irène Petit.  
[http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques\\_des\\_sciences\\_sociales/index.html](http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html)
- ٨ *L'accumulation*, p. 17
- ٩ *Idem*, p. 25
- ١٠ Karl Marx. «Introduction générale à l'étude de l'économie politique» in Karl  
Marx. *Œuvres. Economie I*. Gallimard - Bibliothèque de la Pléiade, p. 243
- ١١ Karl Marx, *Le Capital*, Livre Premier. Tome I, Paris, Editions Sociales, 1969, p.154
- ١٢ *Idem*, p. 150
- ١٣ *Ibid*
- ١٤ Karl Marx, *Le Capital*, Livre Premier. Tome III, Paris, Editions Sociales, 1969, p. 8
- ١٥ *Ibid*
- ١٦ *Idem*, p. 20
- ١٧ Denis Collin, *Le cauchemar de Marx. Le capitalisme  
est-il une histoire sans fin?* Paris, Max Milo, 2009, p. 80
- ١٨ *L'accumulation*, op.cit. p. 10
- ١٩ المرجع السابق، ص ١١
- ٢٠ المرجع السابق، ص ٣٠
- ٢١ المرجع السابق، ص ١٣١
- ٢٢ المرجع السابق، ص ١٣٥
- ٢٣ المرجع السابق، ص ١٤٢
- ٢٤ المرجع السابق، ص ١٤٨
- ٢٥ المرجع السابق، ص ١٥١
- ٢٦ الحمانيّة والتراكم، الفصل ٣١
- ٢٧ D. Harvey, *The Enigma of Capital and the Crisis of Capitalism*, Oxford 2010

## كان خيار روزا إنقاذ نظرية فائض القيمة. إنما بالتشديد على استحالة تحقيق فائض القيمة ضمن السوق الرأسمالية لوحدها.

كان خيار روزا إنقاذ نظريّة فائض القيمة، إنّما بالتشديد  
على استحالة تحقيق فائض القيمة ضمن السوق الرأسماليّة  
لوحدها، وارتباط فائض القيمة بـ«الأبيض» الذي يربط  
هذه السوق بما لم يرسمّل بعد من علاقات اجتماعيّة على  
هذه الأرض. لم يكن بإمكانها أن تتخيّل تراكم رأس المال  
في مجتمع رأسماليّ حصراً، ولم يكن بإمكانها أن تتخيّل  
استمرار الرأسماليّة من بعد رسملة كلّ الكوكب. والحال  
هذه، التأمّل يطرح نفسه بعد مئة عام على اغتيال روزا  
التي دافعت عن نظريّة فائض القيمة بشرط ربط التراكم  
بالتوسّع إلى الأقاليم والقطاعات غير الرأسماليّة، وبعد  
مئة عام على رحيل توغان - بارانوفسكي، الذي اعتبر أنّ  
«فائض القيمة» هي نوعاً ما أصل العلّة في التصدور النظريّ  
الذي ابتناه ماركس عن التراكم الرأسمالي: هل ما زالت  
هناك فضاءات لم ترسمّل بعد على الكوكب أم أنّ مقولة  
برنشتاين عن «التوسّع التكتيفيّ» للرأسماليّة هي التي  
تصلح منظاراً؟ قطعاً لم تكن روزا تتوقّع انتهاء الرأسماليّة  
في غضون سنوات قليلة، لكن من المؤكّد أنّها ما كانت  
لتتخيّل، هي وسائر جيلها، أنّ الرأسماليّة بـ«ألف روح»،  
وأقرب بهذا المعنى إلى تشخيصات توغان - بارانوفسكي.

## رسائل روزا من السجن المرأة التي تفهم لغة الطير

١

عندما توقّف العندليب عن الغناء  
فرونكه، ٢ أيار ١٩١٧

تساءلين عما أقرأ. العلوم الطبيعية في غالب الأحيان. إنني أدرس توزيع النباتات والحيوان. البارحة كنت أقرأ عن أسباب اختفاء الطيور المغردة في ألمانيا. لقد أدى انتشار الحراجة العلمية والبستنة والزراعة إلى إقصائها عن أماكن تعيشها وعن مصادرها الغذائية. نحن نقضي أكثر فأكثر على الأشجار المجدوفة والأراضي البور والآجام والأوراق المتساقطة. انفطر قلبي. لم أفكر كثيراً بفقدان البشر للمتعة، لكنني تألمت من فكرة التدمير البطيء والمعاند لهذه المخلوقات الصغيرة المسالمة، التي لا حول لها ولا قوة، وانهالت دموعي على وجهي. تذكّرت في تلك اللحظة كتاباً قرأته في «زيورخ»، يصف فيه العالم «سبيير» هلاك الهنود الحمر في أميركا الشمالية، إذ تمّ نفيهم تدريجاً من أراضي الصيد الخاصة بهم من قبل البشر المتحضّرين، تماماً كالطيور.

لا بُدّ من أنني متوعكة لكي استشعر بالأشياء كلها بهذا العمق. مع ذلك، يبدو لي أحياناً أنني لست كائناتاً بشرياً على الإطلاق، بل طائراً أو حيواناً في هيئة بشرية. أشعر بالاطمئنان والراحة في حديقة صغيرة كذلك الموجودة هنا، وأكثر منها في المروج التي يطنّ النحل في عُشبيها، ومن المؤتمرات الحزبية التي كتنا نعتقدها. لا بأس إن أخبرتك بذلك، أعلم أنك لن تتهميني بخيانة الاشتراكية! فأنت تعلمين أنني أودّ أن أموت في أحد قتالات الشوارع أو في السجن.

لكنّ وجداني الأعمق ينتمي إلى طيور الفرفرف أكثر منه إلى الرفاق. هذا ليس لأنني أبحث عن ملجأ لأجد الهدوء والسكينة في أحضان الطبيعة، علي غرار ما يفعل العديد من السياسيين المفلسين روحياً. بل على خلاف ذلك، فإنني أرى في الطبيعة من قسوة ووحشية ما يجعلني أتألم بشدة.

... في نيسان / أبريل من العام الماضي اتصلت بك عند العاشرة صباحاً لكي تحضري فوراً إلى الحديقة النباتية من أجل الاستماع إلى العندليب الذي كان يؤدي واحدة من معزوفاته المعتادة هناك، أتذكرين؟ اختبأنا خلف شجيرات كثيفة وجلسنا على الصخور بالقرب من جدول ماء سلسبيل. وعندما توقّف العندليب عن الغناء، حلّ مكانه فجأة بكاءً رتيباً نواحٍ صوته أشبه بـ«كللكلكلكلكلكلك!». قلت حينها إنه لا بُدّ من أن يكون نوعاً من طيور الأهوار، كارل وافقني الرأي، لكننا لم نعرف ما هو نوعه. تخيّلني، سمعت منذ أيام قليلة في الصباح الباكر هنا الصوت نفسه أتياً من مكان قريب. انتظرتُ بفارغ الصبر كي أعرف أيّ طائر هو، ولم يهدأ لي بالّ إلى أن عرفت. اتضح في النهاية أنه ليس طائر أهوار. إنه طير اللّواء، لونه رماديّ وحجمه أكبر بقليل من حجم عصفور الدوري. وقد اكتسب اسمه من إيماءاته الجذابة والغريبة والتواءات عنقه التي يؤديها بهدف ترويب أعدائه لحظة شعوره بالخطر. وهو يقاتل على النمل فحسب، يجمعها بلسانه الدقيق تماماً كحيوان «أكل النمل». الإسبان يسمّونه «أورميغيرو» (hormiguero). وضح «موريكه»<sup>١</sup> بعض الأبيات الممتعة عن اللّواء، ودمج «هوغو وولف»<sup>٢</sup> صوته في الموسيقى. الآن وقد علمت ما هو الطائر صاحب البكاء الرتيب، أشعر بالسُرور كما لو أنني تلقيتُ هدية. قد ترغبين في مراسلة كارل لإخباره بذلك، سيرغب في معرفة هذه المعلومة.



النسيم العليل والغسق الذي يتداعب فيه الليل والنهار  
برقةً وحُنوً.  
سونيوشا، سأكتب لك قريباً. كوني مطمئنة البال، كل  
شيءٍ سيصبح على ما يرام وسأكون بخير، كارل كذلك.  
أودّعكِ حتى الرسالة المقبلة.  
مع حُبِّي،  
روزا

٢

بريسلاو، منتصف كانون الأول / ديسمبر، ١٩١٧

بين فترةٍ وأخرى، أسمع من بعيد الصوت الخافت لقطار  
عابر، أو من قريب، السعال الجاف لحارس السجن الذي  
يخطو بضع خطواتٍ بطيئةً بحذاءه الثقيل لكي يتمطى.  
إنّ لانزلاق الحصى تحت قدميه صوتاً يملأ رطوبة الليل  
الموحش بسأم الوجود وعَبَثِهِ. أستلقي هنا وحيدة وفي  
صمت، مغلفةً بلفائف الظلمة والضجر والأسر والبرد -  
«غير أنّ قلبي ينبض بسعادة داخليةٍ مُلغزة ولامتناهية،  
كما لو كنتُ أسرّح تحت ضوء الشمس البراق في روضة  
مزهرة. وفي الظلام أبتسم للحياة، كمن يملك سحراً يمكنه  
من تحويل كل شرٍّ ومأساةٍ إلى صفاءٍ وسرور. ولكن عندما  
أبحث عن سبب هذه السعادة، أدرك أنّ لا وجود لسبب،  
وأضحك على نفسي». أعتقد أنّ مفتاح هذا اللغز هو الحياة  
نفسها. ظلام الليل الداكن لهو ناعمٌ وجميلٌ كالمخمل إذا  
ما نظرنا إليه كما يجب. تحت الدعسات الثقيلة لحارس  
السجن أيضاً أغنية رقيقة عن الحياة، لمن له أذنان لسمع.  
في لحظات كهذه أفكرُ فيكِ، سونيوشا، وأفكرُ في تسليم  
هذا المفتاح السريّ لك أيضاً.  
عندها، ستصبحين قادرةً على رؤية فرح الحياة  
وجمالها في جميع اللحظات والأماكن. عندها أيضاً  
ستعيشين نشوة الحياة اللذيذة، وتسرحين في روضة  
مزهرة. لا تُظني أنني أمنحك مسرّاتٍ خيالية، أو أنني  
أعظك بالزهد والتقصّف. بل أريدك أن تتذوّقي كل الملذات  
الحقيقية للحواس. رغبتى الوحيدة هي أن أهبك، بالإضافة  
إلى ذلك، إحساسى الذي لا ينضب بالتّعيم الداخلي. إذا  
تمكّنت من فعل ذلك، سأكون مطمئنة البال في شأنك،  
مدركة أنّك ستعبرين الحياة مرتديّة عباءة مطرزة بالنجوم،  
ستحميك من كلّ ما هو حقيّر وزهيد ومؤذ.

سأروي لك حدثاً لن أنساه ما حييت. في الربيع  
الماضي وبينما كنتُ أمشي في طريقٍ هادئٍ ساكن،  
عائدةً من نزهتي الريفية، رأيتُ بقعةً سوداءً صغيرة على  
الأرض. انحنيت إلى الأمام، وإذ بي أرى مأساةً بكماءٍ  
تحدث. خنفساءٌ ملقّيةٌ على ظهرها تلوح بقوائمها عاجزة،  
بينما يحتشد حولها جمعٌ من النمل يلتهمونها حياةً!  
أصابني الرعب، فأخذتُ مندلي من جيبى ورحتُ أبعُد  
النملات الصغيرة المتوحّشة عنها. لكنّ النملات كانت  
عديدة ومُتشبّنة إلى درجة أنّ الأمر استغرق متي بعض  
الوقت قبل أن أحرّر الخنفساء البائسة. وعندما وضعتها  
على مسافةٍ آمنة بين الأعشاب، أدركتُ أنّ اثنتين من  
قوائمها كانتا قد قُصمتا بالكامل... هربتُ من المشهد وأنا  
أشعر بأنّي أسديتُ خدمةً مُريبة وملتبسة.  
غسّق المساء يدوم طويلاً هذه الأيام. أحبّ هذه  
اللحظات. في «الطرف الجنوبي» كان يوجد الكثير من  
طيور الشحرور، لكنّ هنا لا مرأى لها ولا مسمع. كنتُ  
أطعمُ زوجاً منها في الشتاء، لكنهما اختفيا.

**لا تُظني أنني أمنحك مسرّاتٍ خيالية. أو أنني أعظك بالزهد  
والتقصّف. بل أريدك أن تتذوّقي كل الملذات الحقيقية للحواس.  
رغبتى الوحيدة هي أن أهبك.  
بالإضافة إلى ذلك، إحساسى الذي لا ينضب بالتّعيم الداخلي.  
إذا تمكّنت من فعل ذلك، سأكون مطمئنة البال في شأنك.**

كنت أتجوّل في الشوارع في هذا الوقت من النهار  
عندما كنتُ في «الطرف الجنوبي». لطالما سحرثني  
المصاييح الغازية عندما تسطع ببريقها المتورّد مع ضوء  
المغيب البنفسجي، يبدو نورها غريباً في ضوء الدُّجّة، كما  
لو أنّها تخجل من نفسها. ثمّ تَرين هيئة شخص يتحرّك  
مُسرّعاً في الشارع، ربّما تكون خادمة تُسرّع الخطى  
لإحضار شيءٍ من الفران أو البقال قبل قفل المتاجر.  
كان أولاد صانع الأحذية أصدقائي، وكانوا يلهون  
في الشوارع بعد حلول الليل إلى أن يستدعيهم نداءً  
صارخاً إلى الداخل. وكان هناك دائماً شحورورٌ متباطئ  
لا يهدأ، يواصل الرّعيق كطفل شقيّ أو يستيقظ فجأةً  
من غفوته ويحلّق من شجرةٍ إلى أخرى. أما أنا فكانت  
لا أبرح مكاني وسط الشارع، أَعُدُّ النجوم وهي تظهر  
في السماء، غزوفة عن العودة إلى البيت، رافضةً مغادرة

An den Pflaster-  
steinen interessieren mich die buntesten  
Farben: rotlich, bläulich, grün, grau.  
Namentlich in dem lauen Winter,  
der so schön auf ein bisschen Lebendiges  
Grün warten liess, haben meine  
farbensüchtigen Augen sich an den  
Steinen ein wenig Besseres in Anwe-  
sung zu schaffen gesucht. Und jetzt,  
denn Sommer ist, da gab es zwischen  
den Steinen sowohl Eigenartiges und  
Interessantes zu sehen!

From the letter dated July 20th, 1917, on page 40

## لغة الطير

سونيوشا،

هل تصدقيني إن قلتُ لك إنه يمكن للأغنية الصغيرة التي يغزدها العصفور أن تكون ممثلة المعنى، وأن تحرك أعماقي؟ كانت أمي، التي تعتقد أن «شيلر» ٣ والإنجيل هما أسمي مصادر الحكمة، مقتنعة بأن الملك سليمان كان يفهم لغة الطيور. عندما بلغت الرابعة عشرة، وخلال تدريبي في العلوم الطبيعية، كانت بساطة أمي تجعلني أبتسم. لكنني اليوم كبرتُ لأصبح كالملك سليمان، فأنا أيضاً أفهم لغة الطيور والحيوانات. ذلك لا يعني طبعاً أنها تنطق بخطاب واضح جلي، لكنني أفهم معظم تنويعات المعاني والأحاسيس التي تحملها تغريداتها. إن أغنية العصفور تبدو هي نفسها دائماً فقط على مسمع أذان جلفة لإنسان حامل غير مبال لكن من يحب الطيور والحيوانات ويتمتع بإدراك متعاطف وذكاء حساس، يستطيع تمييز تنوع هائل للغة بأرعة كاملة. هناك معنى حتى في الصمت الكوني الذي يعقب ضوضاء مطّلع فصل الربيع. أعلم أنني إذا كنت لا أزال هنا في الخريف (وهو أغلب الظن)، فإن أصدقائي جميعهم سيعودون إلى نافذتي بحثاً عن الطعام. تخمروني البهجة من الآن عند التفكير في عودة ذاك القرقف الأزرق. هو صديق عزيز لي.

سونيوشا،

أعلم أنك تشعرين بالمرارة بسبب اعتقالي الذي دام طويلاً، وتساألين: «كيف يجرؤ البشر على تقرير مصير إخوانهم؟ أي معنى لذلك؟ لا تستائي إن قلتُ أنني أضحك وأنا أقرأ هذه الكلمات. في رواية «الإخوة كارامازوف» لدوستويفسكي ٤، تطرح «السيدة خوخلاكوفا» الأسئلة نفسها وهي تجول بنظرها على الحاضرين واحداً تلو الآخر، ولا تلبث أن تطرح سؤالاً آخر قبل أن تتسنى لهم الإجابة عن السؤال الأول. يا عصفورتي الصغيرة، إن تاريخ الحضارة بأكمله (والذي وفقاً لتقديري المتواضع، يمتد على مدى نحو عشرين ألف سنة)، يركز علي فكرة «البشر الذين يقررون مصير إخوانهم». إنها ممارسة متجذرة بعمق في الشروط المادية للوجود الإنساني. لا شيء سوى تطوّر آخر، تطوّر شاق وأليم، يمكنه تغيير هذا الواقع. ونحن

نعيش اليوم داخل هذا الفصل الانتقالي. وتساألين: «ما معنى كل ذلك؟» إن تساؤلك ليس عقلاً فيما يخص كُليّة الحياة وأشكالها. ما هو سبب وجود القرقف الأزرق في هذا العالم؟ أنا حقاً لا أعرف، لكنني سعيدة بوجوده، وأفرح بتغريدة أسمعها فجأة من خلف الجدار.

إنك تبالغين قليلاً في شأن رباطة جأشي. إذ يمكن لأصغر الأشياء أن تعكر اتزانتي وبهجتي. وعندما يحصل ذلك، فإن الكلمات تعجز عن وصف مُعاناتي، لكنّها طريقتي الخاصّة للتأمّل في صمت. أعجز حرفياً، يا سونيشكا، عن التفوّه بكلمة واحدة. مثلاً، كنتُ في هذه الأيام القليلة الماضية مسرورةً جدلانة، أستمتع بنور الشمس، إلى أن هبّت رياح عاتية نهار الإثنين، وفي لحظة تبدّد سروري وغصتُ في كآبة عميقة.

انسلخ سروري منّي في تلك اللحظة، أصبحت عاجزة حتى عن إلقاء التحية على أحد، لا حيلة لي إلا أن أتأمل المنظر في يأس مُدقع. في الواقع، نادراً ما أميل إلى التكلم. هنا تمرّ أسابيع من دون أن أسمع صوت حنجرتي. لهذا تمكنت، وبعزم شديد، ألا أحضّر قطي «ميمي» معي. فهي معتادة على المرح والهزج، تفرح عندما أغني وأضحك وألعب معها الغمّضة في أرجاء المنزل، كانت ستُصاب بالكآبة هنا. لهذا تركتها في رعاية «ماتيلد». ستأتي ماتيلد لزيارتي بعد أيام قليلة، سأفرح بذلك، ربّما سيكون «أحد العنصرة» مهرجاناً سعيداً لي أنا أيضاً. لكن يا سونيشكا، يجب ألا تياسي، أنا أعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام في النهاية. أرسلني حبي إلى كارل. ولك منّي عناقٌ طويل.

## رسالة إلى رجل ميت

بريسلاو، منتصف تشرين الثاني / نوفمبر، ١٩١٧

حبيبتي سونيشكا،

أسارُعُ إلى التقاط قلبي، أمله أن تتاح لي الفرصة كي أبعثُ لك بهذه الرسالة بعد طول انتظار. كم من الوقت اضطررتُ للإحجام عن عادتي بالتحدّث معك، ولو على الورق. وكان عليّ أن أخصّص بعضها لهازء، الذي كان ينتظر رسائلي. لكن كل شيء انتهى الآن. رسائلي الأخيرة له كانت موجهة إلى رجلٍ ميت، وقد أعادوها

لي بالفعل. إنَّ خسارته ما زالت لا تُصدَّق. لكنَّ دعينا من هذا الحديث الآن، فأنا أفضلُ التَّفكيرِ في هذه الأمور في عزلي. إنَّ امتعاضي يفوق الوصف عندما يحاول الناس، كما فَعَلَ «ن»، أن يُعلِّموني بالفاجعة على عَجَل، وأن يستعرضوا حزنَهُم وأسأهُم عن طريق «هُوساتي». هل لهذه الدَّرَجَة يعجز أصدقاؤني المقربون عن فهمي؟ أيستهيئون بي على هذا النحو فيعجزون عن إدراك أنَّ أفضل ما يمكن فعله في هذه الأحوال هو أن يقولوا لي في سرعة وإيجاز وبساطة: «هانز مات»؟

... كم أتأسَّف على خسارة كلِّ هذه الأشهر والسنين التي كُنَّا لنقضي خلالها ساعات كثيرة من المتعة والتسلية، على الرِّغم من كلِّ الأحوال التي تحدث في جميع أنحاء العالم. أتعلمين يا سونيشكا؟ كلما طال مُكوثي هنا، وكلما فاقت شناعة الأحداث اليومية وفضاعتها كلِّ الحدود، أصبحت نظرتي أكثر هدوءاً وثقة. أقول لنفسي إنَّ من العبث تطبيق المعايير الأخلاقية على القوى الطبيعية العظيمة التي تظهر في الإعصار أو الفيضان أو كسوف الشمس. إنَّما علينا أن نتقبَّلها كوقائع للاستقراء والاستجلاء، وكمواضيع للدراسة.

٥

### مقتطف من رسالة إلى هانز ديفينباخ

فرونكه، ٦ تموز / يوليو ١٩١٧، مساء يوم الجمعة

انتبهوا إلى بهاء هذا النهار!

اليوم، شهدنا نهاراً آخر في غاية الجمال. عادةً، أعود إلى جُحري عند العاشرة صباحاً للعمل، لكنني اليوم لم أتمكن من فعل ذلك. كنتُ مستلقية على مقعدي المصنوع من الصِّفصاف، رأسي مُلقى إلى الخلف، أهدق في السماء لساعات من دون أن أتحرك. غيومٌ ضخمةٌ أشكالها رائعة اكتست زُرقة السماء الرقيقة التي تلوِّح بين الفينة والفينة من بين أطراف الشُّحْب المتعرجة. ضوء الشمس يطوقُ ببياضٍ رَغوِيٍّ ساطعٍ غيوماً قلبها رماديٌّ مُعبَّرٌ يرمز في جميع التدرجات، من الفصبي الخافت إلى الدَّاكن العاصف. هل سبق لك أن لاحظت جمال اللون الرمادي وغناه؟ فيه كثيرٌ من الحُفر، وهو يحتضن احتمالات كثيرة. يا للرَّوعة! كلُّ هذا الرمادي على صفحة السماء الزرقاء! كثوب رمادي ترتديه امرأة ذات عَيْنَ زرقاوين.

في تلك الأثناء، كنتُ أسمع حفيفَ شجرة الحور الكبيرة أمامي، أوراقها ترتجف في رعشة شبيقة، وتومض متلألئة تحت نور الشمس. خلال الساعات التي كنتُ فيها غارقةً بالكامل في أحلام رمادية وزرقاء، شعرتُ وكما لو أنَّ عُمرَي آلاف السنين. يتحدث «روديارد كبلينغ» في إحدى قصصه الهندية عن قطع من الجواميس كان يُقاد ظهيرة كلِّ يوم بعيداً من القرية. كانت تلك الحيوانات الضخمة، التي يمكنها في دقائق معدودة أن تسحق تحت حوافرها قرية كاملة، تتبع مطبوعة مُنصاعة عصا مزارعين داكني البشرة، يقودانها بحطى ثابتة نحو مستنقع ناء. هناك، وفي ضوضاء عارمة، كانت تنزل في الوحل وتنغمس فيه مستلذة حتى خياشيمها، بينما يحتمي الأطفال من أشعة الشمس المستعرة تحت ظلِّ شجرة أكاسيا نحيلة، يأكلون على مهل كعكات الأرز التي كانوا قد أحضروها معهم، يراقبون السحالي النائمة تحت أشعة الشمس، ويتأملون في صمِّ ارتجاج الفضاء من حولهم... «ظهيرة مثل هذه كانت تبدو لهم أطول من عمر كثير من البشر»، يقول كبلينغ، إن لم تحنِّ الذاكرة. كم أجاد التعبير عن هذه الفكرة، أليس كذلك؟ أنا أيضاً أشعر مثل هؤلاء الأطفال الهنود، عندما أعيش صباحاً شبيهاً بصباح اليوم.

شيء واحد يؤلمني: أن أستمتع لوحدي بكلِّ هذا الجمال. لو في وسعي أن أصرخ من أعلى الجدار: أرجوكم، انتبهوا إلى هذا التَّهَار الرائع! لا تنسوا، حتى لو كنتم منشغلين، حتى لو كنتم على عَجَل من أمرٍ مهمكين بواجباتكم الطارئة، لا تنسوا أن تتوقفوا للحظة وترفعوا رؤوسكم إلى أعلى، وأن تختلسوا نظرة إلى السُّحْب الفضية الضخمة، وإلى المحيط الأزرق الجليل الذي تسبح فيه. انتبهوا إلى الهواء المليء بتنفس آخر زهرات الرِّيزفون، انتبهوا إلى بهاء هذا النهار وتألقه، لأنَّ هذا اليوم لن يعود أبداً! لقد مُنح إليكم كزهرة مفتوحة بين أقدامكم، تنتظر أن تأخذوها وتضمُّوها إلى شِفاهكم.

### الهوامش

- ١ كلِّ الرسائل موجهة إلى سوفي لينبخت، زوجة كارل لينبخت، التي كانت روزا تدلُّها باسم «سونيا» أو «سونيوشا» أو «سونيوشكا»، إدوار موريكه، شاعر ألماني (١٨٠٤ - ١٨٧٥)
- ٢ مؤلِّف موسيقى نمساوي، (١٨٦٠ - ١٩٠٣)، اشتهر كمؤلِّف أغان
- ٣ فريدريك شيلر، شاعر وكاتب مسرحي ألماني (١٧٥٠ - ١٨٠٥)
- ٤ فيودور دوستوفسكي، روائي روسي (١٨٢١ - ١٨٨١)
- ٥ الطبيب هانز ديفينباخ، أحد أعرَّض أصدقاء روزا لوكسمبورغ، قُتل في الحرب



❖  
في ذكرى كارل  
ليبنخت، كاثي  
كولفيتز، ١٩٢٠



## روزا لوكسمبورغ بعيني رايادونايفسكاياد: في البدء كان الفعل

ألكسندرا المصري

جامعية وكاتبة، لبنان.

«وصلنا الآن الى نقطة، يا رفاق،

حيث أصبحنا قادرين على قول إننا تلاقينا مع ماركس،  
وأنا نتقدم مجدداً تحت رايته (...). على الجماهير أن  
تعلم كيف تستخدم القوة.

العمال اليوم سيتعلمون في مدرسة الفعل... في البدء  
كان الفعل».

روزا لوكسمبورغ - خطاب تأسيس الحزب الشيوعي الألماني  
كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨

أرجعت دونايفسكاياد هذا الفصل بين ماركس إنساني  
وبين ماركس «ماركسي» إلى جملة أسباب، منها تأخر  
نشر أعمال ماركس الشاب، ناهيك عن رواج التفسيرات  
الاختزالية والميكانيكية في «الماركسية المأسوسة»،  
وشددت على أن «مخطوطات ١٨٤٤» هي لحظة  
القطيعة الأساسية عند ماركس، إنما القطيعة مع المجتمع  
البرجوازي والتأسيس لفكر إنساني قدر ما هو ثوري.  
وعلى عكس مساعي الفصل بين الفلسفة والثورة، ركزت  
على وحدتهما من خلال ما سمته «ديالكتيك التحرر». من  
هذا المنطلق أولت دونايفسكاياد اهتماماً لافتاً بمن اعتبرتها  
«الوريثة» الحقيقية لهذه الفلسفة» أي روزا لوكسمبورغ.  
يندرج كتابها «روزا لوكسمبورغ، تحرر المرأة وفلسفة  
الثورة لدى ماركس» (١٩٨٢)، ضمن ما يُعرف بـ«ثلاثية  
الثورة»، إلى جانب «الماركسية والحزبية» من ١٧٧٦ إلى  
اليوم» (١٩٥٨) و«الفلسفة والثورة: من هيغل إلى سارتر  
ومن ماركس إلى ماو» (١٩٧٣). اتفقت المناضلتان  
اللتين تفصل بينهما أربعة عقود من الزمن تقريباً، على  
أن «الحركة من الممارسة نفسها هي بحد ذاتها شكّل من  
أشكال النظرية». وهو ما توصلت إليه دونايفسكاياد بسبب  
احتكاكها بالديالكتيك الهيجلي، ولا سيما مفهوم «الوجود  
المطلق» لديه الذي فسّرتّه بكونه يُرسي حركةً ثنائية من  
الممارسة إلى النظرية، ومن النظرية إلى الممارسة.

### البراكسيس

«الفعل له الأولوية على أية مقولة أخرى في الماركسية». على هذا الأساس ارتسمت، بالنسبة إلى دونايفسكاياد، قطيعة ماركس مع الهيجليين اليساريين بعدما كان في عدادهم. تحدّد ذلك في «مقدمة نقد فلسفة الحق عند هيغل» ثم في «المسألة اليهودية» حين وجد ماركس «الذاتية»

كانت رايادونايفسكاياد (١٩١٠ - ١٩٨١) أول من نشر «المخطوطات الفلسفية والاقتصادية لعام ١٨٤٤» لكارل ماركس بالإنكليزية (ضمن كتابها «الماركسية والحزبية» ١٩٥٨). تميزت هذه المفكرة والمناضلة الأميركية المولودة في أوكرانيا بسعيها وراء إظهار تجذّر الأنسنة في فلسفة ماركس، وتزعمت تياراً دُعي بـ«الماركسية الإنسانية». عندها أن «الإنسانية» لم تكن مجرد مرحلة عابرة افترق عنها ماركس لاحقاً حين تجاوز مرحلة شبابه. من هنا كان رفضها المقولة «القطيعة» بين ماركس الشاب «الإنساني»، الدائر في فلك الفلسفة المثالية الألمانية، وبين ماركس الناضج «الماركسي»، وهو ما رسّخه تحديداً الفيلسوف الفرنسي لوي إلتوسير في مرحلته البنيوية، مع نظرية «القطيعة المعرفية» التي تفصل ما بين ماركس الإنساني، غير الماركسي بعد، وبين ماركس المادّي التاريخي، الذي لم يعد ينطلق من موقفٍ حول ماهية الإنسان وإنما من البنى التي تحكم التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية. وقد حدّد إلتوسير زمن القطيعة في لحظة «الأيدولوجيا الألمانية» (١٨٤٦) والرّد على برودون «بؤس الفلسفة» (١٨٤٧)، وزمن التمركز الناجز لماركس مرحلة كتابة «رأس المال».

في قوة العمل، الأمر الذي أصبح نقطة التحوّل لبقية حياته، وتعرّز ذلك مع مفهوم الاستلاب (alienation) في «مخطوطات ١٨٤٤»، الذي ترى دونايفسكايا أنه يسبر «ليس فقط العلاقات الطبقيّة، بل العلاقات الحقيقيّة بين الناس»<sup>٢</sup>. تعطي دونايفسكايا للنزعة الإنسانيّة الثوريّة عند ماركس طابعاً تراكمياً. ففي ١٨٤٤، ركّز على «لا إنسانيّة» العامل المستلب من رأس المال. مع «أطروحات حول فويرباخ» سينتقل من موضوعيّة الواقع إلى إدراك الواقع كمارسة، ويبيّن في الأطروحة العاشرة أنّ «نقطة ارتكاز المادّيّة القديمة هي المجتمع المدنيّ، في حين أنّ نقطة ارتكاز المادّيّة الجديدة هي المجتمع الإنسانيّ، أو الإنسانيّة الاشتراكيّة»<sup>٣</sup>. وفي ١٨٥٧ - ١٨٥٨، وسّع ماركس مفهوم اللا إنسانيّة ليشمل دخول الرأسماليّة الغربيّة إلى آسيا. ترى دونايفسكايا أنّ «رأس المال» كان انفصالاً عظيماً عن هيغل، ليس فقط لأنّ موضوعه كان اقتصاداً عوضاً عن الفلسفة، بل لأنّ الموضوع قبل أن يكون في الاقتصاد والفلسفة كان حول الإنسان / الجماهير<sup>٤</sup>. بدلاً من الديالكتيك الهيجليّ الذي أزال إنسانيّة التطوّر الذاتيّ للإنسانيّة في ديالكتيك الوعي - الوعي الذاتيّ - العقل جاءت طريق الحرّيّة لتحوّل الثورة الهيجليّة في الفلسفة إلى فلسفة للثورة مع الديالكتيك الماركسيّ<sup>٥</sup>. بالرّغم من ذلك، أعلن ماركس مرّة أخرى في المجلد الثاني من «رأس المال» أنّه مدين إلى الديالكتيك الهيجليّ: «علاقتي بهيغل يمكن وصفها بمنتهى البساطة أنا تلميذ لهيغل، وأزدردي بصراحة هراء الذين يزعمون دفن هذا المفكر العظيم. غير أنّي في المقابل، أخذت حرّيتي في انتهاج مسلّك نقديّ تجاه معلمي، وتخليص ديالكتيكه من التصوّف وإحداث تغيير عميق فيه». تجلّى ذلك من خلال «الكلّيّة الموحّدة» لنظرية ماركس إلى العالم التي شكّلتها جدليّة «الذات - البروليتاريا»، وتلفت دونايفسكايا في هذا الإطار إلى أنّ ماركس الذي ربط بين نهاية التبعيّة المستعبدة للفرد كفرد وبين الوصول إلى مرحلة الشيوعيّة كان ماركس في مرحلة «رأس المال»، بخلاف التقسيم التعسفيّ لماركس بين شات «إنسانيّ» وكهل مادويّ<sup>٦</sup>.

### الديالكتيك: فلسفة ثوريّة

شكّل «النقص في فهم فلسفة ماركس» أحد أسباب الخلاف بين روزا لوكسمبورغ وقيادة الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ البولنديّ الذي كان يعمل ضمن الإمبراطوريّة الروسيّة<sup>٦</sup>. مثل الديالكتيك بالنسبة إليها فلسفة ثوريّة:

إطاراً مفاهيمياً لا يفصل الاقتصاد والسياسة عن الفاعل، ولا يفصل الجماهير عن الحركة. معنى الديالكتيك أنّ كلّ إنسان حيّ، يشعر ويفكر ويفعل. رأث في ثورة ١٩٠٥ الروسيّة أفضل مثال على أنّه - في العالم الفكريّ الجديد الذي أوجده كارل ماركس - «التاريخ ليس مجرد حقب اقتصاديّة إنّما جماهير تصنع التاريخ».

وفي ألمانيا، دافعت لوكسمبورغ عن المادّيّة الجدليّة في وجه برنشتاين المطالب «بتخليص الماركسيّة من الديالكتيك»، وكاوتسكي الذي كان يركّز على مادّيّة تاريخيّة مفصولة عن كلّ همّ فلسفيّ. مع هذا، كان خطأ لوكسمبورغ أنّها نظرت إلى الديالكتيك ك«أداة» قبل أن تكون «منهج تحرّري»<sup>٧</sup>.

ترى دونايفسكايا هنا أنّ رؤية لوكسمبورغ في البداية «كانت تقريباً الخطأ المميت الذي وقع فيه كلّ الماركسيّين بعد موت ماركس»، أي اعتبار العالم الفكريّ الجديد لديه في الديالكتيك مجرد سلاح في الصراع الطبقيّ، مجرد أداة فكريّة، وكأنّ كلّ ما نريده بعدها هو الممارسة التطبيقية<sup>٨</sup>. في المقابل، كان لينين الماركسيّ الثوريّ الوحيد الذي عاد إلى دراسة هيغل عام ١٩١٤، معتبراً أنّ «من المستحيل فهم «رأس المال» ما لم يفهم المنطق لدى هيغل. لذلك لا أحد من الماركسيّين في النصف الماضي من هذا القرن قد فهم ماركس» (مقال «عن الديالكتيك»، ١٩١٥). تحديداً، الشرح الكبير الذي شهدته الاشتراكيّة - الديمقراطيّة مع اندلاع الحرب العالميّة الأولى، دفع لينين إلى العودة لـ«جذور» تشكّل جذور ماركس وإنغلز.

كلّ الماركسيّين الذين تحدّث عنهم لينين قبل ١٩١٤، اعتبروا الديالكتيك تجريداً فقط. وبالنسبة إلى لينين، لم يفهم بليخانوف، الأب المؤسس للماركسيّة في روسيا، فلسفة الثورة عند ماركس، كما لم يفهم ديالكتيك هيغل: «بليخانوف ينتقد الكانطية من وجهة نظر مادّيّة مبتدلة، أكثر منها وجهة نظر الديالكتيك المادّي». بالنسبة إلى لينين، كان يجب أن تتمّ دراسة الديالكتيك لدى هيغل «بذاته ولذاته»، وذلك على الرّغم من محافظته على المواجهة المباشرة مع الديالكتيك الهيجليّ. مع العلم أنّه في ذلك الوقت، لم تكن «مخطوطات ١٨٤٤» قد أبصرت النور بعد (نُشرت للمرّة الأولى عام ١٩٣٢)، وتضمّنت نقد ماركس للديالكتيك الهيجليّة<sup>٩</sup>.

### العفويّة والتنظيم

إحدى النقاط المحوريّة في فكر لوكسمبورغ والتي







المثقفين الراديكاليين الذين لا يرون الطاقات الخلاقة للجماهير: «في معارضتهم (المثقفين) وإيلاء عنايته بنشاط الجماهير، كان ماركس قادراً على تكريس أنشطتهم الخلاقة في نظرية من أجل التحرر»<sup>١٥</sup>.

ترى دونايفسكايا أنّ الحاجة إلى بناء تنظيم شغلت كثيراً كلّ الماركسيين باستثناء ماركس، إلى درجة أنّ «فيتيشية» (صنميتة)، أقيمت من هذا الأمر. في الوقت نفسه، كان ماركس واعياً لأهميّة التنظيم بعكس ما زعمه عدداً كبيراً من المقالات عن كونه لم يكن لديه نظرية في هذا المجال. بالنسبة إلى ماركس، كان الشكل المؤتمري للأهميّة الأولى شكل تنظيم مناسب للمرحلة، ويتكفل النضال الخلاق للجماهير باجتراف أشكال تنظيمية أخرى (ص ١٥٥). تشير دونايفسكايا إلى أنّه لم يكن لدى ماركس في أيّ وقت صنميتة حول التنظيم، إذ إنّ «كلّ خطوة من الحركة الواقعية هي أكثر أهميّة من عشرات البرامج».

#### نسوية مستترة

سلّطت دونايفسكايا الضوء على البُعد النسويّ، المجهول إلى حدّ كبير، في نشاط لوكسمبورغ، انطلاقاً من مفهوم البراكسيس، وخلصت إلى أنّها أدت دوراً نسوياً في تاريخها وفي تاريخ الحركة الشيوعية في العالم «أكثر ممّا كانت تعبه»<sup>١٦</sup>. قدّمها بوصفها «شخصية مميزة، سواء كمنظرة ثورية، أو كنسوية، ومع أنّها قد تبدو أحياناً نسوية مترددة، فهي دائماً ثورية»<sup>١٧</sup>. ما أقلق روزا كان أنّ تقع أسيرة لـ «شوفينية ذكورية» عند قادة «الاشتراكية - الديمقراطية»، بحيث يقتصر عملها على ما كان يسمّى آنذاك «قضية المرأة». لم يتردد الماركسيّ النسواويّ فيكتور أدلر في وصفها بـ «العاهرة السامة» التي تحرّكها «رغبة منحرفة لإثبات الذات» (في رسالة إلى أوغست بييل، أغسطس / آب ١٩١٥). بالتوازي، كان على روزا أن تتعايش مع نزعة «معادية للسامية» موجودة حتى ضمن الماركسيين.

ربطت روزا لوكسمبورغ تحرّر المرأة من الهيمنة الذكورية بالتحرّر الشامل من الرأسمالية، وعلى هذا الأساس جمعتهما صداقة متينة مع كلارا تستكين، المناضلة الماركسية من أجل تحرّر نساء الطبقة العاملة ومطلقة يوم المرأة العالميّ. وكما جمعها النضال ضدّ «التحريفية» داخل الحزب مع تستكين، عاونتها أيضاً في نشاطها النسويّ، وساهمت في صحيفتها «غليشهايت» (مساواة).

أبدتها دونايفسكايا كان موقفها من مسألة التنظيم وعفوية الجماهير التي اعتبرتها «أرضاً من الإمكانيات اللامتناهية». عارضت لوكسمبورغ مفهوم لينين عن التنظيم الذي اعتبرته «مركزياً على نحو مطلق»، مؤكّدة أنّه «لا يمكننا أن نكون بلانكيين<sup>١٨</sup> في نشاطنا اليوميّ، حيث نحتاج إلى الوعي الطبقيّ». لم تُنكر لوكسمبورغ الحاجة إلى المركزية والعمل، لكنّ ما عارضته هو تحويل الضرورة إلى مبدأ منفصل ومعياري قيمة للعمل النضاليّ. الفكر الماركسيّ برأيها، لا يمكن أن يصلح لمعادلات «جامدة»، بما فيها التنظيم<sup>١٩</sup>: «لا المثقفون ولا البروليتاريا كانوا بحاجة إلى ما أشاد به لينين من (انضباط المصنع)».

لم يتردد الماركسيّ النمساوي فيكتور أدلر في وصفها بـ «العاهرة السامة» التي تحرّكها «رغبة منحرفة لإثبات الذات». بالتوازي، كان على روزا أن تتعايش مع نزعة معادية للسامية «موجودة حتى ضمن الماركسيين».

هذه الرؤية تبيّن أنها دونايفسكايا كلياً فيما بعد، إذ رأت بدورها أنّ الجماهير تجسّد العفوية والحركة الذاتية، وأنّ ما من أحدٍ، لا سيّما الإنجليزيا، يجب أن يفكر أو يخطط بالنيابة عنهم<sup>٢٠</sup>. شدّدت دونايفسكايا مع لوكسمبورغ على أنّ الجماهير هي «الذات» (subject) الثورية، وأنّ نضالات الجماهير، مثل حركات التحرّر، سواء عنّت حقوق العمّال، أو النساء، أو السود، هي تجسيد لهذه الحركة الذاتية (دونايفسكايا، «الفلسفة والثورة»، ١٩٧٣). تجسّدت رؤية لوكسمبورغ بأفضل أشكالها، برأي دونايفسكايا، في الثورة الروسية عام ١٩٠٥، «حيث بلغت العفوية أرقى درجاتها على الإطلاق لكنّها فشلت في تحقيق أهدافها»<sup>٢١</sup>. شدّدت روزا على حرّية الطبقة العاملة في ارتكاب الأخطاء لتتعلم من ثمّ الجدلية التاريخية بنفسها: «في النهاية، علينا أن نعترف بجدية لأنفسنا بأنّ الأخطاء التي ارتكبتها الحركة العمّالية، العمّالية الحقيقية، هي تاريخياً أكثر جدوى وأعلى قيمة من عدم فشل أفضل اللجان المركزية»<sup>٢٢</sup>. بعكس النظرة الميكانيكية - البيروقراطية الجامدة، شدّدت على أنّ الإضراب العامّ الجماهيريّ في روسيا حقّق للبروليتاريا الروسية، أكثر ما حقّقته الخطط المنظمة للحزب الاشتراكي - الديمقراطيّ الألمانيّ<sup>٢٣</sup>. على المنوال ذاته، انتقدت دونايفسكايا في «الفلسفة والثورة»،

وسبق لروزا، في مقال نشرته سنة ١٩٠٢ في «Leipziger Volkszeitung» أن شددت على أنه، «مع التحرير السياسي للمرأة، هناك نسمة منعشة يجب أن تهب في الحياة السياسية والروحية للديمقراطية الاشتراكية، مبددة المناخ الخانق للعائلة التافهة الحالية التي انتقلت بلا خطأ إلى أعضاء حزبنا أيضاً، العمال كما القادة». وشاركت عام ١٩١١ في مؤتمر دولي لمنح النساء حق الاقتراع، وبعد أشهر قليلة من اندلاع الحرب العالمية الأولى، ركزت أكثر على أهمية النساء في البروليتاريا: «بالنسبة إلى نساء الطبقة البرجوازية المملوكات، المنزل هو العالم، أما بالنسبة إلى نساء البروليتاريا فالعالم هو منزلهن»<sup>١٨</sup>.

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تابعت «غليشهايت» دعايتها ضد الحرب، وأدركت «القيادة الشوفينية» للحزب الاشتراكي - الديمقراطي، الموافقة على منح الحكومة الألمانية الاعتمادات الحربية، أن عليها أن تأخذ بعين الحسبان هذا العمق النسائي للمعارضة ضد الحرب. هزيمة الثورة الألمانية ١٩١٩ ستكون بشكل أساسي هزيمة للنساء الثورات، مثلما أن إلغاء القطاع النسائي «جانوتل» في الحزب البلشفي سيكون أول مظاهر تمكّن النزعة البيروقراطية - الستالينية.

ما أرادت دونايفسكايا التركيز عليه في هذا السياق يتلخص في جملتها هذه: «المشكلة هي خطأ النسويات الاشتراكيات أنهن قللن من شأن روزا كثرورية وكنسوية وساعدن هؤلاء الرجال الذين حاولوا أن يختزلوا ماركس في مجال واحد، في حين أنه في جميع مراحلها كان ثورياً في النظرية كما في الممارسة»<sup>١٩</sup>. ترى دونايفسكايا أن «الفخ» يكمن في اعتبار أن ماركس لم يكن مهتماً بتحرير المرأة، منبهاً إلى رؤية معالجة ماركس «علاقة الرجل بالمرأة» في «مخطوطات ١٨٤٤»، وأنه ما كان ليوافق على ما ذهب إليه إنغلز في «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» من ربط «الهزيمة التاريخية العالمية للجنس النسائي» (الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام البطريركي) بمحددات بيولوجية متأثرة بمورغان وداروين. بالنسبة إلى ماركس، عناصر القمع في العموم، وقمع المرأة بشكل خاص، برزت من داخل الشيوعية البدائية، والتقسيم الأول للعمل كان على أساس جنسي. مع هذا، لا تخرج المرأة من التاريخ في المقابل بعد استتباب التقسيمات الاجتماعية للعمل. بالعكس، في رسالته إلى لودفيغ كوغلمان عام ١٨٦٨ يوضح «كل من يعرف شيئاً من التاريخ يدرك أن التغييرات الاجتماعية العظمى مستحيلة من دون خميرة نسائية»<sup>٢٠</sup>.

درست دونايفسكايا حركات التحرر من القرن السابع عشر إلى الستينيات من القرن الماضي واعتبرت أنه مع تحولها إلى حركات جماهيرياً «باتت النسوية بمثابة قوة خلاقية»، وتوقفت ملياً عند ظهور النساء كقوة ثورية جديدة في كومونة باريس ١٨٧١. نقلت دونايفسكايا عن دوريس راي، عضو المنظمة الوطنية للنساء، قولها إن حركة تحرر المرأة التي عادت إلى الظهور في منتصف الستينيات، تعود بالفضل إلى كلارا تستكين خصوصاً، مع أن تستكين كما لوكسمبورغ، آثرتا عدم التطرق إلى موضوع الذكورية داخل الحزب، على أساس أن «الثورة الاشتراكية تأتي أولاً».

### الثورة الدائمة

ترى دونايفسكايا أن هناك عناصر لمفهوم الثورة الدائمة لدى لوكسمبورغ من اللحظة التي اعتبرت فيها أن ثورة ١٩٠٥ الروسية ليست امتداداً لثورة ١٨٤٨، بل مفتتح لثورات القرن العشرين الأوروبية. لكن لوكسمبورغ لم تجعل من هذه النزعة عندها نظرية قائمة بذاتها، على غرار ليون تروتسكي الذي تنطلق نظريته من أن الثورة البروليتارية نفسها هي التي عليها أن تحقق مهام الثورة الديمقراطية وتشرع في الوقت نفسه لتعبيد الطريق نحو الاشتراكية. ما قامت به من مراجعة لأعمال ماركس المبكرة، جعلها تستبعد الفصل بين «مرحلتين» برجوازية ثم بروليتارية، بالتوازي، اهتمت بتجربة الإضراب العام في ثورة ١٩٠٥، كونه مزج السياسي بالاقتصادي، وبسلطة المجالس (السوفييتات) كاتحاد للعقوي بالتنظيمي، واستمرت نزعة «الثورة الدائمة»، غير المكترسة في نظرية، عند روزا لوكسمبورغ حتى ثورة ١٩١٩، عندما رفضت «النداء الرجعي» لقيام «جمعية تأسيسية» وشددت على وجوب قيام سلطة مجالس الشغيلة.

ودونايفسكايا التي عملت في الثلاثينيات إلى جانب تروتسكي قبل افتراقها عنه، تقارن بين عناية لوكسمبورغ بالأشكال الحيوية للتنظيم المتفاعل مع حركة الجماهير وانتفاضاتها، وبين الشكل «الجهازي» له عند لينين وتروتسكي، وهي إذ تخصص الفصل الأخير من كتابها عن تروتسكي، تعيب عليه أنه عوضاً عن أهمية تقوية الأساس النظري للحزب الثوري انشغل بإعادة تنظيم جهاز الحزب. بدلاً من تعميق هذا الأساس النظري، غلبت عند تروتسكي «النزعة السيكلوجية - الأخلاقية» لتفسير الظواهر والتحويلات، فتقلصت



القومية وتقرير المصير للأُم بالرجوع إلى ماركس الذي حلل المسألة الوطنية بكونها «تحويل الواقع إلى تجريد». أهميّة كتاب دونايفسكايا في الجمع بين روزا لوكسمبورغ وكارل ماركس في كل واحد، قوائمه جدليّة «الفعل والحريّة». فماركس الذي قطع مع الهيجليين الشباب لأنّهم رفضوا الاستدارة إلى عالم الممارسة، كان يبحث عن بداية جديدة، و«الذات» / الفعل والحريّة كانت الأرضيّة لذلك: «الحريّة كانت العظام والعصب، القلب والروح، وجهة للبدايات الجديدة»<sup>١٢</sup>. أمّا لوكسمبورغ في خطابها التاريخي المؤسس للحزب الشيوعي الألماني في كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨، قبل أسابيع من اغتيالها، فذهبت إلى أننا «وصلنا الآن إلى نقطة، يا رفاق، حيث أصبحنا قادرين على القول إنّنا تلاقينا مع ماركس، وأننا نتقدّم مجدداً تحت رايته (...) علي الجماهير أن تعلم كيف تستخدم القوّة. العمّال اليوم سيتعلمون في مدرسة الفعل... في البدء كان الفعل».

فلسفة الثورة الدائمة عندها إلى صراع على كفيّة التأثير على البروليتاريا غير الناضجة سياسياً، مع نزعة فوقيّة سلبية تجاه الكادحين غير البروليتاريين، وتحديد الفلاحين، وهيمنة التقاليد العصبويّة في العمل السياسيّ.

### الخلاف الحزبيّ

تتبعت لوكسمبورغ منذ الحرب الصينية - اليابانيّة في العام ١٨٩٥ المسار المؤدّي إلى اشتعال الحريق الإمبرياليّ العالميّ عام ١٩١٤، ورصدت تزايد النزعة العسكريّة للإمبرياليّة الألمانيّة، وبخاصّة في أعقاب أزمة المغرب الثانية، إذ جاءت أزمة أغادير ١٩١١، الناتجة من المطالبة الألمانيّة باستعمار المغرب واصطدامها بسبب ذلك بفرنسا، لتغذّي نزعة معاداة الإمبرياليّة عند لوكسمبورغ، ودراستها للإمبرياليّة كحقبة جديدة في التطوّر الرأسماليّ، وأسّس ذلك للقطيعة أكثر فأكثر مع الاشتراكيّة - الديمقراطيّة الألمانيّة.

بخصوص أزمة أغادير، قالت لوكسمبورغ إنّ قادة الحزب «عوضاً عن القيام بتحليل ماركسيّ جدّيّ لقضيّة ساخنة، كانوا يمارسون الهراء السياسيّ الاشتراكيّ الديمقراطيّ». مثلما اعتبرت بعد اندلاع الحرب العالميّة الأولى أنّ الحزب «تولّى وظيفة تاريخيّة مهمّة جدّاً: «حامل درع الإمبرياليّة في الحرب الحاليّة». في المنشور الذي كتبه خلال سجنها ووقّعه باسم يونيوس، ندّدت كيف «يقف المجتمع الرأسماليّ في العار والحزّي، ويخوض في الدم وتسييل القذارة منه، وفي وسط هذه العربدة، تحدث تراجيديا عالميّة: قطع رأس الديمقراطيّة الاشتراكيّة»<sup>١٣</sup>. تشرح دونايفسكايا بأنّ هذه العزلة المتنامية لروزا في الاشتراكيّة الألمانيّة، أتاح لها تأليف أعظم أعمالها النظرية: «تراكم رأس المال» (مساهمة في تفسير الإمبرياليّة). في هذا العمل سعّت لوكسمبورغ إلى اكتشاف الجذور الاقتصاديّة للإمبرياليّة، وهو العمل الاقتصاديّ الوحيد المنشور خلال حياتها. علجت فيه حاجة الرأسماليّة على الدوام إلى التوسّع إلى المناطق غير الرأسماليّة، وخلصت إلى أنّ النظام الرأسماليّ وحاجته إلى التوسّع تقوده دائماً إلى الإمبرياليّة والحرب. بالتوازي، عُرفت لوكسمبورغ بمعارضتها تكريس حقّ تقرير الأُم مصيرها، وكان خلافها حاداً حول المسألة الوطنيّة مع لينين. رأّت في تقرير المصير بوتوبيا خاصّة بالوطنية البرجوازيّة، يستحيل تحقيقها في ظلّ الرأسماليّة، ولا حاجة لها من الأصل في ظلّ الاشتراكيّة. ورغم اختلاف الرأسماليّة وقت ماركس والرأسماليّة في مرحلتها الإمبرياليّة، ظلّت لوكسمبورغ تسوّغ موقفها حيال المسألة

### الهوامش

١ Raya Dunayevskaya, *Rosa Luxemburg, Women's Liberation, and Marx's Philosophy of Revolution*. (Atlantic Highlands, N.J.: Humanities Press, 1982), p. 191

٢ المرجع السابق، ص ١٢٦

٣ المرجع السابق، ص ١٢٨

٤ المرجع السابق، ص ١٤٣

٥ المرجع السابق، ص ١٤٥

٦ المرجع السابق، ص ١١٩

٧ المرجع السابق، ص ١١٨

٨ في كتابها «إصلاح وثورة»، كتبت لوكسمبورغ أنّ الديالكتيك هو الذراع الفكرية التي بمساعدتها ستنمكّن البروليتاريا تحت نير البورجوازية من الانتصار عليها، لذلك «إنّ نظامنا الجدلي، هو بالفعل يحقق ثورة في مجال الفكر».

٩ نسبة إلى الاشتراكي الفرنسي لويس أوغست بلانكي الذي نظّر إلى أن الثورة الاشتراكية تقوم بها مجموعة صغيرة من الثوار المتسمين بالتنظيم والسرية

١٠ Dunayevskaya, *Rosa Luxemburg, Women's Liberation, and Marx's Philosophy of Revolution*, p. 60

١١ «Returning to Rosa Luxemburg: A Comment on Raya Dunayevskaya's Concept of the Masses as Revolutionary Subject»

The international marxist-humanist journal, 28 January 2010

Dunayevskaya, *Rosa Luxemburg, Women's Liberation, and Marx's Philosophy of Revolution*, p. 60

١٣ المرجع السابق، ص ٦٠

١٤ المرجع السابق، ص ٢٣

١٥ المرجع السابق، ص ٢٣

١٦ المرجع السابق، ص ١٣٥

١٧ المرجع السابق، ص ١٨٥

١٨ المرجع السابق، ص ٨٥

١٩ المرجع السابق، ص ٩٤

٢٠ المرجع السابق، ص ١٠٦

٢١ المرجع السابق، ص ٦٨

٢٢ المرجع السابق، ص ١٢٦



## الغلام نوم

- ٨٢ الكتابة والألم  
البياس خوري
- ٨٨ أحمد فارس الشدياق في بريطانيا:  
١٨٥٦ - ١٨٤٨  
طريف الخالدي
- ١٠٥ بدايات في «فَرْزجة التسطير»  
كيف واكب الشدياق انتقال الكتاب  
من النخبة إلى العامة  
هالة البزري
- ١١٤ ثلاثة أيام في اليمن  
مع الجنود المصريين  
نجيب محفوظ
- ١٢٤ ١٣٠ عاماً على ولادة  
«ناسك الشخروب»  
ما خفي من رحلة  
ميخائيل نعيمة السوفياتية  
عماد الدين رائف

## الكتابة والألم

### الياس خوري

روائي وكاتب وناقد أدبي وصحافي، لبنان. من آخر أعماله «سينالكول» (٢٠١٢)، «أولاد الغيتو: اسمي آدم» (٢٠١٢)، «أولاد الغيتو ٢: نجمة البحر» (٢٠١٩). ألقى النصّ الحالي في مؤتمر «عن الأدب والسياسة: الياس خوري روائياً ومثقفاً وصحافياً»، الذي انعقد بدعوة من دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى في الجامعة الأميركية في بيروت في ٢٣ نيسان / أبريل ٢٠١٨.

أحتر كيف أبدأ اليوم، فأنا أشعر بمزيج من الخجل والحيرة. خجلي وحيرتي لا يعودان فقط إلى شعوري بأنّ الروائي والكاتب الذي تكلمتم عنه يشبهني، بل لأنّ هذا الكاتب صار ظلاً لشخصياتٍ احتلت الروايات، وامتزجت بصورته، إلى درجة أنّه يحار بين الصورة وظلالها، فصارت ظلال الصورة كأنّها هي الصورة الأصليّة. الكاتب، لا يدري حين يكتب إلى أين ستقوده الكلمات. والأهمّ من ذلك، لا يعلم إلى أين ستمضي الكلمات، وكيف سيعيد الزمن تأليفها.

### رواية صارت قرية

والحقّ يقال، إنّ إحدى أصعب لحظات حياتي وأكثرها جمالاً، كانت في كانون الثاني / يناير ٢٠١٤، حين قامت مجموعة من الشابات والشبان الفلسطينيين بالسيطرة على أرض قرب القدس، خصّصها الاحتلال للاستيطان، فأقاموا عليها قريةً مصنوعة من الخيام والإرادة أطلقوا عليها اسم باب الشمس، في إشارةٍ معلنة إلى الرواية التي تحمل العنوان نفسه. طبعاً قام جيش الاحتلال بتدمير هذه القرية بعد ثلاثة أيام، مُلحقينها بمئات القرى الفلسطينية التي جرى تدميرها وجرف بيوتها وأشجارها.

كانت تلك اللحظات بالغة الصعوبة لأنّني، أنا المقيم هنا في بيروت، لم يكن في استطاعتي الالتحاق بالقرية التي طلبت من مؤسّسها اعتباري مواطناً فيها، وانتابني الخوف على مصير أبناء القرية وهم يواجهون قمع جيش الاحتلال وقراره بهدمها. لكنّ تلك اللحظات كانت في المقابل ساحرةً تتلأأ بجماليات الحرّية، ولعلّ أجمل ما فيها هو أن مؤسّسي القرية، أسسوا بعد طردهم منها، قريةً جديدة أطلقوا عليها اسم «أحفاد يونس»، تيمناً ببطل رواية «باب الشمس» يونس الأسدي.

لقد قام القراء بإعادة تأليف الرواية وتسمّوا باسم أحد أبطالها، ونسوا المؤلف، بل أنسوني إياه. فطموح المؤلف هو أن يحمي كي يتألّق أبطال الرواية، ويُنسى كي يحيا هؤلاء الأبطال حيواتهم الخاصّة في ذاكرة الناس. قلت إنّني أحتر كيف أبدأ، لأنّني أجد أنّ البداية هي اللحظة الأصعب، ورّماً الأكثر جمالاً. لذا كان يونس يصرخ «من الأوّل»، حين يواجه منعطفات فلسطين المملأ بالمأسى، ولذا لم يكتب محمود درويش عن الحبّ إلّا ليتغنى بأوّل الحبّ.

في عملي الروائي الذي احتلّ العمر كلّهُ، كانت مسألة كيف وأين تبدأ الحكاية هي السؤال. ففي مدرسة «ألف ليلة وليلة» لا وجود لنهاية القصة، أو لنقل إنّ القصة لا تنتهي، فهي قادرةٌ على التوالد الدائم والاستعادة وإعادة التكوين إلى ما لا نهاية. هذا ما علّمنا إياه بورخيس وهو يقرأ هذا الكتاب بعينه المغمضتين.

بداية الحكاية هي المسألة، وهذا ما يسمّيه نقاد «ألف ليلة وليلة» «الحكاية الإطار»، أي الحكاية التي أدّت دور نقطة الانطلاق للتوالد العجائبي للحكايات. وعلى الرغم من اقتناع النقاد بأنّ الحكاية الإطار، أي حكاية الملكين الشقيقين شهريار وشاه زمان والأختين شهرزاد ودينا زاد، وُضعت من خارج سياق الحكايات وبعد تأليفها، فإنّني أعتقد أنّ هذا الإطار كان ضرورة شكلية كي يكتمل السرد ويتخذ شكله الأخير محوّلًا للحكايات إلى مرايا.

قلت إنّ الحكايات لا نهاية لها، وهذا يعني أيضاً أنّه لا بداية لها، لذا يصير السؤال عن البداية هو سؤال عن إطار للحكاية يسمح لها بأن تأخذ مساراتها. السؤال عن البداية لا معنى له إلّا بصفته سؤالاً عن هذا الإطار.

## الرواية ابنة الحرب الأهلية

ماذا يعني إطار الحكاية، وكيف نبحت عنه وأين نبجده؟ صحيح أنّ الرواية كفنّ أدبيّ جديد، يمكن أن تُقرأ بصفتها قطعةً مع التراث الحكائيّ، لكنّها كانت في حاجة دائمة إلى إطار. الإطار الروائيّ يختلف عن الحكاية الإطارية في الأدب الحكائيّ الشعبيّ، لكنّه يشترك معه في رسم الأسس التي ينبنى عليها السرد. هكذا شهدنا تحولات شكلية جذرية من الروايتين الطبيعيّة والواقعيّة، إلى الرواية الرمزيّة وبروز تيار الوعي، وصولاً إلى الواقعيّة السحرية.

لا أريد الدخول هنا في بحثٍ نظريّ عن تطوّر المدارس الروائيّة المتعدّدة، لكنني أريد أن أشير إلى أنّ هذه التحولات ليست نتاج المختبرات الأدبيّة وحدها، بل هي أيضاً استكمال لمبان معرفيّة وأيديولوجيّة وسياسيّة في المجتمع. فالمدارس الأدبيّة التي تعاقبت على البحث عن شكلٍ روائيّ ملائم، من سرفانتس إلى بروسست، ومن الشدياق والمولحي إلى نجيب محفوظ، كانت جزءاً من مركّب اجتماعيٍّ ومعرفيٍّ عرف تحولاتٍ شتى أفضت إلى تعيراتٍ كبرى في البنى السردية ومآلاتها.

لكنّ السؤال الذي يواجهنا الآن هو كيف نبدأ حين نتفكك الأطر الاجتماعيّة والثقافيّة والأيدولوجيّة من حولنا؟ سبق أن قدّمت في محاضرة في الجامعة الأميركيّة في بيروت (أيار / مايو ٢٠٠٤) ونُشرت في العدد ٥٢ - ٥٣ من مجلّة الأبحاث ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، بعنوان «الرواية، الروائي والحرب» افتراضاً نظريّاً عن نشوء الرواية اللبناية كحركة أدبيّة، وربطت بين هذا النشوء وبين انفجار الحرب الأهلية.

كان افتراضي ينطلق من قراءة لمعنى انهيار المحرّمات اللبناية وطقوس القرية التي جعلت من المبنى الثقافي اللبناي أسيراً لشعريّة الحكاية الرومانسيّة كما صاغها الأخوان رحباني في مسرحيّاتهما الفيروزيّة، وهي صيغة قائمة على رؤية افتراضيّة مسكونة بهاجس حجب التناقضات الاجتماعيّة والطائفية، أو تحويلها إلى لعبة شكلية تتمثّل في الكذبة التي تصير حقيقةً على طريقة راجح، أو في الحقيقة التي تصير كذبةً كما في المسرحيات التاريخيّة.

هذا الحجب المتعمّد هو نتاج تاريخ ثقافيّ صنعه رواد النهضة وهم يقومون بشكلٍ واعٍ بمحو الحرب الأهلية التي نشبت في القرن التاسع عشر من الذاكرة، وهي الحرب التي أسست للكيان اللبناية في المتصرفيّة التي بُنيت

على تجربتها دولة لبنان الكبير الانتدابيّة، ثم تطوّرت إلى الميثاق الوطنيّ الاستقلاليّ في سنة ١٩٤٣.

هذا هو أحد الأسباب الرئيسيّة التي جعلت من الشعر هو النتاج الأدبيّ المهيمن، من الرومانسيّين إلى سعيد عقل وصولاً إلى الحدائثيين الرمزيّين ودعاة الانبعث.

كان سؤال الدائم عندما انفجرت الحرب الأهلية، هو كيف قرأ أجدادي حربهم السابقة على حربنا، ولماذا كانت حربنا، على ما فيها من تعقيداتٍ مرتبطة بالصراعات الاجتماعيّة والطبقية والحرب الباردة والصراع العربيّ - الإسرائيليّ، تقدّم في بعض أوجهها تكراراً لبعض الملامح التي شهدتها حرب لبنان في القرن التاسع عشر؟ في ظلّ ضعف الدراسات الاجتماعيّة والتاريخيّة، يقدّم الأدب معرفةً جزئية هي شهادته الحيّة على زمنه، وكتابته الحاضر في تناقضاته وبلغة الحاضر التي تمزج الواقعيّة بالخرافات الاجتماعيّة السائدة.

اكتشفنا أنّ أجدادي من رواد عصر النهضة قرأوا حربهم عبر محوها خجلاً من أنفسهم، ربّما، وأنّ إحدى مهمّات الكتابة، بالنسبة إليهم، كانت الدعوة إلى النسيان، عبر الفكرة القوميّة التي كانت أداة صهر اجتماعيٍّ يتعالى عن البنى الطائفية والعشائريّة.

غير أنّ الحرب الأهلية المعاصرة التي بدأت في سنة ١٩٧٥، بدت في منعطفاتها ومراحلها التي أعقبت حرب الستين، كأنّها انتقام من النسيان، فسقطت الثقافة اللبناية المسيطرة تحت أقدام الوقائع الفجّة، وبرزت لغة جديدة لا تعبر التابوهات اللبناية أيّ أهميّة، وكان هذا إيذاناً بولادة رواية لبناية قادرة على بناء مرايا للتجارب الفرديّة والجماعيّة.

لا أزال أعتقد بصحّة هذا الافتراض النظريّ، فجيل الروائيّات والروائيّين الذين أنتمي إليه، كان واعياً بضرورة أن نكتب الحاضر ونسمي الأشياء، وبنبي أعمالنا الروائيّة من قلب التناقضات الاجتماعيّة والسياسيّة التي عصفت بلبنان والمشرق العربيّ. لقد قادنا الحاضر إلى دروب متنوّعة، وخيارات فنيّة متعدّدة، لكنّه صنع تجربةً رواييّة ساهمت في بناء مرايا جديدة لحاضرنا، تستطيع أن تشكّل مرجعاً لمن يريد أن يقرأ تاريخ الحرب اللبناية وأثرها في تشكيل الوعي، وطبعاً من دون أن نهمل أهمّيّتها الفنيّة واللغويّة.

لكنّ ما يجب أن نضيفه إلى هذا الافتراض هو أنّ هذه الولادة كانت ممكنة لأنّها أيضاً وريثة مبنى روائيٍّ عربيّ افتتحه جيل الستينيات المصريّ بتجربتيّه، ووجد

لنظام تمييز عنصري يفرض علينا أن نعيد تأسيس فكرة فلسطين من جديد.

الحقيقة الثالثة هي اكتشافنا المروع أنّ الحرب الأهلية اللبنانية بعناصرها الإقليمية والدولية، صارت مجرد تمرين صغير أمام الأهوال التي يعيشها المشرق العربي، في مسلسل الألم والموت والهجرات في كل من سورية والعراق واليمن وليبيا.

لقد وصلت فضيحة الاستبداد وأنظمة الحكم الوراثية إلى نهاياتها الإجرامية المخيفة، محولة احتمالات النهضة العربية والثورة المضادة التي رفعت شعارات الحبز والحرية والديمقراطية في الانتفاضات الشعبية العربية، إلى كابوس من الثورة المضادة التي تحاول إعادة تأسيس الاستبداد والطائفية والتمزق الاجتماعي، وإطفاء الضوء في العيون. وكانت التيارات الأصولية التي عرفت تناميتها في المراحل النهائية من الحرب الباردة في أفغانستان، قد تحولت إلى وحش دموي ساهم مع المستبدين ومع أنظمة الكاز والغاز في وأد حلم التغيير.

الثقافة العربية تعيش اليوم في عراء القمع والألم، وفي زمن انهيار القيم ووسط مد عالمي يحصد النتائج الأولى للعولمة الرأسمالية النيوليبرالية المتوحشة على شكل دعوات عنصرية وتعصب قومي وديني، ونمو للفاشيات المتنوعة التي تحاول وأد الثقافة الإنسانية في العالم.

كيف نبدأ بعدما تكسرت أغلبية الأطر التي تصنع المعنى؟ قد يكون الزمن الذي نعيشه هو الزمن المثالي للكتابة، أو هكذا يظن من يقرأ في كتب النكبات التاريخية. نقرأ عن الحروب الإفرنجية أو الصليبية، أو نقرأ عن سقوط بغداد في يد المغول، أو نقرأ عن سقوط الأندلس، فتبدو لنا الحكايات وهي تتوالد من تلقاء نفسها، فخيال المحاربين والمجرمين والقتلة أكثر اتساعاً من خيال الكتاب والشعراء، لأنه خيال متحرر من أي رادع أخلاقي أو حساسية إنسانية.

المعاني مطروحة في الطريق، بحسب افتراض الجاحظ حين حدّد الشعر بأنه «صناعة وضرب من الصنغ وجنس من التصوير»، وهو على حق، لأن عمل الشاعر والكتاب لا يكمن في اختراع المعاني أو الحكايات لأنها متوافرة «يعرفها العربي والعجمي»، بل يعمل على صناعتها كي يكتشف فيها معنى المعنى، بحسب الجرجاني، أي تكون الصناعة باباً إلى إعادة تأسيس المعاني، عبر ما أطلقنا عليه هنا اسم بناء الحكاية الإطار.

روافده في أعمال جبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفاني وهاني الراهب وغالب هلسا وصنع الله إبراهيم وإميل حبيبي ويوسف حبشي الأشقر وآخرين.

لقد استطاعت الرواية العربية ما بعد المحفوظية، بحسب إدوارد سعيد، أن تخرج عن الترسيم التي كانت سائدة في الفن الروائي انطلاقاً من رواية «زينب» لهيكل، ونجحت في كسر قالب الرومانسي ثم الواقعي عبر إعادة وصل السرد باحتمالاته المفتوحة التي تأخذه من الشدياق إلى المقامات و«ألف ليلة وليلة»، أو ترمي به في أتون الواقع اليومي العاري.

جاء ذلك ضمن وعي نقدي للتجربة الناصرية وخطابها القومي اليساري، فولد النقد على أطراف هذا الخطاب، كمراجعة جذرية للواقع العربي المهزوم الذي كشف عن انسداد أفقه في هزيمة الخامس من حزيران / يونيو ١٩٦٥.

ولدت الرواية اللبنانية الجديدة في رحم هذا النقد، وكانت قادرة على أخذه إلى مطارح جديدة وأكثر جذرية في خياراتها الفكرية والشكلية، لأن الحرب الأهلية سمحت للروائيات والروائيين بالغوص في ثنايا الأسئلة الكبرى التي تطيح بالمسلمات، ولأن الغوص في الأبعاد المأسوية التي صنعتها الحرب، سمحت للكتابة بالتححرر من المسبقات الأيديولوجية الجاهزة.

### نظام الحرب الأهلية الدائمة

لكننا استفقنا من أهوال الحرب اللبنانية لنواجه ثلاث حقائق: الحقيقة الأولى هي أنّ الحرب الأهلية التي اعتقدنا أنها انتهت في سنة ١٩٩١ لم تنته، بل استمرت بأشكال متنوعة، من تدمير بيروت القديمة وسط حمي إعمار كان يراد به أن يجعل من لبنان وسيطاً جديداً في مرحلة قيل إنها مرحلة السلام في المنطقة، إلى تجدد الانقسامات بعد حدثين تاريخيين كبيرين: طرد الاحتلال الإسرائيلي من لبنان في سنة ٢٠٠٠، وإنهاء الوصاية السورية في سنة ٢٠٠٥. لقد قاد الانقسام المتجدد إلى استيلاء نظام سياسي جديد - قديم يمكن أن نطلق عليه اسم نظام الحرب الأهلية الدائمة، الذي ينعم فيه اللبنانيون بسلام اللصوص، وسط منطقة عربية تحترق. الحقيقة الثانية هي أنّ أوام السلام في فلسطين والمنطقة، والتي تنامت بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى وتوقيع اتفاق أوسلو، سرعان ما تبددت، لتجد فلسطين نفسها في شدة الوحش الإسرائيلي الذي يؤسس اليوم



❖  
قرية باب الشمس  
شرق القدس

في سنة ١٩٦٦ كتب غسان كنفاني رواية بعنوان «ما تبقى لكم»، مستكملاً بنبذة فوكترية روايته «رجال في الشمس» (١٩٦٣)، وفي الروايتين كان كنفاني يستشرف الكلام الذي يخبئه الضحايا في صمتهم المدوي. هل هذه اللحظة التي نعيش هي صمت ما قبل الكلام، أم صمت نهاية الكلام؟ أعتقد أنّ التوازي بين ما قبل الكلام وما بعده ليس دقيقاً، حتى هاملت ترك المسألة ملتبسة، ففي ترجمة جبرا إبراهيم جبرا للمسرحية نقراً المقطع على الشكل التالي:

أني أموت يا هوراشيو  
والسمّ يعلو على النفس فيّ بصياحه  
فلن أعيش لأسمع الأنباء من إنكلترا  
غير أنني أتنبأ أنّ خلافة العرش ستستقر  
على فورتينبراس، وأنا أهبه صوتي المحترق  
فازو له عن الكبيرة والصغيرة  
ليعرف دوافعي... والبقية صمت وسكون

ترجم أستاذنا جبرا عبارة The rest is silence بـ «البقية صمت وسكون»، وهي ترجمة تأويلية للصمت، إذ تفسر الصمت بالسكون الذي يحيل إلى الموت. أما أنا فأقترح ترجمتها بعبارة «ما تبقى صمت»، لأنّ «ما تبقى» تحافظ على الصفة الاسمية للعبارة، وتحيلنا في الوقت نفسه إلى عنوان كنفاني، كما أنّ كلمة صمت تبقى عارية لأنّها تخزن في داخلها أصداءها الاحتمالية كافة. المسألة هي أنّ صمت هاملت هو في الوقت نفسه دعوة إلى الكلام. إنّه صمتٌ يخزن احتمالات رواية الحكاية من جديد. فعلى هوراشيو كي يروي، كما طلب منه هاملت، أن يقوم بإعادة تأليف الحكاية من ثنايا صمت الأمير المقتول.

### تأويل صمت الضحايا

هذه العلاقة بين الصمت والكلام قادني إليها آدم دنون عندما جعل صمت ضحايا غيتو اللد يتشقق في النصّ الذي كتبه في رواية «أولاد الغيتو - اسمي آدم». لقد قادني صمت وضاح اليمن وهمسات منال في هذه الرواية إلى صمت هاملت وليس العكس، وعندما استعدت هذا النصّ الشكسبيرري في سياق إعداد هذه المداخلة أصبت بالذهول، لأن الكتابة هي شكل من أشكال إعادة الكتابة فقط، بل لأنّ صمت الضحايا يقاوم ضجيج المنتصرين بحقيقته الإنسانية أيضاً.

زمننا المثاليّ المفترض للكتابة يتكشف عن صعوباته الكبرى، إذ يكتشف الكاتب الذي يريد لكتابته أن تكون شاهداً على زمنه، أنّه عرضة في أيّ لحظة للتحوّل إلى شهيد. إنّه زمن للرب العبيّ، لكنّ عبثية الصراعات الطائفية والإثنية ولا معنى القمع المتوحش ليست علاجاً ضدّ الرعب، بل قد تكون سبباً إضافياً لفرض الصمت بصفته اللغة الأخيرة التي لا تزال قادرة على التقاط المعاني.

### اللحظة الهاملتية: الصمت

ما نشهده اليوم هو انهيار مثلث الأضلاع: انهيار خطاب السلطة الاستبدادية الذي فقد كلّ مسوغاته، فتحوّل إلى خطاب قمعيّ مطلق، وهو ما أشار إليه انهيار الأنظمة التي بُنيت على الفكر القوميّ من مصر الناصرية إلى دولتي البعث في سورية والعراق. هذا الانهيار يمتلك طاقات لا حدود لها على تدمير المجتمع. وانهيار خطاب المعارضة اليسارية الذي تشظّى بين من لا يسلط الاستبداد باسم الخوف من الإسلاميين، أو باسم الممانعة في ظلّ ولاية الفقيه، ومن تبنى خطاباً ليبرالياً ما لبث أن تحوّل إلى فجيرة بمن يدعو إلى احترام حقوق الإنسان على الطريقة الأميركية. وتراجع الخطاب الإسلاميّ الذي أثبت أنّه ليس أداة لتوحيد المجتمع، وإنّما هو أداة لتقسيمه وإشعال الحروب الأهلية.

حين ينهار خطابا السلطة والمعارضة، وحين يتفكك النصّ الذي يوحد المجتمع، تصير الحكايات بلا أطر، ويتحوّل حلم الكاتب بأن يعيش زمن التحوّلات التاريخية العاصفة إلى كابوس، وندخل فيما يشبه الرطانة البلاغية التي تشلّ الإبداع.

نحن أيتها الصديقات والأصدقاء نعيش اليوم في زمن هذا الكابوس.

عندما نتذكّر هاملت تأتي عبارته الشهيرتان: «أن نكون أو لا نكون»، و«كلمات كلمات كلمات». العبارة الأولى جعل منها محمود درويش متكاً لقصيدته «مديح الظلّ العالي»، بينما استعار أنسي الحاج العبارة الثانية عنواناً لسلسلة مقالاته الاحتجاجية التي نُشرت في «ملحق النهار»، في ستينيات القرن الماضي وأوائل سبعينياته. نتذكّر هاتين العبارتين الشائعتين ونسى كلمة هاملت الأخيرة وهو يُحترق: «ما تبقى صمت، The rest is silence». هل وصلنا إلى هذه اللحظة الهاملتية؟

وفي السياق نفسه أعدت قراءة المتوالية الحكائيّة والكلاميّة في مونولوج خليل أيّوب في «باب الشمس»، وهو النصّ الذي تتوالد في داخله حكايات الجليل في النكبة، بصفته استنطاقاً لصمت يونس، الميت - الحيّ الذي أسكته النزيف الدماغى ورماه في الغيبوبة. خليل يُنطق الصمت حكايات، وينسج من عتمته صورة للكارثة فتصير حكايةً قادرة على مواجهة كلام المنتصرين الذين صادروا كتابة التاريخ.

---

**نحن الجيل الأول لمرحلة ما بعد اليأس. وهي مرحلة تحررنا من الانتظارات. وتسمح لنا بأن نغوص في قعر الألم. للألم لغته التي لا يستطيع الوصول إليها إلا من يفك رموز صمت الضحايا. وهنا يكمن تحدي الحياة وتحدي الكتابيّة.**

---

الأدب كما علّمنا أبو نواس هو أولاً وأساساً رحلة بحث عن المعنى في المعنى:

غير أنّي قائل ما أتاني  
من ظنوني مكذب للعيان

أخذ نفسي بتأليف شيء  
واحد في اللفظ شتى المعاني

قائم في الوهم حتى إذا ما  
رُمته رُمّت معمي المكان

فكأنّي تابعُ حُسنِ شيءٍ  
من أمامي ليس بالمستبان

شئى المعاني، أي المعاني المتعدّدة التي يحملها النصّ الشعريّ، هي جوهر المعادلة الأدبيّة، أي جوهر التعدّد الذي يجعل من الأدب نافذة على أفق بلا حدود.

هذا الأفق يرتسم أمامنا من جديد، مثلما ارتسم أمام الشاعر العباسيّ الذي كان يتلاعب بالكلام الغزليّ، ليكتشف أنّ المعاني أفلتت منه، لأنّ الأدب ليس سوى تأويل للتجربة الإنسانيّة، وهو بدوره عرضة للتأويل الدائم. نحن اليوم أمام تحديّ تأويل صمت الضحايا، وهو إطار مفتوح يسمح بكسر كلّ الأطر التي حاولت الثقافة

أن تصنعها في آفاقها التجريبيّة المتنوّعة. أعود إلى سؤالي الأساسي: هل نستطيع أن نصنع إطاراً حكايتياً لواقع اجتماعيّ تداعى جميع أطره تحت ضربات القمع والحروب؟

كيف نجد بداية للحكايات وسط بحار الدم والألم والهجرات؟ في العلاقة بين الصمت والكلام، نكتشف أنّنا نواجه احتمالات أن نكتب بلا إطار يلمّ أطراف النصّ ويأخذه إلى المعنى. هل هذا ممكن؟

بعيداً عن الإجابة عن هذا السؤال، أريد للتأمل في واقعنا أن يأخذني إلى وصف حالتنا بكلماتٍ غير مألوّفة، فأنا أشعر بأنّ آلام الناس هي الموضوع، لكنّها صارت اليوم خارج الموضوع.

يبدو كلامي غرابياً، لكنّه ليس أكثر غرابية من الحاضر الذي نعيشه. نعم فالموضوع صار خارج الموضوع. ففي أتون الثورة المضادة التي تفترس بلادنا بالديكتاتوريات العسكريّة، وفي ظل أجهزة الدول التي تتصرّف كالمافيات والمليشيات، صرنا خارج الموضوع، واحتلّت فضاءاتنا تحليلات عن الصراع الدولي والإقليمي، كأن بلاد العرب ليست طرفاً في الصراع، وإنّما مجرد ملاعب له.

وبمقدار ما يتمّ تهميش الألم، والاعتقاد عليه، بمقدار ما يصير الموضوع خارج الموضوع.

هل يستطيع الألم أن يشكّل إطار حكاياتنا؟

في ماضي قريب، لكنّه يبدو اليوم بعيداً، كتب سعد الله وتوس عبارته: «نحن محكومون بالأمل»، وخبّاً إميل حبيبي تفاؤله التاريخي عبر نحته كلمة «المتشائل»، ولم نتوقّف عن استعادة المقولة الغرامشيّة عن تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة.

لكنني أشعر اليوم بأنّ واقعنا تجاوز الأمل ومعادلة التفاؤل والتشاؤم، لأنّنا نعيش فيما بعد اليأس.

نحن الجيل الأول لمرحلة ما بعد اليأس، وهي مرحلة تحررنا من الانتظارات، وتسمح لنا بأن نغوص في قعر الألم. للألم لغته التي لا يستطيع الوصول إليها إلا من يفك رموز صمت الضحايا، وهنا يكمن تحديّ الحياة وتحديّ الكتابة.

قلت إنّنا في زمن ما بعد اليأس، وهذا يعيدنا إلى الأسئلة الأولى التي بقيت معلقة منذ بداية عصر النهضة. هل ما زلت قادراً على أن أصرخ مع يونس: «من الأوّل»، أم إن صرختي ليست سوى دعوة إلى القراء، بصفتهم كتّاب الأدب الحقيقيين، كي يبحثوا معي عن أوّل يبدأ بكلمات جديدة؟

## أحمد فارس الشدياق في بريطانيا: ١٨٤٨ - ١٨٥٦

### طريف الخالدي

فلسطين، أستاذ

شرف، الجامعة

الأميركية في بيروت.

متعمقاً بأداب أمته وآداب الأمم الأخرى، ويتمتع بروح دعابةٍ وسخريةٍ لاذعة. ولو أردنا أن نقارنه بقامة فكريةٍ من العصور الماضية فلعلّ الأقرب إليه في تلك العصور هو عمرو بن بحر الجاحظ. أما الاعتراف بمكانته المحورية في الأدب العربي الحديث فقد جاء متباطئاً بعض الشيء. ونحن اليوم نجد أنفسنا في وضع أفضل بكثير مما كنا عليه من قبل بالنسبة إلى تقييم إنجازاته الفكرية وتقريرها. إذ بإمكاننا اليوم أن نجزم وبكلّ ثقة أنّ الشدياق «عُزّة الابتكار والتجدد» (enfant terrible) في عصر النهضة في القرن التاسع عشر، تلك النهضة التي كان لها في البدء أبوان: بيروت والقاهرة.

### النهضة وحوار الندّ

متى بدأت تلك النهضة ومتى انتهت؟ تلك أسئلةٌ ما زالت تخضع للنقاش في يومنا الحاضر، لكن لا جدال في أنّ القرن التاسع عشر شهد ذروة تلك النهضة. فقد عاشت هاتان المدينتان تحولاتٍ اجتماعيةً عميقةً قد نوجزها كما يلي. كان علماء الدّين المسلمون وكهنة المسيحيين هم الذين كانوا على مرّ الأيّام والعصور أصحاب العلوم ومدّسيها والقائمين على إيصالها إلى الناس من خلال مؤسّساتهم المختلفة. لكنهم وجدوا أنّهم قد أصبحوا في القرن التاسع عشر في تنافسٍ متعاطم مع طبقات اجتماعية جديدة قد يُطلق عليهم «المثقفون الجدد»، وأعني بهم الأطباء والمحامين والمهندسين والأساتذة والصحافيين وغيرهم من الذين أتت بهم دولٌ تسعى نحو تركيز السلطة من خلال خلق مؤسّساتٍ جديدةٍ كالصحافة والعسكر والجهاز البيروقراطي الجديد والمدارس والمعاهد الجديدة وإلى ما هنالك. وكانت تلك الطبقة هي التي انتمى إليها الشدياق.

في صباح يوم السبت في الثاني من أيلول / سبتمبر من العام ١٨٤٨ غادر أديبُ لبنانيّ مسيحيّ اسمه فارس الشدياق (الذي أصبح يُعرف لاحقاً باسم أحمد فارس الشدياق) جزيرة مالطا بحراً برفقة زوجته إلى إنكلترا. وبعد التوقّف في عدّة مرافئ وصل الاثنان إلى لندن عبر نهر التايمز في ٢٩ أيلول / سبتمبر. وكان الشدياق قد أمضى بضع سنواتٍ في مالطا يعمل مع جمعيةٍ تبشيريةٍ بروتستانتيةٍ كمدرّسٍ للغة العربية ومساعدٍ للجمعية في مطبعتها في تلك الجزيرة. وإذ بلغ من العمر وقتئذٍ الثالثة والأربعين، جاءه في تلك الآونة عرضٌ هامٌ من جمعيةٍ ترويج العلوم المسيحية (SPCK) للعمل مع الدكتور صمويل لي، أستاذ كرسي السير توماس آدامز للدراسات العربية في جامعة كمبريدج، على ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربية. وفي زمن لاحق، سجّل الشدياق انطباعاته عن السنوات التي أمضاها في إنكلترا في كتابين اثنين يختلفان اختلافاً جذرياً في الأسلوب هما كتاب «الساق على الساق» الذي قد حظي الآن بترجمةٍ ممتازةٍ إلى اللغة الإنكليزية، ثم كتاب «كشف المخبأ من فنون أوروبا» الذي لا يزال ينتظر، وبفارغ الصبر، من يترجمه إلى الإنكليزية. كان الشدياق كثير الأسفار. عاش لعدّة سنوات في مصر ثم في مالطا ثم إنكلترا وفرنسا وتونس وأخيراً في إسطنبول حيث حقّق نجاحاً باهراً في تأسيس جريدة شبه رسمية تدعى «الجوائب» وإدارتها. كان الشدياق رجلاً متعدّد الصفات والمواهب، كما كان أيضاً رجلاً متعدّد الملل، إذ انتقل من المارونية إلى البروتستانتية ومن ثم إلى الإسلام. كان رائداً في ميدان الصحافة السياسية، وعلاماً لغويّاً لا نظير له، ومرجعاً شهيراً للكتاب المقدّس، ودّراساً بارعاً للمجتمعات، ومُصلحاً اجتماعياً وفكريّاً، ومُناظراً حذقاً شديد المراس، وأديباً

كما الشدياق، على اطلاع عميق على تراثهم الديني والأدبي، الأمر الذي جعلهم في موضع يمكنهم من شق هجراتهم على المكانة السامية التي كان يحتلها رؤساء الدين عند طوائفهم وعلى المؤسسات الثقافية المهمة في زمنهم.

أما النبرة البلاغية للحدثاء فلعل التعبير الأوضح لها كان في تلاشي التمييز التقليدي بين «الخاصة» و«العامة». فقد ساد الرأي في العصور السابقة أن الثقافة والعلم بوجه عام هما ما تتحلّى به النخب الاجتماعية حصراً. لكن المثقفين الجدد كانوا يسعون باستمرار إلى استمالة «العامة» وجذبهم نحو المعرفة وتحفيزهم على طلب العلم، إذ كانوا على يقين أن «العامة» قابلة لتلقي العلوم الحديثة على أشكالها. وبجد في العديد من أعماله أن الشدياق كان في واقع الأمر يدعو العامة إلى السخرية من الخاصة. عندما نتفحص بدقة خطاب هؤلاء المثقفين الجدد نجد فيه عدداً مما قد نسميه «المقامات الموسيقية» أو

«النعمة»، وذلك بشكل عام. هنالك أولاً خطاب يشي بالحمية: هذا المبدأ أو هذه العقيدة فقط هي التي تضمن التطور والارتقاء. فالشدياق مثلاً يرى أن هذا المبدأ هو العدالة كما تتجلى في المساواة الاجتماعية، هذا إذا أدركه القارئ وهو يتكلم بجديّة وواقعية. ثانياً، ثمة «مقام» بلاغي آخر، حين يحاور المثقفون الجدد أوروبا، يتمثل في أنهم يتسلحون بأسلحة مُستلّة من تراثهم العقلاني والإنساني. فالشدياق مثلاً، كما سيرد لاحقاً، يمتطي صهوة القاموسي الفذ والأديب العقلاني التراثي ويُقرن بذلك انغماساً عميقاً بالتراث الأدبي الأوروبي. لذا، وحين نأتي إلى المحاور مع أوروبا، علينا أن نتحاور معها من التّد للتّد. ثالثاً، ثمة «مقام» بلاغي يدعو إلى العلم والتعلّم تواكب عند الشدياق دعوة إلى المساواة بين المرأة والرجل. كان المثقفون الجدد يرون أن للعلم والتعلّم مجالاً أوسع بكثير من مجرد ما يحصل عليه الفرد في المدارس والمعاهد فهو يتضمّن ما قد نسميه نوعاً من أنواع التسلّح الأخلاقي الذي يؤدي إلى التحوّل في الشخصية. فالتعلّم لأجل أمورٍ معيّنة كالمواطنة والمساواة وضدّ أمورٍ أخرى كالامتثال الأعمى للسلطة، سياسية كانت أم دينية. وفي كتاب الساق على الساق، نجد أن آراء الشدياق حول المرأة هي على وجهها الأكثر حيويةً في الكلام المنسوب إلى زوجته «الفارياقية» التي ترفض بشدّة وبروح من الدعاية كل مواطن الضعف عند النساء، جنسية كانت أو اجتماعية، وتبني دفاعاً مستميتاً عن

بالإضافة، فإنّ الأسواق التقليدية كانت هي أيضاً مسرحاً لاجتياح طبقة جديدة من التجار والصناعيين من ذوي العلاقات الوثيقة مع أوروبا. وصحب كل ذلك قيام ثقافة مطبوعة انتشرت بين جمهور متعاطف من القراء من خلال أساليب حديثة لإيصال الأفكار كالكتب العلمية والمدرسية والروايات والمسرحيات والمجالات الحديثة وإلى ما هنالك. وكانت النتيجة تكوّن مناخ فكري وأيديولوجي أكثر ثراءً من ذي قبل، ولعله أيضاً أكثر إيماناً بالارتقاء والتطور، إذ أضحت التفاعل المباشر وغير المباشر مع بلدان البحر المتوسط ومع أوروبا أمراً روتينياً. ولما كان عصر النهضة في فجره يُطلق عليه اسم «بدايات الحدثاء»<sup>٢</sup>، في المشرق العربي، لا بد لنا من الحديث، ولو بإيجاز، عن مفهوم الحدثاء وهو مفهوم غامض متزعزع، خصوصاً فيما يتعلق بالشدياق.

---

**لم تكن نهضة التاسع عشر محمولة**  
**في الغالب على أكتاف البرجوازية**  
**الجديدة كما وأكتاف «المثقفين الجدد»** فحسب بل كانت تتميز أيضاً بأن الحدثاء التي أنتجتها تلك النهضة كانت حركة عابرة للطوائف. أي شارك فيها المسلمون والمسيحيون مع غيرهم من ملل المشرق العربي. وكان هؤلاء المثقفون الجدد في الغالب من ذوي نزعة فكرية علمانية.

---

إنّ الأبحاث الأكاديمية حول موضوع النهضة كما في الأربعين سنة الماضية تبدو وكأنها انتقلت من ضيقة إلى أخرى، أي من تعريف النهضة على أنها عملية تفاعل حضاريّ مصدره أوروبا إلى تعريفها على أنها كانت نتاج مخاطبة مع الذات بقدر ما كانت نتاج مخاطبة مع أوروبا<sup>٣</sup>. أمّا الأمر الذي يميّز عمليات التحديث خلال نهضة القرن التاسع عشر عن عمليات مشابهة لها في ما سلف من العصور فقد نعّرفه كما يلي. لم تكن نهضة التاسع عشر محمولةً في الغالب على أكتاف البرجوازية الجديدة كما وأكتاف «المثقفين الجدد» فحسب بل كانت تتميز أيضاً، وهو أمر شديد الصلة بالشدياق، بأنّ الحدثاء التي أنتجتها تلك النهضة كانت حركة عابرة للطوائف، أي شارك فيها المسلمون والمسيحيون مع غيرهم من ملل المشرق العربي. وكان هؤلاء المثقفون الجدد في الغالب من ذوي نزعة فكرية علمانية لكنهم كانوا أيضاً،

يتأرجح بين المبالغة الهزليّة والمرح المنفلت وتجريح المقدّس والعبثيّة والشبق والهزء الدائم. والساق، كما في أدب المقامات، مبنيّ على سلسلة من الحوادث المنفصلة التي لا يربط الزمن بينها إلّا لمأماً، حيث التلاعب اللغويّ يشبه الألعاب النارية ويحجب البطل المراوغ في انتقاله بين مجلسٍ منخدع وآخر. غير أنّنا نجد عند الشدياق وخصوصاً في الروايتين المختلفتين تماماً في الأسلوب والنبرة والنعم حول أيتامه في إنكلترا، نجد فيهما طيفاً أوسع بكثيرٍ في الصوت والإيقاع والأوزان ممّا نجده في «ترسترام شاندي» أو في أدب المقامات، الأمر الذي يتخطى مجرد التأثير. ولعلّ من المفيد هنا أن نستشهد في هذا الصدد بما قاله الناقد المعاصر فريديرك جايمسون عن الروائيّ الشهير غبريال غارسيا ماركيث: «التأثير ليس نوعاً من أنواع الاحتذاء أو النسخ، بل هو رخصة غير متوقّعة يحصل عليها الكاتب لمقاربة المواضيع بشكلٍ جديد ولسرود القصص من خلال أشكالٍ وتقنيّاتٍ لم يكن الكاتب يعلم أنّ له الحقّ في استخدامها»<sup>٦</sup>. فلنلتفت الآن إلى هاتين الروايتين المختلفتين تماماً حول سنواته في إنكلترا.

#### مجتمع الإنكليز: التراتب والاستغلال

الرواية التي نجدها في الساق هي أقصر وأقدم من تلك التي في كشف المخبا إذ طبع الساق لأوّل مرّة في باريس في العام ١٨٥٥ وذلك في أواخر أيام الشدياق في إنكلترا، أمّا كشف المخبا فقد صدر لأوّل مرّة في تونس في العام ١٨٦٢ ثمّ أعيد تنقيحه ونشره في اسطنبول في العام ١٨٨١.

يرد وصف إنكلترا في الأجزاء الأخيرة من الساق وقبل وصف باريس مباشرة. والنبرة الغالبة على هذا الكتاب هي نبرة المبالغة الهزليّة (burlesque)، فرغم أنّه رواية لسيرة ذاتيّة في ظاهر الأمر فهو في الحقيقة يخرب وينقض الأسلوب الروائيّ بانتظام. وإذا كان من رابطٍ يربط تلك الاستطرادات المعقّدة والتلميحات الغامضة الواردة في الساق فهو تلك الصّليّات من المفردات التي تبدو وكأنّها عمليّات جردٍ هزليّة لّلغة الكلاسيكيّة وغالباً ما ترد على شكل سجع تهكميّ.

هذه النبرة أو النغمة تستمرّ حين يأتي الشدياق ليصف أيتامه في إنكلترا، الأمر الذي يجعل من وصفه هذا وصفاً لا شبيه له في أيّ رحلة قام بها عربيّ أو آسيويّ إلى أوروبا في القرن التاسع عشر، ولربّما في أيّ

المساواة الاجتماعيّة بين الجنسين وورغياتهم النفسيّة، لا نجد له مثيلاً عند أيّ مفكّر آخر في عصر النهضة.<sup>٥</sup> ولعلّ التعريف الأكثر التصاقاً بالشدياق فيما يختصّ بالحدّات البلاغيّة هو التعريف الذي يرد عند الكاتب الإنكليزيّ المعاصر تيري ايغلتون الذي يصف بعض أوجه الحدّات بأنها الطريقة التي «أضحّت فيها اللغة تتخذ اللغة ذاتها موضوعاً لها، فتجعل من ذاتها موضوعاً لاستطلاعها»<sup>٦</sup>. فالشدياق يفعل هذا الأمر حين يتفاعل مع العربيّة، إذ يسبر أغوارها ويقلب باطنها إلى خارجها. وبسبب امتلاكه المذهل لمفرداتها وصرفها، فهو يبدو في الساق على الساق كمن أخذ تلك اللغة بيده ونثرها عالياً في الهواء ثمّ التقطها وهي تهوي، صائغاً منها شلالاتٍ من المترادفات التي هي في الوقت ذاته حركة صياغةٍ رائعةٍ في تبخّرها وخالية من التوقير والاحترام. ما يفعله الشدياق هو في الوقت عينه نوعٌ من أنواع الاحتفال والتعنيّ بالعربيّة، التي كثيراً ما يصفها بأنّها لغة نبيلة شريفة، ونوع من أنواع المحاكاة التهكميّة لها. من هنا فقد نرى أنّ غياب التوقير والاحترام، كما عند الشدياق، هو مكوّن هامّ من مكوّنات الحدّات الأدبيّة.

**يبدو في «الساق على الساق» كمن أخذ تلك اللغة بيده ونثرها عالياً في الهواء ثمّ التقطها وهي تهوي. صائغاً منها شلالاتٍ من المترادفات التي هي في الوقت ذاته حركة صياغةٍ رائعةٍ في تبخّرها وخالية من التوقير والاحترام.**

تقترح الدراسات المعاصرة عن الشدياق بعض الصّلات والمقارنات والتأثير بين كتاب الساق على الساق وغيره من الأعمال الأدبيّة السابقة، ولعلّ أكثر ما يتردّد ذكره في هذا الصدد هو رواية «تريسترام شاندي» (Tristram Shandy) للكاتب الإنكليزيّ لورنس ستيرن التي صدرت بين العامين ١٧٥٩ و١٧٦٦، كما كتب المقامات في الأدب العربيّ القديم. هذه المقارنات والصّلات وجيهةٌ وجديرةٌ بالاهتمام لكنّها أيضاً غير كافية. فالشدياق في الساق، كما هو الحال في «تريسترام»، (وهو بالمناسبة مذكورٌ في الساق) يصف رحلةً وكأنّها كُتبت تحت تأثير المخدّرات (psychedelic) حيث تُغلّف السيرة الذاتيّة داخل مجرى من الوعي



في كلِّ مكان، وإن تكن تختبئ تحت المجون واللذة التي يستمدّها الشدياق من مجرد الكتابة. كذلك، فإنّ هذا المنظور ذاته هو الذي يوطّر التوازن الذي يصنعه بين مناقب الإنكليز ومثالبهم. لكنّ ثمة طبقتين اجتماعيتين تحظيان لديه باهتمام خاصّ وتثيران أحاسيسه وردّات فعله الأكثر عمقاً، أيّ الفلاحين والعمّال الصناعيين من جهة، والخدامات الإنكليزيّات والعاشرات من جهة ثانية. فالشدياق كثيراً ما يجزم أنّ تلك الطبقات في بلاده أفضل حالاً وأسعد من هؤلاء.

يصف الشدياق أيامه التي أمضاها في قرية بارلي، في مقاطعة هرتفوردشاير، حيث ألقى رحاله في البدء، كانت من أشقى وأتعس أيام حياته وأكثرها شؤماً. والسبب ليس فقط لأنّ ابنه الرضيع تُوفّي على شكل مأساويّ في تلك القرية لغياب أيّ عناية طبيّة فيها، بل أيضاً لأنّه وجد حياة فلاحها أتعس بكثير من حياة فلاحها في بلاده فيقول:

«قد كنت أحسب ونحن في الجزيرة أنّ الإنكليز أحسن النّاس حالاً... فلمّا قدمنا بلادهم وعاشرناهم إذا فلاحوهم أشقى خلق الله. انظر إلى أهل هذه القرى التي حولنا وأمّعن النظر فيهم تجدهم لا فرق بينهم وبين الهمّج. يذهب الفلاح منهم في الغداة إلى الكدّ والتعب ثمّ يأتي بيته في المساء فلا يرى أحداً من خلق الله ولا يراه أحد... فهو كالآلة التي تدور مداراً محتتناً فلا في دورانها لها حظّ وفوز ولا في وقفها راحة، فإذا جاء يوم الأحد، وهو يوم الفرح واللهو في جميع الأقطار، لم يكن له حظّ سوى الذهاب إلى الكنيسة، فيمكث فيها ساعتين كالصنم يتشاءب ساعة ويرقد أخرى ثمّ يعود إلى بيته... فإنّك لا ترى فيها مثيراً إلا القسيس وخولي الأرض وهو الذي يضمن المزارع والحقول من مالكها، وهما أيضاً بمثابة الفلاحين».

والأمر ذاته يُقال في عمّال الصناعة والحرفيين الذين يصنعون تلك الصناعات البديعة والتحف العجيبة والفُرش التّفيس في بيوت الأغنياء، فهم صنّاعها لكنّهم منها محرومون، وهذا يدفع الشدياق / الفاريق إلى شنّ هجمة عنيفة على أثرياء الإنكليز فيقول:

«أم يحسبون أنّ الله تعالى إنّما خلق الفقراء لخدمتهم فقط؟ لعمري إنّ حاجة الغنيّ إلى الفقير أشدّ من حاجة الفقير إلى الغنيّ. أم يأنفون من النّظر من مقامهم الرفيع السامي إلى ذوي الصّعة والحمول خشية أن يسري إليهم من بؤسهم ما يسوؤهم؟ كمن ارتقى شرفاً باذخاً

قرنٍ كان. ثمة قسمٌ لا يُستهان به من ذلك الوصف يجري على شكل حوارٍ سريع بين الفاريق، بطل الرواية الذي هو «الأنا الأخرى» للشدياق، وبين زوجته الفاريقيّة.

أمّا النعمة العامّة للوصف فنجدها في البعض من ملاحظاته المبكّرة حول إنكلترا:

«وهنا ينبغي أن يُلاحظ أنّ الإنكليز أشدّ النّاس حرصاً على الألقاب فإذا زارهم أحدٌ من البلاد الأجنبية متّصفاً بلقب أمير أو شيخ أو مطران حظي عندهم الخطوة التامة، ولا سيّما إذا كان يتكلّم باللغة الفرنسيّة»<sup>١</sup>.

تلك العبارة الأخيرة حول الحديث بالإفرنسيّة هي مثالٌ للعبارات التي يُدرجها الشدياق هنا وهناك وكأنّها أفكارٌ بريئة طارئة أو كأنّها غمزة للفاريق. لكنّ سرعان ما يضيف أنّ الزائر الأجنبيّ وخصوصاً من يمشی في الشوارع مرتدياً زيّه الوطنيّ، أو الطربوش كما كان يفعل الفاريق، يُقابل بالضحك من المارة الإنكليز، أمّا السفلة منهم فيناديه أحدهم «من مكان بعيد حتى يبيح وما ذلك إلا ليقول له إنّك يا غريب دمويّ ملعون!» أمّا أيامه في بلدة كمبريدج فقد هجاها كما يلي:

رمثني النوى في كمبريدج ملازماً  
لبيتي نهاراً إن تراني أوباش

فتعبت بي حتى إذا الليل جنّني  
خرجت على أمن كآني خفّاش

ولأنّ الكلاب أيضاً كانت تشمّ فروته وتلازمه، قال فيها:

ولي فروة تأتي الكلاب تشمّها  
ولم تندفع عنها إذا ما دفعتها

تهزّ على تمزيق جلدي وجلدها  
كآني من أبائها قد صنعتها

لكنّ يلي هذا الوصف مباشرة لقاءً مع إنكليزيّ ثريّ لديه اهتمام باللغات الشرقيّة، والذي لما سمع بوجود الفاريق في كمبريدج دعاه لزيارة منزله الفخم واستقبله بالترحاب والتكريم<sup>٢</sup>، فهذا المنظور، الذي قوامه التفرقة بين الصالون والشارع، وبين الطبقات العليا والدنيا، وبين الأغنياء والفقراء، هو في الغالب الخريطة الاجتماعيّة التي يرسمها الشدياق لإنكلترا والتي يلمحها القارئ

وتحتة هوة عظيمة فهو يأبى أن يتطأطأ وينظر إليها لئلا يلحقه من ذلك دواؤ أو غشيان فيهبط من شرفه... وإذا كانوا يخشون من الشقي الفساد إن هم أسعدوه بمالهم ورفدهم... فخوفهم من فساد نيته لفقره ومن كراهته إيأهم أولى، لأن الشقاوة أدعى إلى الفساد من السعادة»<sup>١٠</sup>.

### جمال، شبق وبؤس في نساء الإنكليز

يختفي المجون في هذه الفقرات لكن السخرية واضحة تماماً غير أن الموضوع الذي يستحوذ على شعوره بالكامل في الساق هو موضوع نساء الإنكليز. فهو كثيراً ما يمدح جمالهنّ وبعبارات تشي بالشبق والشهوة، مصحوبة بسلاسل من النعوت المترادفة كما مثلاً:

«فجمال نساء الإنكليز هو ممأ عنوانه أين أين الغرّ، أين أين المشبع، لديّ يذلّ الصعب. فإنك ترى المرأة منهنّ تمشي وهي صفوح منزة سامدة مساندة شاردة معبّدة شامرة نافرة جافلة جامزة أبزة نافزة ساربة عاسجة طامحة جامحة شامخة خانفة مشمّة شافنة مهطعة مرشقة منتالعة مخرنظمة مسحنفرة مجلوذة...».

ويلي ذلك حوالي أربعين مرادفاً يصف شكلها وطريقة سيرها وينتهي إلى وصف المراقب لهنّ بأنّه يقف «كالجابه الحيران فلا يتماسك عن أن تصطك ساقاه تعجباً وإعظاماً وأن تحترق أسنائه ويندلع لسانه وتلتوي عنقه وتنتفخ أوداجه». يلي ذلك سلسلة طويلة أخرى من المرادفات حول الرّجفان الذي يصيبه بالقشعريرة فتتجاذبه الأمانى وحوالج الشهوة<sup>١١</sup>.

لكنّ نبرة الصدمة والاستنكار لديه تبدو وكأنّها صادقة ونابعة من القلب والوجدان حين يصف «الآلاف» من فتيات لندن العاهرات بثيابهنّ الرّثة «اللاتي لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة» يجربن في أسواق المدينة متهافتات على المارّة رجاء أن ينلن ما يتقوتن به. فهو يحق على من يقول له، ولعلهم المشرون من أصدقائه، أن النساء في بلاده يُعاملن بطريقة أسوأ بكثير من معاملة المرأة في أوروبا. وتقع الملامة في رأيه على الدولة والكنيسة في إنكلترا فهما لا تُعنيان بتلك الفتيات ولا بتجهيزهنّ وتربيتهنّ بما يسمح لهنّ بالزواج الشرعي. ويلى ذلك فقرة حول بؤسهنّ تذكر القارئ بروايات تشارلز ديكنز:

«وكم لعمري من بنتٍ حبلت أوّل مرّة من مبادئ شوطها في ميدان العهر ثم أسقطت جنبنها خوف الفقر. وإنّ منهنّ لمن تلد في طرق المدينة في ليالي الشتاء

الباردة لعدم مأوى لها، أو أنّها تبيت مع بنتٍ أخرى على فراشي واحد وهي عادةً مستفيضة في لندن وذلك لعدم قدرتها على أن تستقل بفراش وكنّ خاصّ بها، فلا تأمنّ والحالة هذه من أن يلحقها أذى من ضجيعتها ليلاً. نعم إنّ أولاد الرّنا يأتون في الغالب شياظمة جبابرة... كولينم الفاتح الذي فتح بلاد الإنكليز. إلا أنّ النفع الأكثرى مع الاقتصاد والاعتدال أحقّ بالمراعاة والتقديم من النفع الأندري مع الإسراف والإرغال»<sup>١٢</sup>.

ويرى الشدياق / الفاريق أنّ من العار في أرض «العلوم والصنائع والتمدن» أنّ رجالهم لا يتزوجون المرأة سوى لزيادة ثروتهم. لذا فهو كثيراً ما يرى شاباً جميلاً قد تزوّج عجوزاً شمطاء طمعاً بمالها فيما تبقى الجميلة الفقيرة كاسدة... ولا بدّ حتى للمرأة الغنيّة أن يتبع غناها عناءً إذ لا مناص لها من إقامة اللواتم والمآدب وتتخذ لها من الخدام من تقرّ عينها بجماله. وإذا كان الزوج مولعاً بالأمر السياسيّة أو الماليّة فهي «تخلو بمن تخلو وتلهو بمن تلهو». ويستشهد بأحد مؤلفيهم «إن من ترى من أولاد الأعيان والأمراء هنّا قويتاً تارّاً فأيمأ هو من إلقاح بعض الحشم»<sup>١٣</sup>.

أمّا الخادما في بيوت الأعيان فهنّ يستدعين من الشدياق / الفاريق أحد أكثر أوصافه لنسائهم حيويّة وشبقاً. المشهد هو الدرّج الخارجى لأحد تلك البيوت الفخمة:

«تصوّر في عقلك أنّك ساكن في حارة من حارات لندره ذات صفين متوازيين... في كلّ صفّ عشرون داراً ولكلّ دار بابٌ ولكلّ باب عتبةٌ وأمام كلّ عتبة درجٌ مبلط. ثمّ مثل لعينك هدك الله أربعون بنتاً من الرّم النواهد والجثم الخرائد والعُبن المواعد والرّجج الثوامد ذوات التبهكن والمرافد...».

ثمّ يرفد هذا الوصف بحوال مئة أو أكثر من النعوت التي تصف خصائصهنّ الجسدية. ويلى ذلك صورة لإحداهنّ وهي تأخذ بيديها الناعمتين مكشطاً وصابونة ودلواً فيه ماء ساخن ثمّ تجثو على ركبتيهما وتحكّ عتبة الدار. ويتبع ذلك حوالي خمسين نعتاً أو يزيد لوصف حركات جسدها وهي تتلوى وتتململ وتشتكي هامسةً وبحسرة. ثمّ يلتفت الشدياق / الفاريق ليخاطب أعيان لندن ويعيهم على إذلال وانتهاك كلّ ذاك الحسن والجمال فيقول: «ومع ذلك تزعمون أنّكم تحترمون النساء وتعرفون قدرهنّ أكثر ممّا؟ لقد كبر ذلك قولاً». وينطلق ليعطي تفسيراً تاريخياً ساخراً لنشأة تلك الظاهرة المذمومة فيقول:





وكلّما رأيت شيئاً في بيوتهم من أثاث وغيره فاستحسنه واعجبني به وقولي وأنت مدهوشة أه ما أجمل هذا! أه ما أجمل ذلك! ما أبهى هؤلاء!... أه ما أذكى مراحيضكم!... فهذه هي الذريعة التي يتذرع بها الغرباء هنا لاستجلاب مودّتهم وكسب رضاهم. وأعرف كثيرين قد استعملوها ونحوها»<sup>١٦</sup>.

لكنّ هذا المتلاعب الساحر بالألفاظ والأفكار لن يترك قارئه مخلفاً وراءه وصفاً هزلياً تهكمياً ليس إلا لأيتامه في إنكلترا. فكما رأينا أعلاه، كثيراً ما يصف الشدياق / الفارياق إنكلترا بأنها بلاد العلوم والصناعات والتمدّن رغم لآتها تسمح بوجود فقر مدقع ينتشر في كافة أرجائها. ويقع القارئ بين الحين والآخر على فقرات كالاتية، تشي بالإعجاب والتقدير:

«ومنها [أي فضائلهم] أنّهم قليلو الكلام كثيرو الفعل، حسنو المعاطاة للأمر بالترتيب والسياسة والرشد والكياسة... فكلّ الناس في الحقوق البشرية عندهم متساوون. هذا وإنّهم يحيون الغريب ما خلا أوباشهم... ويكرّمون ذوي السيادة والمجد ويعرفون قدر ذوي العلم ويعينون على إدراك العلوم والمعارف في البلاد الأجنبية. وعندهم جمعيات منعقدة لإجراء كلّ نفع وخير... وكثير من الأطباء هنا يداوون المرضى مجاناً ما عدا المستشفيات المبتوثة في كلّ قطر... ومن ينزل نزلاً لديهم أو يستأجر غرفة فإنّ صاحبة المنزل تؤانسها وترفق به وتدعوه إلى مسامرتها من غير أن يستاء زوجها لذلك... وإذا قدم إلى بلادهم أحد بكتاب توصية احتفل به الموصى... ونخله له الوّد والنصح»<sup>١٧</sup>.

وهناك فقرة أطول بكثير من تلك الواردة أعلاه معقودةً بالكامل لسرد تصرّفات الإنكليز في إطار من الجمل المتعاقبة التي تضع في الميزان ما مجموعُه حوالي أربعين خصلةً ذميمةً من خصائلهم توازيها مجموعةً مشابهةً في العدد من خصائلهم الحميدة. فالشدياق / الفارياق هنا على أوضح تلاعبه وهزله، وحين يصل إلى الخاتمة يقول لقارئه: «وفي الجملة فإنّ كفة محامدهم تزوج كفة مذاتهم». وفي هذا الحكم النهائي يلمح القارئ أيضاً ذات الغمزة الساخرة التي تُلّف هذا الكتاب بأسره<sup>١٨</sup>.

«كشف المخبأ»: الصحافة الاستقصائية  
أمّا الرواية الثانية لأيتامه في إنكلترا فهي كما أشرنا سابقاً في كتاب كشف المخبأ. وهذا الكتاب صيغ بنبرة تختلف بالكامل عن نبرة الساق، إذ تختفي التلاعبات اللفظية كما

«ولست أرى لهذه العادة المشطّة من سبب سوى أنّ أحد كبرائكم كان قد اتخذ خادمة رعبوبةً والله أعلم منذ ثلاثمائة وخمسين سنةً وكانت امرأته دميمة فغارث السيّدة منها فكلفتها حكّ العتبه في كلّ يوم إذلاًلاً لها في عين سيّدها كأنّ القلب لا يعلق بهوى الجميلة المسكينة كما يعلق بهوى الفئق... فسرتّ هذه العادة الذميمة في جميع كبرائكم إلى عصرنا هذا، عصر التمدّن والرّفق بالنساء، وأنتم أسرى العادات والتقاليد»<sup>١٤</sup>.

ثمّة أمورٌ أخرى تثير حنقه فيما يختصّ بنساء الإنكليز ومنها مثلاً كشف العجائز أكتافهنّ وأذرعهنّ في ولائم الأغنياء أكثر ممّا تفعل الشابات، ومنها المتوشّحات منهنّ بالسواد حداداً وهنّ يضحكن ويبيدين من المرّح أكثر ممّا تبديه العروس، ومنها أولئك البنات اللواتي يأتين بلدتي أكسفورد وكمبريدج لاستدرج الطلاب الأغنياء. وهناك فقرة يقارن فيها الشدياق / الفارياق بين عاهرات لندن وعاهرات باريس فيقول عن عاهرة لندن أنّها لا تشعر بالحرّيّة ولذا لا تتوقّع الاحترام من الزبائن، فيما عاهرة باريس تمنح خدماتها للزبائن وكأنّها تطلب منهم اعترافاً بجميلها. وفي حال أنّ أصابت القراء صدمةً بسبب هذا المجون فهو يسارع لتذكيرهم بالرسالة التي كتبها كبير الكهنة جونانان سويفت Dean Swift حول الإيست، والمجون الوارد في كتب ستيرن وكلياند، وجميعهم من رجال الكنيسة المبجلين. كذلك يشير أيضاً إلى المجون الوارد في تراثه الأدبيّ كشعر ابن الحلاج وغيره<sup>١٥</sup>.

وبالانتقال في نهاية المطاف إلى أحكامه العائمة وحساب الإيجابيات والسلبيات التي قد تجابه من يزور إنكلترا، فهو يصف عامة الشعب بأنّه شعبٌ كتوم لا يعتر عن مشاعره وأحاسيسه بل يرى أنّ التعبير عنها هو «طيشٌ وهوج». أمّا طعام الإنكليز وخبزهم فهو يزدريه ويحتقره إذ لا طعم له في رأيه، ويستغرب كيف أنّ الإنكليز يأكلون في بيوتهم قبل أن يلبتوا الدعوة إلى ولائم الآخرين. وحين يعمد الشدياق / الفارياق إلى تلقين زوجته درساً حول التعامل مع الإنكليز يقول لها ما يلي:

«وإذا أنكرت فعلت من فعلاتهم فيأياك أنّ تذكريها لهم. وأطري ما أمكن على عاداتهم وأطوارهم ومعالهم ومآكلهم ومشاربهم ومآدبهم وملابسهم وعلى طول أظفارهم وأظفارهنّ وعلى تفتيل سوافهنّ وعلى المنقّش من شعرهنّ وعلى كشف أدبارهم للاصطلاء.

تختفي سلاسل المفردات والاستطرادات المفاجئة والمجون والتَّهكُّم والشبَّق وغيرها من سمات العمل الأول. وقد نقول إنَّ الفاريق قد اختفى هنا ليحلَّ محله الشدياق، إذ لا يبقى فيه ما يذكِّرنا بأنَّ المؤلِّف هو ذاته سوى بعض ومضات السخرية التي ليست على كلِّ حال بالكثرة الواردة في الساق، ولربَّما أيضاً المقارنات التي يعقدها بين إنكلترا وفرنسا من جهةٍ وبين بلاده من جهةٍ أخرى.

«كشـف المخبـا» صيغ بنبرة تختلف بالكامل عن نبرة الساق. إذ تختفي التلاعبات اللفظية كما تختفي سلاسل المفردات والاستطرادات المفاجئة والمجون والتَّهكُّم والشبَّق وغيرها من سمات العمل الأول. وقد نقول إنَّ الفاريق قد اختفى هنا ليحلَّ محله الشدياق.

من هنا يجدر بنا أن نحاول وصف أسلوب كشف المخبأ ومصدر إلهامه فنقول بادئ بدءٍ إنَّ السرد هنا قد يُصنَّف على أنه مثالٌ مبكَّرٌ جداً للصحافة العربية الوصفية والاستقصائية. فالكتاب يرمي إلى رسم صورةٍ شاملة ورصينة لجغرافيا إنكلترا وتاريخها ومجتمعها وتجارها وسياستها، وهو كتابٌ يتوجَّه إلى القراء العرب المثقِّفين لإثراء معرفتهم وتنويرهم. ولعلَّ الشدياق قد أصابه ما أصاب الإنكليز في العصر الفيكتوريِّ المتوسِّط من وَّلَع بالإحصائيات، فالكتاب يزخر بالإحصائيات على مختلف أنواعها، كما يزخر بالإشارات إلى مصادره المتنوعة التي تشمل الصحف والروزنامات والتواريخ وجميعها يختلط ويتقاطع مع ملاحظات الشدياق وتجاربه الشخصية، والكتاب الذي يحوِّم فوق كشف المخبأ كالشبح هو كتاب «رسائل فلسفية» لفولتير الذي يستشهد به الشدياق في أماكن عدَّة. لا ريب في أنَّ كتاب فولتير كان له تأثيرٌ واسعٌ على النعمة السائدة في رواية الشدياق، ومن المرجَّح أيضاً أنَّه ألهمَ المؤلِّف في اهتماماته بمواضيعٍ معيَّنة كما في «الرسائل»، وفي تأملاته حول عادات أهل بلاده وأخلاقهم.

وإذا أردنا أن نضع فهرساً لمحتويات كشف المخبأ فقد يبدو على الشكل التالي: يبدأ الكتاب بلمحةٍ عامَّةٍ عن جغرافيا إنكلترا وتاريخها بما في ذلك أحوال الزراعة والمعادن والصناعة، ثمَّ ينتقل للحديث عن الترتيب الطبقيِّ، والدراسات الشرقية، والجريمة والعدالة. ثمَّ يأتي

إلى عادات الخاصَّة والعامَّة وتقاليدهم وما يُحمد من خصائلهم، وطقوس الزواج وحفلات الزفاف والولائم، والمطبخ الإنكليزي. ثمَّ ينتقل إلى الكنيسة وسلك الكهنوت والتجارة والتلغراف وغيره من الاختراعات. وينتهي ببعض الملاحظات حول اسكتلندا وبلاد الغال. لكنَّ الشدياق لا يتقيَّد بهذه المواضيع بل كثيراً ما يستطرد كما في كتب الأدب عند قدماء العرب، فلا ينبغي أن يُؤخذ هذا الفهرس لمحتويات الكتاب حرفياً بل هو بمثابة إشارةٍ عامَّةٍ إلى محتوياته إذ كثيراً ما يمنح الشدياق لنفسه الحرِّيَّة في معالجة مواضيعه بدون الالتزام بحدودها.

هاك مثلاً وصفه لقرية بارلي في مقاطعة هارفوردشاير حيث سكن في بداية أيامه في إنكلترا:

«من عادة الإنكليز أن يكون لهم بالقرب من القرى بُليدَةٌ يُباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب والملبوس والأثاث، فيذهب إليها الفلاحون مرَّة في الأسبوع ويشترون ما يلزمهم. وقد يمرُّ على البيوت ليلاً رجلٌ ينفخ في بوقٍ تنبيهاً على ذهابه إلى تلك البليدة فمن شاء أن يشتري شيئاً كلَّفه به وجزاه على ذلك. وقد يمرُّ أيضاً تجارٌ بعجلات فيها نحو البنِّ والشاي والسكر... ويمثل هذه الأسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الإنسان ما لا بدَّ له لقوام عيشه. أمَّا محار البحر والسرطان والإنكليس وهذا الذي يسمونه «لبستر»، وهو أطيب ما يؤكل عندهم... فلا وجود لها البتَّة. أمَّا السمك فلا يرد منه إلا مرَّة في كلِّ ثلاثة أشهر... وجميع أصناف سمكهم مسيخةٌ إلا صنفاً يقال له «سُمن» وهو طيبٌ لكن لا طعم له بالنسبة إلى سمك بلادنا. وقد يضعونه في الثلج ليلاً ويعرضونه للبيع نهاراً فرُبَّما كان عمر السمكة بعد صيدها أطولَ منه قبله.

«ومن قديم إلى لندره ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والأشغال الجمَّة والغنى والثروة حكَّم على جميع الإنكليز بأنَّهم أغنياء سعداء، ولكن هيهات. فإنَّ أهل القرى هنا كأهل القرى في الشام بل هم أشدَّ قسفاً... وقد يبلغ من فقرهم أنَّهم يتركون أولادهم بغير معموديةٍ لئلا يعطوا القسيس مصروفها... فالكنيسة لا تأذن لمن مات غير معمِّد أن يُدفن في مدافنها فتُنزله منزلة المنتحر... وقلَّما يذوق هؤلاء المساكين اللحم فجلاً أكلهم الخبز والجن. فجزَّار القرية لا يذبح شاةً أو بقرةً إلا مرَّة في الأسبوع ولا يبيع من اللحم سوى نصف رطل أو رבעه... ومن كان ذا يُسر قليل اشترى قطعة لحم في السبت وطبخها وتبلَّغ بها عامَّة الأسبوع باردة، إذا ليس تسخين الطعام مألوفاً

عندهم... ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلاً عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء لم تكذ تفهم منّي إلا بعد شرح وتفسير، وراح كلُّ منّا يتعجب من صاحبه.

«وفي أوان الشتاء لا يمكن للإنسان أن يخرج من منزله لاستنشاق الهواء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدّة أيام رهين بيته. وليس في القرى خيلٌ أو حمير أو بغال أو عواجل تُكرى، فليس إلاً مركوب التعل. ويعلم الله أنّي مدّة إقامتي في تلك القرية المشؤومة لم يكن لي همٌ إلاً بتحصيل لوازم المعيشة فكنت أجلب بعض القطناني من كمبريدج وبعض النقل من رويستن والمزّر من لندره في سكة الحديد. ولكن لما وجدته غالباً اقتصرت عن جلبه فاستولت عليّ ضعفٌ ووهن في ركبتي لم أحسّ به في عمري قطّ»<sup>١٩</sup>.

هذا الوصف، الإثنوغرافي في حادثته، مثالٌ لما يجده القراء في كتاب كشف المخبأ. هذا الرصد الدقيق لمحيطه توأكبه أحياناً مقارناتٌ مع أحوال الفلاحين في بلاده كما وملاحظاتٌ حول الطقس الرديء والطعام السيئ، ولا يخلو من تهجّمه المستمرّ على الكنيسة وكهنتها. ومن الملاحظ أيضاً رغبة الشدياق ألاً ينخدع أهل بلاده فيظنّوا أنّ إنكلترا هي الفردوس المفقود، فعظمة لندن لا تمتدّ إلى الأرياف الغارقة في التعاسة.

### خمس طبقات

ونأتي الآن إلى وصفه العامّ للمجتمع والسياسة في إنكلترا، والأمران متداخلان عند الشدياق:

«أمّا أخلاق الإنكليز وعاداتهم فالواجب أن أمهد للقول فيها مقدّمةً وجيزة لإزالة الالتباس فيما يرد من بيان ذلك فأقول: إنّ هذا الجيل ينقسم إلى خمس طبقات. الطبقة الأولى: الأمراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الأساقفة. الثانية: الأعيان أو العليّة، وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة، وليس لهم لقب تعظيم. الثالثة: العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار أهل المراسلات. الرابعة: التجار أصحاب الدكاكين والكتّاب وهم الذين يحتاجون إلى تحصيل معاشهم بالاحتراف ولكن بدون ابتدال ماء الوجه. الخامسة: أهل الحرف والصنائع والعملة والفلاحون، وهم الجمهور الأكبر.

«فعدّات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها وبين الأخيرة من مناسبة أصلاً. وعدّات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف

فيها إلا ما ندر. أمّا أهل الطبقة الثانية فإنّ بهم من وجه نُزوعاً إلى الأولى بالنظر إلى العزّ والاستبداد، ومن وجه آخر ينزعون إلى الباقي بالنظر إلى الجنسية والإلفة. والغالب على جميع هذه الطبقات حبّ الوطن والمباهاة بما عندهم من الصنائع والأحكام والإذعان للقوانين... ولما كان أصحاب الطبقة الأخيرة هم الجمهور الأكبر وهم الحرّيون بأنّ يقال فيهم بريتانيتون أو إنكليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم... أوّل خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له ونفورهم منه بل لا يعني أحد منهم بشأن جاره ولا يهتمّه أمرٌ غير أمر نفسه. فكلّ ذي حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدّة حياته ولا يتطاول إلى معرفة غيرها... ويمكن أن يقال إنّ بهذه الخصلة استتبّ عزّ دولة الإنكليز وعظمت شوكتها لأنّ الرعيّة لا تعترض ذوي الأمر والتّهي في تدبيرهم ولا تتطاول لمعرفة ما تقتضيه ساداتهم فلذلك قلّما يحدث عندهم شعّبٌ أو فتنة، بخلاف أهل فرنسا... لقائل أن يقول إنّ لعدم الفتنة سبباً آخر وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يُكسبهم القوت الضروري... وهم أطوع خلق الله لأولياء أمورهم... وكيف كان فإنّ شقاءهم موجب لسعادة الدولة واستغنائها عن كثير من العساكر... وكما أنّ عامّة الفرنسيين يحسبون كلّ غريب فيهم من إسبانيا ولا سيّما إذا كان أسمر اللون، كذلك عامّة الإنكليز يحسبون كلّ غريب فيهم فرنسائياً... فإنّهم يحدّقون في وجه الغريب ثمّ يتبعونه بفضة ولا سيّما إذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم على أنّهم هم أنفسهم لا يُحسنون النطق بها فكلامهم كلّ لحنّ وخطأ»<sup>٢٠</sup>.

يلاحظ أنّ التعميمات وفيرة في هذا النّص، فهذا هو عصر التعميم عند كتّاب الشرق والغرب على حدّ سواء حيث أضفى هؤلاء صفاتٍ تعميميّةً جوهريةً ومطلقة على غيرهم من الأمم والمجتمعات. غير أنّ ما يميّز نصّ الشدياق حول إنكلترا، بالإضافة إلى كثافة الوصف، هو التحفّظ والاعتدال في التعميم: «كثيراً ما»، «نادراً ما»، «في الغالب»، إلخ. كذلك، فهو يعدّد ما يرى أنّها عاداتٌ إنكليزيّة تستحقّ الإشادة بها كاحترام حياة الإنسان الخاصّة، ويقارن هذا الأمر بغياب هذا الاحترام في بلاده حيث يقحم التّاس أنفسهم في حياة الآخرين، كما يشيد بالتشجيع الذي يلقاه الإنسان ذو الموهبة في إنكلترا، ويشيد كذلك بأصواتهم الخافتة وباحترامهم للوقت والمواعيد وبدولتهم ثابتة الأركان وجهازهم البيروقراطي. وبما أنّه كان يعيش في إنكلترا

إبان حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦)، فهو يعبر عن دهشة بالغية لأن تلك الحرب لم تخلّف أي أثر يُذكر على الحياة اليومية<sup>١</sup> ويمضي فيقول:

«ومن صفاتهم الحميدة] عدم التعتت على النساء فيما لا يكون به مثلبة للعرض فإذا كان الرجل غائباً وجاء منزله فوجد رجلاً يحدث زوجته لا يتناولها بالهراوة أو القذع... من قبل أن يعلم سبب زيارة الرجل. فأما إذا عرف منها الخيانة فلا رحمة بعدها ولا أعدار... وكثيراً ما سمعتُ زوجة الرجل تقول للضيف بحضرة زوجها «خذ يا عزيزي» و«هات يا عزيزي».

«ومن ذلك الأمن في الخروج من دون فانوس... فإنّ الإنسان ليسافر فيها ليلاً وهو في أمن حالٍ وأصفي بال ممّا لو سافر في بلادنا نهاراً. وترى الولد يمشي في المدن الكبرى وحده ليلاً ولا يخشى شيئاً، ولا هيبة للعساكر والشرطة عند المارين بهم. وإنّ البنت التي لم تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل وتمرّ بالشرطة فكأنّها مرّت على بعض أقاربها فتسألهم ويرشدونها ويذهبون معها. وليس للشرطي أن يدخل بيت أحدٍ إلاّ بإذن الديوان [أي الوزارة] لسبب خطير... وفي البلاد الشرقية إذا كلمت المرأة بعض الشرطة ليلاً لم يلبث أن يمدّ إليها يده ويهتك حجابها وهيئات أن ينتقم منه منتقم. وعندني أنّ عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الإفرنج جميعاً الإقدام والجرأة على الأمور... وما عدا خوف الحكام والظلام ورؤساء الديانة في بعض البلاد الشرقية فإنّ الأمتها يزرعن في قلوب أطفالهنّ الخوف من العفريت والروح الشرير والخيال والظلام وغير ذلك... ومن خصائلمهم المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فإذا سلّمت لأحدهم مثلاً طرساً فإنّه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى إذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسلّمه بل لربّما أزال منه الوسخ وردّه إليك نظيفاً وقال لك معذراً: قد تجاسرتُ على أن أزلت الطبع من الطرس وأرجو أنّي لم أسئ فيما فعلت، وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه. وينضمّ إلى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح أحدهم كتاباً جاءه باسم غيره بل يبذل جهده في إيصاله إليه...»

«ومن ذلك أنّ أصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشوة من أحد... وإنّ علم أنّه ارتكب ذلك اقتصّ منه كما يقتصّ من السارق. نعم إنّ المراتب هنا إنّما تُعطى غالباً بالمحاباة لا بالاستحقاق... إلا أنّ هذا الداء عامّ في جميع الممالك. ولحق بما تقدّم أنّ النفر من العسكر لا

يمكن أن يرتقي إلى مرتبة الضباط وإن ارتقى ألف حصنٍ للعدوّ وأبدى من الشجاعة ما يقصّر عنه قائد الجيش. فهو نفرٌ من يوم اكتتابه إلى يوم خروجه من الخدمة والحياة، والأمير أميرٌ من يوم ينزل عن ظهر أبيه إلى يوم يركب ظهر النعش. فكان ترتيب أصناف الناس عندهم بمنزلة ترتيب أعضاء الجسد... فالرأس لا يزال رأساً وإن سرى فيه الخرف والقدم لا تزال قدماً وإن هي أبحته وأنجت الجسم كله.

«وهذا التخصيص من وجه آخر سديد رشيد فإنّ ناظر الأمور الخارجية عندهم مثلاً ليس له حقّ في أن يمدق على ناظر الأمور الداخلية في شيء وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بأن يحكم على أحد الباعة بشيء وقس على ذلك. فأما في بلادنا حرسها الله... فللحاكم أو للمطران أن يسقط حقّ المحقّ لحرف أسقطه في الكلام... وللشرطي أن يقبض على أيّ شخص كان... وللبرك أن يحرم أيّ شخص كان من رعيته... وإلى من المشتكى وأين التصير؟ متى نصير نحن ولد آدم بشراً كهؤلاء البشر ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا؟»<sup>٢</sup>.

فالموازنة، والمقارنات، والإشادة المشروطة والسعي لشرح سرّ «جرأة» الأوروبيين لأبناء قومه في زمن كان فيه هؤلاء قد بدأوا يمثّلون خطراً داهماً على الدولة العثمانية، وأخيراً تلك الصرخة من القلب في نهاية النصّ أعلاه، كلّها تُظهر الشدياق بمظهر «فولتيري» أي في حدّة النظر، والظرف، والوعي السياسي، واستنطاق الذات.

### طقوس الزواج والأكل وتربية الأطفال

ويجد القارئ أبحاثاً مستفيضة حول مواضيع كمثل تربية الأطفال في إنكلترا أو كمثل طقوس وعادات الزواج. وفيما يختصّ بالموضوع الأوّل فإنّ الفقرة أدناه توحى بأنّ الشدياق كان على اطلاع مباشر على ذلك الموضوع، ممّا يحمّله على توجيه النصّ لبني قومه كي يأخذوا بالاعتبار طرُقاً أخرى وأقرب إلى الصحة في تربية أولادهم:

«والظاهر أنّهم أحسن تربية للأولاد من غيرهم فإنّهم يغسلونهم بالماء البارد في كلّ يوم إذا كانوا أقوياء أو بالفاتر إذا كانوا ضعفاء. ولا يمتطونهم حتى يمتنعوا عن الحركة كما يفعل في بلادنا وإنّما يشدّونهم بحزام فقط. وبعد نصف سنة يعوّدونهم على الأكل الخفيف مع اللبن. فلا تأتي سنة على الطفل إلاّ وهو يلتقم كلّ شيء. ولا يكاد طفلٌ يُحدث في ثيابه أو يُفحم في البكاء كما يكون عندنا. غير أنّي كثيراً ما رأيت الأمتها هنا يسقين





ورد في التوراة فقد ورد فيها تحريم أمور كثيرة استحلها النصارى. فلأني سبب أضربتم عن تلك وتمسكنم بهذه فقط؟ فقال: المصلحة ألا يتوصل رجل واحد إلى إحراز جهازين من بيت واحد فقلت: ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث فقال: إن الشرع هنا ملحوظ فيه مصلحة الكبراء»<sup>١٤</sup>.

تعيدنا الجملة الأخيرة في هذا النص إلى ما ذكرناه أعلاه، أي إلى افتتان الشدياق بالعظمة والضعفاء، والأغنياء والفقراء، الامر الذي يشكّل جزءاً أساسياً من وصفه للمجتمع الإنكليزي كما يرد في الساق وفي كشف المخبأ، فالهوة بين الأرستقراطيين وعامة الشعب تبدو وكأنها غير قابلة للردم، والسبب في بعضه يعود إلى أن أحوال العامة في بلاد الإنكليز أسوأ من أحوال العامة في بلد الشدياق، وفي بعضه الآخر لأن الأرستقراطيين الإنكليز هم في رأيه من سلالات الفاتحين «النورمان» الذين حافظوا عبر القرون على امتيازاتهم وغطرستهم تجاه الشعب الذي قهره واستولوا على أراضيه<sup>١٥</sup>.

ثمّة العديد من الفقرات في الكشف نجد فيها الشدياق ينقل القارئ إلى داخل مكتب أو شركة تجارية أو منزل حيث يصف بالتفصيل ما يجده في ذلك المكان. فالمزاج والمداعبة واضحان في فقرة كالتالية، حيث يصف وليمة عشاء عند أحد الوجهاء، وهم من الطبقة الوسطى كما سنرى:

«وعادتهم في المآذب أن تجلس الضيوف على المائدة وتجلس سيّدة الدار في الصدر وتأخذ في أن تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة وتناول الصحفة للخادمة فتضعها أمام الأكل. ولو حصل لك خمس حصص من تلك الشرائح لما شبعت. والإكثار من أكل الخبز عندهم مظنة الهمجية. وقد أدبت مرّة عند أحد أعيانهم فلما جلسنا أخذت الفوطة ووضعتها على حجري وكانت كسرة الخبز مخبأة فيها فوقعت وأنا لا أدري واستحييت أن أطلب غيرها وهم ظنوا أنني «تتكلمت» في بلادهم. فلما تحرّكنا للقيام إذا بالكسرة لاصقة بنعلي فتذكرت حينئذ قصة ذاك السائل الذي طرقت باب بخيل... وإذا كان على المائدة لونان من الطعام أو ثلاثة كأن يكون مثلاً شواء من البقر ودجاج خيترتك الست أيهما تريد، فإذا تناولت من لون سقطت شفعتك من الثاني... ولا يمكن للمدعو أن يمدّ يده إلى زجاجة الخمر... بل لا بد أن ينتظر السائد أو الست أن يعرضاً عليه. ويحزني أن أقول أنني كثيراً ما رأيت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم ثم يستكثره

أطفالهنّ المزراً أو شراباً غيره لئئمنهم... ويدخلن بهم في الزحام وأماكن الخصام واللكام. ومما يُحمد من تربيتهنّ أنّهنّ يكلمنهم بالكلام المتعارف من دون لثغة ولا كسر، لا كما تفعل نساء بلادنا، بل لربما حكّين لهم حكايات وهم لا يعقلون ويخاطبّونهم بما يخاطبّون به من يفهم... تعودنهم على الفهم من صغر. والذي ظهر لي أنّ أطفال الإنكليز أذكى وأزكن من أطفالنا وبعكس ذلك المراهقون. وفي الحقيقة فإنّ الأم في بلاد الفلاحين لا تربّي إلا ولدها البكر والباقيون يرثيهم إخوتهم الأكبر فالأكبر»<sup>١٦</sup>.

لكنّ عادات الزواج وطقوسه عند الإنكليز تثير دهشته وحيرته كما في النصّ الآتي:

«ومن عادتهم في الزواج أنّ البنت لا تتزوج إلا من كان مساوياً لها في السن أو كان أكبر منها بسنتين أو ثلاث، وفي ذلك شطط إذ لا يخفى أنّ المرأة متى بلغت الأربعين سنة لم يبق فيها من القوّة والنشاط ما يبقى في الرجل ولا سيّما إذا كانت منتافاً. نعم إنّ النساء هنا لا يعجل فيهنّ الهرم فإنّ من يكون سنّها ثلاثين سنة تبدو كمن سنّها عشرون في بلادنا. غير أنّ هذه الصفة تراعى أيضاً في جهة الرجال. وفي بلادنا لا تثريب على من بلغ الخمسين أن يتزوج بنت عشرين وهذا ينذر هنا جدّاً إلا لسبب عظيم، وذلك كأن يكون الرجل أشرف من المرأة وأغنى فترغب فيه لتشاركه في شرفه وغناه إذ كانت هاتان الصفتان عند الإنكليز أفضل من جميع المناقب ولا سيّما إذا روعي في ذلك مصلحة تربية الأولاد. وفي هذه الحالة فلا مانع أيضاً من أن يكون الزوج شيخاً قحلاً لعلمها أنّ حرارتها لا تلبث أن تذهب ببرودته فتستولي على الميراث. وإذا خطب أحد امرأة ثم بدا له أن يعدل عن الزواج لغير موجب شرعيّ غرم لها مبلغاً عظيماً. وللأب أن يجبر ابنته على الزواج بمن شاء إذا لم تبلغ حدّ الرشد وهو عندهم إحدى وعشرون سنة. وبعده ليس له عليها من إمرة... وللدّكر أن يعقد الزواج عند بلوغه أربع عشرة سنة وللنبت عند اثنتي عشرة... ومتى تزوّجت المرأة انتقل جميع ملكها إلى حوز بعلاها لكنّ لها أن تستدين على اسمه ويُجبر هو على وفاء دينها. ولا يحلّ للرجل أن يتزوج أخت زوجته [أي بعد موتها] وقد كان لرجل زوجة وله منها عدّة أولاد فلما حضرها الموت أقسمت على زوجها أن يتزوج أختها بعد موتها لتربّي أولادها، فلما علم ذلك في ديوان الحكم فرّق بينهما. فسألته من أخبرني بذلك عن سبب هذا الحظر لأنّه غير مبنيّ على مصلحة وقلت: إن كان تحريمه

عليهم فيضع في صحفته ما استكثره فربما امتلأت من تلك القطع. وكنت أرى المدعويين معي يتكلمون الأكل تكلفاً ويتبلغون بما لا يكاد يكفي الصبي، فيبقى ثلاثة أرباع الطعام كما هو... وقد سألت المرأة التي كنت نازلاً عندها ذات يوم فقلت لها: نشدتك بالله، إلا ما صدقتني، هل أنا من الآكلين المفرطين؟ قالت، لا بل من المقتصدين. قلت: قد دُعيت غير مرّة ورأيت الجماعة المدعويين معي لم يأكلوا قدر ما أكلت أنا مرّتين، فقالت لي: إنّ الدعوة هنا إنّما هي صورةٌ فقط فإنّ المدعويين يأكلون في بيوتهم قبل أن يحضروا الوليمة، فأخذني العجب من ذلك وطفقت أفكر في مخالفتهم في ذلك لعاداتنا فإنّ المدعويين عندنا كلّمّا أكثروا من الأكل زاد سرور الداعي...

**الدكتور لبي تصيبه من أسهم الشدياق وانتقاداته ما ملؤه عدة صفحات لعدم معرفته بالاصطلاحات والتعابير في العربية. كذلك فهو يرفض بعناد خلال الترجمة أن يستخدم أي لفظة قد توجب أو تشي ولو من بعيد بالفاظ القرآن. وهو يصر على اشتقاق العربيّة من العبريّة.**

«هذا عند الوسط من الناس، فأما عند العظماء والزعماء فإنّ الخادم يطوف على الحاضرين بأنية الشرب... حتى إذا فرغوا من الأكل قامت النساء وانفردن في مقصورةٍ وبقيت الرجال على المائدة وحينئذٍ تُتداول كؤوس الشراب بغير محاشاة وربما قضت الرجال ساعةً أو ساعتين على الشرب وساعةً من قبلها على الطعام. وإنّما تقوم النساء خوف أن ينهك أحد الجلوس في الشرب فينطق بما لا يليق.

«ولا بدّ في الموائد الحافلة من وضع السّمك المسلوق أولاً، فأما الشورية فهي عبارةٌ عن حسا الفلفل. وقد رأيت على هذه الموائد البطاطس يأتون بها في صحافٍ مفضّضة وتحتها فوطٌ من الكتان الرفيع فلم أدر ما المراد بهذا الاحتفال والتنطس فإنّ الحسيس حسيسٌ حيثما كان، والكلب كلبٌ وإن طوّقه ذهباً... وإذا كانوا مجتمعين في مجلسٍ وأرادوا الخروج إلى محلّ المائدة أخذ الرجل بذراع زوجته غيره وأجلسها على الكرسيّ وأخذ غيره بذراع زوجته. وإذا بقيت واحدةً بغير زبونٍ كان ذلك داعياً لحجلها»<sup>٢٦</sup>.

### في الجامعات المستشرقين

ولكون الشدياق من أساطين العربيّة ونحوها ومفرداتها وأدائها، فإنّ الوصف الذي يأتي به لترجمته للكتاب المقدّس والتي صنعها بالاشتراك مع الدكتور صمويل لي في جامعة كمبريدج يُعدّ من أوائل اللقاءات المباشرة مع المستشرقين الأوروبيّين. فالشدياق يخصّص بالمدح بعض علماء العربيّة من الإنكليز كمثل جورج سايل، مترجم القرآن، وإدوارد لاين، مترجم ألف ليلة وليلة وصاحب القاموس الشهير، وثيودور برستن، مترجم بعض مقامات الحريري. أمّا فيما يختصّ بعلماء العربيّة في المجمل فالوضع في رأي الشدياق تيسر للغاية. فالدكتور لي مثلاً تُصيبه من أسهم الشدياق وانتقاداته ما ملؤه عدّة صفحات لعدم معرفته بالاصطلاحات والتعابير في العربيّة. كذلك فهو يرفض بعناد خلال الترجمة أن يستخدم أي لفظة قد توجب أو تشي ولو من بعيد بالفاظ القرآن، وهو يصرّ على اشتقاق العربيّة من العبريّة. وفي رأي الشدياق فإنّ العديد من الترجمات عن العربيّة أو الفارسيّة سيئة للغاية. وثمة أسبابٌ متعدّدة لهذا الأمر لكنّ السبب الذي يُبرزه الشدياق هو أنّ دارسي العربيّة لا يتلقونها من أفواه أهلها. ويسخر الشدياق من كتاب «نحو اللغة العربيّة» بقلم جون ريتشاردسن فيورد عدّة أمثلة منه ليبرهن على عدم فهم المؤلف حتى لأبسط قواعد النحو، كما يكتشف أنّ المستشرقين في الغالب ليس بوسعهم النطق ولو ببعض الكلمات بالعربيّة. وعلى كلّ حال فاللغتان السريانيّة والعبريّة تحظيان بمكانة أرفع بكثيرٍ ممّا تحظى به العربيّة، فأستاذ العبريّة في كمبريدج راتبه ألف باوند بالسنة فيما راتب أستاذ العربيّة سبعون باوند فقط!<sup>٢٧</sup>.

كما لا يرى الشدياق في جامعتي أكسفورد وكمبريدج أيّ سببٍ للإعجاب، فهو يصف هاتين الجامعتين بأنّهما مدرستان لإلهاء أولاد الأعيان، لا صروحاً للعلم فيقول:

«واعلم أنّ كمبريدج وأكسفورد هما مدينتان في بلاد الإنكليز كلّ منهما يحتوي نحو عشرين مدرسة (أي كليّة) وألفي طالب. ففي الأولى تعلّم الهندسة والرياضيّات والإلهيّات وفي الثانية علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة، إلا أنّ منطقتهم ليس كمنطق المتقدّمين في علّله وتعليلاته. ولا يمكن التعلّم فيهما إلا بنفقةٍ زائدة وما أحد يقصدهما إلا أولاد الكبراء والاعنياء، ولا سيّما أكسفورد، فهناك ترى طالب العلم

يحتوي كتاب كشف المخبأ وصفاً فريداً من نوعه لإنكلترا في منتصف القرن التاسع عشر وهذه المقتطفات الواردة أعلاه لا تعكس سوى القليل القليل من محتوياته باللغة الغنى وأسلوبه البديع، وملاحظاته الدقيقة والمباشرة حول المجتمع والحياة من حوله، وأسلوبه الساخر، والموازنة المعقودة بين المديح والاستهجان. فالإعجاب الذي يبديه للاختراعات كنظام البريد والتلغراف وللتشاطر التجاري هو إعجاب عميق لكنه ليس انبهاراً. أما انغماسه التام بالحياة في إنكلترا وعلى كافة مستوياتها والقصص والمخاطبات العديدة التي يوردها، واعتماده على مصادر أولية وموثوق للمعلومات كالأحصائيات وغيرها، فهذه كلها تُضفي على الكتاب أصالة لا مثيل لها في أي كتاب من كتب الرحلات إلى أوروبا عند كتاب العرب أو حتى عند كتاب الشرق حتى عصره هو، أو لربما حتى عصرنا نحن.

شامخاً بأنفه مصعراً خده كاتماً هو طالب ملك الصين والهند. وأكثرهم يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهرياً. فمتى حان يوم الامتحان عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل إذ هي محصورة معدودة فيجتهد في حفظها وترسمها. فإذا سردها عليه وأحسن سردها أجازها بصك يذكر فيه أنه نال مرتبة المعلمين... ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها ويقال لكل منهم «فلو» وربما كان أيضاً من غير القسيسين. فإن كل من نبغ في علم من العلوم أجري عليه الرزق من الوقف فمنهم من له مائتا ليرة في السنة ومنهم من له أكثر، ولكن بشرط أن لا يتزوج فمتى تزوج انقطع عنه رزقه. إلا أنهم لا يتزوجون غالباً إلا بعد أن يحصلوا على معاش من خدمة إحدى الكنائس... وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير أن كتب أكسفورد أكثر»<sup>٢٨</sup>.

#### الهوامش

- ١ انظر الاستعراض الواسع لحياة وأعمال الشدياق والذي يذكر العديد من الدراسات الحديثة عنه في المقدمة التي سطرها Rebecca C. Johnson لكتاب الساق على الساق في الترجمة التي صاغها Humphrey Davies. New York and London: New York University Press, 2013
- ٢ انظر: W. R. Polk and R. L. Chambers (eds) *The Beginnings of Modernization in the Middle East*. Chicago: University of Chicago Press, 1968
- ٣ انظر مقدمة Rebecca Johnson، في الهامش رقم ١، أعلاه. انظر أيضاً C. A. Bayly, *The Birth of the Modern World*. Oxford: Blackwell, 2004
- ٤ انظر الساق على الساق فيما هو الفاريق. Paris: Benjamin Duprat, ١٨٥٥ (أعيد طبعه في بيروت: دار مكتبة الحياة، لا. تا.) ص ٥٩٢ (يشار إليه لاحقاً بالساق)، حيث يصف المؤلف ذلك التفاوت الهائل بين الأغنياء والفقراء في إنكلترا. أما بالنسبة لمفكر النهضة الآخرين فالعقائد أو المبادئ التي تضمن الارتقاء قد تختلف، فمنها مثلاً التمسك بالعلوم الطبيعية الحديثة أو النظم البرلمانية أو الصراع ضد التقليد على أنواعه أو سيادة القانون أو غيرها من الصفات التي تضمن التطور. لكن في كل حالة من تلك الحالات فإن المبدأ المطلوب للارتقاء واضح للعيان ومستعجل وضروري للغاية. وكان الشدياق نفسه منفتحاً على بعض تلك المبادئ والأفكار، خصوصاً في الفترة التي كان يُصدر جريدة «الجوائب»
- ٥ انظر على وجه الخصوص الساق، ص ٥٠١ - ٥٠٦، ٥٢٩ - ٥٣٧، ٥٧١ - ٥٧٧، وفي أماكن عديدة أخرى
- ٦ الاستشهاد هو من مقالة تيري اغلتون في *London Review of Books*, May 19, 2011
- ٧ انظر *London Review of Books*, June 15, 2017
- ٨ الساق، ص ٤٩٨
- ٩ حول الطربوش والأبيات في ذم كمبريدج والدعوة التي تلقاها من تيري إنكليزي، انظر الساق، ص ٥٤٨؛ حول الأوباش وصراخهم انظر الساق، ص ٦٤٠
- ١٠ حول الفلاحين والعمال الحرفيين ومذمة الأغنياء، انظر الساق، ص ٥٩١ - ٥٩٣، وهذا الفصل من الكتاب هو بعنوان «في خواطر فلسفية» ولعله صدق لكتاب فولتير أي «رسائل فلسفية»، وهو كتاب يعرفه الشدياق عن كتب ويستشهد به في كشف المخبأ عن فنون أوروبا
- ١١ انظر، حول هذا الاقتباس وردة فعل المشاهدين، الساق ص ٥٤٥ - ٥٤٦
- ١٢ الساق، ص ٥٩٣ - ٥٩٤
- ١٣ الساق، ص ٥٩٤ - ٥٩٥
- ١٤ انظر، لكل هذه الاقتباسات الساق، ص ٦١٦ - ٦٢٢
- ١٥ انظر، حول العجائز وإظهار أكتافهن، الساق، ص ٥٥٠؛ حول النساء والجداد، الساق، ص ٦١٢؛ حول العاهرات في إنكلترا وفرنسا، الساق، ص ٦٣١؛
- ١٦ حول سويقت والآخرين، الساق، ص ٥٨٤. أما ابن الحجاج المتوفى عام ١٠٠١م. فقد كان شاعراً بغدادياً ماجناً موهوباً
- ١٧ حول الإرشادات والنصائح للزوجة، انظر الساق، ص ٥٨٧؛ حول طباع الإنكليز وطعامهم، انظر الساق، ص ٥٩٧؛ حول المدعوين إلى الولائم، انظر الساق، ص ٥٨٧
- ١٨ الساق، ص ٥٨٩
- ١٩ حول هذه الفقرة الطويلة من الموازنات بين المذائح والمثالب، انظر الساق، ص ٥٢٢ - ٥٢٣. حول الحكم النهائي، انظر الساق، ص ٥٩٠
- ٢٠ كشف المخبأ عن فنون أوروبا، تحقيق غادة يوسف خوري، بيروت: كتب، ٢٠٠٢، ص ٨٨ - ٨٩ (يشار إليه لاحقاً بـ كشف). تعمّدت في هذه الدراسة الاستشهاد مطوّلاً بنصوص الشدياق كي يتسنى للقراء أن يتذوقوا أسلوبه الأدبي وملاحظاته الدقيقة، كما أن ترجمة هذا العمل الفريد من نوعه إلى الإنكليزية من شأنها أن تحظى باهتمام بالغ لدى دارسي الحقبة الفيكتورية في مجال الأدب والمجتمع، خصوصاً كما تبدو من منظور كاتب من الشرق
- ٢١ كشف، ص ١٢١ - ١٢٣
- ٢٢ كشف، ص ١٤٩ - ١٥١
- ٢٣ كشف، ص ١٥٢ - ١٥٥
- ٢٤ كشف، ص ١٧٥ - ١٧٦
- ٢٥ كشف، ص ١٧٤
- ٢٦ كشف، ص ١٧٧ - ١٧٨
- ٢٧ حول تعاونه مع الدكتور صمويل لي في ترجمة الكتاب المقدس وحول ملاحظاته عن المستشرقين الإنكليز، انظر كشف، ص ١٢٨ - ١٣٢ وفي أماكن أخرى متفرقة. وتجدر الإشارة إلى أن مستشرفي فرنسا لهم مكانة علمية أرفع عند الشدياق
- ٢٨ كشف، ص ١٣٤

## بدايات في «فرنجة التسطير» كيف واكب الشدياق انتقال الكتاب من النخبة إلى العامة

### هالة البرزي

ناشرة وباحثة في تاريخ النشر. صدر لها في كتب مشتركة: «صادر، قصة دار نشر»، «العربي في أدب فؤاد حبيش»، «الكتاب الإلكتروني العربي»، «صورة الطفل في أدب الأطفال اللبناني».

«اعلم أيها الواقف على هذا المجموع، الناقد بعين منصفٍ متروٍّ غير زموم، أنا اصطلحنا لفواصل جملة على هذه العلامات، جرياً على ما يستعمله الإفرنج في كتبهم من الإشارات».

بهذه الكلمات عرّف فارس الشدياق قراء كتابه «الليف في كلّ معنى طريف» على المصطلحات التي عزم على استخدامها في منشوراته، ثم أتبع ذلك بتعريف لها. كان ذلك سنة ١٨٣٩، في مالطا حيث كان لاجئاً يعمل في مطبعة الجمعية التبشيرية الكنسية الإنكليزية.

### الفاريق

في تلك الفترة، والطباعة العربية ما تزال في أول عهدها، كانت الكتب المطبوعة تشبه إلى حدّ كبير، في إخراجها، المخطوطات العربية: كلمات متقاربة متلاصقة، جمل متواترة لا تُعين القارئ فيها فاصلةً ولا نقطةً ولا فقرات، هوامش مثقلة إلى اليمين وإلى اليسار، في الأعلى والأسفل. صفحة من الأحرف المتتالية لا يفتن لها معنى إلا من كان فقيهاً مطلعاً. فكانت الخطوة التي قام بها الشدياق عندما طبّق أساليب التسطير الإفرنجية في كتبه خطوة رائدة، وإن كانت فاشلة.

فمن هو الشدياق وما هو دوره في تحديث الطباعة العربية، وكيف تأثر عمله في هذا المجال بشخصيته وبمسار حياته؟ وما هي بدايات «فرنجة التسطير» هذه - كما سماها المؤرخ يوسف إبراهيم يزبك - عربياً، ولماذا اعتبرها المؤرخون محاولةً فاشلةً؟

ولد فارس الشدياق «سنة ١٨٠١ في حارة الحدث بالقرب من بيروت»، وكان أصل والده من حصرون في شمال البلاد. ترعرع بين الكتب، وكان أغلبها في ذلك الحين مخطوطات، حيث إنّ أباه «كان قد أحرز كتباً عديدة

في فنونٍ مختلفة»، كما يؤكّد في كتابه «الساق على الساق في ما هو الفاريق». في هذا البيت، عرف الكتابة والقراءة كأسلوب حياة وكحرفة يعتاش منها العديد، معلّمون أو رجال دين أو نساخ. ولأنّ والديه لم يكن «في طاقتهما أن يبعثاه إلى الكوفة أو البصرة لتعلّم العربية»، ذهب إلى الكتاب في قريته، فدرس في الزبور الذي لم يعرف المعلّمون المسيحيون حينها غيره كتاباً. بعد أن أمّه، أخرجته أبوه من الكتاب لـ«يشغله بنسخ الكتب في البيت... فلبث على هذه الحالة مدّة طويلة فاستفاد منها ما أمكن لمثله أن يستفيد من تجويد الحظّ وحفظ بعض الألفاظ... إلاّ أنّه لم يكن قرير العين بهذه الحرفة. إذ كان يعتقد أنّ الرزق الذي يأتي من شقّ كشقّ القلم لا يكون إلاّ ضيقاً». خلال عمله في نسخ الكتب، كان له رأي في كلّ ما يتعلّق بتقنيات الحظّ والنسخ وأدواته، وبعمليّة النسخ بحدّ ذاتها، حيث كان ينتقد الكتبة الذين يحوِّرون النصّ عن طريق «التصحيف والتحريف» خلال نقلهم له، وكان غالباً ما يحاول تقليد الخطوط الجميلة فيتمزّن بذلك على خلق نمط خاصّ به في الكتابة.

ومن ميّزات الشدياق أنّه كان جريئاً، متمرداً على مجتمعه متحرّراً من قيود لطالما هزأ منها. وكان تواقفاً إلى التغيير والتطوير والتطور، فيقول عن نفسه أنّه كان «يحاكي في الزي والأطوار والكلام من كان متميّزاً في عصره بالفضل والدراية». ويضيف أنّه بينما كان «رأسه ورجلاه في البيت كان فكره يصعد في الجبال، ويرتقي التلال، ويتسوّر الجدران...».

طبعه وحُلقه وثقافته حتّوه على التفاعل الحادّ في كثير من الأحيان مع مجريات الأحداث في محيطه المباشر. فبينما كانت الكنيسة المارونية تهدّد حياة أخيه أسعد بسبب اعتناقه البروتستانتية، إذا به يحذو حذو أخيه

ويلتحق بديانة المرسلين الأميركيين. بات من الضروريّ عندها أن يبعد عن المخاطر التي أودت لاحقاً بحياة أسعد، الذي مات في معتقله في وادي قنّوين. فركب فارس، بمعاونة القسيسين الإنجيليين، باخرةً أقلته إلى الإسكندرية حيث بقي مدّةً قبل أن ينتقل إلى مالطا.

#### عمله في مطبعة الإنكليز

خلال السنوات التالية، تنقّل الشدياق بين مصر حيث كان يقرأ وينسخ ويشدرس ويدرس، ومالطا حيث كان يعمل في المطبعة الإنكليزية، ويكتب ويترجم ويدرس. هناك، في مالطا، تعمّق في معرفة اللغة الإنكليزية وصار يعرّب منها ويأخذ عنها أنماطاً ومعايير في تحديث الشكل والمضمون وتسهيل تعميمهما للجُموع. وقد كان، في نقله للنصوص الأجنبية العصرية، ينحّث مفرداتٍ عربيّة جديدةً يعكس من خلالها حضارةً لم تكن بعد قد وصلت إلى العالم العربيّ. فشكّلت بذلك الكتب التي أصدرها بنفسه أو شارك بإصدارها نقطة مفصليّة في تطوير النشر العربيّ.

كانت سياسة الجمعية التبشيرية الكنسيّة الإنكليزيّة، حيث كان فارس الشدياق موظّفاً يعمل في الكتابة والطباعة، تعميم الرسالة الإنجيليّة بين المسيحيين العرب عن طريق نشر نصوص سهلة التداول باللغة العربيّة. لذا كانوا بأشدّ الحاجة لمرجمٍ متقنٍ للغة الإنكليزيّة، تكون العربيّة لغته الأمّ وتكون الدقّة والأمانة متأصّلتين في أسلوبه. خلال عمله مع الإنكليز، تعلّم الشدياق فنّ إنتاج الكتاب، مضموناً وأسلوباً وتحقيقاً وإخراجاً وطباعة. فأبدى في كتابات عديدة شديد إعجابه بالصناعة الإنكليزيّة وفنونها، وبالحرفيّة الأوروبيّة بصورة عامّة. كما تأثّر جداً بمدارسهم وأساليبهم التعليميّة وكتبهم المدرسيّة. يقول مثلاً، في معرض حديثه عن المعارف في إنكلترا: «إنّ المكاتب العموميّة يُصرف عليها من كيس الجمهور لتهديب الفقراء ذكوراً وإناثاً»، ثمّ يضيف: «يصعب عليّ أنّ حال الشرق بخلاف ذلك».

هذه النظرة المتطوّرة للنصّ المكتوب والمطبوع، وهذا التوجّه بالقراءة والمعرفة إلى العامّة، كانا ذوي تأثير عميق في فكر الشدياق وعمله. فهو في بداية علاقته بالكتابة، كواضع نصوص أو كمرجم، «كان مغرماً بالصياغات والاستخدامات اللغويّة القديمة وبالتعبيرات الغامضة»، فتميّز بأسلوب أدبيّ رفيع، فيه من الجودة والابتكار والتجديد ما جعل الإنكليز يتحمّسون لمشاركته الفعالة بتعريب الكتاب المقدّس.

❖

من كتاب الشدياق،

«اللفيف في كل

معنى طريف»، طبعة

١٨٣٩، ص ٤ - ٥

٤

بعض المشاهير من العرب المت  
ولما لم نجهز الوقت بما وعد، واع  
برضى فيها من الغنمة بالاياب،  
الجز الاول منه، فان سمحت فرص  
غاية المامول ه وقد سمينه «باللا  
طريف»، «فهاك منه ابا المناه  
العربية، والمشر للخوض في زوا  
رشيدا، ودليلا حبيدا، وسيرا  
اذا استفتى افتى، واذا استهدى  
المجزولم يكذب، واذا بدا لا «نست  
فيه القليل الطيب» ه  
واعلم ابا الواقف على هذا المج  
منصف مترو غير زموع، انا اص  
على هذه العلامات، جربا على  
كتبهم من الاشارات ه  
فعلامه، للجملة التي يحسن  
لفصل المعنى عما تقدم، او للفظ  
كما بين الشرط وجوابه، واسم ان  
بعيدا عنها، وهكان الاولى ان  
مخصوصه، ولكن، هذا اول الفيد  
وعلامه — تمهد للجملة الاتيا  
بيانا او نفسيرا لما قبلها ه

وعلامة: بعد قال وما اشتمق منها، او ما اشبهها،  
وربما كان ما بعدها ايضا تفسيرا هـ

وعلامة! للتعجب اذا كان غير صريح وللهتاف وبمحوه  
وعلامة؟ للاستفهام اذا كان غير صريح ايضا هـ  
وعلامة « - » للجملة التي اوردت على سبيل  
الاستعانة او الاقتباس هـ

وعلامة هـ عند اخر الفصل او المقالة او الجملة  
المستقلة استقلالا تاما هـ

وعدد ٣ او ٢ يوزن بمرجع الضمير اذا كان ملتبسا هـ  
فبذا لو صوب هذا النحو، وخذى هذا النحو، في  
غير ذلك من الكتب المستأنف تاليفها خطأ وطبعها،  
والمقصود بها الانتفاع اصلا وفرعا، اذ كان ذلك يفتى  
عن ارتكاب كثير من طرق التاويل، وبقي الهاذى في  
القراءة والعاير عثار التضييل، فعى ان يجمد ذلك  
من يمه فهم المعنى، لا مجرد القراءة وان الهار عليه  
المبنى، ولعمري لو كان هنا في اللغات الافرنجية لازما  
لكان في العربية الزم، لكثرة العطف فيها وملاحظة  
تفريع الجمل بعضها على بعض، وذلك في غيرها لا  
يلزم، فاسال الله وهو اكرم مسئول، واقرب مامول،  
ان ينفع بقليله، ويبر نعى في اجاله وتفصيله،

ويجمله على اهله هنيا مربيا، وداعية

للفوز برضاه تعالى انه

كان مرجوا هـ

قدمين والمتاخرين،  
ترضت عوارض جمة  
أقتصر على طبع  
لطبع الباقي، كان  
من كل معنى  
الى جوب طبة  
خرها الطمية، مجدا  
وصديقا حيا،  
وانا وعد  
نقلوا حجه، وحياتكم

الناقد، الناقد بعين  
طلحننا لنواصل جله  
ما يستعمله الافرنج في

الوقوف عليها، اما  
فقط مراعاة للقراءة،  
وخبرها اذا كان  
يكون للاول علامة  
هـ

بعدها، كان تكون

والتركيبات المعجمية، موبوءة بحسب موضوعها. في هذه الصفحات، لم يطبق الشدياق ما وعد به من علامات وقفٍ إفرنجية بل اكتفى بشكل الشمسة (هكذا «») المتعارف عليها في المخطوطات، بالإضافة إلى الدائرة المنقوطة في آخر الفقرة (وهي عبارة عن شكل قلبٍ تروسته إلى الأعلى تتوسطه نقطة).

ثمَّ ينتقل، عند الصفحة ١٤٩، إلى النصوص النثرية، مبتدئاً بفصل «الخرافات»، وفيه قصصٌ قصيرة لكلِّ منها عنوان. من هنا يبدأ الشدياق بتنفيذ وعده باستخدام علامات الوقف التي قدّمها لقراءته. في القصة الأولى، «النسور والأرانب»، يستخدم علامتين هما الفاصلة «للجملة التي يحسن الوقوف عليها» والنقطتان «بعد قال وما اشتقَّ منها». إلا أنه لا يُلحق النقطتين بالمزدوجتين، تبعاً لما هو معترف به في اللغات الأجنبية، مع أنه في تعريفه لكيفية استعمالهما يقول في المقدمة: «وعلامه (-) للجملة التي وردت على سبيل الاستعانة والاقْتباس». فنحن لا نراه يستخدمهما في هذا الكتاب إلا فيما ندر، كأن يحيط بهما كلمات دخيلة مثل «شولم شولم»، وهي رُقية، عند الصفحة ١٩١.

في الصفحات التالية يُدخل القوسين، ثمَّ الشرطة وعلامة الاستفهام - وهي ما تزال موضعيتها الأجنبية، أي فتحتها يساراً - إلى آخره. ثمَّ يُضيف هامشاً عند الصفحة ٢١٨ (للتعريف باسم حيوان)، فبلفت إليه بإشارة الشمسة ذاتها، ويجعل الهامش في كعب الصفحة تحت سطر كما كان معتاداً في المطبوعات الأوروبية حينها، وهو الشكل المعتمد حتى اليوم في الكتب العربية أيضاً.

كما أنه يعطي في هذا الكتاب اهتماماً كبيراً لإخراج الصفحة بشكلٍ عامٍّ، فيبدو شكلها مريحاً للنظر بفضل الهوامش العريضة والبنط الكبير نسبياً والمباعدة بين الكلمات والعودة إلى سطرٍ جديد مع كلِّ فقرة. الهدف من هذا المجهود الكبير الذي بذله في إعداد كتابه واضحٌ للعيان، وهو المقروئية القصوى وتجنّب أيِّ إمكانيةٍ للالتباس أثناء القراءة.

#### إسقاط علامات الوقف

كان ذلك التحديث، إذًا، عام ١٨٣٩. بعد سنواتٍ عملٍ في مالطا، وسفّر إلى مصر وفرنسا وإنكلترا وتونس وغيرها، استقرَّ الشدياق في أستانة حيث أنشأ مطبعته وجريدته «الجوائب». سنة ١٨٨٢ أعاد إصدار

إلا أنه استطاع أن يطوِّع قلمه كلما احتاج إلى ذلك ليصل إلى القارئ المبتدئ الجديد، بأسلوبٍ مباشرٍ بعيدٍ عن التكلف والنخبوية. نرى ذلك في كتبه التعليمية التربوية بوجهٍ خاصٍّ، حيث ساهم في ابتكار وتطوير لغةٍ سهلة مبسّطة بجملٍ قصيرة يوصل من خلالها المعنى والمعرفة للعامة.

#### بدايات علامات الوقف

خلال عمله في مطبعة مالطا، صمّم الشدياق حروفاً عربيةً جديدة، تجمع إلى جمالية الحرف العربيّ مقروئيةً تجعل النصّ المطبوع سهل التناول نسبياً لمن لا خبرة طويلة له بالقراءة. كما أنه عمل على تصميم الصفحة المطبوعة بشكلٍ عصريٍّ يضيف إلى الجمال وضوحاً كبيراً، جاعلاً فراغاً كافياً بين الكلمات ليظهر كلُّ كلمة على حدة ومضيفاً هوامش عريضة تريح عين القارئ. وكان كتابه المذكور أنفاً، «اللفيف في كلِّ معنى طريف»، هو أوّل إنتاج مطبوع عربيّ معروفٍ اليوم يدخل في صفّه عددٌ من علامات الوقف المستخدمة في المطبوعات الأوروبية منذ بداية عهد غوتنبرغ. ف«اللفيف»، وهو كما يعرفه الشدياق كتابٌ «لتعليم القراءة في المكاتب وتمارين الخواطر في المراتب»، يتضمّن مقدّمةً من خمس صفحاتٍ يوضح فيها المؤلف، بعد أن يشكر ربّه ويعرّف عن نفسه، رغبته بجعل «مجاورة [اللغة العربية] لما سواها من اللغات الإفرنجية المتداولة هنا [في مالطا]، من قبيل الأزواج لا الاتباع». أما كيف يتمّ له رفع شأن لغته بهذه الصورة، فيكون ذلك بوضع كتابٍ «يصغر قدره، ويكبر قدره، وتقلّ صحائفه وتكثر لطائفه». يعرف بعد ذلك عن علامات الوقف هذه دون ذكر أسمائها، فلا يقول «فاصلة» مثلاً، إنّما يرسم شكلها، هكذا «»، ويُلحق الرسم بشرح ماهية استعمالها.

يذكر في مقدّمة «اللفيف» إذًا سبع إشاراتٍ تغني «عن ارتكابٍ كثيرٍ من طرق التأويل» شارحاً دور كلِّ منها، وهي بالترتيب: الفاصلة والشرطة والنقطتين والتعجب والاستفهام والمزدوجتان والنقطة. ثمَّ ينتقل بعد المقدّمة مباشرةً إلى التعريف بـ«الألفاظ المختصرة التي اصطلحت عليها العلماء»، مضيفاً إليها «مختصر أسماء الشهور» العربية. يلي ذلك ما يقارب المئة وأربعين صفحة (من أصل ٣٠٠ صفحة تقريباً) فيها تعريفٌ بالأبجدية وبكلماتٍ وأفعالٍ عربيةٍ مقسّمة بحسب تفعيلاتها، وجملةً من الطرّف والأمثال القصيرة

يستقرّ على مخطّطه باستخدام علامات الوقف كما كان قد صمّم عليه، بل اختزله، وأحياناً استبدل أجزاءً منه وأتى بغيرها، وكأنّه يقوم بتجارب طباعيّة. سنة ١٨٤٠ نشر على مطبعة مالطا «كتاب المحاورّة الأنسيّة»، واستخدم فيه الفاصلة، وأحياناً القوسين، بالإضافة إليّ الشمسة في موضع النقطة. أمّا باقي علامات الوقف فأسقطت، باستثناء بعض علامات التنصيص النادرة التي تبدو وكأنّها أتت صدفةً (في الصفحة ١١ مثلاً).

وفي الطبعة الأولى من «كتاب الرحلة الموسومة بالواسطة إلى معرفة أحوال مالطة»، الصادر في تونس سنة ١٢٨٣ [١٨٦٦م]، أي بعد سنوات عديدة وخبرة اكتسبها في شتّى المجالات، خاصّةً المجالات المرتبطة بالكتابة والطباعة، إذا به يستبدل الفاصلة ويضع الشمسة مجدّداً، وفي بعض الصفحات يستبدلها عشوائياً ويأتي بالنقطة (كما نعرفها اليوم) ولكن في موضع الفاصلة، وكأنّه لم يعد يابه للفرق بينهما. ثمّ لا تلبث الشمسة - الفاصلة أن تزول في النصّ وتأخذ مكانها النقطة.

في هذا الكتاب، استغنى الشدياق أيضاً عن الفقرات والمسافات بين الكلمات والهوامش العريضة. فشكّل الصفحة عاد إلى سابق عهده قبل «الليف» الأوّل، مكتنزاً أفقيّاً وعموديّاً، وإن أتى ذلك بصورة مقبولة نسبياً تسمح بقراءة النصّ من دون عناءٍ يُذكر. أمّا في كتاب «الجاسوس على القاموس»، الذي صدر في مطبعته «الجوائب» سنة ١٢٩٩ هـ [١٨٨١م]، فهو لم يحافظ إلّا على القليل القليل ممّا كان قد أزمع عليه، كالمباعدة بين الكلمات والفصل بين الأفكار، مستخدماً لذلك شكل المعين.

وهكذا، دون شرح أو تبرير، أسقطت من أعماله اللاحقة معظم علامات الوقف التي كان الشدياق قد عمل على إعدادها في خلال إقامته في مالطا.

أسباب فشل الاستخدام الأوّل لعلامات الوقف بالعربيّة لماذا، بعدما أطلق بفخرٍ وحماسة مشروع استخدام الإشارات الحظيّة الأجنبيّة الموضحة للكلام المطبوع، والتي كان يرغب بشدّة في إدخالها إلى عالم النشر العربيّ، تراجع أحمد فارس الشدياق وكأنّه فشل؟ وهل فشل بنظر نفسه، على الرّغم من قناعته بوجوب تطوير وتحرير شكل الصفحة العربيّة لجعلها في متناول

الكتاب ذاته، «الليف في كلّ معنى طريف»، إنّما بحلّة جديدة. تظهر الاختلافات بين الطبعتين من الصفحة الأولى: الافتتاح «بسم الله الرحمن الرحيم»، بعدما كان في الطبعة الأولى «بسم الله المبدى المعيد»، ثمّ حمدٌ لله وصلاةٌ على نبيّ المسلمين. فالشدياق حينها كان قد انتقل إلى الإسلام بعدما خبر كلاً من المارونيّة والبروتستانتية والكاثوليكية. إلّا أنّ ذلك كان أقلّ التبدّل. فهو بعدما استعاد الصفحات الأولى من نصّ مقدّمة طبعة مالطا، معدّلاً فيها أشياء بسيطة لا تتعدّى التصحيحات اللازمة، توقّف عند الصفحة الرابعة ناهياً كلامه، مقتطعاً بذلك التعريف بعلامات الوقف وحتىّ ذكر موضوعها من أصله. وبدل استخدام الفاصلة والمزدوجتين وغيرها في النصّ، اكتفى بالشمسة لمعنى النقطة وبالفاصلة، وبالقوسين المزهرين في بعض الأحيان، وألغى كلّ ما عدا ذلك من نقطتين وعلامة تعجب أو استفهام أو غيره. هذا دون أن يأتي بكلمة توضح سبب تعديله الأساسي في سياسة عمل كان قد وعد بالالتزام بها قبل أكثر من أربعين سنة. وأضاف، علاوةً على ذلك، علامةً جديدةً في الفصل المسمّى «نوادير وحكايات» (وهو فصلٌ مضافٌ لم يكن موجوداً في طبعة ١٨٣٩): هي شرطة تأتي فوق كلمةٍ أو كلمتين لتدلّ على بدء جملةٍ أو فكرةٍ جديدة، وتأتي تحتها الشمسة لتأكيد المعنى المقصود. فيبدو بذلك الكتاب للقارئ أشبه بالمخطوطات العربيّة التقليديّة، خاصّةً أنّه استخدم أيضاً التعقيب، وهي لم تكن موجودة في الطبعة الأولى. لكنّه بالرغم من هذه التبديلات المهمّة، حافظ في الطبعة الثانية على الفقرات وعلى المباعدة بين الكلمات، فبقيت الصفحة مريحةً للنظر، يسهل على القارئ أن يجد فيها بداية الجملة ونهايتها.

**لماذا. بعدما أطلق بفخر وحماسة مشروعه لاستخدام الإشارات الخطيّة الأجنبيّة الموضحة للكلام المطبوع. والتي كان يرغب بشدّة في إدخالها إلى عالم النشر العربيّ. تراجع أحمد فارس الشدياق وكأنّه فشل؟**

بين كتابي «الليف» كتبٌ عديدة أشرف الشدياق على نشرها أو هي كانت من وضعه، في مالطا ولاحقاً على مطبعته «الجوائب». في هذه الكتب نلاحظ كم أنّه لم

ابراهيم المصري ويعود الى طاعة سلطات الدولة العثمانية فيفوز  
بامارة لبنان مدى الحياة ، ويبقى الحكم في بيته بحد موته ،  
بضمان حكومة لوندرة و حليفاتها  
وليس من يستطيع الحكم ، الان ، على مصير الوضع اللبناني ، وطنياً  
ودولياً ، فيما لو ان الامير اقتنع بصدق وعود ويشارد وود  
وهوذا الكتاب التاريخي ، ننشره بجرؤفه ، « على علاته » ، بعد ان  
فونحننا تسطيره ، ووضعنا بين قوسين مثلثين كل كلمة  
مبهمة صعبت علينا قراءتها فرجعنا صحتها :

« اصفي الشيم جلي المهم وفيه الجود والكرم سعادة الامير بشير الشهابي  
المحترم ادام بقاءه

غب الاستعطاف عن كريم الخاطر الشريف

قبلا عرضنا لسعادتكم عدا عن الاعراض الاول بما به الكفايه، ومن حيث برهنا  
عن كيفية الامور المختصة بذات سعادتكم المبنيه على الحب والميل الكاين لنحو  
سعادتكم من قبل سعادة اوليا ( امورنا )، وتركنا المادة حينما يحصل الاقتضي  
بوقته، ( ننتظر ) ميل سعادتكم .

فالان قد حضر الوقت . والعماره ( ١ ) العثمانيه مع العساكر قد وصلوا بالسلامه  
لقبرص مصحوبين بالسلاح والجبخاناة والاستعداداة بالقوة الحربيه برأ وجرأ وربما  
نهار غد يصلوا لنا حيث انه حضر من اصلهم مركب لنا قدام هذا. عدا عن المهمه  
الموجوده مع مراكب الانكليزيه هنا .

والامس حضر لنا من الاستانه العاليه فركاها ( ٢ ) انكليز دغري وورفتها  
حضر لسعادتكم فرمان شريف خاقاني عليد سعادة آشي ( ٣ ) دولة الانكليز  
الذي منطوقه السامي تثبت سعادتكم متولياً من قبل دولته على المقاطعة  
جميعاً الذين تحت حوزة سعادتكم الان . كما انه ممنوح به ايضاً صفو الخاطر

( ١ ) - الاسطول . ( ٢ ) - بارجة حربية . ( ٣ ) سفير .

( ٣٧ )

❖  
«فرجة التسطير» كما  
شرحها يزبك في عدد  
شباط ١٩٥٥ من  
مجلته «أوراق لبنانية»

من ابراهيم المغربي ( ومن سليم فرحات - صيدا - بالمعنى عينه ) :  
ما معنى قولكم في العدد الاول : فرنجنا تسطيره ؟

ج - كان الكتبة والنساخ في لبنان ، وفي جميع العالم العربي ، يخطون كتاباتهم حتى او اخر القرن التاسع عشر بالاسلوب القديم ، اي انهم يتبعون السطور بعضها ببعض ، لا يفصلون بين جملها ، ولا يقطعون السطر عند اكتمال الفكرة ، ولا يبدأون الموضوع الجديد في فقرة مستقلة . فكانت الرسالة او المقالة تبدأ في أول الصفحة ، وعباراتها ومواضيعها تتواصل بلا فصل ، ولا وقف ، ولا قطع ، حتى تنتهي الصفحة . ثم تبدأ صفحة جديدة وتنتهي كاختمها ، والجمل فيها متتابعة ... وهكذا دواليك !

ولم يكن عندهم للاستفهام او التعجب او التفسير اية علامة ، فكان على القارئ ان يجهد ذهنه حتى يتفهم المعاني في تتابع السطور  
ولما انتشرت المدارس الاجنبية في لبنان تعلم تلاميذها قواعد « التنقيط » واصوله المتبعة في التسطير الفرنجي وصاروا « ينقطون » ويسطرون على غرار الفرنجة .

وقولنا : اننا فرنجنا تسطير هذه الرسالة ، يعني اننا فصلنا بين جملها ، وقطعنا اسطرها عند انتهاء الفكرة . الخ ...  
ولا مشاحة في ان هذا الاسلوب يسهل القراءة

#### اولاد السيد عمر بيهم

من : م.م. النعماني ومصباح الغول : هل للسيد عمر بيهم الذي رويتم قصته في مجلة « اوراق لبنانية » اولاد ، ومن هم ؟

ج - السيد عمر المذكور والد الحاج محيي الدين والحاج حسين . فالحاج محيي الدين هو ابو عمر ومحمد علي والمرحوم عبد الرحمن ( والد عصام قنصل لبنان

(٩٠)

علامات الوقف في  
كتاب « مائة حكاية  
قصيرة للأولاد »  
المكتبة العمومية في  
بيروت، ١٩٠٣

في المخطوطات العربيّة، وتبعد عنها رويداً رويداً. إلّا أنّ علامات الوقف بقيت خجولةً نادرةً خلال القرن التاسع عشر.

ظلّ الوضع على حاله في مطلع القرن العشرين، على الرّغم من معرفة المثقّفين العرب بعلامات الوقف عبر اتّلاعهم على المطبوعات الأجنبيّة. ففي عام ١٩٠٣ على سبيل المثال، أصدرت المكتبة العموميّة في بيروت كتاب «ماية حكاية قصيرة للأولاد»، وهو من تعريب صاحب المكتبة وابن مؤسسها سليم إبراهيم صادر. في هذا الكتاب التعليمي باللغتين العربيّة والفرنسيّة الموجه للصغار، يفاجأ القارئ بأنّ المجهود الذي قام به الناشر اللبنانيّ لإدخال علامات الوقف المألوفة في الغرب إلى النصّ الفرنسيّ، من نقطة وفاصلة وشرطة وعلامة سؤال وغيرها، إنّما هو مجهودٌ موجّه للقسم الفرنسيّ فقط من الكتاب. أمّا الصفحة المقابلة للصفحة الفرنسيّة، وفيها الترجمة العربيّة، فهي خالية تماماً من كافّة علامات الوقف المدوّنة بالفرنسيّة، إلّا من المساحات البيضاء ومن العودة إلى سطرٍ جديدٍ عند اللزوم. قد يعود السبب في هذا الفرق إلى قناعة الناشر بأنّ القارئ العربيّ سيدرك المعنى دون حاجةٍ إلى معونة. وقد يعود إلى خوفه من سخريّة القراء العرب عند رؤيتهم لإشارات تبدو بديهيّةً بالنسبة إليهم، خاصّةً وأنّ على القارئ العربيّ مواجهة صعوبة أكبر عند المطالعة، وهي التحريك الغائب غياباً شبه كليّ عن مطبوعات تلك الفترة.

من جهةٍ أخرى، كانت المطبعة الكاثوليكيّة التابعة للكليّة اليسوعيّة في بيروت متأثرةً بأساليب الطباعة العربيّة، إذ كان القِيمون على أعمالها على علاقةٍ وطيدة، دينياً وثقافياً، بالحضارة الفرنسيّة وسياستها ولغتها. وكانت علامات الوقف تُستخدم أحياناً كثيرة في مطبوعاتها في بداية القرن العشرين. فنرى على سبيل المثال، في كتاب صدر سنة ١٩١٢، تحت عنوان «تفنيذ التزوير»، أنّ علامات التعجّب والقوسين والمزدوجتين كانت مستخدمة في مكانها وبمعناها، كذلك الأمر بالنسبة إلى القطع بين الفقرات، ما عدا الفاصلة والنقطة التي لم تكن حتّى تحتّم المقطع.

وفي السنة ذاتها، ١٩١٢، أصدر أحمد زكي باشا عن المطبعة الأميريّة في القاهرة رسالةً عنوانها «الترقيم وعلاماته في اللغة العربيّة»، شارحاً فيها استخدام تلك العلامات مع الأمثلة، بالإضافة إلى مقدّمة عن أصل علامات الوقف (وهي ما سمّاه «الترقيم» في رسالته) في

أكبر عدد ممكنٍ من القراء، وهو الشكل الذي بات من البديهيّات اليوم بعد مئة وثمانين سنة على استخدامه الأوّل بالعربيّة، عند الكتابة والطباعة في كافّة أنحاء العالم العربيّ، ولو بنسبٍ وأساليبٍ ونتائجٍ متفاوتة؟ أم أنّه امتنع عن الاستمرار في مشروعه بسبب رفض قرائه له؟ قد يكون الجواب على هذا التساؤل في جملةٍ وضعها الشدياق في معرض حديثه عن تقدّم الإنكليز على العرب، حيث يقول: «الحقّ أنّنا قد أهملنا العلوم في هذه الأيام إهمالاً يُحرّز له وفقدنا كثيراً الفنون، والذي بقي منها إنّما هو عند بعض أفرادٍ قليلين يحسبون انتشارها للناس لا يجديهم نفعاً». هو إذًا، وإن لم يعتبر نفسه قد فشل في جعل الكتابة العربيّة تتقبّل بسلاسةٍ وجماليّةٍ شكلاً مفيداً ولو غير مألوفٍ، إلّا أنّه في كلامه هذا عبّر عن تأسّفه للرفض الذي جوبهت به والذي جعله يتخلّى عنها. والسبب، كما يقول، أنّ النخبة المثقّفة لم تتقبّل أن تبسّط الكتابة بشكلٍ يجعلها مقروءة. بل هي على الأرجح سخرت وهزأت من كتابٍ تعليميٍّ صادرٍ، على يد نصرانيٍّ متقلّبٍ، في مطبعةٍ إفرنجيّةٍ، احتاج طبعوه أن يوضحوا إيقاعاته بإشاراتٍ لولاها لما عرفوا كيفيّة قراءته. هذا بالإضافة إلى مخاوفٍ، كان قد عاشها مثقّفو الغرب أيضاً في بدايات الطباعة، من أن يصبح الكتاب بمنالٍ العامّة فتتضاءل وتتلاشى امتيازات الخاصّة المادّيّة والمعنويّة.

وقد يكون لتحفّظ القراء العرب عند الاطّلاع على تحديّثات الشدياق سبباً مختلفاً له علاقة مباشرة بتركيبة اللغة العربيّة. فالوقف في اللغة العربيّة إنّما هو موسيقيٌّ شفويٌّ، مرتبطٌ بلحن الكلام أكثر منه بمعناه. قد نقرأ في القرآن الكريم آيةً فصل فيها الفعل عن الفاعل بإشارةٍ قد توحى للقارئ أنّ الجملة أو الفكرة قد تمّت، بينما في الواقع المعنى لم يتمّ بل تستكمّله الآية التالية، بينما أتت إشارة الوقف لتوضح للقارئ أنّ عليه، أو بإمكانه، الاستراحة خلال التلاوة. لذا بدت علامات الوقف المستحدّثة دخيلةً شكلاً ومضموناً على اللغة العربيّة. فاحتاج القراء العرب إلى منشوراتٍ عديدةٍ وسنينٍ طويلةٍ من مطالعة الكتب المطبوعة بطرقٍ عصريّةٍ لتقبّلها والاعتیاد عليها.

### الوقف ما بعد الشدياق

استمرّت مطبعة مالطا، وكذلك معظم المطابع العربيّة في الإمبراطوريّة العثمانيّة، بإنتاج الكتب العربيّة المطبوعة بأساليبٍ تختلف يوماً بعد يومٍ عن الأساليب المتداولّة

الغرب ووضعها في العالم العربي. وكان لهذه الرسالة، المدعومة من وزير المعارف في مصر أحمد حشمت باشا، الأثر الأكبر في المطابع وعند الأدباء العرب، فبات المرجع الأساسي لكل من أراد استخدام علامات الوقف في كتبه المخطوطة أو المطبوعة، واعتبرها الكثيرون بداية عهد العرب بهذه الحداثة. فباتت سنة ١٩١٢ تاريخ أول استخدام لعلامات الوقف في الطباعة العربية، وانطلمست جهود الشدياق ووقعت مبادرة هذا العلامة «اللامنتمي، أو قل متضارب الانتماءات» طي النسيان. فكتابات الشدياق «مجهلة أكثر مما هي مجهولة، وقعت ضحية التعقيم والرقابة والمنع، وحتى التحريم»، دون أن تجد معهداً إنجيلياً أو بطركيةً مارونيةً أو أزهر سنيّاً ينصفها. سنة ١٩٥٥، أي بعد أكثر من مئة عام على أول محاولة لإدخال علامات الوقف إلى النصوص العربية، كتب المؤرخ يوسف إبراهيم يزبك مقدّمةً لمقالةٍ تتضمن رسالةً موجهةً إلى الأمير بشير الثاني أراد أن ينشرها في العدد الأول من مجلته «أوراق لبنانية». قال: «وهو ذا الكتاب التاريخي، نشره بحروفه، «على علّاته»، بعد أن فرّجنا شطيرته، ووضعنا بين قوسين مثلثين كل كلمة مبهمه صعبت علينا قراءتها فرججنا صحتها».

وفي العدد الثاني كتب شارحاً مقصده من عبارة «فرنجنا التسطير»، رداً على سؤال قرائه: «كان الكتبة والنساخ في لبنان، وفي جميع العالم العربي، يخطون كتاباتهم حتى أواخر القرن التاسع عشر بالأسلوب القديم، أي إنهم يتبعون السطور بعضها ببعض، لا يفصلون بين جملها، ولا يقطعون السطر عند أكمال الفكرة، ولا يبدأون الموضوع الجديد في فقرةٍ مستقلة. فكانت الرسالة أو المقالة تبدأ في أول الصفحة، وعباراتها ومواضيعها تتواصل بلا فصل، ولا وقف، ولا قطع، حتى تنتهي الصفحة. ثم تبدأ صفحة جديدة وتنتهي كأختها، والجمل فيها متتابعة... وهكذا دواليك! ولم يكن عندهم للاستفهام أو التعجب أو التفسير أية علامة، فكان على القارئ أن يجهد ذهنه حتى يفهم المعاني في تتابع السطور. ولما انتشرت المدارس الأجنبية في لبنان، تعلم تلاميذها قواعد «التنقيط» وأصوله المتبعة في التسطير الفرنجي و صاروا «ينقطن» ويسطرون على غرار الفرنجة. وقولنا: إننا فرنجنا تسطير هذه الرسالة، يعني أننا فصلنا بين جملها، وقطعنا أسطرها عند انتهاء الفكرة، إلخ... ولا مُشاحة في أنّ هذا الأسلوب يسهل القراءة».

#### الهوامش

- ١ راجع مقالة جوفري روبر «فارس الشدياق والانتقال من ثقافة النسخ إلى ثقافة الطباعة في الشرق الأوسط» في عالم المعرفة، رقم ٢٩٧، أكتوبر ٢٠٠٣، ص ١٨٩ - ٢٠٩
- ٢ عماد الصلح، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، بيروت، دار النهار، ١٩٨٠، الصفحتان ٢٣ - ٢٤. يرجع الصلح إلى رسالتين للشدياق يحدّد من خلالهما تاريخ ميلاده مؤكداً: «لا مجال للتخريج والتعليل، فقول الشدياق نفسه وتكراراً كان فصل الخطاب»
- ٣ فارس الشدياق، كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق، باريس، ١٨٥٥، ص ٢٢
- ٤ الساق على الساق...، ص ١٤
- ٥ الساق على الساق...، ص ١٧
- ٦ روبر، المرجع السابق، ص ١٩٢
- ٧ روبر، المرجع السابق، الصفحتان ١٩١ و ١٩٢
- ٨ الساق على الساق...، ص ١٨
- ٩ الساق على الساق...، ص ٤١
- ١٠ الصلح، المرجع السابق، ص ٢٩
- ١١ نقول مثلاً رضوى عاشور في كتابها الحداثة الممكنة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١٢، ص ١٢: «تدين له اللغة العربية الحديثة بمصطلحات عديدة وضعها واستخدمها فشاغت بين الناس، منها: الاشتراكية والجامعة ومجلس الشورى والانتخاب والجريدة والباخرة والمستشفى والصيدلية والمصنع والمعمل والمتحف والمعرض والمهمل والحافلة وطابع البريد والملاكمة والممثل والسكة الحديد وغيرها». لمزيد من الشرح راجع الصلح، ص ١٥٨ - ١٦٤
- ١٢ ج. ب. باجر وفارس الشدياق، كتاب المحاوراة الأنسية في اللغتين الإنكليزية والعربية، مالطه، ١٨٤٠، ص ١٠٤
- ١٣ روبر، المرجع السابق، ص ٢٠١
- ١٤ روبر، المرجع السابق، ص ٢٠١
- ١٥ فارس الشدياق، اللفيف في كل معنى طريف، مالطه، ١٨٣٩، من صفحة العنوان
- ١٦ اللفيف، ١٨٣٩، ص ٢
- ١٧ اللفيف، ١٨٣٩، ص ٥
- ١٨ اللفيف، ١٨٣٩، ص ٦
- ١٩ اللفيف، ١٨٣٩، الصفحتان ٤ و ٥
- ٢٠ اللفيف، ١٨٣٩، ص ٥
- ٢١ إن تحليل فكر الشدياق وأعماله يتطلب الكثير من الدراسات، ويتطلب بالدرجة الأولى عملاً تحليلياً ذوياً على جريدته «الجوائب»، قبل البت بأسبابه ومعوقاته ومبرراته
- ٢٢ المحاوراة الأنسية...، ص ١٠٣
- ٢٣ مائة حكاية قصيرة للأولاد، ترجمة سليم صادر، المكتبة العمومية، بيروت، ١٩٠٣
- ٢٤ تفنيد التزوير، لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢
- ٢٥ التقييم وعلاماته في اللغة العربية، أحمد زكي باشا، القاهرة، المطبعة الأميرية بمصر، ١٩١٢
- ٢٦ أحمد فارس الشدياق، فواز طرابلسي وعزيز العظمة، بيروت، رياض الرئيس، ١٩٩٥، ص ٧
- ٢٧ أوراق لبنانية، مجلة شهرية تعنى بتاريخ لبنان، يوسف إبراهيم يزبك، الجزء الأول، كانون الثاني ١٩٥٥، ص ٣٧
- ٢٨ شاعت في لبنان تسمية «تنقيط» لعلامات الوقف، وهي ترجمة المصطلح الفرنسي ponctuation
- ٢٩ أوراق لبنانية، الجزء الثاني، شباط/فبراير ١٩٥٥، ص ٩٠





- أليس من الأسلم أن ننفعل في القاهرة؟

- وهؤلاء الجنود أليسوا بشراً مثلنا؟

- ولكنهم جنود!

- لعله يمازحنا...

وإذا به يلتفت نحونا هاتفاً:

- سنتفعلون أولاً وقبل كل شيء بالحّميات المجهولة!

وضحكنا طويلاً ضحكنا وكأنا نتسوّل تكذيب

الظنون. ضحكات هي الأصوات المسموعة للقلق

المتطاحن في أعماقنا. ولكنّه استقبل هدنة راحة في زحمة

العمل فرمقنا بنظرة جادة حقيقية لأوّل مرّة. جادة وودودة.

ثم قال بنبرة أخوية:

- أهلا بكم فرصة طيبة وسعيدة، وهنيئاً لكم زيارة بلد

شقيق نائر، ستجدون له مذاقاً خاصاً وجمالاً ذا سحرٍ

غير منكور، فاذهبوا بسلام آمنين...

شددنا على يده بامتنان وذهبنا وراء حقائبنا المحمولة

إلى السفينة. ودعانا القبطان إلى العشاء. وطيلة الوقت

ترامى إلينا غناء الجنود من سطح السفينة الأمامي، ودار

حديثٌ عن ميعاد الإبحار والجوّ، وأعلننا الرّجل الكريم

الظّريف بأننا سنكون ضيوفه طوال الرّحلة.

وفي أثناء ذلك اختفى من الصّحاف الدّجاج والشّواء

والملوخية والبطاطس والسّلطة الخضراء والمش والبطيخ.

ودعانا إلى قضاء السّهرة في جناحه المطلّ على البحر

ثمّ مضى إلى عمله. أطفأنا المصباح واهبين اللّيل أنفسنا.

أنعشنا شراب البرتقال ونسمةً معبقة بجوّ الميناء. وما

زالت أغنية تتردّد متهادية إلينا من معسكر الجنود فوق

مقدّم السفينة.

- ترى فيم يفكرون حول بنادقهم؟

- الحرب... إنّها الحرب...

- أقدم حرفة في الوجود.

- لكنّها تنشب هذه المرّة في سبيل التحرير والحريّة.

- إنّها الحرب، وهي ككل حدث خطير تدفعنا إلى مواجهة

لغز الوجود، وجهاً لوجه...

- وتذوّقنا حيناً النسمة اللطيفة. استسلمنا بكلّ قوانا

للحظة طيبة خالية من الكدر، ثم تفرّق الحديث واختلف

كأنما يدور بين أجيال. وأوشك أن يستقلّ كل اثنين بفكرة ما.

- ستكون الحرب القادمة خاتمة الحروب!

- ولكن هل تستعر الحضارة بلا حروب؟

- وربما وجد أنّ عليه أن يعتاد الحياة بلا معنى ولا آمال كبيرة!

- الحقّ أنّ العالم مقبلٌ على عضوٍ عليه أن يخلق فيه كل شيءٍ جديد.

- وربّما وجد أنّ عليه أن يعتاد الحياة بلا معنى وبلا آمال كبيرة!

- أظنّه بسكال الذي قال إنّنا مبحرون في هذا العالم، ليس

لنا خيار في أمر السّفرف فلم يبق لنا سوى اختيار السفينة.

- ولكن كيف تختار سفينةً مناسبة إذا لم يكن لدينا فكرة

عن الرّحلة؟

الأفكار مغلقة ولكنّ الأصوات راضية تندّ عنها غبطة

المستمع بعشاء لذيذ وشراب منعش. والغناء لا يتوقّف

يحمل إلينا أنغاماً وحماساً وحينئذٍ وثمة تساؤلات عمّا

ينتظرنا هناك عند المأكّل والمشرب والمنام. ومخاوف

أوشكت أن تتضخّم لولا أن ارتفع صوتٌ قائلاً:

- ما هي إلاّ أيام ثم تنقضي بسلام... دعونا نشارك الجنود

حياتهم ولو بدون قتال...

شعرت برغبة في الحركة. غادرت جناح القبطان إلى

السطح ماضياً حتّى الشّرفة المطلة على مقدّم السفينة.

رأيت الجنود على ضوء الكلويات ما بين مستقلقين وواقفين

وجالسين. جال بصري بينهم في جدّ وانفعال. اجتاحني

طوفانٌ من الذّكريات الوطنية حماسيّة وأليمة على

السّواء، لكنّه طوفانٌ حمل في التّهاية هذه السفينة، التي

تحمل بدورها هؤلاء الجنود، ثملة بنشوة التّصر والأمل،

ملوّحة براية الأخوة والكرامة، فأيقنت أنّ تاريخنا الطّويل

المثقل بأحلك الذّكريات يتكشّف عن صفحة جديدة

بيضاء. وحُيّل إليّ أنّ اسمي يتردّد في نداءٍ صاعد من بين

أمواج الغناء. حقّاً! أجل إنّ صوتاً يناديني. تحرّك رأسي هنا

وهناك حتّى رأيت جندياً يشقّ طريقه نحو أسفل الشّرفة

ملوّحاً بيده. أمعنّت النّظر فيه بدهشة. تذكّرت. انحنيتُ

من فوق السّور في غايّة من الابتهاج. لوح لي بيده تحيّة

فلوحت له بيدي.

### الجندي

دعثنى للجلوس فجلست. توقّفت عن الكتابة على الآلة

الكتابة وقالت لي مجاملةً:

- شكلك طريفٌ في البذلة العسكرية. نفخني السّرور،

رحّب بي الرّملاء القداماء في الإدارة. على مكثبي الجديد

- الحقّ أنّ العالم مقبلٌ على عضوٍ عليه أن يخلق فيه كل

شيء من جديد.

رئيس القلم يمزق أيّ خطابٍ لأقلّ هفوة! ما أحلى ارتباكها  
إذا ارتبكت. ما أجمل نظرتها وهي تنو إلى مدرّبها. وهي  
تستهديه المعونة والثقة فيهدي إليها قلبه ومستقبله.  
وقال زميلي:

- القطار يهدئ من سرعته. ستعرف كلّ شيء.  
وقف القطار. أكثر من صوتٍ ردّد اسم الأديبة أجل...  
أجل. غادرنا القطار. انتظمتنا الصّف. سرنا إلى الميناء.  
جرى تطعيمنا ضدّ الكوليرا والجدرى والتيفود. وكلّ  
حمل لوازمه ومضى نحو سفينةٍ راسيةٍ بالميناء. تناولنا  
العشاء. أناسٌ استغرقهم التّوم وآخرون راحوا يغنّون.  
الحقّ أنّي لم أركب سفينةً من قبل. لا في البحر ولا في  
التّيل. بل إنّني لم أر البحر قطّ. ولم أستطع أن أرى منه  
شيئاً في الظلام.  
- أين الأمواج التي يقال إنّها كالجبال؟  
- نحن في الميناء يا رجل يا طيّب...  
لفخني هواءٌ لطيف فملاًتُ صدري ثمّ سألته:  
وماذا تعرف عن دوار البحر؟

فسألني بدوره:  
- لماذا لا نغني مع من يغنّون؟  
تمشيتُ مستطعلاً. لاحت متي نظرةٌ إلى أعلى. رأيتُ  
على ضوء كلوب وجهاً ينظر إليّ أو بدا كذلك. من؟  
أستاذي القديم. أستاذي بمدرسة مكارم الأخلاق الإعداديّة  
بشبرا. هو دون غيره. ترى ماذا جاء به إلى سفينتنا...  
وجعلتُ أنادي وألوح بيدي وأنا أشقّ طريقي بين البنادق  
والتيام. وأخيراً عرفني فلوح لي بيده. التقينا عند منتصف  
السّلم تماماً فتصافحنا بحرارة.  
- أنت جنديّ؟!... ما تصوّرتُ ذلك.  
- جنديّ منذ عام فتركّك وظيفتي إلى حين.  
- متزوّج؟  
- كلا ولكّني خاطب.  
- مبارك (ثمّ وهو يتفحص ملابسني) لا أعرف لغة ملابسكم.  
- من قوّة المظلات يا فندم.  
- فرصة طيّبة، أتمنّى لك حظاً سعيداً.  
- وماذا جاء بك يا أستاذي؟  
- رحلة... زيارة... في ضيافة الجيش.  
- أهلاً أهلاً... إنّني أقرأ مقالاتك... هل تركتُ التّعليم؟  
- نعم  
وتصافحنا مرّةً أخرى وهو يقول:  
- أرجو أن أراك كثيراً.  
انفصلنا. عدتُ إلى مقدّم السفينة وصعد إلى السّطح.

المجاور لمكتب خطيبتي جلس شابٌ جديدٌ هو الذي حلّ  
محلّي بعد تجنيدي، سألتني:  
- هل اعتدت الآن الهبوط بالبارشوت؟  
همستُ في أذنها:

- عندما أقذف بنفسي أبسمل وأتذكّر وجهك فيتّم الهبوط  
على أحسن حال. س  
وناقشنا بعض المشاكل التي تلابس زواجنا كالأثاث  
والمسكن فاتفقنا على الإقامة مدّةً في بيت والديها وبذلك  
نؤجل مشكلة السّكن ونكتفي بتأثيث حجرة واحدة. وتركتها  
واعداً بزيارتها في القريب في بيتها. مضيتُ من فوري إلى  
التّكنة بالمنشيّة الكبرى. ولم أكد أمكث ساعةً هناك حتّى  
صدرت أوامر بتجهيز سفريّات الميدان. تجمّعنا في الحال.  
سألّت جاري عمّا هناك فقال لي علمي علمك. أصطقتُ  
سريّتنا الثالثة. وُرّعت علينا البنادق. انتقلنا إلى السيّارات  
فانطلقنا بنا إلى هايكستب. كان ثمة قطارٌ في انتظارنا، وثمة  
حركة نشيطة لنقل الذّخيرة. همستُ في أذن صاحبي:  
اليمن!

هرّ رأسه فخيّل إليّ أنه يوافقني على رأيي. تحرك  
القطار. اجتاحني شعورٌ بالغرابة والحيرة. لم أودّع خطيبتي  
ولم أودّع أمي. منذ عام كنتُ موظّفاً، مجرد موظّفٍ على  
مكتب. وبفضل شبابي وصحّتي أحببت وخطبت ثم  
جُدت. ها هو القطار يحملنا إلى الميدان. سنهبط من  
الطّيّارات إلى ميدان حربٍ حقيقية... لا تمرين ولا مناورة.  
يوم دُعيت إلى التّجنيد قال لي رئيس السّكرتارية «ها  
أنت ذاهب... وها هو تدريبنا لك يضيع في الهواء... ساء  
حظّ الرئيس الذي يوظّف شاباً قبل تجنيده بعد اليوم». كنتُ  
موضع تجنيده وكنت بذلك فخوراً. أنا طول عمري  
من المتوكّلين على الله المعتمدين على دعاء الوالدين.  
والحبّ عجيّب كالقدّر نفسه فذات يوم عُهد إليّ بتدريب  
موظّفةٍ جديدة. لم تكن أوّل فتاةٍ أدربها في السّكرتارية  
ولكّتها كانت الأولى في حياتي.  
سألتُ زميلي مرّةً أخرى:

- اليمن... أليس كذلك؟  
- أظنّ ذلك.  
- متى نعرف؟  
- كلّ آتٍ قريب.

إذن هي الحرب. كما نراها أحياناً على شاشة السّينما.  
وحثّي في السّينما لم أشاهد معركة بارشوت إذ إنّني  
أفضّل عادةً أفلامنا الغنائيّة. كانت الأولى في حياتي فلم  
أعرفها الحبّ بصفةٍ جدّيّة وقلّت لها عليك بالانتباه فإنّ





❖  
ميليشيات ملكية  
تستولي على  
سيارة مدرعة تابعة  
للجيش المصري  
قرب الحرض

لتلقيت من دعواتها ما ينفعني. ونودي علينا فهرعنا إلى الصّف. ثمّ أجهنا إلى سيارتٍ معدّة لتوصيلنا إلى صنعاء. وخرجت السيارات من حاراتٍ متربة حتّى اجتزنا بؤابةً كبيرة. وإذا بنا ندخل في طريقٍ ممهّدة، تأخذ في الارتفاع كلّما تقدّمنا. وسألْتُ زميلي:

- أين مملكة سبأ؟

فسألني بدوره دون اهتمام بسؤالِي:

- أنحن ذاهبون إلى الميدان؟

وجذبت الجبال المشابكة عينيّ، ألقيت بنظرةٍ إلى أسفل فأدركت مدى الارتفاع الذي نصعد إليه بلا توقّف. ومضت الحرارة تخفّ والجوّ يلفّ والدنيا تتغيّر. وتساءلنا حتّى متى نواصل الصّعود فأجاب دليلاً اليمينيّ:

- سنصعد فوق الجبل.

لا فرق بين السيّارة والطّيّارة في هذا البلد. ودار بنا طريقٌ دائريّ فتطالعنا الشّمس المائلة حيناً وتغيّب عتاً حيناً آخر. وبهرنا السّحاب وهو يزحف نحونا حتى روعنا. ودخلنا فيه فغاب الوجود وبتنا من أهل السماء. حتّى أنفُسنا غابت عتاً. وارتفعت الأصوات وتبادلنا الألقاب الضّاحكة. ولما خرجنا من السّحاب استوى الجبل إلى يسارنا على شكل مدرّجاتٍ تكسوها الخضرة المتألّقة فهتفنا في دهشة. لم أكن رأيت من الجبال إلّا المقطم فيما وراء مسجد الحسين رضي الله عنه فتلوت فاتحة الكتاب. أمّا إلى اليمين فينحدر الجبل صانعاً مدرّجاتٍ واسعةً من السّهول تنبت في جنباتها القرى، وتتناثر الأكواخ، وتهيم القطعان والأطفال، من تحتها خضرة ومن فوقها قطع من السحب متفاوتة الشفافية تتلاقى في احتدام وتنتشر كقبة هائلة ثمّ تلاطم سفح الجبل تحتنا فتفور كالأبخرة، وها نحن ننطلق فوق السّحاب كأنّما تقلّنا إليوشن المظلات. قال الزميل:

- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

فقلْتُ بوجد:

- صدق الله العظيم.

قبيل الغروب اجتزنا بؤابة صنعاء. وعلمنا أنّنا ذاهبون إلى كليّة الطيران للمبيت فاستبشرنا خيراً وميّنا أنفسنا بليلة نوم ناعمة. غادرنا السيّارات ومضينا نحو الكليّة دون أن نبتين المبنى من الخارج لغلبة الظلام على الدنيا. ولكّتنا وجدنا أنفسنا في مكانٍ هو أشبه ما يكون بالإصطبل. لا مقعد ولا فراش ولا حتى حصيرة. وقفنا ذاهلين نتبادل التّظّرات. وأمّرنا أن ننام كيفما كان الحال حتّى الصباح. نمنا ليلتنا على الأرض بكامل ملاسنا. وفي الصباح صدرت

ولدى سماع هذه العبارة الأخيرة ساورنا القلق، وسأله سائل:

- وما الداعي لمرافقة القوّة المسلّحة لنا؟

فأجاب موارياً ابتساماً:

- تعرّضت الطّريق لهجمةٍ عدوانيّةٍ فاشلة منذ أسابيع!

وأكثر من صوتٍ قال في نفس واحد:

- حدّثنا يا قائد عن وسيلة مواصلاتٍ أخرى.

فضحك ضحكةً عظيمةً وقال:

- ستأخذون الطّيّارة وستصل بكم في ساعةٍ أو أقلّ.

عدنا إلى الباخرة. سهرنا في جناح القبطان في جوّ حارّ رطب خرق المألوف لنا. ولما أويّت آخر الليلة إلى القمره قلْتُ لزميلي فيها:

- أشعر من الحرّ والرّطوبة بأنّني سأموت عمّا قليل.

فأجابني بصوتٍ ملؤه التّعاس:

- لكلّ أجلٍ كتاب!

### الجندي

السّفينية تقترب من الشّاطي، جمهورٌ ضخمٌ ينتظرنا. ولكن أيّ جمهور؟! نساء! أجل نساء لا حصر لهنّ في أزياء مزخرفة بالحمرة والرّزقة.

**ولما خرجنا من السحاب استوى الجبل إلى يسارنا على شكل مدرجات تكسوها الخضرة المتألّقة فهتفنا في دهشة. لم أكن رأيت من الجبال إلّا المقطم فيما وراء مسجد الحسين رضي الله عنه فتلوت فاتحة الكتاب.**

ما الذي أخرجهم من البيوت؟ وفي لهفةٍ حزم كلّ جنديّ متاعه وعدّته وحمل بندقيّته. ورأينا ضيوفنا من الأدباء وهم يهبّون وراء حقائبهم. وبحثّ عيناوي عن أستاذي السّابق حتى رأيت. وددّت أن أوّدعه لكنّ الرّحام والنّظام حالاً دون ذلك. وصدرت لنا الأوامر بالتّزول فسرنا نحو السّلم في ترتيبٍ عسكريّ. ها أنا أستقبل بلداً غريباً بعد أن ركبت السّفينة لأوّل مرّة. وفوق الأرض تكشّفت لي حقيقة المتجمهرين. إنهم رجال لا نساء كما توهمت من بعيد. يرتدون لباساً كالجونلة ويطلقون اللّحي. تنعّص حماسي وفتّر فرحتُ أمشّي فوق رصيف الميناء. وتذكّرتُ أمّي التي لم أوّدعها. وتذكّرتُ خطيبيتي التي زرّتها ولم أوّدعها أيضاً. وقلْتُ لو أنّني ودّعْتُ أمّي

أوامر أن ننشئ معسكراً حول مطار صنعاء فانهمكنا في العمل. ولم يكن بين أيدينا من الطعام إلا القليل ومن الماء إلا النادر. وندرة الماء أزعجتنا بصفة خاصة. ونمنا ليلتنا في المعسكر. وفي الصباح صدرت الأوامر بالتوجه إلى مدينة عمران. خرجنا من بوابة صنعاء الخلفية. وترامى أمامنا طريق صخري يتنقل بين جبال عاتية. إنني أغوص في المجهل. أصبح الماضي بعيداً جداً. ترى هل علمت أمي بأمرى وهل علمت به خطيبتى؟ إنهما أعز ما يشدني إلى عالمي القديم. أما العالم الصخري المكفهر المترامي أمامي فلا أدري شيئاً عما يخبئ لي من أقدار الغيب. ورأيت عن بُعد سيارة مدرّعة تقود قافلتنا فتطلعت نحوها بثقة ولكنني قلت لنفسي إن الله وحده يحفظنا ويرعانا.

- كل شيء غريب هنا.

- وقافلتنا العسكرية تسير كما كنا نشاهد في السينما.

- ولكن الفرجة شيء وخوض المعارك شيء آخر.

- لا يوجد إنسي.

- ولا جان!

وأخيراً تراءت لنا عن بعد بوابة حجرية تقوم على مبعده منها إلى اليسار قلعة ذات أسوار وأبراج للمراقبة. تبودلت كلمات لم نسمعها بين السيارة المدرّعة ورجال الأبراج فتح على أثرها باب البوابة فتهدأت منه قافلتنا.

- مدينة عمران؟

- أجل... لعلنا نجد مقهى أو ملهى.

وجدنا قرية كقرانا في الرّيف. تقع وسط سهل ومراع تطوّقها سلسلة من الجبال الصخرية من ثلاث جهات.

- مدينة عمران.

- مدينة عمران!

غادرنا السيارات. تناولنا الطعام من العلب وشربنا بحيطه وحذر. أحاط بنا الغلمان والأطفال شبه عرايا. حملقوا في وجوهنا بأعين داهشة ثم تبادلنا الابتسام. ومرح الأطفال حول السيارات وتحتها. رغم البؤس أطل علينا من الأعين البريئة جمال فطري ونظرات ذكّية. ترى من هؤلاء تربطني به صلة قربي ترجع في تاريخها إلى ألف عام؟

ولم نمكث في عمران إلا ساعات ثم صدرت الأوامر بالذهاب إلى حجة. تحركت القافلة دون أن تترك وراءها ذكريات. دخلنا في السحاب مرة أخرى حتى غاب عنا كل شيء. وندت أصوات متفرقة في المسيرة الطويلة.

- أهي أرض عدوة أم صديقة؟

- ربّما انهال علينا المطر أو الرصاص.

- قريباً من هنا هبط سيدنا آدم إلى الأرض. تلوت الفاتحة والصّمدية. ولما انجاب السحاب عنا ترامى أمامنا الطريق الصخري مرة أخرى. ثم انفسح فيما يشبه الدلتا عن أرض رملية تغطي الحشائش بعض رقعات منها متباعدة. وتوقفت القافلة فجأة فاشرأبت القلوب. دارت السيارة المدرّعة في حركة مناورة. وجرى التهامس من سيارة إلى أخرى كمين... كمين. تناولنا البنادق في حركة استعداد. برز علم أبيض من وراء أكياس الرمل المطوّقة للكمين. خرج جندي يمني ملوحاً ومرحّباً. نزل إليه من السيارة المدرّعة ضابط فتصافحا. زار الكمين ثم عاد إلى السيارة. دخلنا حجة، القرية الجديدة، يا للقرى! إن قلبي يحلم بشيء لا يتحقّق. التقينا بجنود مصريين من المشاة. تفرقتنا في الحلاء والشمس على وشك المغيب. الجوّ مائل للبرودة كأيام الخريف يا مصر.

- جنود مظلات؟

- نعم

- صرواح!

- صرواح؟

- هبط الجنود في وادي ضيق تكتنفه الجبال.

- في صرواح؟

- نعم... ثم انهال عليهم الرصاص من الجبال!

- في أي وقت؟

- الفجر.

- وقت يسهل فيه الاختفاء، هل وقع ضحايا كثيرون؟

- غير قليلين لكنهم طهروا المنطقة.

- ليرحم الله الشهداء.

بلد كأنه شبكة من الجبال المتقاطعة. من كان يتصوّر ذلك؟! كحارات خان الخليلي، كحجرة حجا كالتعليمات المالية والإدارية. السحاب يركض وعمّا قليل تختفي السماء. وقيل إن المطر سينهمر. وارتفع النداء داعياً إلى إقامة المعسكر.

٣

الأديب

استيقظت بعد نوم ساعتين. غادرنا السفينة إلى مطار الحديدة. اتخذنا مجالسنا في طائرة إليوشن ناقلة للجنود. نسري اليمن من فوق. صحراء وجبال ومراع. أما المنظر

الجديد حقاً فهو منظر الوديان الخضراء في سفح الجبل.  
وقال أحدهم للمرافق لنا:  
- الجبال عالية جداً.  
- وتنطلق الطيارة بحذاء بعض القمم أحياناً.  
- لو أنّ عدوّاً ربض فوق جبل فلن يتعدّر عليه إصابة  
الطيارة بالبنديقيّة العادية؟  
فضحك قائلاً:  
- ولا يخلو بعض طياراتنا من آثارٍ عديدةٍ للرصاص.  
ولما رأى وجومنا استطرد:  
- لا تزيد نسبة الإصابة القاتلة عن واحد في الألف.

- اثنا عشر عاماً.  
- إذا غالطناك في الحساب؟  
- إني أغالط الجن.  
- عفارم عليك، وما رأيك في الثورة؟  
- كلنا متجمهرون وثوار واللّعة على الأعداء.  
ودخل رجلٌ غامق السّمة مترنح المشية، يرتدي بدلةً  
ويطالعنا بنظرة مسطولة من عينين جاحظتين. قدّمه الغلام  
باعتباره عمّه ثم ذهب تأدّباً. وقال الرّجل إنّه من عدن لكنّه  
في الأصل يمنيّ، وإنّه شريك في ملكيّة الفندق. وجلس  
على الكرسيّ الذي أخلاه الغلام.  
- حضرتك مقيت [مخزّن نبتة القات]؟  
- كلا

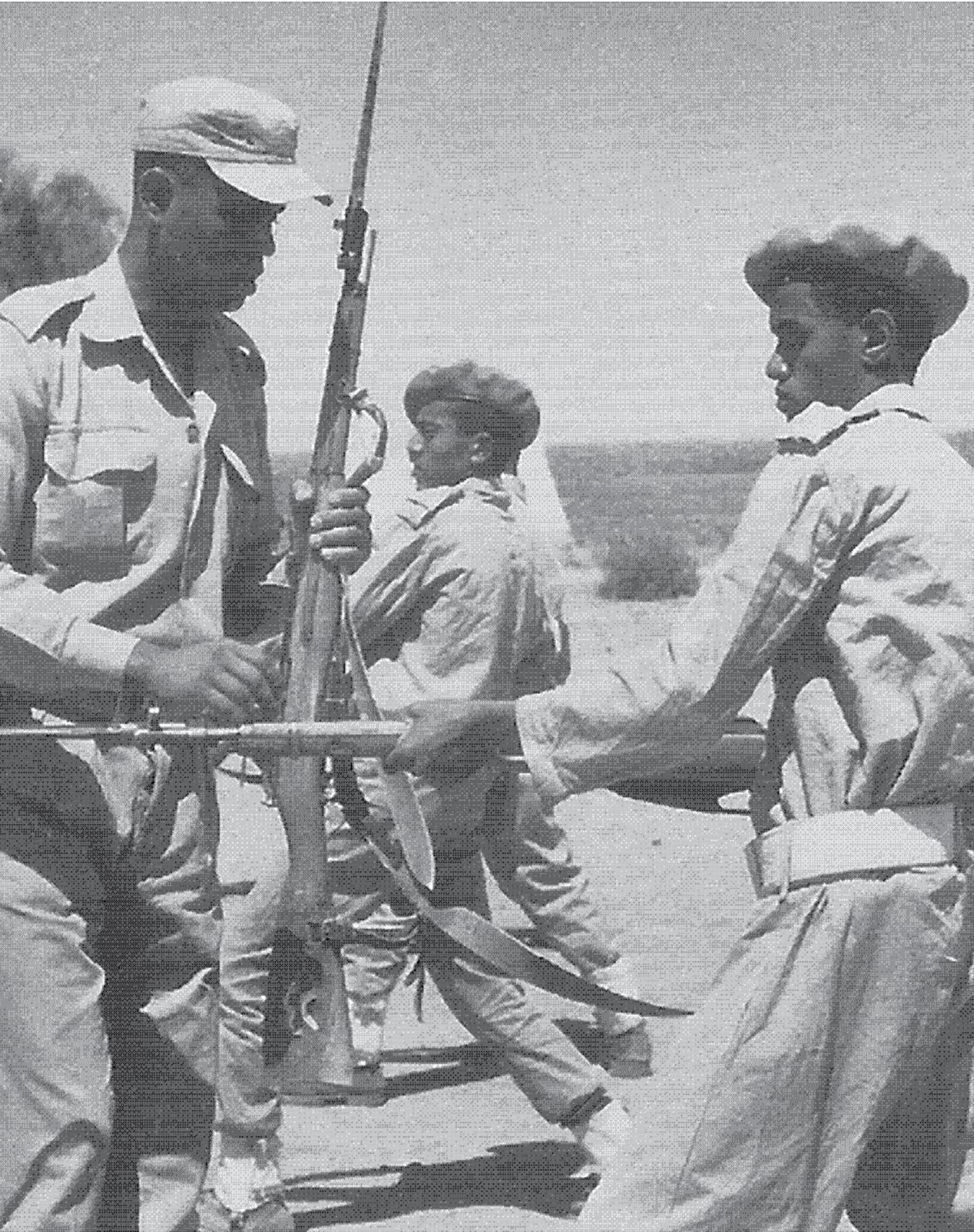
**لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلم يختف  
منها الشعر ولكن المشكلة الحقيقية هي متى يغزوها العلم!؟**

- مسطول؟  
فضحك وأجاب بالنفي. سرعان ما أغرانا مظهره  
بممازحته فأثبت أنه أوسع صدرًا ممّا تصوّرنا.  
- إن كنت حقاً من عدن فهل تعرف لغةً أجنبيّة؟  
- عشت في عدن ومصر وسوريا وإنجلترا وفرنسا.  
- هل تستعمل القات؟  
- كلا فإنّه يضعف القوّة الجنسيّة.  
- إذن فأنت حريصٌ على قوّتك الجنسيّة؟  
- إن قرّة عيني في التّجارة والفسق!  
ضحكنا طويلاً، وانطلق يتكلّم عن الفسق في شتّى  
أشكاله وألوانه ومتناقضاته، وعقد مقارناتٍ عنه في  
البلاد التي عاش بها، ولكي يقيم الدليل لنا على صحّة  
مراجعته حدّثنا عن مصر حديثاً العارف الدائر، حتى قال  
له شيخنا:

أسلمتُ ناظرِيّ إلى الجبال تحتنا. القرى الخضراء  
والفجاج الملتوية. حتى لاحث صنعاء. من الجوبدت مدينة  
عمران ومجمع أحياء ومقرّ قباب ومآذن. وعندما حملتُنا  
السيارة من المطار إلى الفندق خاضت بنا زمناً موعلاً في  
القدّم. وتراصت على جوانب الطّرق المتربة بيوتٌ غريبة  
مزركشة. زرکشها أيدي أطفال فنسجتها من خيوط  
الأحلام وألقّت بها في قلب مدينةٍ سحريةٍ. انشقّ سطح  
الأرض عن دنيا عامرةٍ تطوف بها الفلانس والوزرات  
والخناجر والبنادق واللّحي. لفحتنا غربة، لاطفتنا نسمة،  
تجادبتنا عواطف مبهمه، ثمّ لذنا أخيراً بأطيب المشاعر  
البشريّة التي جئنا بها. وفي الفندق ارتدنا إلى ذكريات  
الطفولة، درجات السّلم العالية، رائحة الكلس العطنة،  
الأسقف العالية. فندق قديم كقلعة بالية يديره غلام ذكيّ.  
جلسنا على الأسرة في عنبرٍ جمعنا. وتبادلنا أحاديث  
لا نهاية لها. وإذا بالغلام يجلس على كرسيّ على باب  
العنبر بلا استئذان. جعل يقلّب عينيه اللّمّاحتين فينا  
بهدهوءٍ عجيب. ولما تركّزت الأبصار عليه قال:

- إنك معجم فسق البلدان!  
غادرتنا الفندق لزيارة القائد العامّ ورئيس الجمهوريّة.  
طفنا بمخازن الإمام وبيت الرّهائن ثمّ شهدنا في المساء  
ندوةً أدبيّة بالقصر الجمهوري. وقابلنا بعض الموظّفين  
المصريّين المنتدبين لعمل أوّل ميزانيّة للجمهوريّة اليمنيّة  
 وإقامة نظام ماليّ كأساس لحياتها الاقتصاديّة. وقد  
دعوني لزيارة جناحهم في القصر فذهبت معهم وأنا  
أداعبهم قائلاً:  
- إذن فأنتم أوّل من بشرّ بالروتين في أرض اليمن.  
وجلسنا نتحدّث وأصوات الشّعراء في الندوة تترامى  
إلينا. وقال أحدهم:  
- لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلم  
يختف منها الشعر ولكن المشكلة الحقيقية هي متى  
يغزوها العلم!؟

- أنتم مصريّون؟  
- نعم يا أبا اليمن.  
- أتريدون فطوراً؟ عندي بيضٌ من اليمن وفولٌ من مصر  
ومُرّيّة من أوروبا.  
- أنت صاحب الفندق؟  
- ابن صاحبه ولكنيّ مديره.  
- كم عمرك؟



## ١٣٠ عاماً على ولادة «ناسك الشخروب» ما خفي من رحلة ميخائيل نعيمة السوفياتية

عماد الدين رائف

صحافي وكاتب، لبنان.

تحتفل الأوساط الأدبية في العام الحالي بالذكرى الثلاثين بعد المئة لولادة الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨)، الذي تعتبره المؤسسات التعليمية العالية في أوكرانيا وروسيا ودول الاتحاد السوفياتي السابق الخريج اللبناني الأول والأبرز من معاهد روسيا القيصرية. وكان نعيمة قد أوفد من دار المعلمين في الناصرة لمتابعة تعليمه في سمينار بولتافا الروحي التابع للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في العام ١٩٠٦، حيث أمضى خمس سنوات، عاد إثرها إلى لبنان في العام ١٩١١، قبل أن يبدأ رحلته الأميركية التي دامت عقدين من الزمن.

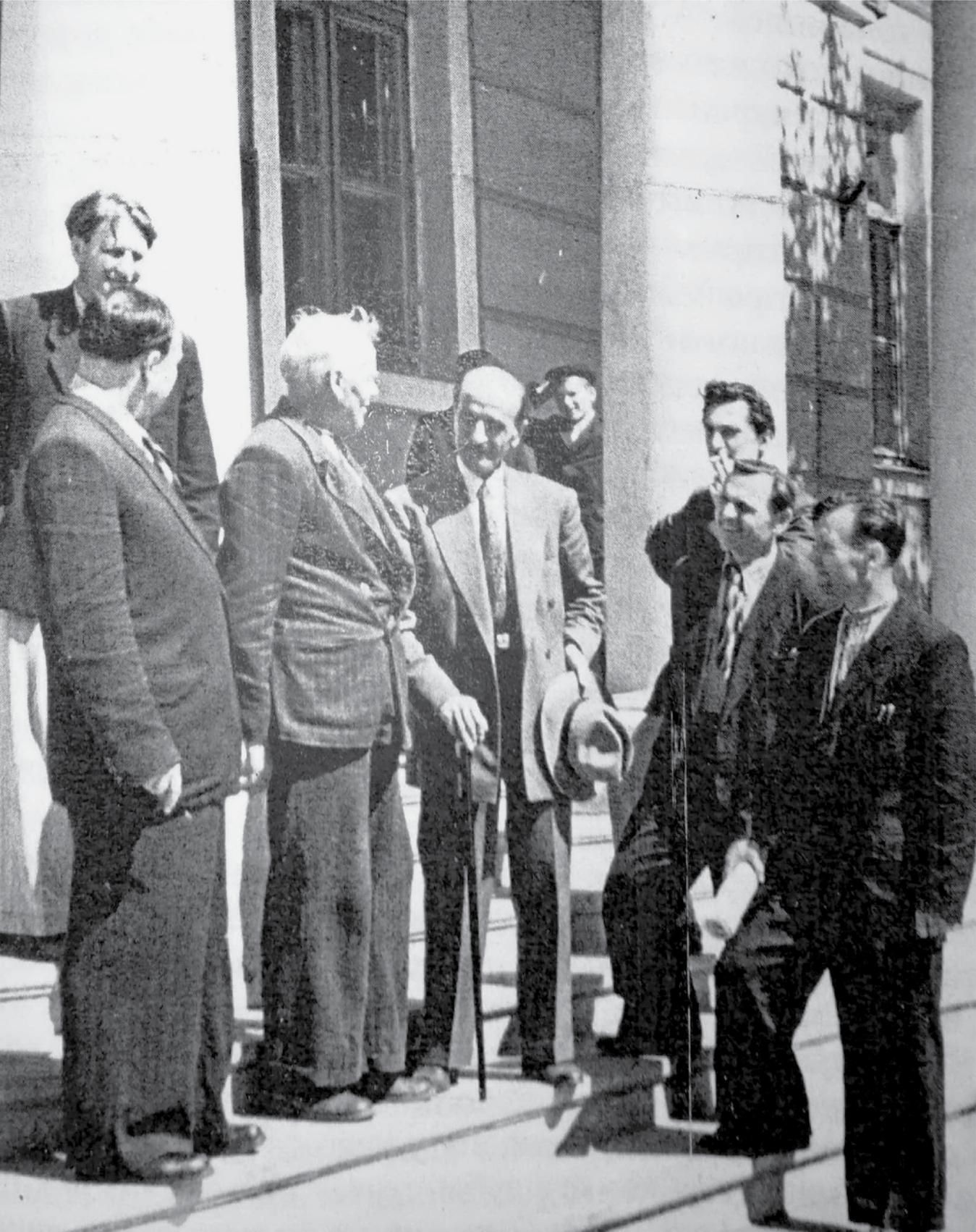
لعبت أوكرانيا دوراً مميزاً في حياة الكاتب ونقده الأدبي. في بولتافا الأوكرانية، وعبر بوابة الأدب الروسي فتحت الأفاق أمام ميخائيل نعيمة الأديب، أو كما عبّر عن ذلك في رسالة له إلى العلامة إغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ - ١٩٥١) أنه «إنسان تربى على أدب بوشكين وليرمنتوف وتورغينيف الرفيع، وضحك غوغول عبر دموعه، وواقعية تولستوي الرائعة...». وكان نعيمة في الوقت عينه مطلعاً عن كُتب على الأدب الأوكراني، وقد ثمن نقاد الأدب عالياً ترجمة نعيمة لقصائد الشاعر الأوكراني الأكبر تاراس شيفتشينكو، ومن بينها قصيدة «زابوفيت» (الميثاق)، وذلك لمناسبة الذكرى الـ ١٥٠ على ولادة الشاعر (الغريبال الجديد). ويكشف اختيار نعيمة هذه القصائد مدى تضامنه مع سعي الشعب الأوكراني إلى الحرية. يقول في ترجمة «زابوفيت»:

عندما يدركني الموت  
ألحدوني وسط سهبٍ فسيح  
من سهوب أوكرانيا الحبيبة.

وليكن لحدي على هضبة  
تطلّ على هضابٍ كثيرة  
وعلى الحقول المترامية  
وعلى نهر الـ«دنيبر»  
وأسمع منها  
هدير ذلك الهذار الجبار  
وأبصر كيف يحمل إلى البحر  
دماء أعداء أوكرانيا.  
عندئذٍ أنهض من لحدي  
وأهجر الحقول والهضاب  
وبوثبة واحدة أدرك عرش الله  
لأرفع إليه صلاتي  
أما قبل ذلك  
فأنا لم أكن أعرف الله.  
ألحدوني ثم هبوا  
وحظّموا الأصفاد  
وبدماء الأعداء البغيضة  
أزواوا الحرية. ثم لا تنسوا أن تذكروني  
بكلمة طيبة  
في أسرتكم الجديدة العظيمة  
أسرة الحرية

العودة بعد نصف قرن

لم يعد ميخائيل نعيمة إلى أوكرانيا أو روسيا من جديد سوى في العام ١٩٥٦، وذلك بدعوة من اتحاد الكتاب السوفيات، ودون انطباعاته عن هذه الرحلة في كتاب يعدّ من كلاسيكيات الأدب العربي الحديث، حمل عنوان «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، ويمكننا اعتبار الكتاب إضافة نوعية إلى كتاب نعيمة الشهير «سبعون»، الذي هو عبارة



❖  
نعيمه مع الكتاب  
الأوكرانيين أمام  
المبنى السابق  
للسمينار الروحي  
حيث درس

وأرجو عند النهاية من طبعه أن أرسل إليك نسخة منه. سيجد الشيوعيون فيه أشياء كثيرة إلى جانبهم وأشياء لا تروقهم. ولذلك أخشى أن تلاقي ترجمته إلى الروسية ونشرها في روسيا بعض الصعوبات» (معهد المخطوطات في مكتبة فيرنادسكي الوطنية الأوكرانية، ملف ١٧٣، الرقم ١٠٢). في رسالةٍ أخرى بتاريخ ٥ حزيران / يونيو، يخبر نعيمة صديقه بتأخير طراً على صدور الكتاب ويعدّه مجدداً بإرسال نسخة فور خروجه من المطبعة. وما إن حصل كزما على النسخة حتى عكف على ترجمتها، وذلك يظهر في مخطوط الترجمة، حيث يؤرّخ في أعلى الصفحة الأولى من الدفتر في ١٨ آب / أغسطس ١٩٥٧. ويشكره نعيمة في رسالةٍ بتاريخ ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر لكونه قطع شوطاً كبيراً في الترجمة (معهد المخطوطات، ملف ١٧٣، الرقم ١٠٧)، ويقول في رسالته: «رجائي أن توفق في ترجمته ثم في نشره حتى وإن كان فيه ما ليس يرضي أصحابنا السوفيات كلّ الرضى. فالهمّ أنّه ينصفهم وعليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر».

### مصير الترجمة

«عليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر!»، كيف ذلك والسلطة لا تقبل بأي شكل من أشكال الانتقاد؟ كان كزما يعرف جيداً «أصحابنا السوفيات»، وربما كان يعرف أنّه - وإن برّ بوعده لصديقه - فإنّ ترجمته لن تطبع. فقد اختبر بنفسه اضطهاد «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية - NKVD» (كي جي بي لاحقاً) للتحب الأوكرانية في العام ١٩٢٦، عندما اعتقلت المفوضية الأكاديمي والمستشرق الكبير السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم الأوكرانية أغاتانغل كرمسكي وألحق به كزما، وفقدا وظيفتهما، بعدما عملا معاً لفترةٍ طويلة على بحوثٍ علمية، منها كتاب «قصة مؤرّخ القرن الحادي عشر العربيّ أبي شجاع الروذراوريّ كيف تنصّر الروس»، الموقع باسميهما والصادر عن أكاديمية العلوم الأوكرانية في العام ١٩٢٧ (الكتاب ترجمة ودراسة لفصول من «ذيل تجارب الأمم» للوزير أبي شجاع محمّد بن الحسين ظهير الدين، ويحتوي على أحداث ٢٥ سنة: من ٣٦٩ إلى ٣٩٣ هجرية، وهو القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم لأبي علي مسكويه).

وفي العام ١٩٢٨ اعتقل كزما مرّة أخرى وقضى في السجن نحو سنّة أشهر. ولا تزال وثائق اعتقاله محفوظة في أرشيف جهاز الأمن الأوكرانيّ (إن.كي.في. دي، أوكرانيا السوفياتية، الملفّ الرقم ٤٦٦٣٧، محفوظ

عن سيرة ذاتية ثلاثية الحلقات. وقد تُرجم الجزء الأوّل من هذا الكتاب إلى اللغة الروسية (دار ناوكا، ١٩٨٠) بتوقيع المستشرقة سفيتلانا باتسييفا (١٩٢٨ - ١٩٨٢)، وعن زيارته تلك إلى الاتحاد السوفياتيّ يشير الكاتب باختصار في الجزء الثالث منه (١٩٤٩ - ١٩٥٩)، ويحيل القراء إلى كتابه «أبعد من موسكو ومن واشنطن». عندما دوّن ميخائيل نعيمة هذا الكتاب كان على معرفة وطيدة بالكاتب والباحث في الدراسات العربية توفيق كزما (١٨٨٢ - ١٩٥٨)، وهو دمشقيّ المولد أمضى حياته في أوكرانيا، وتقاطعت حياته مع حياة نعيمة في محطات كثيرة، إذ إنّه وُلد في أسرة عربية أرثوذكسية كنعيمة، وكلاهما خرّيجا المدارس المسكوبية، ثمّ دار المعلمين في الناصرة، ثمّ المعاهد الروحية في أوكرانيا، فقد أنهى كزما سمينار كييف الروحيّ ثمّ الأكاديمية الروحية كذلك. وقد نشأ بين الكاتبين مراسلاتٌ وغدا كزما ناشراً أدب نعيمة في الاتحاد السوفياتيّ، حيث استطاع، وفي فترة زمنية قصيرة، أن يترجم عدداً من أعمال نعيمة الأدبية إلى الروسية. ومن بين تلك الأعمال «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، الذي ترجمه كزما كلّهُ بطلبٍ من نعيمة، لكنّ الترجمة لم تبصر النور وظلّت طيّ الكتمان، فما السبب؟

**«عليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر!»، كيف ذلك والسلطة لا تقبل عليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر! أي شكل من أشكال الانتقاد؟ كان كزما يعرف جيداً «أصحابنا السوفيات». وربما كان يعرف أنّه - وإن برّ بوعده لصديقه - فإنّ ترجمته لن تطبع.**

زار ميخائيل نعيمة الاتحاد السوفياتيّ بعد ٤٥ سنة على تركه بولتافا. مطلع آب / أغسطس ١٩٥٦ سافر الكاتب بالطائرة من بيروت إلى براغ، حيث أمضى يومين بدعوة من الحكومة التشيكوسلوفاكية، ثمّ أمضى في الاتحاد السوفياتي ٢١ يوماً وغادره في ٢٥ آب / أغسطس. خلال تلك الفترة زار موسكو، لينينغراد، كييف، بولتافا وستالينغراد. وبعد فترة قصيرة من عودته إلى لبنان كتب نعيمة انطباعاته عن الرحلة مضيفاً إليها أفكاره الفلسفية الكوتبية. في ٢٨ شباط / فبراير ١٩٥٧، دوّن رسالةً إلى صديقه الكيفي يقول فيها: «أمس انتهيت من وضع كتابي عن الرحلة القصيرة التي قمت بها الى الاتحاد السوفياتي، وقريباً أقدمه للطبع. وهو كتابٌ من نمطٍ جديدٍ في تحليل المجاري الكونية وفيها الصراع بين الرأسمالية والشيوعية.

одобрение и они обещали похлопочать чтобы  
ее осуществили.

Рассказываю мне у Новички

Не один раз, и с восхищением большим  
об арабстве из Украинцев у Кромыской, ~~который~~  
который в конце прошлого века я прожил  
некоторое время в Бейруте, и о <sup>его</sup> подмак  
которомере вдохновило ему его пребывание  
в Ливане. Он прогал мне некоторое из них.  
Я вдруг услышал, как он воспевает ~~жизнь~~  
~~модернизацию~~ ~~Вашингтон~~ в одной из них  
Сантин, того любимую воду. Я сказал:  
Боже! Боже! Кто мог бы сказать, о Сан-  
ин, что я тебе венгеру в Киеве? И это  
другое доказательство <sup>того, что</sup> наш мир мал-  
мал-, но в то же время он велик-велик,  
если бы мы не засели его злобой, раздорами,  
отчужденностью друг от друга - вмести  
мира, любви, взаимной помощи, взаимного  
обузения.

Из памфлетов, которые я посетил  
в Киеве - это кафедра Святой Софии ~~и Святой~~  
Святой Софии. Находится он на возвышенности

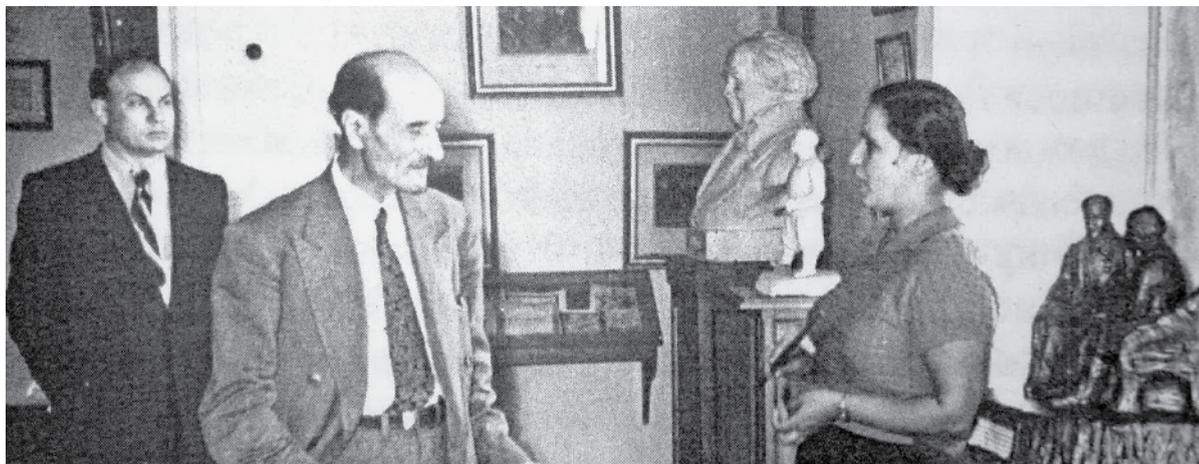
❖  
صفحة من مخطوط  
ترجمة كزما لكتاب  
«أبعد من موسكو  
ومن واشنطن»

تحت الرقم ٣٨١٧٩)، ومن بينها محضر استجواب جاء فيه: «لقد وجهت إليك تهمة، وهي أنك أثناء إقامتك في الاتحاد السوفياتي كنت تمارس أنشطة تجسسية لصالح إحدى الدول الأجنبية»، وكان جواب كزما: «أيها الرفيق المحقق، أنا لم أشارك يوماً في أي نشاط تجسسي ضد السوفيات، ولا أقرّ بأنني مذنب». إلا أن ذلك لم يطل، فقد كانت السلطات السوفياتية بحاجة إلى التعاون مع النخب، خصوصاً بعد اتفاق جوزف ستالين مع أدولف هتلر واحتياح الجيش الأحمر غرب أوكرانيا وبسط سلطته على كامل أراضي الضفة اليمنى للدينبر. وهكذا أرسل كريمسكي إلى لفوف لتنظيم العملية التعليمية والعلمية في جامعة لفوف، فيما كان كزما في السجن وقد تحولت حياته إلى عذاب بعدما فقد الأمل في إطلاق سراحه، حينذاك أفتع كريمسكي المدعي العام بمراجعة قضية كزما فأخلى سبيله. في مذكراته، يذكر كزما حادثه واحدة من تلك الفترة، عندما استُدعي للاستجواب، يقول: «وضعوني أمام معضلة، وهي هل أنا مسيحي أم مواطن علماني؟ وبفضل من الله أجبت أنني مسيحي وربما مواطن علماني سيئ، افعلوا ما تشاؤون بي! لكن عوض أن تتدهور حالتي بدأوا يحسنون تعاملهم معي». في العام ١٩٤١، قبيل وصول المحافل النازية اعتقلت السلطات كريمسكي واقتيد إلى معسكر اعتقال في كوستناي - كازاخستان حيث نُوفي، حلّ التبا كالكارثة على توفيق كزما الذي فقد خير مدافع عنه. بعد ذلك وحتى وفاته، أي في فترة ترجمة أعمال ميخائيل نعيمة إلى الروسية، كان يحتفظ في منزله بحقيبة فيها بعض الحاجيات معدة لحملها معه إذا ما اعتقل فجأة.

إلى العلن من جديد  
أنهى توفيق كزما ترجمة ميخائيل نعيمة في ٢٢ أيلول

١٩٥٧، أي قبل وفاته بسنة أشهر، وكان مصيرها النسيان. فتعاطف ميخائيل نعيمة الهامس مع الشيوعية كان قد ترافق في كتابه مع معارضته للحزب، حيث كشف عن أفكار تناقض والأيدولوجية السوفياتية الرسمية، داعياً إلى قوةٍ ثالثة، وذلك لن تمرره إلى النشر أي لجنة رقابية بطبيعة الحال. فما الذي دعاه إلى الاعتقاد بأن كتابه سيُنشر بالروسية؟ أهو الاحتفاء به وتكريمه أثناء زيارته القصيرة؟ أم أنه كان يعول على أن الزمن سيتغير، وأن أفكاره التوفيقية سيكون لها مكانٌ بالفعل على أرض الواقع؟ على أي حال، نامت مخطوطات الترجمة (دفاتر كزما، معهد المخطوطات، ملف ١٧٣، من ٣٤ إلى ٣٧) ستين عاماً إلى أن كشفت عنها الباحثة العلمية الأولى في قسم الشرقيين الأدنى والأوسط في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوكرانية يوليا بتروفا، حيث درسها وأعدت طبع مقتطفاتٍ منها بعدما حرّرتها، وذلك في كتاب ضمّ مجموعة من البحوث الاستشرافية بعنوان «الطوق الساطع المختار في جواهر التقدير والاعتبار»، صادر عن جامعة كييف الوطنية للعلوم اللغوية، مخصّص للاحتفال باليوبيل الماسي للمستشرفة الكبيرة ليديا بتروفا، بمشاركة كبار الباحثين والمستشرقين في أوكرانيا.

كشفت يوليا بتروفا، على ٣٤ صفحة من الكتاب التذكاري، خلاصة بحثها الطويل في أرشيف معهد المخطوطات التابع لمكتبة فيرناندسكي الوطنية الأوكرانية في كييف، حيث تضمنت مقدمتها تعريفاً بميخائيل نعيمة ورحلته السوفياتية، والعلاقة بينه وبين كزما والمراسلات بينهما، ثم أوردت تحقيقاً لمخطوطات الترجمة الكتاب، حيث نشرت مقتطفاتٍ منه، مشيرةً إلى التصحيحات التي أوردتها في النص. وبذلك تكون بتروفا قد أنهت جزءاً من مهمة توفيق كزما التي طالت ستة عقود من الزمن.

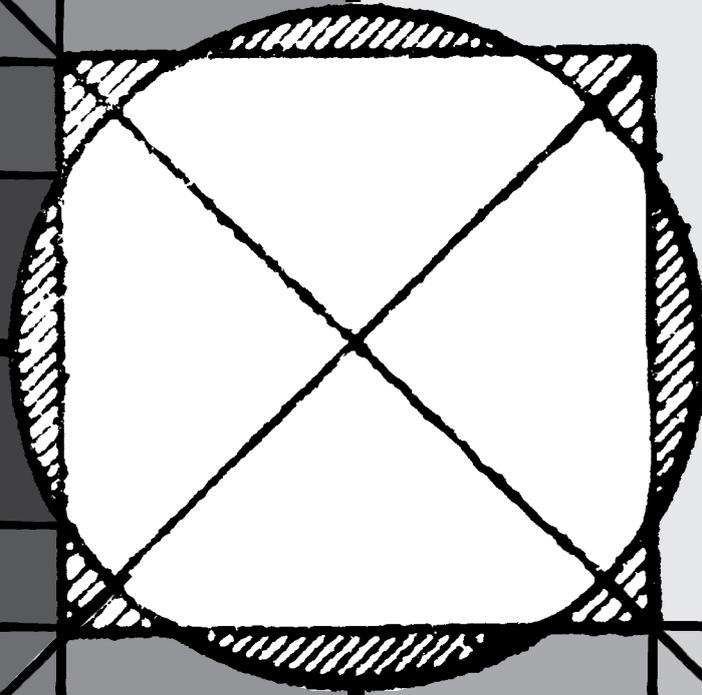


❖  
نعيمة في المتحف  
الأدبي التذكاري  
خلال زيارته إلى  
بولتافا سنة ١٩٥٦



# يا عين

- ١٢٠ بعد حدثتي  
وأول محاولة لاغتيال رفيق الحريري  
وليد صادق
- ١٤٢ أمين الباشا  
سيد الفرح والألوان
- ١٥٥ سجاد عرسال الملون  
مواسم الكرز وأرض البقاع وفصول السنة  
محمد الحجيري



## بعد حداتي وأول محاولة لاغتيال رفيق الحريري

وليد صادق

جامعي وفنان  
معاصر وناقد فني،  
يدور قسم كبير من  
أعماله مدار الحرب  
الأهلية اللبنانية.  
آخر أعماله مجموعة  
مقالات وأبحاث في  
الحرب والعولمة والفن  
بعنوان «الطلل الآتي»  
(بالإنكليزية) ٢٠١٦.

العسكرية للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، وحرب الخليج التي زعزعت استقرار المنطقة حيث كان بوسع المرء أن يشمّ، إن جاز التعبير، الدخان المتصاعد من آخر بئر نفط تمّ إطفائها في الكويت يوم ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١، بالإضافة إلى حربٍ قرينة لحرب لبنان الأهلية تحتاح يوغسلافيا.

في تلك الإعلانات، بدت صورة رفيق الحريري الرئان والودود تثقب مشهد الإحباط العام، فإذا هو خارج على حلقة رؤساء الوزراء السنة السابقين المعروفين والمستهلكين، وقد انعطب اثنان منهما بسبب التدهور المستمرّ لليرة اللبنانية. الأول، عمر كرامي، استقال يوم ١٦ أيار / مايو ١٩٩٢ عندما بلغت العملة المحلية أدنى قيمتها أي ١١، ١٦٢١ ليرة مقابل الدولار. ولحق به رشيد الصلح الذي استدعي للإشراف على أول انتخابات نيابية بعد انتهاء الحرب الأهلية وقد قاطعتها الأحزاب المسيحية مقاطعاً جماعية. صمدت حكومته لخمسة أشهر فقط وسقطت لما تعرّضت العملة المحلية لانهبان مدوّخ غير مسبوق في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٢ عندما بلغ الدولار ٢٢٤٨،١ ليرة<sup>٢</sup>. كانت «رياح الحريري» تهبّ بقوة وثباتٍ في خريف ١٩٩٢ لا ينافسها منافسٌ داخليٌّ وتحظى فوق ذلك بدعم الأنظمة الإقليمية. وكانت محنة المخطوفين الأجانب قد انتهت، في حزيران / يونيو، وعاد لبنان إلى حضن أسرة الأمم.

تقدّم الحريري بثبات لتحقيق برنامج إعادة الإعمار الذي وعد به. يرى المبرّرون، بالأمس واليوم، أنّه نقد معظم وعوده وأنّ المزيد كان معداً للتنفيذ لولا التغيير الذي طرأ على السياسة السورية في عهد بشار الأسد وحلفائه في لبنان. ويحاجج هؤلاء بأنّ الحريري أطلق في العام ١٩٩٣ مشروع إعادة إعمار - «افق ٢٠٠٠»

أرجو أن يغفر جان - فرانسوا ليوتار لي وقاحتي لكتابة دراسة تحمل مثل هذا العنوان. وهو الذي أبلغ القراء في مقدّمة كتابه «حالة بعد الحداثة» أنّ موضوعه هو «حالة المعرفة في المجتمعات الأكثر تطوّراً»<sup>١</sup>. ولعلّه يتساهل مع تلك الوقاحة لو درى بحالي. عشت، مثلي مثل كثيرين غيري، خلال صعود سردية عظمي في بيروت بعد النهاية الرسمية للحرب الأهلية عندما كنّا شهوداً على «هبت رياح الحريري»<sup>٢</sup>، وفق لمحّة تستحقّ الذكر لرئيس الوزراء الطرابلسي السابق عمر كرامي. هكذا ترى، يا عزيزي جان - فرانسوا، مع أنّه لم تنبت لنا أجنحة لكنّ الريح كانت، لفترة، تدفعنا من الخلف إلى غدٍ رحبٍ يقوده مُقاوُلٌ من خارج المدينة وعدّنا بتثبيت العملة الوطنية وبأن ينسينا زمن أكوام الركام. فبدأ أنّ العاصفة قد هدأت وأنّ التقدّم ينادينا مثل عمّ رؤوفٍ من أعمامنا.

### عندما هبت رياح الحريريّة

عندما يستذكر المرء حقبة مجيء الحريري، والأصحّ إذ يراجع الصحافة اليومية في الشهور السابقة على تعيينه رئيساً للوزراء، ويُنيل حكومته ثقة مجلس النواب يوم الجمعة في ١٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٢، يشاهد بالتأكيد، كما قد يتذكّر بقدر من الغموض، تكرار صورة وحيدة، قد تكون الصورة الرسمية المجازة، لرفيق الحريري على صفحات الجرائد اليومية، تجاور إعلانات التهنتة بالمناسبات، هي صورة يغطي بعضها صفحة كاملة من الجريدة، نشرت بتمويل من أفراد ومن رجال أعمال في القطاع الخاص، تمتدح الرجل بما هو «الابن البار» و«قائد مسيرة إعادة الإعمار» و«رجل المستقبل» و«أمل لبنان». حصل ذلك على خلفيّة من عملية سلام أميركية متمادية معقودة بين فلسطينيين وإسرائيليين، والاعتداءات

- وَضَعَتْ لَهُ مِيزَانِيَّةً مِنْ ٢٠ مِلْيَارِ دُولَارٍ، وَأَنَّهُ نَجَحَ فِي تَرْخِيمِ الْاِقْتِصَادِ مِنْ خِلَالِ ارْتِفَاعِ قُوِيٍّ فِي نَسْبِهِ نَمُوِّ النَّاتِجِ الْمَحَلِّيِّ وَصَلَ إِلَى ٨٪ الْعَامَ ١٩٩٤<sup>٤</sup> وَأَنَّهُ أَعَادَ بِنَاءَ وَسَطِ بِيْرُوْتِ التَّجَارِيِّ بِوِاسِطَةِ شَرِكَةِ «سُولِيدِر»<sup>٥</sup> وَأَعَادَ فَتْحَ الْبُورْصَةِ فِي كَانُونِ الثَّانِي / يَنَائِرِ ١٩٩٦. وَهَوْلَاءِ الْمَبْرُورِ هُمْ أَنْفُسُهُمْ الَّذِيْنَ يَدْعُمُونَ مِيرَاثَ الْحَرِيرِيِّ فِي مَوَاجِهَةِ سَنَوَاتِ الرَّئِيسِ إِمِيلِ لِحُودِ وَرئِيسِ وَزَرَائِهِ سَلِيمِ الْحِصِّ الْكَارْتِيَّةِ عِنْدَمَا انْهَارَ الْاِقْتِصَادِ الْوِطْنِيَّ بِقِيَادَتِهِمْ فِي الْعَامِ ١٩٩٩ وَأَنْتَجَ نَمُوًّا حَقِيقِيًّا سَلْبِيًّا قُدْرَهُ ١٪ تَحْتَ الصَّفْرِ. وَبَعْضُ النَّظَرِ عَنِ الْأَرْقَامِ الَّتِي عَادَةً مَا تُنْتِجُ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَرْقَامِ، يَرَى كَثِيرُونَ أَنَّ وَعْدَ الْحَرِيرِيِّ لَا يَزَالُ مُسْتَمْرًا. لَيْسَ هَذَا هُوَ رَأْيُ رَسَامِ الْكَارِيكَاتُورِ بِيَارِ صَادِقِ الَّذِي عَادَ إِلَى أُسْرَةِ تَحْرِيرِ «الثَّهَارِ» الْيَوْمِيَّةِ مُطَّلِعِ الْعَامِ ١٩٩٢ بَعْدَ انْقِطَاعِ مَا يُقَارَبُ ١٨ سَنَةً وَرَأَى فِي الْحَرِيرِيِّ أَنَّهُ قَابِغٌ مِنْذُ نَهَائَةِ ١٩٩٢ فِي الْبِنِيَّةِ الْفَاسِدَةِ لِلْسِّيَاسَةِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْاِقْلِيمِيَّةِ.

#### الحريري بريشة بيار صادق

انْتَزَعْنَا سَنَةَ رَسُومِ كَارِيكَاتُورِيَّةٍ نَشَرَهَا بَيْنَ تَشْرِينِ الْأَوَّلِ وَتَشْرِينِ الثَّانِي / أَكْتُوبَرِ وَدَيْسَمْبَرِ ١٩٩٢، فِي سِيَاقٍ مُخْتَصِرٍ، وَبَعْضُ النَّظَرِ عَنِ التَّقَارُبِ الَّذِي انْعَقَدَ لَاحِقًا بَيْنَ الرَّسَامِ وَالْحَرِيرِيِّ، وَهِيَ تَرْسُمُ بَأَنَاقَةٍ سِيرَةً سِيَاسِيَّةً مُخْتَصِرَةً لِرئِيسِ الْوِزَرَءِ: فِي تَشْرِينِ الْأَوَّلِ / أَكْتُوبَرِ اسْتَقْبَلَهُ رَئِيسُ الْجُمْهُورِيَّةِ بِعِبَارَةٍ «أَهْلًا بِكَ فِي بَيْتِكَ». وَفِي نَهَائَةِ الشَّهْرِ ذَاتِهِ إِذَا الْحَرِيرِيِّ قَرِصَ عَسَلِ يَحُومِ حَوْلَهُ قَفِيرِ نَحْلِ مِنَ الْمُتَمَلِّقِينَ. مُطَّلِعِ تَشْرِينِ الثَّانِي / نُوْفَمْبَرِ وَالْحَرِيرِيِّ يَمْلِكُ الثَّقَّةَ الْكَافِيَّةَ لِيُوجِّهَ إِبْهَامًا مُتَضَخِّمَةً إِلَى أَسْفَلِ زَاعِمًا أَنَّهُ الْخِبَارِ الْوَحِيدِ وَالْأَفَالَمَةُ مَهْدَدَةٌ بِحَرِيقِ كَاسِحِ. فِي نَهَائَةِ الشَّهْرِ عَيْنِهِ، يَصِيرُ الْحَرِيرِيُّ هُوَ «الْدَرَعُ» الْحَامِي لِرئِيسِ خُجُولِ. فِي كَانُونِ الْأَوَّلِ / دَيْسَمْبَرِ، لَدَى عَوْدَتِهِ مِنْ زِيَارَةٍ نَاجِحَةٍ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ، يَحْدُرُ الرَّئِيسُ هَرَاوِي الْحَرِيرِيِّ، فَائِقُ الثَّقَّةِ بِنَفْسِهِ، مِنَ الْمَغَالَاةِ. بِحُلُولِ عِيدِ الْمِيلَادِ، يَرْسُمُ صَادِقُ الْحَرِيرِيِّ بِمَا هُوَ كَيْسُ هَدَايَا لِنِظَامِ فَاسِدٍ، يَتَغَنَّعُهُ السُّكْرُ بِسَبَبِ مَا سَوْفَ يَحْقُقُهُ قَرِيبًا مِنْ بَشْطِ قُدْرَاتِهِ الدُولَارِيَّةِ عَلَى مَوَارِدِ الْبَلَدِ الْمَتْسَلِّعَةِ.

#### تبادل الأزياء بين بعد الحداثة والتاريخ

لَا يَجُوزُ أَنَّ يَسَاءَ فَهْمِ اعْتِدَارِي أَعْلَاهُ مِنْ جَانِ - فِرَانْسُوَا لِيُوتَارِ عَلَى أَنَّهُ بِسَبَبِ اغْتِصَابِ مُصْطَلِحِ «بَعْدَ حَدِيثِ» مِنْ شَخْصٍ لَا يَعِيشُ فِي وَاحِدٍ مِنَ «الْمَجْتَمَعَاتِ الْأَكْثَرِ

تَطَوَّرًا». غَنِيٌّ عَنِ الْقَوْلِ، أَنَّ الطَّابِعَ الْبَيَانِيَّ لِمِثْلِ هَذَا الْمَقْيَاسِ لَمْ يَبْعُدْ قَائِمًا وَلَا هُوَ حَتَّى مَفِيدٌ بَعْدَ أَرْبَعَةِ عَقُودٍ مِنْ نَشْرِ نَصِّهِ، وَقَدْ بَاتَتْ تَقْنِيَّةُ الْاِنْتَرْنِتِ، وَمَرْوَحَةٌ مِنَ الْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ التَّقْسِيمِيَّةِ وَالتَّذْرِيَّةِ، جِزْءًا مُتَمَمًّا مِنَ الْاِقْتِصَادِ الْكُونِيِّ. الْأُخْرَى أَنَّ اعْتِدَارِي هُوَ مَدْخَلِي إِلَى اقْتِرَاحِ يَقُولِ إِنَّ بَعْدَ حَدَائِثِي كَانَ يَتَّسَمُ أَوَّلًا وَتَحْدِيدًا بِالسَّدَاجَةِ، عَلَى عَكْسِ تَعْرِيفِ فِيلْسُوفِنَا لِبَعْدِ الْحَدَاثَةِ بِمَا هُوَ رَفُضٌ السَّدَاجَةِ تَجَاهِ السَّرْدِيَّاتِ الْعَظْمَى. ذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ الْحَرِيرِيِّ حَمَلَ مَعَهُ، وَلَوْ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، الطَّمُوحَ إِلَى مَسِيرَةٍ إِلَى أَمَامِ. وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ مَقْصَرًا عَنْ أَنْ يَعْضُرَ الشَّرُوطَ التَّارِيخِيَّةَ وَمَا يَتْرَبُ عَلَيْهَا مِنْ حَمَاسَةٍ، كَتَلِكِ الَّتِي تَمَكَّنَتْ لِحَطَّاتٍ تَارِيخِيَّةٍ عَالَمِيَّةٍ سَابِقَةٍ مِنْ تَعَبُّثِهَا، فَإِنَّ رِيَّاحَ الْحَرِيرِيَّةِ لَمْ تُعْدمُ قُدْرَتَهَا عَلَى أَنْ تَدْفِعَ تَارِيخِنَا الْمُنْتَفِخَ إِلَى أَمَامِ، تَارِيخًا يَبْدُو مِثْرًا، مِثْلَ مَنْطَادِ (زَيْلِين) فِخْمٍ، مَهْيَبًا عِنْدَمَا يَطُوفُ لِكَنَّهُ يَعْتمَدُ فِي طَوَافِهِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ الطَّقْسِ. وَمَعَ أَنَّهُ يُمْكِنُ صَرْفُهُ بِسَهُولَةٍ بِمَا هُوَ كَيْسُ غَازٍ يَسْهَلُ تَقَبُّهُ وَإِسْقَاطُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ مَزُودًا بِحِرَاسَةٍ مُشَدَّدَةٍ، أُمْكِنُ مَنْطَادِ الْحَرِيرِيِّ أَنْ يَطُوفَ لَيْسَ فَقَطْ بِسَبَبِ تَعْوِيمِ الْقَطَاعِ الْمَصْرَفِيِّ، وَالْمُضَارَبَةِ الْمَالِيَّةِ عَلَى التَّصْفِيَةِ الْآتِيَّةِ لِلنِّضَالِ الْفِلَسْطِينِيِّ، وَالْمَالِ السَّعُودِيِّ، وَمَصَالِحِ النِّخَةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي سُورِيَّةِ، بَلْ حَتَّى بِسَبَبِ دَعْمِ جَاكِ شِيرَاكِ لَهُ. وَلَقَدْ أُمْكِنُ ذَلِكَ الطَّوَافُ أَيْضًا، وَلَقِيَ تَسْوِيغَهُ، عِنْدَمَا تَسْرَبَتْ مَفَاهِيمُ بَعْدِ الْحَدَاثَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ إِلَى أَعْمَالِ النَّقَادِ وَالْمَنْظُرِينَ وَالْفَنَّانِينَ الْمَحَلِّيِّينَ. فَلَعَلَّهُ مِنْ خِلَالِ أَعْمَالِهِمْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَبْدَأَ بِرُؤْيَا مَشْهَدِ تَبَادُلِ الْأَزْيَاءِ بَيْنَ التَّارِيخِ وَبَعْدِ الْحَدَاثَةِ، مَشْهَدِ بَعْدِ الْحَدَاثَةِ يَلْبَسُ لِبُوسَ التَّارِيخِ، مَا يَضْطَرُّ التَّارِيخَ إِلَى أَنْ يَرْتَدِي مَعْطَفَ بَعْدِ الْحَدَاثَةِ.

#### مِي غُصُوبِ: لِبَعْدِ حَدَاثَةِ عَرَبِيَّةِ

غَالِبًا مَا تُذَكِّرُ الْفَتْرَةَ الْأَوَّلَى مِنْ صَعُودِ الْحَرِيرِيِّ مِنْ خِلَالِ عَدْسَةِ التَّقْدِ الْيَسَارِيِّ الْمَوْجِّهِ إِلَى مَشْرُوعِ إِعَادَةِ الْإِعْمَارِ بِإِدَارَةِ شَرِكَةِ سُولِيدِرِ الْخَاصَّةِ. ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُتَقَفِّينَ الْعَامِّينَ وَالرَّوَائِيَّينَ وَالشَّعْرَاءِ وَالْمُهَنْدِسِينَ وَالْمَعْمَارِيِّينَ وَالصَّحَافِيِّينَ الْبَارِزِينَ، الْبَعْضُ مِنْهُمْ مُسْتَقَلٌّ وَبَعْضُ الْآخَرِ ذُو مَاضٍ سِيَاسِيٍّ فِي تَنْظِيمَاتٍ مِثْلِ حَرَكَةِ التَّحْرُّرِ الْوِطْنِيِّ الْفِلَسْطِينِيَّةِ - فَتْحِ، وَالْحَزْبِ الشِّيْعِيِّ الْلُبْنَانِيِّ وَمَنْظَمَةِ الْعَمَلِ الشِّيْعِيِّ فِي لُبْنَانَ، شَنُّوا حَمَلَةً مُنْظَمَةً ضَدَّ الْمَجْمَعِ الْمَالِيِّ - السِّيَاسِيِّ الْحَرِيرِيِّ وَرَكَّزُوا النِّقَاشَ عَلَى مَنْظُومَتَيْنِ مِنَ الْمُتَضَادَّاتِ: إِعْدَامِ الْذَاكِرَةِ مَقَابِلَ الْذَاكِرَةِ، وَإِعَادَةِ الْإِعْمَارِ مَقَابِلَ نَزْعِ الْمَلِكِيَّةِ<sup>٦</sup>.

تبقى حصيلة هذا النقد ثريّة ومهمّة، إذ أسهم في تكوين جيلٍ كاملٍ من الفنّانين والكتّاب الأصغر سنّاً، فحجّب، لأسبابٍ مفهومة، تياراً فكريّاً آخر، رحّب بأفكارٍ بعد الحداثة في الفنّ والنظرية وتبنّى ثنائيّ التنوّع - المجاورة بدلاً منها. ومع أنّ هذا التيار كان ثانويّاً من الناحية الفكرية، إلاّ أنّه قدّم صوراً وكلماتٍ تصلح تسميتها انبهاراً فكريّاً خجولاً بمشروع الحريري.

**ما من شك في أن محمد الرواس بناء صور مجتهد. وجامع شغوف بالاستشهادات والمراجع. لكن لا بد من القول إن صورته تروج لنمط أكيد من الاستكانة البصرية.**

يشجّع في الوقت ذاته على قيام ثقافة استهلاكية حيث المتنوّع متوافرٌ ومتسامح مع المجاورة. أمّا مشروع الحريري الثقافي فقد أداره، في معظمه، فريقٌ من الخبراء ما لبثوا أن وطّنا عملهم بتدشين «تلفزيون المستقبل» يوم ١٥ شباط / فبراير ١٩٩٣، الذي يملكه الحريري وقد تحوّل بسرعة إلى القناة الأولى في لبنان. مع ذلك، وعلى الرّغم من كل برامج محطة التلفزيون الترفيهية، وبصرياتها المستحدثة، فإنّ أفضل ما يمكّننا من استيعاب مشروع الحريري هو اللغة البصرية الأكثر تعقيداً وتطوراً التي يؤلّفها الفنّان محمّد الرواس، وقد ميّزته ميّ غصوب بما هو أبرز ممثلي نقلةٍ تصويريةٍ نحو مسانكة متعدّدة زمنيّاً، وإن تكن لا تاريخية، بين تقاليد بصرية متفاوته<sup>١٣</sup>.

## محمد الرواس والاستكانة البصرية

في لوحة تعود للعام ١٩٩١ ذات عنوانٍ مفخّم - «عندما خلق الله الجوع»<sup>١٤</sup> - يعرض الرواس مروحةً من التقنيات التصويرية، كانت ذات مرّة حصريةً ومخصوصةً بحقباتٍ تاريخيةٍ معيّنة على مساحةٍ واحدةٍ وعبر مجموعةٍ من العناصر المجازية لا تقلّ عنها تفكّكاً. ما يطفو على سطح هذا الخليط البصريّ ذاكرةً لتخييلٍ ينتمي إلى ماضٍ بعيد، وشعورٍ كونيّ غير محصور في مكان، يجوز أنّه كان له ذاتٌ تاريخية، لكنّه الآن مبعثرٌ على حقلٍ من السلع البصرية ذات قيمةٍ تبادليةٍ متماثلة. فإذا الحصيلة صورةٌ مصدوعة لكنّها فاقدةٌ لأيّ توتر، حيث المتباعد يتقافز ولكن دون أن يتفاعل. ما من شكّ في أنّ محمّد الرواس بناءً صورٍ مجتهد، وجامع شغوفٌ بالاستشهادات والمراجع، لكن لا بدّ من القول إنّ صورته تروج لنمطٍ أكيدٍ من الاستكانة البصرية. في مسيرته المهنية الطويلة والناجحة والمستمرّة، يواصل الرواس تركيب خلائط صورته بحيث أنتج في السنوات الأخيرة أعمالاً ذات طبقاتٍ كثيفة من الاستشهادات البصرية والنصّية باتت تحتاج إلى جردةٍ تفصيلية.

في كتابٍ بعنوان «تعليقات» منشور العام ٢٠١٢<sup>١٥</sup>، يشرك الرواس المشاهدين بمسار عمله بأن يعرض لائحةً بالمراجع الأصلية التي استخدمها في لصق صورته وهو بفعله ذلك لا يستعرض معارفه البصرية الواسعة وحسب، بل إنّه يفضح الطرائق التي بها يمنع التّزاع من أن يكون الصور التي يرسمها حتى وهو يستعير علاماتٍ ورموزاً من الأحداث العالمية الجارية. في مقطعٍ دالّ، يعلّق فيه على لوحته «إلى أن يجمعنا الموت»<sup>١٦</sup>، يشير الرسّام إلى امرأتين باكيتين مستعارتين من لوحة جاك-لوي دافيد

من أبرز الأمثلة على ذلك التيار مجموعةٌ مقالاتٍ ميّ غصوب بعنوان «بعد الحداثة: العرب في لقطات فيديو» المنشور العام ١٩٩٢<sup>١٧</sup>. ترخّب مقالاتٍ ميّ على نحوٍ مركّبٍ ومتوازنٍ بعيد الحداثة، وإنّ يكن ترحيباً يشوبه شعورٌ بالذنب، في مقالاتها الختامية والأكثر حميميةً تفضح ميّ غصوب، بمزيجٍ من التوكيد والأسى، انبهارها ببعدها الحداثة بما هي طاقة تحرّج من المشاريع الشمولية عالية النبرة التي تكبل العالم العربي. إنّ القيمة الثقافية للمجاورة والتنوّع، التي تعتنقها وتدافع عنها، لا يمكن أن توجد إلاّ في حقول بعد الحداثة المتنوّعة حيث لا ضغوط تمارس على التناقضات لكي تذوب في مبدأٍ أوحد<sup>١٨</sup>. إنّ غصوب، المتأنيّة بسبب ثقافتها في علم الجمال الحداثي ونشاطها داخل حركاتٍ تحرّريةٍ زمن الشباب، تعترف بخطر العدمية الكامل الذي تنطوي عليه النسبية الثقافية لبعدها الحداثة<sup>١٩</sup>. لكنّ العودة إلى المشروع الحداثي التاريخي لم تعدّ ممكنة، في نظرها، لأنّها لم تعدّ قادرةً على أن «تخيّل لندن دون ساعة «بغ بن»»<sup>٢٠</sup>. وهو قولٌ مستغرب، لكنّ له وقعاً مناسباً لدى ساكنين من سكّان لندن، يكفيه ليعلن تبنيّه المفارقات التاريخية وتطبعه عليها. فلا حاجة لإهمال الماضي لأنّه لم يعد ثمة من تقدم في خطّ بيانيّ ولأنّ الإنسانية لا تتجه نحو أيّ مكانٍ محدّد.

وجديرٌ بالملاحظة هنا أنّ مشروع رفيق الحريري لإعادة الإعمار، على الرّغم من بلاغته المغالية، لم يستخدم مصطلح التعبئة الحداثية التي هي «التقدّم». قام مشروعه على الاستلحاق لا على التجاوز. فغرضه أن يعيد توضع الاقتصاد اللبناني ضمن مسارٍ كونيّ وأن

التاريخية «قسَم الهارتين»<sup>١٧</sup> على أنهما إما من غزّة أو أن واحدة من غزّة فيما «الثانية قادمة من إسرائيل»<sup>١٨</sup>. ثمة تماسك في هذا القول الصادر عن رسّام مكرّس المهمة رسم صور ذات تأليف شكلانيّ جيّد من خلال عناصر متفاوتة ومتناقضة لكنّها مستكينة. فلكي تصير صورة جسد امرأة مستعارة من لوحة تاريخية عائدة للقرن الثامن عشر حاملة في الآن ذاته لمدلولين، واحد لامرأة من غزّة وآخر لمستوطنة إسرائيلية، يعني أنها قد أسست أصلاً حقلاً بصرياً قد أبحر من شاطئ الإحالات التاريخية. إنّ لوحات الرّؤاس توقّر عرضاً بصرياً يدعو إلى الإعجاب لعملية تبادل أزياء، حيث الدلالات صراعات الماضي العنيفة تعود للظهور بحيوية ولكن لتتحوّل في حقل تتساوى فيه كل العلامات من حيث قيمتها المعلقة والمحيّدة توحياً للتبادلية القصوى.

### جبابرة نديم كرم

لم يكن للرّؤاس الرسّام تأثير على الجمهور كالذي حظي به مجايله نديم كرم بين الأعوام ١٩٩٢ و ١٩٩٧. في زمن لم يكن الفنانون العاملون فيه ببيروت يحصلون على أي تمويل عام أو خاص، اقتحم المهندس نديم كرم المشهد بدعم مالي وتأييد إعلامي كريم من سوليدير ومن بنك «سوسيتيه جنرال - لبنان». هبطت أعمال كرم حرفياً على متحف سرسق العام ١٩٩٤، وعلى متحف الآثار الوطني العام ١٩٩٥ قبل إعادة افتتاحه، وهبطت في العام ١٩٩٧ على بورة في ساحة الشهداء وعلى جسر فؤاد شهاب في بيروت. كانت تراكيبه جبّارة، انتقائية ومُضاهة على نحوٍ بديع بفضل دعم إضافي من «شركة دبّاس

إنّ «الموكب العتيق» يتخاطر بواسطة لغة بدئية تتجاوز الحدود، والثقافات والعقائد. ومع ذلك، قيل لنا إنّ تنوع أشكال الشخصوس وليد رد فعل الفنّان على «التشظي الطائفي والاجتماعي - السياسي اللبناني الذي هو سبب الشقاق والحرب». وعلى الرّغم من ذلك التشظي، فالشخوس المعدنية المختلفة والمتنوعة «تتبع مساراً واحداً وتشارك في مصير واحد»<sup>١٩</sup>. وهذا ليس نموذجاً عن أفكار مشوشة غالباً ما نلقاها في نصوص بائية تراقق الفنّ المعاصر أو توّطره، أو أنه لا يقتصر على كونه ذلك. ينتمي هذا النوع من الكتابة أيضاً إلى نمط تبادل الأزياء، حيث بعد الحداثة يرفل في حرير التاريخ فيما التاريخ يظهر بلبوس بعد الحداثة. وهذا ما يسمح لأعمال كرم بأن تنتحب على تاريخ المدينة المنقضي فيما تساهم في ترفيه بصري يحجب أزمة سوليدير المالية المتفاقمة. يستطيع الفنّان أن يكتب بحنين عن ٥٠٠ بناية متضرّرة من الحرب «أبادئها بانتظام»<sup>٢٠</sup> شركة سوليدير، وأن يدعو مع ذلك سكّان المدينة للانضمام إلى موكب الاختلافات السلمي واللعب. صورتان، في موقع الفنّان الإلكتروني، واحدة ليلية والثانية نهارية، تري اثنين من شخوصه المعدنية راضية على جسر فؤاد شهاب، في خير تعبير عن تبادل الأزياء هذا. الشخصان يعتليان مداميك إسمنتية مطبوع عليها «بيروت»، وهي علامة سوليدير التجارية: واحد مُتصّبئ والثاني مُتأثث، هو يحمل مطرقة لكن ليس تماماً، وهي تحمل منجلاً، وليس تماماً. أهذا ما تبقى بعدما تقهقر عامل المصنع وفتاة الكولخوز إلى المراهقة وقفراً على موكب يخرق المدن المهزومة وقد جرى تطويعها لعملية إعادة الإعمار؟

عندما تنزياً بعد الحداثة بزّي التاريخ، هل نجد أنفسنا واقفين أمام أثر سطحي، كما في لوحة الرّؤاس «عندما الله خلق الجوع»؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنّها مساحة تستحق أن ننظر إليها مجدداً. لنقم جردة بأشياءه: في اللوحة ضربات ريشة مرنة تنتمي إلى أسلوب ولهلم دا كوننغ، ولصق القش على اللوحة مستوحى من أنسلم كيوفر، والنقاط المتسلسلة من روي ليشتنشتاين، والصحن الملصق ومعه سكاكين المائدة من عنديات جوليان شنابل، والمثلثات ذات الألوان الأولية تذكر بيت مودريان، وتقميش ورق الجدران يشي بجورج براك، والدّمى البلاستيكية تشبه دمى هانس بلمر، وقصاصات صور ملكات الإغراء من جورج هاملتون، أو ربّما ميل راموس، وإله مايكل أنجلو وقد انقلب أفقيّاً بسبب

هو يحمل مطرقة لكن ليس تماماً. وهي تحمل منجلاً. وليس تماماً. أهذا ما تبقى بعدما تقهقر عامل المصنوع وفتاة الكولخوز إلى المراهقة وقفزا على موكب يخرق المدن المهزومة وقد جرى تطويعها لعملية إعادة الإعمار؟

للإضاءة والأنظمة» في عاصمة ينبغي التذكير أنّ الكهرباء فيها كانت سلعة نادرة. عُرضت الشخوس الجبّارة بما هي عناصر «موكب عتيق» حسبما سمّاها الفنّان، «تغوص عميقاً تحت الأرض لتصل إلى حيث تتوارى ذاكرة المدينة». وقيل عكساً، وعلى درجة مماثلة من الأهمية،

تقنيّة النقل المستحدثة، مأخوذة من لوحة إدوارد كولي برون - جونز «شجرة الغفران»<sup>٢١</sup>. إنّها مساحةٌ تصويريّة مزدهمة، لا قعر لها ولا شكل، تمارس مأثرةً بصريّة بتوليد دوامة من المراجع البصريّة لا غرض لها غير تأمين خفة متواصلة من المتعة البصريّة. ولعل هذا هو الأثر المقصود من تبادل الثياب: بعد الحداثة يلبس لبوس التاريخ والتاريخ بالضرورة يرتدي رداء بعد الحداثة.

## «اغتيالات» زياد أبي اللمع

تبادل الثياب يولد تشوشاً في الحدود. لكنّه في بيروت مطلع التسعينيات من القرن الماضي، ولد حركة طوافٍ لا ردّ لها فوق حقولٍ توفّر اختلافاتٍ كبيرةً لكنّها فاقدةً لأيّ خصوصيّة. في هذا الحقل، تظهر دالات التاريخ ولكن ليس بما هي وليدة ضرورة ما. يبدو لي أنّ الضرورة كانت تحديداً ما هدّفت إليه النقدُ الفكريّ اليساريّ الغالب لمشروع الحريري، إذ ادّعى أنّه يجابه البحث عن الذاكرة والولوج إليها ضدّ ما سمّاه اليساريّون مشروع سوليدير لإعادة الإعمار العادم للذاكرة، وقد جابهوا الواقع الاجتماعيّ لسلب الملكيّة بمشهد المضاربة العقاريّة التي انطوت عليها إعادة الإعمار. وفي عملهم هذا، ظلّ النقد اليساريّون مخلصين لأمل، لتراثٍ متحدّرٍ من عصر الأنوار أبقى المستقبل، في نظرهم، مفتوحاً أمام إمكاناتٍ غير متحقّقة<sup>٢٢</sup>.

**لم يحدث الأمر المتوقع. ولذا لعله أحس بأنه محظوظ إذ لم يقع فريسة نيته في أن يستدعي قتله بنفسه. علماً أنه سعى وسعه بجديّة لاستدراج اغتياله لما أراد أن يكون جريمةً طبقيّة تأتي بعد حربٍ لم يجر تعميدها إلا بما هي حرب أهليّة دينيّة ومذهبيّة شرسة.**

لم يكن هذا دأب زياد أبي اللمع، الفنّان الشاب المتطرّف الذي دبر عمليّتي اغتيال في العام ١٩٩٢ والعام ١٩٩٥. الأولى محاولة لإحياء التاريخ فيما الثانية قرار بالتخلّص من الحنين إلى التاريخ واستدعاء الطوفان بديلاً منه. في حزيران / يونيو ١٩٩٢، ولم يمض وقتٌ طويل على افتتاح تجهيزه الفنّي اللافت وسط كومات النفايات على شاطئ أنطلياس، شمال بيروت، عاد أبي اللمع في ظهيرة يومٍ أحد دافئ، شعره معقوصٌ إلى خلف، يرتدي

سترّة صفراء أنيقة، وسروالاً من الكتان الأبيض، وقميصاً من الكتان الأبيض، وربطة عنق زرقاء وبياض منقطة وحذاءً لرياضة الغولف مرناً ماركة «ميلانو». وأخذ يتمشّى في قطعة من الشاطئ شديدة الاكتظاظ بين مجموعاتٍ من الأسر منخفضة الدّخل، يتشمّس أفرادها، ويدخّنون النارجيلة، ويشوون اللحم أو يلعبون الورق. لم يكلم أحداً، يتعالى في نظره عن وجوههم المتسائلة. مارَس ذلك لفترة طويلة، تصوّره كاميرا فيديو بيد مساعدٍ يتعقب الوسامة الموجعة لهذا الشابٍ يخطر وسط الأقلّ يسراً منه بكثير. بعد ساعة ونصف الساعة، قبل أبي اللمع دعوةً لتناول القهوة مع إحدى المجموعات. كانت المحادثة عاديّةً غادر أبي اللمع بعدها الشاطئ وقد بدت عليه علامات الانفراج.

لم يحدث الأمر المتوقع، ولذا لعله أحسّ بأنّه محظوظ إذ لم يقع فريسة نيته في أن يستدعي قتله بنفسه. علماً أنّه سعى وسعه بجديّة لاستدراج اغتياله لما أراد أن يكون جريمةً طبقيّة تأتي بعد حربٍ لم يجر تعميدها إلا بما هي حرب أهليّة دينيّة ومذهبيّة شرسة. لم تقع الجريمة لكنّه كان مرتدياً الثياب المناسبة للحديث. لم يكن التاريخ على الموعد، لكنّه خاطر بحياته. ولو كان لا بدّ من لومه على خطأ ما فلاّنه اعتقد أنّ القميص الكتان النظيف قد يستثير القوم ليثاروا لضغينة تاريخيّة مبرّرة. مضت ثلاث سنوات قبل أن يقرّر أبي اللمع أخيراً أنّ التاريخ ليس قابلاً للإحياء وأنّه طريده سهلة، يسهل استيعابها ومسخها. فكان على فتّه أن يتخلّى عن آخر بقية أمل في البعث، ويستعجل بدلاً من ذلك نهايةً مشهد إعادة الإعمار. لذا انتظر حتى صيف العام ١٩٩٥ عندما طلب رئيس الحكومة رفيق الحريري من جان - بيير خليفة، لاعب كرة الطايرة التونسيّ السابق، وأحد مهندسي مجموعة «أوجيه» ومدير «صالون فتاني الديكور»<sup>٢٣</sup> أن ينظّم معرضاً دولياً في بيروت<sup>٢٤</sup>. شُيد بناءً مؤقت على مساحة ٧٥٠٠ متر مربع في ساحة الشهداء بحضور ٤٥٠ مصمماً ومزينا. أرسلت دعوةً مفتوحةً للمصممين المحليين. زور زياد أبي اللمع بطاقةً هويّة لنفسه بما هو مصمّم وانضمّ إلى المعرض. كان تجهيزه واحداً من معروضاتٍ أخرى كثيرة من أثاث وفخاريّات ورسوم وتصوير وتصاميم نسج وسجاد وغيرها من الفنون اليدويّة. المساحة المخصّصة لأبي اللمع كانت ضيقة. تدخلها وأنت تدوس على أو فوق عتبة بلاستيكيّة أو تتخطاها، وعلى جانبيها، على

الاستثنائيّ لشمعون ومصري، من العام ١٩٨٩ بعنوان «بيروت: جيل الحرب»<sup>٢٥</sup> الذي يعبر عن فرحه العميق لمنظر احتراق الفنادق الفخمة في عين المريسة. هو مقاتلٌ سابق رأى في تدمير البديء - البديء الذي يتبدى للعيان فقط - نهاية عالم وبداية آخر. وعلينا أن نتذكر أيضاً كلمات أهم شاعرٍ عربيٍّ من شعراء الحداثة، أنسي الحاج، الذي غالباً ما كان يستدعي مشهد الطوفان:

«كان الأمل بالطوفان.  
لكن نوح بعد الشطف، أعاد جنساً بشرياً أرذل.  
العزاء في المجهول.  
يبقى الأمل معقوداً على الغيب.  
نستيقظ فجأة في أرض أخرى.  
إلى جانب ناسٍ ليس في عيونهم غير العطف»<sup>٢٦</sup>.

لعلّ عتبة أبي اللمع المنبوذة معروضة برسم الاستعادة. ولكن لو كانت محاولةً لوضع حدٍّ لحيننا إلى عودة التاريخ، إذًا ستكون عتبةً فاقدة لأيّ أملٍ لاحقٍ على الطوفان. إنّ طوفان أبي اللمع ليس طوفاناً يستحقّ أن نبقى على قيد الحياة بعده.

في رسالة مختصرة يوم الأوّل من أيار / مايو ١٩٨٥ دعا جان - فرانسوا ليوتار قارئه الشاب إلى أن يراجع مسؤولية الحداثة في إعادة تفسير معناها ذاته<sup>٢٧</sup>، وهو يقترح أنّ بادئة «بعد» في «بعد حداثة» لا يجوز أن تُفهم على أنّها زمنٌ لاحق أو حركة ارتجاج، ولا نظرةً للخلف أو ردّ فعل، فهي ليست حركة تكراريةً بالتالي. الأحرى أنّه يقترح «بعد» بمعنى البادئة «ana» بمعنى «فوق»، «وراء»، «من جديد»، أي أنّها بالتالي عملية تحليل أو انفراج، أو anamnesis أي «استذكار من حياة ماضية»، أو anagoge أي «مؤدّية إلى» أو anamorphoses أي «إعادة تكوين». افترض أنّ بادئة ليوتار تستدعي نحت مصطلح Anamodernity الذي عسانا أن نأخذه على محمل الجدّ قبل الطوفان الآتي وقبل أن تهبّ علينا الرياح من جديد.

الهوامش

١ Jean-Pierre Lyotard, *The Postmodern Condition*,

University of Minnesota Press, 1984, p. xxiii

٢ النهار، ١٠ أكتوبر ١٩٩٢، ص ١ و ٤. كان كرامي يتحدّث إلى الصحافة بعد

مستوى الرأس، أقواسٌ كهربائيةٌ تطلق أزيزاً داخل عبوتين بليكسيغلاس معبأتين بالغاز تتوسّطهما أنابيب كاثود وأنود على شكل قنابل صاروخية. وفي الداخل تستطيع أن تشاهد مجموعةً متنافرةً من أشياءوات أبي اللمع المعهودة - مزيداً من القنابل، كراسي تعذيب معدنية، نراجيل من البليكسيغلاس - شبيهة بتلك التي استخدمها في تجهيزه العام ١٩٩٢. في الجانب الآخر، على خفية من النظر تقريباً، جهاز كهربائي مهيب مجهزٌ بعددٍ من قاطعي الدائرة الكهربائية. في يوم الافتتاح، افتتح رفيق الحريري المعرض، ترافقه حاشيةٌ من الحراس والوجهاء، وقام بجولة سريعة في المعرض ومشى قرب كلّ الأجنحة بما فيها تجهيز أبي اللمع. خلال الأيام المتبقية من المعرض، اختلط الفنانون بعضهم ببعض وكان أبي اللمع يتشاجر بانتظام مع مهندسي الكهرباء الذين وجدوا صعوبةً في تجميعه بتيارٍ كهربائي متواصل. لم يسرّ أبي اللمع لأصدقائه، إلا بعد نهاية المعرض، بأنّ عتبة التجهيز قابلة لأن تكون مميّنةً بناءً على عددٍ من المتغيّرات مثل نوعية نعل حذاء الزائر، وما إذا وضع الزائر يداً واحدة أو يديه اليمينتين على الأعمدة حيث أزيز الأقواس الكهربائية. فإذا ما التقت المتغيّرات، يلقي الزائر صعقةً كهربائية مميّنة.

بعد سنوات من ذلك، وبعدما فقدت الاتصال بأبي اللمع، التقينا ذات عصريّة ودار بيننا حديثٌ قصير. الأمر الوحيد الذي ذكرته هو العتبة القاتلة. أنكر وجود مثل هذا الشيء، تمسكت بقولي، ولفترة طويلة لم أدر ما عساي أفعل به. تلك العتبة القاتلة كانت تملك فرصةً واحدٍ بالمليون أن تنهي مشهد تبادل الأزياء بأن تغتال القائد، كانت بمثل تهوّر محاولة الاغتيال الذاتي [الاستغفال أو الاستغوال] الأولى، عدا عن أنّها تلتفت إلى الخلف، نحو القفّر بعد الكارثة، نحو الرطوبة الغامرة لكلّ شيء التي تعقب الطوفان. وعلى عكس الأمل المبتوث في محاولة الاغتيال الأولى، كانت المحاولة الثانية تتكئ على استحالة التاريخ الجذريّة: إنّ اغتيال عودته المتكرّرة كان أمراً حاسماً قضى على الأمل الذي رافقه وأصابنا بالشلل. ولكن ما الذي يعقب مثل هذا الفعل الجذري، ماذا يأتي بعد الطوفان؟ هل عتبة أبي اللمع القاتلة طريقةً للانتقال إلى عالمٍ آخر ربّما كان أيضاً عالماً أفضل؟ كثيرون قبله استدعوا الطوفان، لكنّ عين الواحد منهم كانت دائماً على اليوم التالي. ويمكننا أن نتذكر مثلاً كلمات المقاتل السابق، راجح العقل، في الفيلم الوثائقيّ

هنيئاً لكل لبنان باختيار



دولة الرئيس  
رفيق الحريري  
قائد  
سيدة للعهد

المهندسة ميرة كركوع عائلات

صيدا الصامدة  
تهنئاً لشعب لبنان  
بابن صيدا البار

دولة الرئيس رفيق الحريري  
وتردد بصوت واحد  
"حماك الله يا ابا بهاء"

ووقفك في طموحاتك بتحقيق رغبات الشعب اللبناني

فرقة التجارة والصناعة في صيدا والجندب \* جهاز الإداري والطبي في مركز لب الطبي \* شركة لقب للتسوق - صيدا \* رشيد عمر الطيب

جمعية محاسن صيدا \* مؤسسة حبيب العمري وأولاده التجارية - صيدا \* إدارة وموظفي معامل منير البساط - صيدا

\* شركة دباسة إكسبران ش. م. ل. د. \* شركة السلاط (البن صرة بغير الطرافة) \* محلات مسهام البساط - صيدا

\* شركة اكسبريسكا ش. م. ل. د. \* إدارة وموظفي معمل جليل بساط للكبسة غافرة \* إدارة وموظفي مكتب الهندس عبد الواحد شهاب

\* شركة سواد لبنان ش. م. ل. د. \* إدارة وموظفي شركة A.B.Z. بحسون، صيدا \* إدارة وموظفي شركة حنين للتجارة والصناعة

\* إدارة وموظفي فرع بنك البحر المتوسط - صيدا \* شركة السوردي للقباسكة والتشتر \* إدارة وموظفي شركة حنين للتجارة والصناعة

\* Harco - مصطفي محمد الحموي، صيدا \* Harco \* إدارة وموظفي مؤسسة الحريري للتجارة والصناعة

\* Olivint Inter office Ltd - Saïda \* Harco \* إدارة وموظفي مؤسسة الحريري للتجارة والصناعة

\* المؤسسة الطبية الإداري والتشخيصي \* قسم مستشفي حرسية \* Harco \* إدارة وموظفي مؤسسة الحريري للتجارة والصناعة

\* مستشفى صيدا \* شركة كواب كروفر - خليفة وعوضي، صيدا \* معمل صيدان ابن صيدا بغير الطرافة \* معمل صيدان ابن صيدا بغير الطرافة \* معمل صيدان ابن صيدا بغير الطرافة

\* معمل صيدان ابن صيدا بغير الطرافة \* معمل صيدان ابن صيدا بغير الطرافة \* معمل صيدان ابن صيدا بغير الطرافة

اجتماعه بالرئيس الياس هراوي خلال الاستشارات النيابية الملزمة التي أدت إلى اختيار الحريري رئيساً للوزراء

٣ راجع الإحصاءات الصادرة عن مصرف لبنان  
<http://www.bdl.gov.lb/statistics/table.php?name=t5282usd>

٤ يتضمّن احتساب الناتج المحلي الإجمالي، الإنفاق على الصادرات والواردات، والناتج المحلي الإجمالي قياس للإنفاق على الاستهلاك زائداً التوظيف في الأعمال والإنفاق الحكومي والصادرات الصافية التي هي الصادرات ناقصة الواردات

٥ سوليدير ش.م.ل شركة مساهمة لبنانية مكلفة بتصميم وإعادة تطوير وسط بيروت. الاسم مكوّن من الأحرف الأولى للتسمية الفرنسية Sociéte Libanaise pour le Développement et la Reconstruction du Centre-Ville de Beyrouth تأسست في ٥ أيار ١٩٩٤ تحت سلطة «مجلس الإنماء وإعادة الإعمار» تبعاً لرؤية رفيق الحريري لإعادة الإعمار

٦ تجدر الملاحظة أنه على الرغم من أن القيمة التبادلية للعملة اللبنانية قد ارتفعت بعد تعيين رفيق الحريري إلى ٦٢، ١٨٥٠ ليرة للدولار الواحد، غير أنّ العملة لم تثبت إلا بعد سنوات في ديسمبر ١٩٩٧ على أساس ١٥٠٧،٥ ليرات للدولار الواحد

٧ راجع على سبيل المثال  
Talat Nizameddin, The Political Economy of Lebanon under Rafiq Hariri: An Interpretation, in *The Middle East Journal*, Vol. 60, No.1 (Winter, 2006) pp. 95 - 114

٨ البعض من أبرزهم: الياس خوري، جاد تابت، رفيف فياض، عاصم سلام، جورج قرقم وفواز طرابلسي

٩ مي غضوب، ما بعد الحداثة: العرب في لقطة فيديو، بيروت، دار الساقى، ١٩٩٢

١٠ المرجع ذاته، ص ٨٧

١١ المرجع ذاته، ص ٨٩

١٢ المرجع ذاته، ص ٩١

١٣ المرجع ذاته، ص ٥٤ - ٥٧

١٤ محمد الرواس، عندما خلق الله الجوع، ١٩٩١. مواد مختلطة وتجميع على لوحة خشب معاكس ١٢٥ X ١٢٥ X ٦ سنتيمترات

١٥ محمد الرواس، تعليقات، نشر غاليري ارتسوا DIFC، دبي ٢٠١٢

١٦ محمد الرواس، إلى أن يوحدنا الموت، ٢٠١١. زيت، أكريليك، رسم رقمي، أنميوم ونحاس على قماشة. ١٧٠ X ١٥٠ سنتيمتر

١٧ جاك - لوي دافيد (١٧٤٨ - ١٨٢٥) قسم الهوراثين (عصبة من المقاتلين الرومان) ١٧٨٤، زيت على قماشة، ٣٢٩،٨ X ٤٢٤،٨ سنتيمتر

١٨ تعليقات، ص ١٦

١٩ <http://nadimkaram.com/archaic-procession/>

٢٠ <http://nadimkaram.com/portfolio-items/races-1997-2000/>

٢١ Edward Coley Burne-Jones, *The Tree of Forgiveness*, 1882

٢٢ زيت على قماشة. ١٨٦ X ١١١ سنتيمتر  
Khouri, «Un double language», in *Prince Klaus Fund Journal* #4, Sept. 2000, pp. 13 - 18

راجع ايضاً،  
Representations Edward Said, *Representations of the Intellectual*, NY: Vintage Books, 1996

(ترجم للعربية في العام ذاته وصدر عن دار النهار وراجع أيضاً Régis Debray and Jean Ziegler, *Il s'agit de ne pas se rendre*, Paris: Ed. Arlea, 1994

(ترجم للعربية ونشر في المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥)

٢٣ ترأس جان بيير خليفة «معرض الفنون التزيينية» SAD من ١٩٨٥ إلى ٢٠٠٣ وتوفي في العام ٢٠١٢. تأسس «معرض الفنون التزيينية» العام ١٩٠٤ بالتزامن مع افتتاح «متحف الفنون التزيينية» في باريس

٢٤ <https://soufflezsurlesbraises.com/tag/beyrouth/>

٢٥ بيروت: جبل الحرب، جان شمعون ومي المصري، أيار ١٩٨٩، بالعربية والإنكليزية مع سرد جزئي بالإنكليزية

٢٦ أنسي الحاج، أنا وأنت ناقصان، ٢٠١٢

٢٧ Jean-Francois Lyotard, *Le Postmodernisme expliqué aux enfants*, Editions Galilée, pp. 107 - 113

١. النهار  
١٩٩٢/١٠/٢٤
٢. النهار  
١٩٩٢/١٠/٣١
٣. النهار  
١٩٩٢/١٠/٢٢
٤. النهار  
١٩٩٢/١٠/٢٧
٥. النهار  
١٩٩٢/١١/٦
٦. النهار  
١٩٩٢/١١/٢٦
٧. النهار  
١٩٩٢/١٢/١٢
٨. النهار  
١٩٩٢/١٢/٢٥
٩. النهار  
١٩٩٢/١٠/٢٥
- (تفصيل)





حين خلق الله  
الجوع، ١٩٩١.  
مواد مختلفة وتجميع  
على خشب



حتى يجمعنا الموت،  
 ٢٠١١. زيت،  
 اكريليك، طبع  
 رقمي، الومنيوم

١٠



١١



١٣



١٢



١٥



١٤



بيروت: جيل الحرب | War Generation (1989)



- ١٠. مسيرة  
فوضى، ١٩٩٤.
- متحف سرسق
- ١١. مسيرة  
فوضى، ١٩٩٥،  
متحف بيروت  
الوطني
- ١٢. مسيرة  
فوضى، ١٩٩٧ -  
٢٠٠٠. وسط  
بيروت
- ١٣. مسيرة  
فوضى، ١٩٩٧ -  
٢٠٠٠.  
وسط بيروت
- ١٤ و ١٥. مسيرة  
فوضى، ١٩٩٧ -  
٢٠٠٠. بيروت،  
جسر فؤاد شهاب.
- الصور هي  
لأعمال نديم كرم



جان شمعون ومي  
مصري، بيروت:  
جيل الحرب،  
١٩٨٩

## أمين الباشا سيد الفرحة والألوان

يبقى أنّ أسلوبه المميّز يتجلّى في المائيات. وهو المعلم في هذا النوع! وحدها مائيات أمين الباشا تريك النور يتلأأ بين خضرة الطبيعة.

ثلاثيّة لا تفارق أعماله: وجه امرأة وشمس وطير. دوماً الطير: «يحطّ على المائيّة أو الزيتيّة ويحشر نفسه عفويّاً فيها»، كان يحلو له أن يقول، ويضيف «لست أستطيع أن أقول ما الذي يمثله الطير، أشعر فقط أنّه يجب أن يكون هنا». يحطّ الطير أينما كان في رسومه: على يد، نادراً على غصن، على ذراع امرأة عارية، أو على ظهر رجل يسعى إلى حبيبته، أو تجده يرفرف بين رجل وامرأة متقابلين، أو واقفاً على رأس هذا أو ذاك. لا رمزيّة في الأمر ولا استعارة. ليست طيور أمين الباشا حمامات سلام. ولا هي يمام بيروت. إنّها طيورٌ وحسب. كائنات طبيعيّة هشة جميلة تزقزق وتشحد مناقيدها على كلّ مادّة صلبة وترفرف وتبني أعشاشها وتبيض وتحرس صغارها وتزقّقهم الأكل وتعلمهم الطيران. وتطير بلا سابق إنذار وتحطّ على القلب. لا أمين الباشا دون بيروت. وبيروته الأزرقان: بحرها والسماء. يحمل دفاتره ويتجوّل في المدينة إلى أن يستجلس في مقهى ويرسم. يقول إنّه تتلمذ في مقاهي بيروت قبل أن يدرس في الأكاديميّات. ارتاد المقاهي الشعبيّة العتيقة - «قهوة القزاز» و«مقهى فلسطين» - قدر ما جالس زملاءه الأدباء والفنّانين في مقهى «لا پاليت» العصريّ. وهذا قبل انتقاله إلى مقاهي شارع الحمرا والروشة.

أمين الباشا فنّان المدينة. لكن على طريقتة الخاصّة. الطبيعة عنده تخيل وتزيين. أمين الباشا يزين المدينة بالريف وبالشعر، ولو سُئِل لأضاف... وبالموسيقى أيضاً. أمين الباشا فنّانٌ يجمّل الأشياء. يرى إلى الفنّ على أنّه صنعة تزيد الحياة بهجة وجمالاً.

فواز طرابلسي

في الخامس من شباط / فبراير ٢٠١٩ غادرنا الفنان أمين الباشا، أحد كبار تشكيليّ العصر الذهبيّ للفنّ بلبنان في ستينيّات القرن الماضي وسبعينيّاته.

أمين، المولود في العام ١٩٣٢، بدأ بالرسم باكراً وهو يرافقه خاله الرسّام والموسيقيّ. غادر بمنحة لدراسة الرسم في باريس بعد تخرجه من الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة. تنقل بعدها بين إيطاليا وإسبانيا، بلد زوجته أنجلينا، قبل أن يعود ليستقرّ في لبنان.

أنتج وعرض أعماله خلال نصف قرن من العام ١٩٥٩ إلى العام ٢٠٠٩ في لبنان وعدد من الدول العربيّة والأوروبيّة. حاز على عدّة جوائز. مارسّ التدريس. وألّف كتباً وكتب مسرحيّة. على الرغم من عنوان مسرحيّة «المنحرف»، لم تكن المأسبي له ولا الحروب، مع أنّه غادر في منحة إلى إيطاليا حيث أنتج مجلداً عن يوميات الحرب.

كنت شاهداً ذات مرّة عندما فقدت لوحاته البهجة واللون. كان ذلك خلال حصار الجيش الإسرائيليّ لبيروت صيف العام ١٩٨٢. زرته في مرسمه مقابل الجامعة الأميركيّة يوم الأحد في ٢٢ آب / أغسطس، وهذا ما دوّنته في يومياتي: «كان أمين مستغرقاً في مائياته عن الطبيعة عندما دهمته الحرب. قتمت ألوانه، وهو سيّد من استخدم الضوء والنور. تكسّرت خطوطه. وطائرته الأسطوري زاهي الألوان صار أشبه بغراب، وانقلب على ظهره».

أمين الباشا إنسانٌ منذور للفرحة. لا يوحى بذلك. ليس ضحوكاً ولا كثير الابتسام. لكنّه لعوب له فنّه الخاصّ في الدعابة والسخرية. يعيد ترتيب الأشياء حسب هواه. يشاغب. ينظم المقالب على الطبيعة والإنسان. وقد رسم بكلّ الطرق: بالقلم الرصاص والخبر والمائيات والزيتيات. رسم الوجوه، الزهور، القلوب، الثمار، الماء، الأفق، الشمس، البحر والطيور.





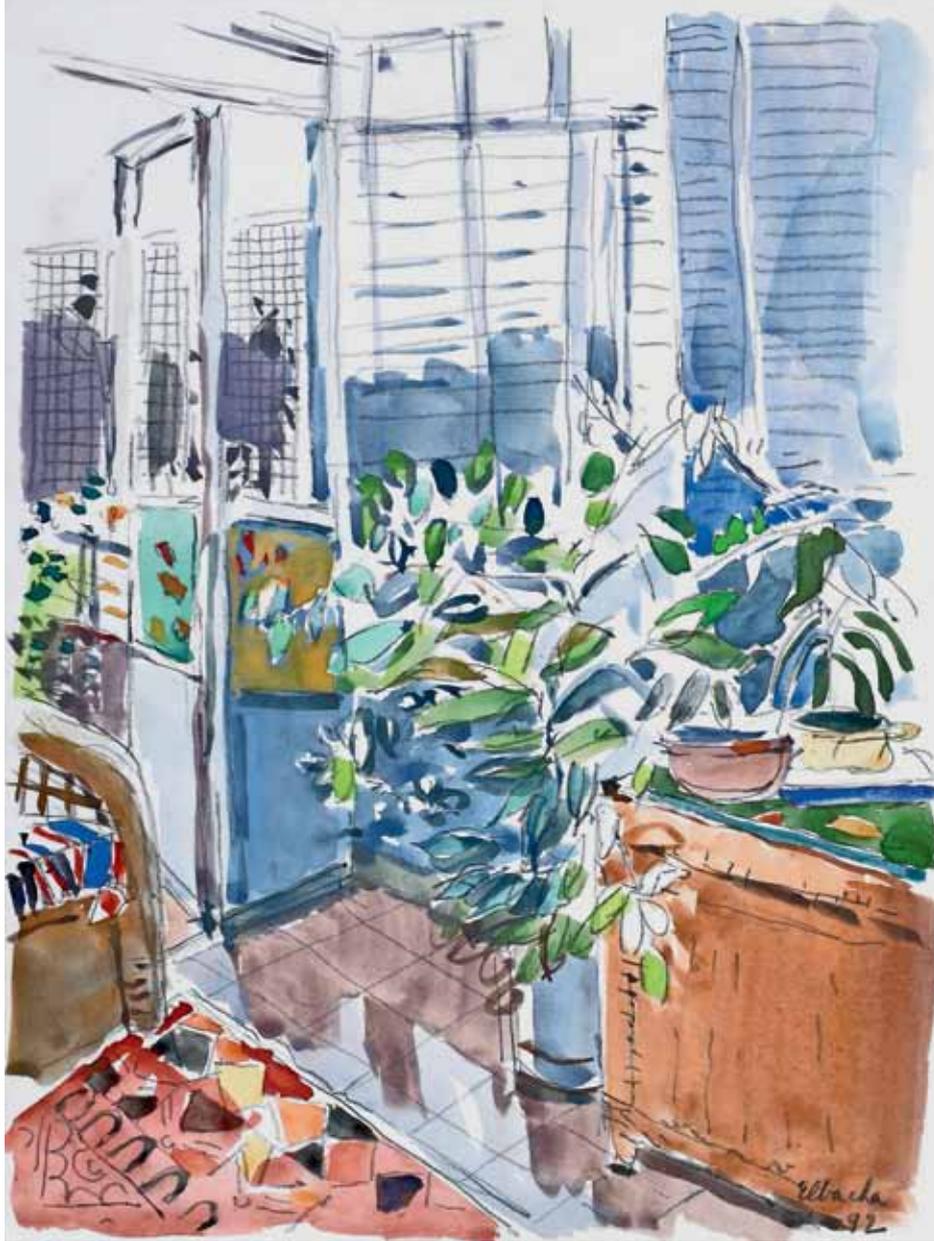
ألوان مائية

❖ ❖  
١٩٨١

❖ ❖  
١٩٨٦

❖ ❖  
١٩٨٦





ألوان مائية

❖  
١٩٩٢

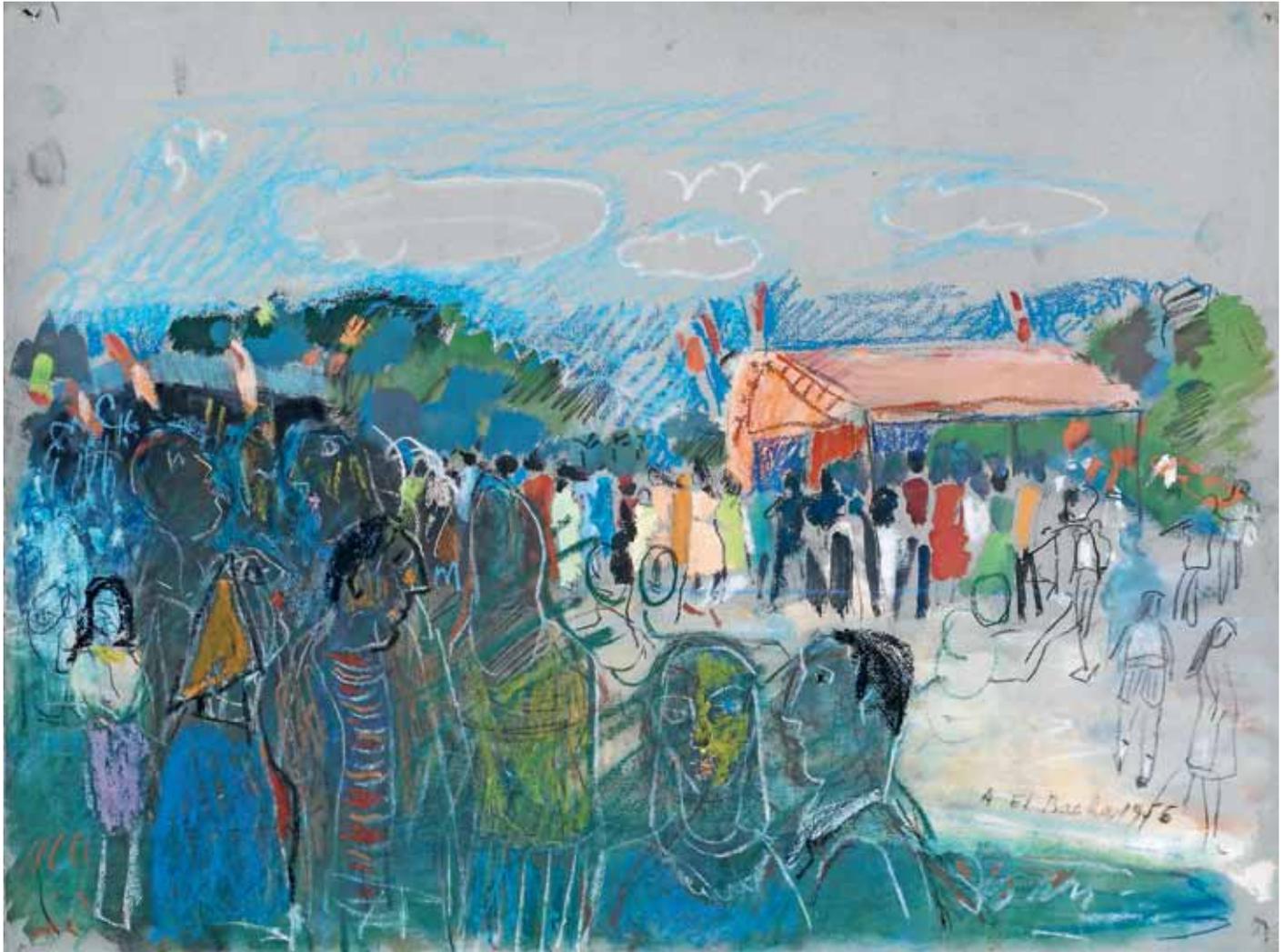
❖❖  
١٩٩٠

❖❖  
١٩٩٠



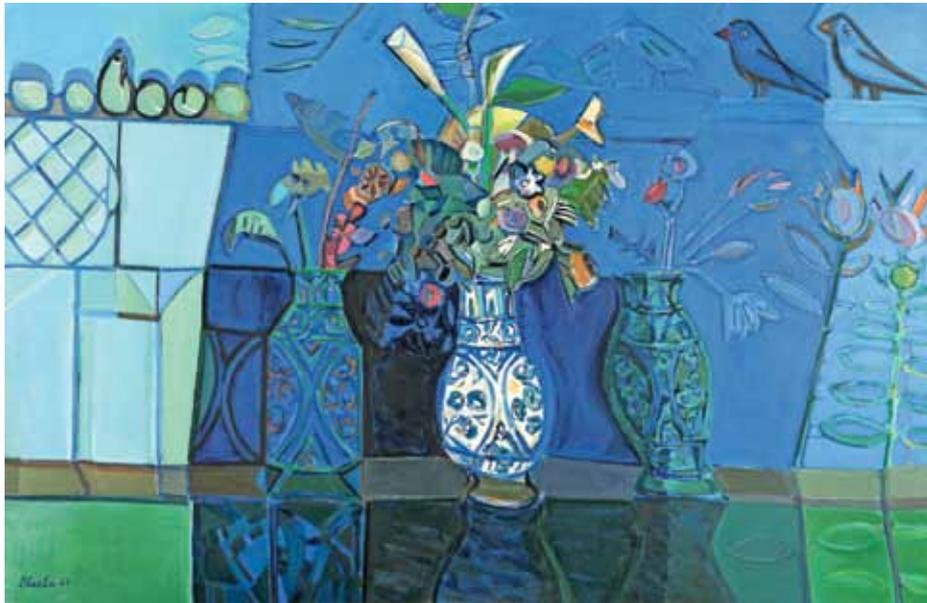


❖  
ألوان مائية



❖

باستيل، ١٩٥٦

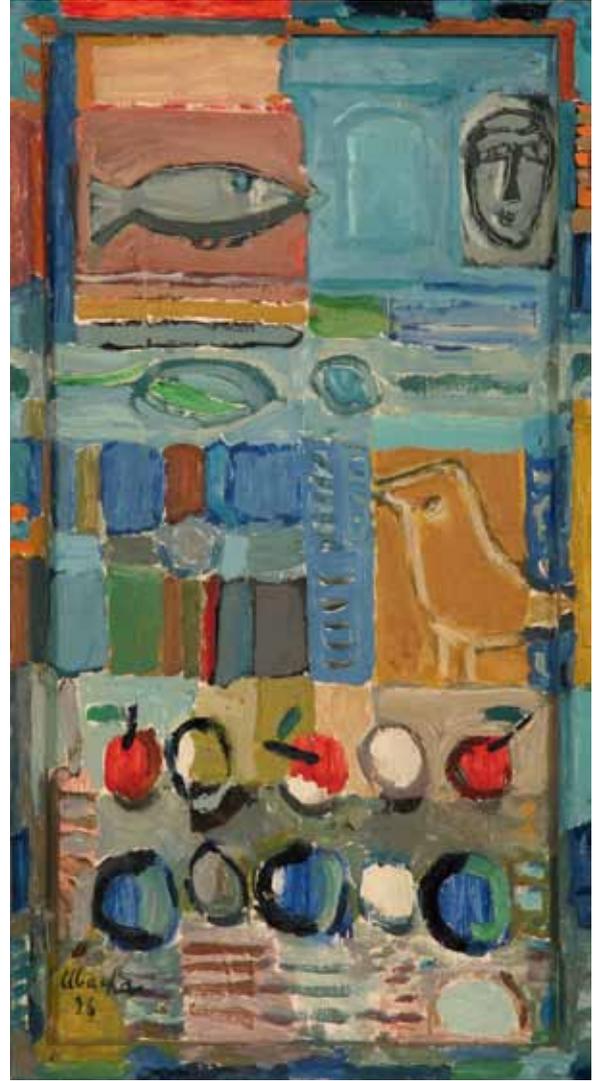
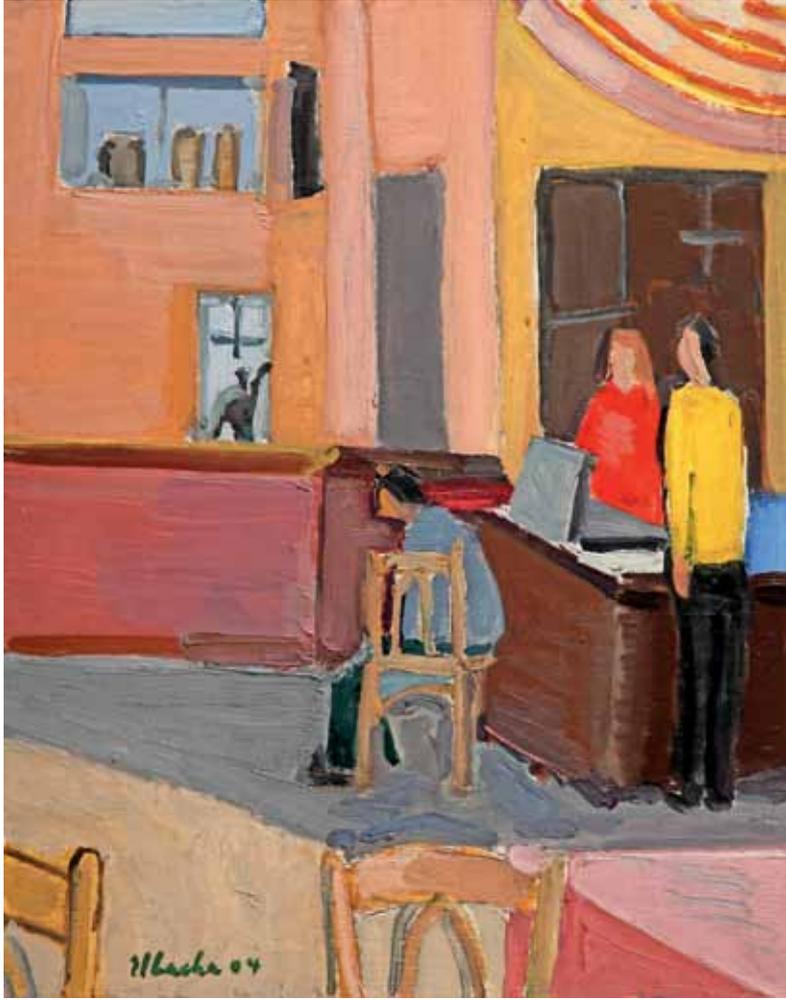


زيت على قماش

❖ ❖  
٢٠٠١

❖  
١٩٨٩ - ١٩٨٨





زيت على قماش

❖ ❖  
١٩٩٦

❖ ❖  
٢٠٠٤





رسم على خشب



# سجاد عرسال الملوّن

## مواسم الكرز وأرض البقاع وفصول السنة

محمد الحجيري

روائي وكاتب  
وصحافي، لبنان. آخر  
أعماله «العشق  
السريّ. المثقّفون  
والرقص الشرقي»  
(٢٠١٩).

هي قصّة لجوء المصانع إلى استنساخ كلّ شيء بأسعار زهيدة وبلا أيّ اثر فنيّ أو لمسات ذاتيّة. تعتبر حرفة حياكة السجّاد مهنة منزليّة، من تراث بلدة عيديمون، وكانت العروس في أيّام الماضي (الأمر نفسه في بعض المناطق الإيرانيّة) تصطحب معها في جهازها إلى دار الزوجيّة السجّاد وهي فخورة به، وكان السجّاد العيديمونيّ يُهدى للوجهاء والزعامات. والسجّاد العيديمونيّ يتميّز باللون الأحمر وكلفته عالية، بسبب غلاء موادّه والبطء في إنجازها بأنامل مجموعة من النساء الحائكات بالتعلّم أو الوراثة. هو من الصوف الخالص الطبيعيّ الذي كان يُعدّ محليّاً في كلّ بيت حيث يجمع من الغنم. ويمر إنتاج كلّ سجّاد بعدّة مراحل كالتالي: تأمين المادّة الأوليّة من صوف الغنم الذي يَغسل وينظّف ويحضّر قبل مراحل صناعة السجّاد وهي حسب تسلسلها: تمشيط الصوف وهو يستغرق وقتاً طويلاً وجهداً مضمناً ومتعباً، غزل الصوف على الدولاب وتحويله خيوطاً لتلتف لتتحوّل مرّة إلى «شماميط»<sup>١</sup> على المردن<sup>٢</sup>؛ تحويل الشماميط الجديدة شللاً تصبغ وفق المواصفات والألوان. بعد الصباغ: كبكة<sup>٣</sup> الخيوط مجدداً ثمّ تكوين السجّاد الذي يتمّ عقده عقداً. وتعتمد حياكة هذا النّوع من السجّاد على أشكال هندسيّة ورسوم مستوحاة من وسط آسيا، كأنّ الثقافات التقليديّة والاجتماعيّة هي أيضاً تمازج وتلاقح، وهويّتها في تمازجها وتنقلها وخروجها من بلد إلى بلد ومن بلدة إلى بلدة، ومن ثقافة إلى ثقافات. فحكاية الحياكة لا تنتهي في عيديمون، إذ انتقلت إلى بلدة الفاكهة البعلبكيّة البقاعيّة بالمصاهرة، وانتشرت بقوة، وصارت ركناً من أركان تعريف البلدة، حيث تُعرف بسجّادها وبعض أشياء المنزل التي تصنع يدويّاً، وإذا اشتهرت الحرفة في البلدة البقاعيّة، كانت في

في روايته «اسمي أحمر» يتناول الروائيّ التركيّ أورهان باموق، موضوعاً مثيراً هو «الفنّ التشكيليّ الإسلاميّ» أو الحياة السريّة للفنّ. يستمدّ عنوانها من اللون الأحمر الأكثر استخداماً في الرسم الإسلاميّ (وفي السجّاد اليدويّ اللبنانيّ). يروي أنّه أمضى في كتابة هذه الرواية عشر سنين. ففي البداية أمضى أربع سنوات في شراء الكتب ذات الصلة بموضوع الرواية فقرأها جيّداً ثمّ تفرّغ ستّ سنوات كاملة للكتابة، لأنّه في حاجة إلى معرفة الكثير عن فنّ النقش والطباعة على السجّاد، وذلك لا يتوافر إلا في الكتب القديمة، يرصد فنّ النقش، ويعكس الأجواء العامّة التي يعيشها النقّاشون في ظلّ معاناتهم الطويلة من ظلم النظرة للنقّاش باعتبار هذا الفنّ تطاولاً على مبدع الخلق الله، فجاءت الأحداث باسترسال طويل عابرة نفوس أولئك النقّاشين ملقية الضوء على طبيعة فنّهم الرائع.

من عيديمون إلى الفاكهة الى توخّش النايلون لا ندري إن كان أورهان باموق يعرف أنّ اهالي بلدة عيديمون في عكار ورثوا حياكة السجّاد (أو السدّاج باللهجة المحليّة) هذه الحرفة اليدويّة التراثيّة عن الأتراك أو العثمانيين، ذلك أنّ الحياكة أصلها حكاية. عمرها أكثر من مئة عام، بحيث كان في كلّ بيت مشغل صغير للحياكة هو عبارة عن نول (آلة الحياكة البدائيّة) والمعدّات الأخرى التي كانت تستعمل كالمشط الحديديّ ودولاب الغزل وموادّ الصباغة وغيرها، الحائكات اللبنانيّات لا يعانين من المحرّمات والنظرة الدينيّة إلى الرسوم بل من الشقاء والتعب وشبح اندثار الحرفة اليدويّة مع توخّش الاعتماد على النايلون والآلات و«ضياح الهالة»، كما يسمّيه الكاتب الألمانيّ فالتر بنيامين، وقصّة ضياح الهالة

١ الصوف حين يغزل على الدولاب.  
٢ سيخ الحديد الذي يلف عليه الشموط.  
٣ كرات من الصوف.

البلدة العكاريّة في طريقها إلى الانقراض وربما انقرضت لمدة وسرعان ما أعيد إحياء جانب منها بطرق معاصرة، وبمبادرة من إحدى الجمعيات.

## من السجاد إلى البسط

وانتقلت الحرفة إلى بلدة عرسال الواقعة في البقاع، شرق لبنان، في أواخر الستينيات من خلال تعلّم امرأة تدعى فاطمة الحجيري، وانتشرت في بعض البيوت. ويسمّي أهل عرسال هذه الحرفة السجاد العربيّ أو «شغل اليد»، ولصعوبة هذه الحرفة التي تحتاج إلى مجهود جسديّ وصبر ومثابرة وإرادة بدأت تدريجيّاً بالانحسار. وحاولت بعض الجمعيات دعمها، لكنّها في الواقع لم تكن أكثر من فلكلور موسميّ، ففي بعض المهرجانات يحضرون صناعتهم التي تكون ديكوراً وزينة وسرعان ما يعودون بها إلى حيث أتت. لكن في السنوات الأخيرة،



**وصصل** بعض السجاد العرساليّ والفيكانيّ. إلى محال المزادات والأونلاين. وأروقة القناصل والدول بطريقة رمزية. وهذا في جانب منه يعود إلى التسويق والابتكار والتحول في طرق الصناعة واللوحات التي تنقش والأصباغ غير التقليدية. وفي الواقع أن السجاد الذي بدأ بالانتشار يسمى «البسط». وهو تطوير لصناعة السجاد التقليدي الذي أحجم الناس عن شرائه لارتفاع أسعاره وثقل وزنه.



تحوّلت الحرفة في عرسال من حرفة تراثيّة منزليّة إلى مشغل يعمل فيه أكثر من عشر نساء (مع وجود قلة من النساء ينسجن السجاد في المنازل). وصل بعض السجاد العرساليّ والفيكانيّ (نسبة إلى بلدة الفاكهة)، إلى محالّ المزادات والأونلاين، وأروقة القناصل والدول بطريقة رمزية، وهذا في جانب منه يعود إلى التسويق والابتكار والتحول في طرق الصناعة واللوحات التي تنقش والأصباغ غير التقليدية. وفي الواقع أن السجاد الذي بدأ بالانتشار يسمى «البسط»، وهو تطوير لصناعة السجاد التقليدي الذي أحجم الناس عن شرائه لارتفاع أسعاره وثقل وزنه. ويمكن التفنّن أكثر في صناعة البسط حتى يبدو أشبه بلوحات فنيّة تجريدية يمكن تعليقها على الجدران أو وضعها على الأرض، وتستهوئ الناس الذين



وباكستان، حيث كانت تصمّم السجادة وتتابع تنفيذها بالصوف والحريير.

## الأكزوتيك في زمن البوليستر

المحاولة الأخرى التي ساهمت في عصرنة السجاد العرسالي بنحو لافت، حصلت من خلال معرض «خط الزمن» الذي أقيم في قصر داغر - الجميزة (بيروت)، وقد نظّمته الروائية دومينيك إدّه والسيدة إيزابيل حلو، وتضمّن مجموعة من الأعمال التي صنّعت في مشغل عرسال ومستوحاة من حكايات الحائكات وليس مجرد تنفيذ تقنيّ وحرفيّ، وبدا السجّاد (البسط) القديم المعصرن في ذلك البيت كأنّنا أمام تحفٍ متكاملة، فالبيت قديم بهندسة ساحرة وفي مدينة بيوتها القديمة مهدّدة بالانقراض، والبسط شيء نادرٌ نسيباً، وبات أقرب إلى العلامة السياحيّة والأكزوتيك في زمن البوليستر. وجاء في تعريف المعرض: «اقترحنا على النساء في المشغل إدخال ذكرياتهنّ والطبيعة المحيطة بهنّ وأرضهنّ في هذه البسط. وقد أتت النتيجة مذهشة، فمن ذكرى حقل التوت الذي دمّرته مجموعات داعش نسجت أمون آخر شجرة قطعها داعش. أمّا حلم حلّمة عن جدّتها رسميّة التي كانت تعمل في حقل قمح، فكان المفتاح لسجادة مذهلة تمزج بين حقل قمح أخضر وأصفر وجبال بيّنة وبيضاء. وهكذا، تزيّن السجّاد بمواسم الكرز وألوان أرض البقاع والأشجار والثعابين والأوراق والسلاحف وفصول السنة. لكلّ سجّادة قصّة تبصر النور في المشغل، الصوف يأتي من أغنام البقاع، تنسجه النسوة وتحضرنه وتصبغنه بألوان نباتيّة بعدما أفنعنهنّ باستعمال الألوان النباتيّة دون غيرها. كما يستفدن أيضاً من تقنيّاتٍ وصبغات جديدة مستوردة كالأزرق والأحمر. وإلى جانب الألوان التي يتقنّ صنعها انطلاقاً من الجوز والسّمّاق والأوكالبتوس والبصل والرمان والكرّم وغيرها، بدأن باستعمال الألوان المستخدمة في مشغل خيط الزمن المصنوعة من القرمزيّة والنيليّة والأكاسيا وخشب الصندل». يضيف التعريف «بدأت هذه المغامرة في أواخر العام ٢٠١٧ ولكنّها بداية مغامرة أخرى على المدى الطويل، هي مسيرة تهدف إلى استعادة هذه المهنة بخيال أولئك الذين ورثوها والذين يقومون بدورهم بنقلها إلى الأجيال الشابة».

هي مغامرة الحياكة طبعاً، في بلد تنهار فيه كلّ القيم ولا يبقى غير الرماد.

يبحثون عن غير المتداول أو النادر. ففي نيسان / أبريل ٢٠١٧، أهدى رئيس الحكومة اللبنانيّ سعد الحريير، أثناء زيارته لألمانيا، المستشارة أنجيلا ميركل سجّادة من صنع نساء عرسال. «الخطوة أثلجت قلوب كثيرين في البلدة الحدوديّة»، وسأل أحدهم لماذا لا يفرش السياسيّون مكاتبهم من هذ السجّاد أو البسط. وفي حزيران / يونيو العام ٢٠١٦ حضرت عرسال في افتتاح الدورة السنوية الخامسة عشر للمؤسّسة الفرنكوفونيّة لهيئات الرقابة الماليّة. فحاكم مصرف لبنان رياض سلامه أراد تكريم عضو مجلس الإدارة لدى هيئة الأسواق الماليّة الفرنسيّة كريستيان دي بواسيو، وقدم له سجّادة يدويّة من صنع نساء بلدة عرسال البقاعيّة.

**اقترحنا على النساء في المشغل إدخال ذكرياتهن والطبيعة المحيطة بهن وأرضهن في هذه البسط. وقد أتت النتيجة مذهشة. فمن ذكرى حقل التوت الذي دمّره مجموعات داعش نسجت أمون آخر شجرة قطعها داعش. أمّا حلم حلّمة عن جدّتها رسميّة التي كانت تعمل في حقل قمح.**

بدأت الهديتان، الحريريّة والسلاميّة، أشبه بـ«أكزوتيك سياسيّ» مصدره بلدة لبنانيّة، كانت «متهمة بالإرهاب» وتعيش تحت وطأته وضرباته، وكان اسمها يومياً في مقدّمة نشرات الأخبار خلال الثورة السوريّة وحروبها. وفي خضمّ هذه الظروف المأسويّة، هناك صاحبة متجر اسمها نيفين مكتبي، سعت إلى إبراز نوع من الصناعات اللبنانيّة اليدويّة المهدّدة بالانقراض، وهناك نساء عرساليات عدا بعض نساء الفاكهة، لديهنّ حرفة ويبحن عن لقمة العيش فكانت الثمرة بثّ الروح في الفنّ التراثيّ. استخدمن براعتهنّ ومهاراتهنّ في استعمال «سدو» القطن والصوف في حياكة البسط الملوّنة. كان سعي نيفين مكتبي في محلّه، فهي ابنة عائلة تعمل في تجارة السجّاد، ولم تترك هذه المهنة، بل طوّرتها من خلال دراسة تاريخ السجّاد والقماش في سودبيز (الدار العالميّة للمزادات العلنيّة بلندن) لمُدّة عام. لاحظت أنّ الشباب، خصوصاً الذين يؤسسون لبيوت جديدة، لا يرغبون بالسجّاد التقليديّ الكبير، فذوقهم تغيّر، وأرادت مكتبي التعاون مع بعض حائكات عرسال والفاكهة كما تفعل مع عاملين وعاملات في إيران والهند وتركيا

٤ الخيوط التي توضع على النول، وتنسج عليها البسط أو السجّاد.



# كفاب

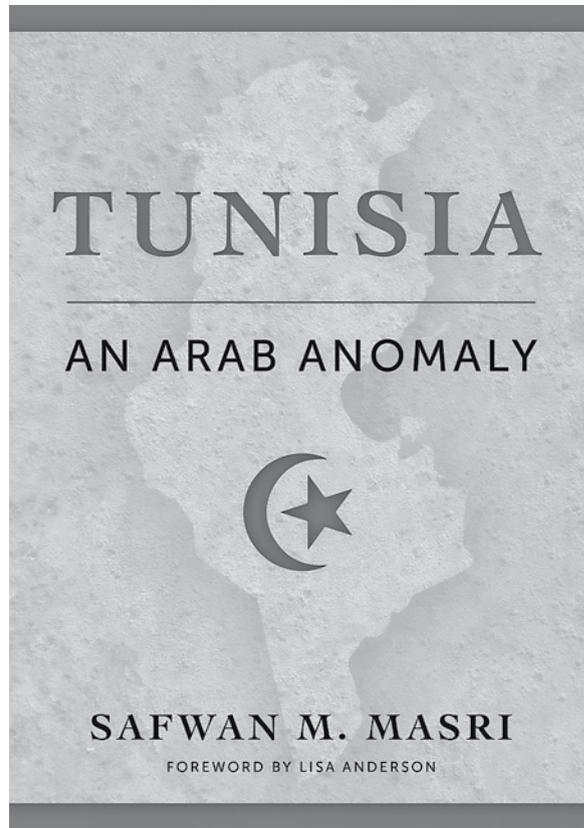
١٦٠ هل تونس استثناء عربي  
ليلي الداخلي

١٦٥ ردّاً على ليلي الداخلي  
فرادة تونس لا تنفي انتماءها العربي  
صفوان المصري

## هل تونس استثناء عربي

### ليلي الداخلي

باحثة في «المركز  
الوطني للأبحاث  
العلمية» في فرنسا،  
آخر مؤلفاتها «جيل  
من المثقفين العرب  
في سورية ولبنان،  
١٩٠٨ - ١٩٤٠»  
صدر في  
(٢٠٠٩).  
La vie des idées,  
collège de france  
٧ حزيران ٢٠١٨.



Safwan M. Masri

*Tunisia. An Arab Anomaly*

Columbia University Press, New York, 2017

٤١٦ صفحة

هل تونس استثناءً في العالم العربي؟ هل يفسّر هذا نجاح الثورة الديمقراطية فيها؟ هذا ما يؤيده صفوان المصري، لكنّ حججه غير مقنعة نظرياً وتاريخياً في كتابه «تونس، شذوذ عربي». كانت الثورات العربية منذ العام ٢٠١١ موضوع العديد من التحليلات والتأملات، وصولاً إلى خلق فسحة حوارٍ وسط الدراسات عن المنطقة وفي العلوم السياسيّة. عند التفكير في فشل الحركات الشعبيّة في العالم العربيّ، والحروب التي قامت في سورية واليمن، والتشظّي الليبيّ، تكثر التحليلات عن الثورة المضادّة، والمآزق الديمقراطيّة، وصناعة الحروب الأهليّة أو لعبة القوى. تسعى محاولات الفهم المختلفة هذه إلى تحديد العوامل التي تفسّر هذا الفشل، فتسترجع نماذج تاريخيّة آتية من أماكن أخرى (الثورة الفرنسيّة، أو الأميركيّة، والتحوّل الديمقراطيّ الأوروبيّ أو الأميركيّ الجنوبيّ، إلخ..).

كتاب صفوان مصري جزءٌ من هذه الأبحاث، أو فرع من فروعها على الأقلّ، لاختياره الانكباب ليس على الفشل أو المآزق، بل على «الحالة التونسيّة» التي تبدو له نموذجاً واستثناءً في الوقت نفسه، لإدراك الحركات الفاعلة خلال الربيع العربيّ. ومن أجل ذلك يعتزم المصري رحلةً في تاريخ هذا البلد الصغير، بحثاً عن مفاتيح لفهم ما جرى هناك في أيلول / ديسمبر ٢٠١٧ (الانتفاضة)، وخصوصاً عن قدرة التونسيّين على مقاومة الهجمات المضادّة، التي عمّت المنطقة منذ العام ٢٠١٣. سؤاله بسيطٌ للغاية، يعلنه منذ الصفحة الأولى: «لماذا تونس؟»

### مّ صنّعت «المعجزة التونسيّة»؟

ضمن هذا المفهوم الفكريّ، نصّ صفوان المصري عملٌ من طبيعة خاصّة للغاية، لأنّه صادرٌ عن شخص

على كامل سلسلة المراتب، ويحافظ في الوقت ذاته على التمييز بين التعليم والدين ويجعل من المدرسة حيزاً (شبه) علماني (ص ٢٤٤ - ٢٥٨).

————— ثانياً، تحرير النساء. يراجع المصري تاريخ تحرير المرأة في تونس، انطلاقاً من الشيخ طاهر الحداد، مصليح جامع الزيتونة، ومؤلف بحث في العشرينيات شجّع فيه عليّ تعليم المرأة المسلمة وإعطائها بعض الحرّية، وصولاً إلى الحبيب بورقيبة، الذي أصدر قانون الأحوال الشخصية عام ١٩٥٧ الذي أدى إلى سفور النساء التونسيات رمزياً وعملياً.

————— ثالثاً، الدين، الذي انفصل عن الدولة، بفضل تحالف إستراتيجي بين السياسيين والسلطات الدينية التقليدية في العام ١٩٥٧، أدى إلى فصل الدين عن الدولة، وسمح بتنحية رجال الدين إلى حدّ ما عن التدخل في الأمور السياسية بعد الاستقلال (ص ٢٢٤).  
————— أخيراً، «المجتمع المدني»، الذي يعتبر نتيجة مجمل هذه التطوّرات التي سمحت بأن يكون لتونس المستقلة طبقة وسطى ناشطة سياسياً.

#### هل تونس بلد عربيّ؟

إنّ عرض مزايا «النموذج التونسي» مسبوق بجزء تاريخيّ يؤكد استمرارية الوحدة الجغرافية والسياسية لتونس، حول قرطاج وأفريقيا الرومانية، وصولاً إلى التجارب الإصلاحية في إطار الإمبراطورية العثمانية. والغرض من مجمل هذه «التجارب التاريخية» هو بيان متجدّد لاستثناء تونسيّ، أو لشواذه، كما يقول العنوان.

لكنّ هذه المحاجة موجهة. ما يريد المصريّ إثباته هو أنّ تونس شواذ وسط العالم العربيّ. لكنّ ذلك يرتب عليه أن يعرف العالم العربيّ انطلاقاً من هذا الاستثناء. خاتمة الكتاب واضحة للغاية في هذا الصدد. والواقع أنّها لا تعني تونس في شيء، من الخطأ - برأي الكاتب - أن نفكر أنّ العالم العربيّ كتلة واحدة وأنّ العرب شعب متجانس، وبالتالي أن نتحدّث عن «ربيع عربي» (ص ٢٩١).

وبينما المسألة هي إمكان أن تكون تونس نموذجاً، أو أنّها تبدو كاستثناء، ضمن العالم العربي، راح المؤلف يجمع المعلومات حول هذا البلد الصغير، ليصل إلى نتيجة تقول إنّ «العالم العربي» مشكوك فيه ككيان في حدّ ذاته، بل إنّه ملغى، بفضل دراسة الحالة التونسية. فقد «نححت» تونس لأنّها، حسب رأيه، مختلفة في كلّ شيء عن سائر العالم العربيّ، ولأنّها بالتالي شواذ. فمسارها التاريخي يجعل

لا دراسة المجتمعات العربيّة ولا النظريّة السياسيّة من اختصاصه. يقدّم المصري نفسه كمراقب مهتمّ بتونس بصفة شخصية بحثية، بما هو أستاذ جامعيّ عربيّ أردنيّ فلسطينيّ - أميركيّ، خبير أساساً بالإدارة في جامعة كولومبيا. المسألة عنده هي «النموذج التونسي». وبدلاً من أن يتناول الربيع العربي بما هو كتلة واحدة، يختار منه الحالة التونسية في محاولة لتفسير كيف استطاعت الانتفاضة (وال تجربة الليبرالية والديمقراطية التي تلتها خصوصاً، حسب رأيه) أن تستمرّ في هذا الجزء الصغير من المغرب بينما زرعت الحرب والثورة المضادة في الأماكن الأخرى، أو أنّها ببساطة لم تتمكّن من أن تعبّر عن نفسها أو أن تنمو وتتطوّر.

والعمل الناجم عن ذلك هو بالتالي فرضيّة من الفرضيات ورحلة في تاريخ تونس تغطّي وتؤطر عدداً من العوامل لإظهار أنّ تونس حالة خاصّة ضمن «العالم العربي». ليست الفكرة جديدة، في الحقيقة، ولا الجدة هي ما يدعيها المؤلف. إنّّه يهدف إلى توعية جمهور (أميركيّ بوجه خاصّ) حول هذا البلد الصغير العربي الغامض، وتوفير معلومات عن تاريخ تونس المعاصر (بل حتى عن تاريخها الأقدم، بما هو تاريخ يعود إلى العصور العتيقة).

#### ما يريد المصري إثباته هو أن تونس شواذ وسط العالم العربي. لكن ذلك يرتب عليه أن يعرف العالم العربي انطلاقاً من هذا الاستثناء.

أسلوب البحث - قراءة مؤلفات، وحوارات مع تونسيين أثناء بعض الزيارات - يسوق الكتاب إلى الاقتراب من خطاب شائع، خصوصاً في تونس، يأخذ شكل نوع من «الفخر»، ما يمكن تسميته «كبرياء تونسي»، تُقدّم فيه تونس غالباً بما هي «البلد العربيّ الأوّل» أو «البلد العربيّ الوحيد» الذي حقق كيت وكيت. ولا عجب أنّ يتركز هذا الاستثناء التونسي في أربعة مجالات.

————— أولاً التعليم. فالنظام التعليمي الذي أرسى قواعده الحبيب بورقيبة ووزيره الأوّل للتربية الكاتب محمود المسعدي كان يهدف إلى إنشاء طبقة من موظفي الدولة، المؤهلين حسب مقياس الجدارة الجمهورية، نظاماً يحمي مكتسبات ثنائية اللغة (الكولونيالية) وينشرها

رمضان، منع تقديم الخمر وبيعها، مراقبة الأماكن العامة وإنشاء مصرف إسلامي وإذاعة إسلامية، تسيطر عليهما الأسرة الحاكمة) مع الاستمرار بسياسة التنديد بعلامات التدين الخارجية المعتبرة بالجملة إسلامية متشددة وبالتالي احتجاجية.

إن المؤلف منهمك، بصورة عامة، في تعداد مآثر ذلك الذي يسميه «أبو الأمة» بحيث نسي أن يضع في حسابه بن علي، مع أن الأخير ظل في السلطة قرابة ٢٤ سنة. وكذلك، بين القوى الاجتماعية الفاعلة، التي تشكل ما يسميه المجتمع المدني التونسي، بالكاد تتمكن من رؤية فاعلين آخرين غير «الاتحاد العام التونسي للشغل»، واتحاد أرباب العمل، UTICA «الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والمهن اليدوية»، مما لا شك فيه أن «الاتحاد العام التونسي للشغل» لعب دوراً أساسياً في تنظيم تعبير العمال عن أنفسهم، إلا أنه تعرض لانقسام عميق منذ العام ١٩٧٨ (الاضراب العام الكبير)، فتفكك جزئياً وتغلغل فيه «الحزب الدستوري الجديد»، ثم «التجمع الدستوري الديمقراطي» RCD. ثم إنه في هذه الرواية السعيدة، لا وجود لحركات المعارضة السياسية، التي دفعت ثمناً غالياً في مقاومة الاستبداد، كحركات اليسار وأقصى اليسار، والأحزاب الإسلامية كذلك.

الحداثة التونسية ذات الأفق الأوروبي  
التونس - المعتبرة استثناءً بهيجاً - تُعرف أيضاً بأنها ميل التونسيين إلى ألا يحدوا أنفسهم بالنسبة إلى العالم العربي والإسلامي، ولكن ضمن إطار متوسطي وفي مواجهة أوروبا. هنا أيضاً تبدو الأدلة التي تدعم هذا التأكيد آتية من سياقٍ يعرض فيه بورقيبة، صانع الاستقلال بلا منازع، مفاهيمه عن بلادٍ حديثة في مواجهة فرنسا، وبمعنى ما، متبنيًا لفكرة فرنسا. لكن لا يمكن فهم هذه السياسة إن لم نذكر ما آلت إليه حال أجزاءٍ أخرى من النضال الاستقلالي، وخصوصاً إزاحة العروبيين، التي أدت إلى شرح دائم في عالم السياسة التونسية. الرئيس الحالي لتونس، الباجي قائد السبسي، هو أحد مهندسي إزاحة المعارضة العروبية، وقد أبعد البورقيبيون عن الساحة هؤلاء المدعوين «اليوسفيين»، لأنهم أنصار صلاح بن يوسف، وحركات الشبيبة العروبية في بداية الستينيات. لقد أزاح البورقيبيون هذا القسم الهام من الحركة الوطنية (المناهضة للاستعمار). بيد أن هذه الحساسية السياسية مازالت موجودة في عدة أحزاب،

منها استثناءً لا نموذجاً. وفيما يتعدى ضعف المحاكمة المنطقي، من المهم أن نكتب على هذه المسألة المثارة هنا. أولاً، سيكون من السهل أن نعود إلى كل واحدة من الأساطير المؤسسة «للتونس» لتفتحص وجوهها العاتمة. من المثير للحنق بصورة خاصة أن نرى كم تبدو البورقيبية هنا نهجاً مجيداً وتنويرياً بينما نعرف الدور الذي لعبته استبدادية بورقيبة في كم أفواه كل معارضة، وكل تجربة ديمقراطية. يصف المصري هذه الاستبدادية كمنظومة دسائس بلاط جعلت «المجاهد الأكبر» - كما كان يحب أن يُسمى نفسه - مأخوذاً فيها بجنون السلطة إلى حد ما، وهو يزداد سخفاً شيئاً فشيئاً بينما المحيطون به يحيكون المؤامرات (ذكر المؤلف حملات القمع في بضع صفحات، انطلاقاً من الصفحة ٢١٦، وتعتمد بشكل أساسي على مقابلة مع الوزير السابق أحمد بن صلاح، المدير السابق في «الاتحاد العام التونسي للشغل» UGTT، الذي قاد سياسة اقتصادية اشتراكية وأقيل عام ١٩٦٩). ثم إن الإشادة الصريحة بنموذج مدرسي يؤكد على ثنائية اللغة تغفل الحديث عن سياسة التعريب العشوائية التي عرفتها تونس انطلاقاً من العام ١٩٧٣.

**الإشادة بتحرير المرأة التونسية تتجاهل عيوب هذا التحرير. وعدم المساواة في نيل الحقوق. والتوتور الذي ظهر بين هذه الحقوق المكتسبة وبين مجال خاص لا يزال تحتكم فيه نزعة بطريركية لا لبس فيها.**

كما أن الإشادة بتحرير المرأة التونسية تتجاهل عيوب هذا التحرير، وعدم المساواة في نيل الحقوق، والتوتور الذي ظهر بين هذه الحقوق المكتسبة وبين مجال خاص لا يزال تحتكم فيه نزعة بطريركية لا لبس فيها. عدا عن أنه قد جرى تشريع هذا التحرير (كما يحدث تكراراً، إذا جاز التعبير!) دون إفساح المجال أمام الحركات النسوية التي قامت بها النساء أنفسهن، فإن دراسة هذا التاريخ تسمح بأن نرى أنهن لم يكن دائماً على اتفاق مع سياسة الحكومة المتعلقة بتحرير «المرأة».

مسألة الدين ومكانه في الدولة معالجة هي أيضاً بشكل عام، دون الانتباه إلى التغيرات التي جرت في عهد بن علي، والتي أضفت عليها صبغة دينية محافظة (بث الأذان على كل قنوات التلفزة العامة، شرطة



❖  
من الاحتفالات  
بالذكرى الأولى  
للثورة التونسية  
في باريس في ١٤  
كانون الثاني /  
يناير ٢٠١٢

بما أنها ليست خاضعةً فعلاً لظرف «الكائن العربي». ولما كانت سائر البلدان العربيّة تتشارك في هذه الحالة، فهي لن تستطيع بالتالي أن تقوم بأية ثورة. فهل يعني هذا أنّ عليها أن تقنع بمصير مشترك، هو الخضوع الاستبداد؟ لا يقول المصري ذلك، لكنّ هذا ما يفهم من حديثه.

## لماذا نناضل؟

عندما انتهيت من قراءة كتاب المصري، عادت تلحّ على خاطري لازمة، تلك التي كان يردها الثوار التونسيون عام ٢٠١٠ - ٢٠١١ وقد ردّدها كثيراً في الماضي، تلك التي تناولها أحياناً الثوار المصريون واليمنيون والسوريون على شكل شعار، أو أمثولة، أقصد هذا البيت الذي أصبح مشهوراً للشاعر أبي القاسم الشابي، يقول: «إذا الشعب يوماً أراد الحياة / فلا بدّ أن يستجيب القدر». لم يكن مصادفةً أن يصبح هذا البيت شعاراً ضدّ الاستعمار أولاً ثمّ في مجرى النضالات التحرّرية. ذلك أنّه يطرح تحديداً شيئاً معاكساً للقدريّة التي نراها يتطوّر هنا، إنّ من المثير للاهتمام بمناقشة الانتماء العربيّ انطلاقاً من تجربة ثورات ٢٠١٠ - ٢٠١٣، في سياق أصبح فيه ما كان يدعى العالم العربيّ قشرة أيدولوجيّة، قوقعة فارغة، نوعاً صديداً غير سويّ من معاداة الإمبرياليّة، بينما كان من الواضح أنّ العروبة تتوافق مع مصير مشترك مؤلّف من التضحيات والحماسة العسكريّة. إنّ الانتفاضات والثورات لم تنفكّ تحافظ على صلةٍ فيما بينها، ضمن هذا الإطار وبالرغم منه بدءاً من الثورات في فلسطين، وكذلك الانتفاضات الدوريّة في «الشارع العربيّ»، وصولاً إلى الانتفاضات الراهنة. وبسبب وجود هذا المصير المشترك تحديداً أمكن صفوان المصري أن يؤلّف كتابه.

يكنم الغموض في أنّ المصري يفضل أن يجعل من الاستثناء، أو الحباحب كما يقول غرامشي، شذوذاً وبالتالي مصادفةً تاريخيّةً غير قابلة للتكرار. وتبدو مسألة النموذج هنا الوجه الآخر لنظريّات تصدير الديمقراطية، وهي راسخة في الفكر الأميركيّ العامل على العثور على وصفة يمكن إعادة إنتاجها وتكييفها. الخصوصيّة التونسيّة الكبرى هنا - التي تؤكدها محاكاة تاريخيّة سطحيّة للغاية - تأتي لتعزّيز محاكاة من هذا النمط: تونس بلد ديمقراطيّ، وهي جزء من العالم العربيّ. فإذا كانت تونس ديمقراطيّة، فلأنّ تاريخها يُبعدها عن العالم العربيّ (وعن مميّزاتها المشتركة ومصيره). إذاً، تونس ليست عربيّة (حقاً). ولن يستطيع العالم العربيّ بلوغ الديمقراطية بالتالي.

ومنها الحزب الذي يديره أوّل رئيس للجمهورية بعد ٢٠١١ منصف مرزوقي (حزب المؤتمر من أجل الجمهورية)، أو قسم من أقصى اليسار. منذ نهاية الستينيّات، تخلص بورقيبة كذلك من المعارضة الاشتراكيّة اليساريّة المتمثّلة في الحركات الطلابيّة والعماليّة المتكرّرة. وضع في السجن جيلاً من القادة الطالبيين والكوادر النقابيّة الذين تحرّكوا من أجل مزيد من العدالة الاجتماعيّة. وأخيراً، اعتباراً من الثمانينيّات، استهدف الحركات الإسلاميّة، التي كانت ضحيّة تزايد التوتّر في الجزائر المجاورة والقمع على الأراضي التونسيّة.

## منذ نهاية الستينيّات. تخلص بورقيبة من المعارضة الاشتراكيّة اليساريّة المتمثّلة في الحركات الطلابيّة والعماليّة المتكرّرة. وضع في السجن جيلاً من القادة الطالبيين والكوادر النقابيّة الذين تحرّكوا من أجل مزيد من العدالة الاجتماعيّة.

هذه المرجعيّة الأوروبيّة، المعتبرة هنا سمةً مميّزة لتونس بمجملها، قد فرضتها البورقيبيّة «كأيدولوجيّة دولة»، أيدولوجيّة متناقضة لأنها لا تنفكّ تتأرجح حسب مصالح أهل النظام. كما أنّ الجدارة الدراسيّة تصطدم بجدار حريّة التعبير: فالطالبات والطلاب الناشطين والمسيسين قضوا تحت حكم بورقيبة وحكم من خلفه فقضوا في السجون بين خمس سنين وعشرين سنة لمجرّد أنّهم شاركوا في مظاهرة. فضلاً عن ذلك، تعقّدت علاقات تونس مع جيرانها الأوروبيّين إلى حدّ كبير بعد فرض تأشيرة الدخول اعتباراً من العام ١٩٧٤ والتشدّد في تطبيق سياسة تحديد الهجرة. منذئذٍ أصبحت الهجرة نحو العالم العربيّ، وخصوصاً الخليج، مصدراً أفضل لدخل للتونسيّين كما لكثير من العمّال في العالم العربيّ. تعريف «العالم العربيّ» يختصر كلّ العرض. بالنسبة إلى مصري، «العالم العربيّ» هو حالة. أن تكون عربيّاً، يعني أن تعيش ضمن مفهوم معيّن، بأفقٍ مشتركٍ يتضمّن بصورة خاصّة انصهاراً بين العروبة والإسلام، ومقداراً من العنف الاجتماعيّ، وأنظمة استبداديّة، وأنظمة تعليم مثقلة بالأيدولوجيا إلى حدّ كبير. إنّه أفقٌ يعرفه منذ الصّفحة ١٠ كنقطة مقارنة. وتقع تونس، تبعاً لرأيه، خارج هذه الحالة. بالتالي لا يمكنها أن تكون نموذجاً للعالم العربيّ،

# رداً على ليلى الداخلي

## فرادة تونس لا تنفي انتماءها العربي

### صفوان المصري

نائب الرئيس  
التنفيذي للمراكز  
الشاملة والتنمية  
الشاملة، بجامعة  
كولومبيا، نيويورك.  
مؤلف كتاب  
Tunisia: An Arab  
Anomaly (٢٠١٧)  
الذي يصدر  
قريباً بالعربية  
بعنوان «تونس:  
فرادة عربية».

تفضل مراجعة ليلى الداخلي لكتاب تونس: فرادة عربية في أن تشير ولو إشارة خجولة إلى اعتمادها على قراءة شاملة ودقيقة للكتاب. فهي بدلاً من ذلك تشي بقراءة عفوية أو قراءة خاطئة مغرضة. ويتمثل تأكيد الداخلي الفاضح أكثر من غيره في قولها إن خلاصة أساسية من الكتاب تفيد بأن سائر العالم العربي محكوم عليه بمستقبل من القهر لأنه لا يشاطر تونس وضعها، وإن تفسير الكتاب للديمقراطية التونسية يكمن في أنها ليست عربية بالكامل، ما يجعل افتراض أن العالم العربي لا يستطيع تحقيق الديمقراطية افتراضاً سليماً. هذا الاستنتاج السطحي والمضلل في شكل خطير يجانب الفكرة الأساسية من وراء الكتاب: أن تونس توفر إلهاماً لباقي العالم العربي وتقدم دروساً قيّمة حول أهمية أدوار التعليم والمجتمع المدني والتمسك بالمبادئ الدستورية وحقوق المرأة والاعتدال في الدين في مساعدة المجتمعات على التحوّل نحو الديمقراطية. فهذه المكونات مفقودة في شكل مروّع في باقي العالم العربي، ما يجعل من تونس الحالة الاستثنائية التي هي عليها. يجادل الكتاب بأن استثنائية تونس متجذرة بعمق في تقاليد تعود إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وتشمل التمسك بالمبادئ الدستورية، والتعليم العلماني، والعقلانية، وهي مبادئ استفادت من قيادة سياسية وفكرية مستنيرة، خلال فترة الاستقلال الذاتي في ظلّ الإمبراطورية العثمانية ثم الاستعمار الفرنسي. ووسّع الحبيب بورقيبة، على الرغم من طُرْفه الأتوقراطية، هذه الإصلاحات - ولاسيما في مجالات التعليم وحقوق المرأة والدين. وتونس ديمقراطية اليوم، وسائر العالم العربي ليس كذلك، وهذا يرجع إلى هذه الاستثنائية، وليس إلى الادعاء المنافي للعقل الذي تُدلي به الداخلي بأن الكتاب يقول - وهو لا يفعل، لا مباشرة ولا في شكل غير مباشر - إنّ تونس ديمقراطية

لأنّها ليست «عربية» وإنّ العالم العربي لا يستطيع بالتالي التوصل إلى الديمقراطية. وجرى تعليم التونسيين التفكير النقدي والنقاش، وهناك مجتمع مدني نابض بالحياة أدى دوراً رئيسياً في صون المكاسب الديمقراطية، واعتمدت البلاد دستوراً تقدماً خالياً من الشريعة ويحمي حرية الضمير، وتعتبر النساء جزءاً نشطاً من المجتمع منذ عقود، وهنّ يتمتعن بحقوق أكبر بكثير من نظيراتهنّ العربيات، ولطالما كانت تونس دولة علمانية، حيث يوجد دور معتدل وخاصّ للدين في المجتمع. كذلك ساعد غياب الطائفية، أو الجيش الكبير، أو التدخل الأجنبي، أو لعنة الموارد، تونس في سلوكها نحو طريق الديمقراطية. والكتاب مكرّس كلياً للتعرف على قوّة العوامل التي منحت الديمقراطية التونسية قوّة ولتأطير استثنائيتها حولها، في الوقت الذي يُظهر فيه بدقّة ندرّة هذه العوامل في باقي العالم العربي (التعليم: الصفحات ١٣، ١٤٦، ١٥٠ - ١٥٩، ١٦٠، ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٧٩، ٢٨٨ - ٢٩٠؛ والمجتمع المدني: الصفحات ٥٩، ٦٨، ٢٦٩؛ والتمسك بالمبادئ الدستورية: ٥٩ - ٦٢، ٦٨، ٢٦٩ - ٢٧٠، وحقوق المرأة: ٢٢٨ - ٢٣٣، والدين: ٦١ - ٦٢، ٢٥٤، ٢٥٩ - ٢٦٣، ٢٦٧ - ٢٧٤، ٢٧٦ - ٢٧٧). وإذا اخترنا الاستمرار في تجاهل هذه النواقص، كما تقترح الداخلي على ما يبدو، فستكون على حق، وسيكون العالم العربي محكوماً عليه بأن يغوص أعمق في توّعكه. وتدلي ليلى الداخلي بعدد من الادعاءات مفادها بأنّ الكتاب لا يتناول مواضيع معيّنة، ولاسيما الفصول المظلمة في تاريخ تونس في ظلّ الحكم الاستبدادي الذي يقوض في رأيها الاستثناء التونسي، في حين أن هذه المواضيع تتكرر في الواقع. بدايةً، تشير الداخلي إلى أنّ الكتاب يقدم صورة متحيّزة لبورقيبة كمُصلح مستنير ورؤيوي، من دون أن يعطي استبداده وقمعه الوحشي للمعارضين تغطية مناسبة.

(٢٧) بينما كان يعلمن الدولة بالقوة (الصفحات ١٩، ٣١ - ٣٢، ٨٥ - ٨٦، ٢٤٠) إلى درء خطر الإسلاميين. وتدعي الداخلي أيضاً أنّ الأخطاء المرتبطة بتحرير المرأة التونسية قد جرى تجاهلها. أولاً وقبل كلّ شيء، من الأهميّة بمكان ملاحظة أنّ اعتماد قانون الأحوال الشخصية، في العام ١٩٥٦، أعطى المرأة التونسية حقوقاً أكثر ممّا تتمتع به المرأة اليوم في أيّ بلد عربي آخر (الصفحات ١١، ٢٧، ٢٢٢، ٢٢٨ - ٢٣٥)، وأنّ القانون بقي يخضع لتعديلات (الصفحات ٢٧، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢). ومع ذلك جرى الإقرار باستمرار الهرميّة البطريركيّة في الصفحة ٢٢٩، وبأنّ القانون حافظ على نبرة متحفظة في الصفحة ٢٣١. كذلك يقرّ الكتاب بأنّ النسويّة والنهوض بحقوق المرأة فُرِضا من القمّة وأنّ «ثورة المرأة» لم تكن ثورة ولم تقدّمها المرأة، لقد كانت قراراً للحبيب بورقيبة جرى تخطيطه وتنفيذه بعناية (الصفحة ٢٢٧). ويتناول الكتاب أيضاً ظهور الحركات النسويّة قبل الاستقلال، مشيراً إلى أنّ «النسويّة التونسيّة بدأت تتشكّل في عشرينيّات القرن العشرين» (الصفحة ١٧٦) وبدأت تتخذ طابعاً رسمياً في الثلاثينيات والأربعينيات (الصفحتان ١٧٦ - ١٧٧)، واحتشد العديد من المنظمات النسائيّة وراء القضية القوميّة وجرى دمجها فيما بعد في جهاز الدولة (الصفحات ١٨٤، ٢٣٣ - ٢٣٤)، وبالتالي جرى قمع جهودها على المستوى الشعبيّ.

وفي مجال التعليم، من المحيّر تماماً أنّ تدعي الداخلي أنّني «نسيت» أن أذكر محاولة تعريب المناهج الدراسيّة، مع تخصيص جزءٍ من الفصل ١٣ للدفع من أجل التعريب - بقيادة محمّد مزالي وإدريس قيقة، اللذين عملا كوزيرين للتعليم في سبعينيات القرن العشرين - والتخلي عن المشروع في العام ١٩٨٢ (الصفحات ٢٥٦ - ٢٥٨، ٢٦٤). ومرّة أخرى، يتساءل المرء عن مدى دقّة قراءة الداخلي للكتاب. ومثال آخر على ذلك هو أنّها تستحضر، كما لو في نزوة، الدعوة الشهيرة للناس إلى الوقوف في وجه القمع في قصيدة أبو القاسم الشابي المشهورة، متناسية أنّ عنوان القصيدة هو عنوان الفصل الثالث، وأنّ أبياتها مذكورة ومشروحة في الصفحتين ٤٥ - ٤٦. من الواضح أنّ ليلي الداخلي إمّا فوّت الحجج والحقائق المهمّة، أو اختارت أن تسيء تفسيرها. ومن دون قراءة الكتاب بعناية، يبدو أنّها توصلت عن طريق الإهمال إلى إصرار متحيّز، وقدمت استنتاجاً تبسيطياً ومختزلاً ومشوّهاً حول الفرضيّة الرئيسيّة للكتاب.

غير أنّ استبداد بورقيبة هو طرحٌ مستمرّ في كلّ أنحاء الكتاب (وليس في صفحات قليلة تبدأ في الصفحة ٢١٦، كما تريدنا الداخلي أن نصدّق). ففي مرحلة مبكرة من الكتاب، في مقدّمته الصفحة (xxxi)، يُقدّم بورقيبة كمستبدّ «أمسك بالسلطة من خلال المحاباة الحزبيّة وتركيز السلطة التنفيذية في الرئاسة. وغالباً ما كانت قبضته القويّة على شؤون البلاد تعني انتهاكاتٍ لحقوق الإنسان امتدّت من قمع الحريّات إلى الشرطة وأجهزة الأمن الاستبداديّة»، ويتتبّع الكتاب إبطال بورقيبة للحريّات التي مُنحت للصحافة والنقابات والقضاء في الأيّام الأولى للجمهورية، وكيف تصاعد تعريف المعارضين السياسيّين ليشمل النشطاء الطلاب، ولاسيما الشيوعيّين، الذين تعرّضوا إلى تعذيب وحشيّ وعمّت الدولة قضاياهم كتحذيرات (الصفحات ٢٢ - ٢٣، ٢١٦ - ٢١٧). وتدعي الداخلي بخفّة بأنّ المعارضة السياسيّة وقمعها غائبان عن هذه «الرواية السعيدة». ويجب على المرء أن يتساءل بصدق عمّا إذا قرأت ليلي الداخلي الكتاب بالفعل. فالكتاب يغطي ازدياد بورقيبة للعروبة (الصفحات ٩، ١٨٨، ٢٠٠ - ٢٠٥، ٢١٦)، وحملته العنيفة على صلاح بن يوسف وأتباعه العروبيّين (الصفحات ١٨٨، ٢١٥ - ٢١٦)، بالإضافة إلى قمع الوحشيّ للاتحاد العام التونسيّ للشغل (الصفحات ٨ - ٩، ٢٤ - ٢٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٧، ٢١٤ - ٢١٩). وعن القمع العنيف للإسلاميين، يصف الكتاب كيف أمر بورقيبة باعتقالهم جماعياً في الثمانينيات، وكيف سارعت محكمة أمن الدولة إلى الحكم على عشرات المعتقلين بالإعدام (الصفحتان ٢٥ - ٢٦)، وكذلك قمع بن علي للحركة (الصفحات ٢٧ - ٣٢، ٢٤٠). وينال استبداد بن علي تغطيةً وافية في كلّ أرجاء الكتاب (الصفحات ١٩، ٢٧ - ٤٤، ٨٥ - ٨٧، ٢٤٠، ٢٨١، ٢٨٧).

## الدين، المرأة، بن علي

بالنسبة إلى ادّعاء ليلي الداخلي المنافي للمنطق بأنّ الدين وعلاقته بالدولة لا يحظيان بمعالجة كافية، ربّما لا موضوع آخر، باستثناء التعليم، عُولج من كلّ جوانبه في شكل وافٍ مثل الدين، فنّمّة فصلان كاملان (الفصلان ٧ و ١٢) مخصّصان له. وتدعي الداخلي أيضاً أنّ بن علي غائب عن هذه الصورة. في الواقع، يُقدّم بن علي في الصفحتين ٨٥ - ٨٦ بأنّه ذهب «إلى أبعد ممّا فعله بورقيبة يوماً، واستخدم إجراءات صارمة لفرض العلمانيّة». وهدفت استراتيجيّة بن علي المزوجة المتمثّلة بالظهور كرئيس مؤمن (الصفحة



فيروز  
فيروز

١٦٨ ماركس والشرق الأوسط ٢/٢  
جلبير الأشقر

١٧٧ ماركس هجاء: الأدب مدخلاً لتلقي ماركس  
نائر ديب

## ماركس والشرق الأوسط ٢/٢

### جليبر الأشقر

باحث وأكاديمي لبناني

في معهد الدراسات

الشرقية والافريقية

بجامعة لندن، من

مؤلفاته «الشعب

يريد. بحث جذري في

الانتفاضة العربية»،

٢٠١٣ و«انتكاسة

الانتفاضة العربية.

أعراض مرضية»،

٢٠١٧.

ترجمة: يزن الحاج

نشر فيما يلي ترجمة للنصف الثاني من دراسة كتبها جليبر الأشقر بما هي فصل من فصول «كتاب أكسفورد عن كارل ماركس» (The Oxford Handbook of Karl Marx) الذي سيصدر قريباً عن منشورات جامعة أكسفورد. وكنا قد نشرنا النصف الأول من الدراسة في العدد المزدوج ٢٠ - ٢١ من بدايات.

تزال مطبوعة بإرث الأنماط الزراعية السابقة للرأسمالية وعلى خلفية مدينته كانت لا تزال تتسم بغلبة الحرف البورجوازية الصغيرة التقليدية.

في الحقيقة، يمكن إثبات كون التشابه بين فرنسا أو ألمانيا في القرن التاسع عشر وبين أجزاء من الشرق يساوي - إن لم يُفَق - التشابه بين سمات هذين البلدين الأوروبيين في القرن التاسع عشر ووضعهما في القرن العشرين، ناهيك من الزمن الراهن. وقد تسبب التوتّر الذي نجم في فرنسا وألمانيا القرن التاسع عشر عن التركيب بين ضعف طبقة رأسمالية لا زالت ناشئة، والضعف الملازم لطبقة عاملة لا زالت في طور البزوغ، والقوة المتواصلة لطبقة ملاك أراضٍ انحدرت من أصول ما قبل رأسمالية، هذا التوتّر تسبب في قيام سلطة الدولة التنفيذية بدور فوقي أساسي. هكذا كان لدور لويس نابليون بونابارت في فرنسا أو دور أوتو فون بسمارك في بروسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قدر أكبر من المرادفات في الشرق الأوسط ممّا في أوروبا خلال القرن العشرين.

فإنّ مقولة البونابارتية التي شرحها ماركس في راعته في التحليل الاجتماعي - التاريخي الثامن عشر من برومير لويس بونابارت تشكّل بالتالي، في حقيقة الأمر، مفتاحاً أساسياً لفهم سمة رئيسية من سمات تاريخ تركيا والشرق الأوسط في القرن العشرين. صحيح أنّ تلك المقولة ليست مُصاغة بصورة تامة في كتابات ماركس:

البونابارتيّة

استناداً إلى الإقرار بأن إسهام ماركس في العلوم الاجتماعية كان متركّزاً على أوروبا الغربية بصورة أساسية، كما جاء في بداية هذه الدراسة، قد يحاج بعض الناس أنّ تحليلات ماركس التاريخية العينية لا تلائم سوى ذلك الجزء من العالم، بالرغم من أنّ منهجيته في علم التاريخ تدعي ملاءمة العالم بأسره. بيد أن مثل هذا الرأي لا يمكن أن يؤخذ به إلا بالانطلاق من وجهة نظر جوهرائية بالعمق، تفترض وجود تفرّد وغرابة مطلقين يميزان شتّى أنحاء العالم المكانيّة - الثقافية. وثمة محاولة أخرى في نكران جدارة إسهام ماركس، قد تبدو أكثر جدوى، تقوم على حصر ملاءمتها بالحقبة التي عاش فيها لا غير، ما يعني اللجوء إلى حجّة زمانية - تمويّة بدلاً من الحجّة المكانيّة - الثقافية.

وفي واقع الحال، لو تجاهلنا هذه الحجّة الأخيرة، لرأينا في الحجّة الأخرى، الزمانية، تأكيداً لملاءمة تحليلات ماركس في القرن التاسع عشر لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا [ميناً] في القرن العشرين. هذا لا يصحّ فيما يخص تحليل ماركس لإنكلترا القرن التاسع عشر، وقد كان اقتصادها الرأسماليّ الأكثر تطوراً في ذلك العصر، بقدر ما يصحّ في صدد كتابات ماركس عن بلدان مثل فرنسا وألمانيا، لاسيما في منتصف القرن التاسع عشر حينما كان البلدان لا يزالان يعانيان من آلام مخاض نمط الإنتاج الرأسماليّ. والحال أن الرأسمالية تطوّرت في البلدين المذكورين على خلفية ريفية كانت لا

يتوقعه. فقد نمت صناعته وتجارته إلى أحجام عظيمة؛ وأقام أهل النصب المالي حفلات عريضة كوزموبوليتية؛ وتم تزيين بؤس الجماهير بعرض وقح لرفاهية برّاقة ومبهجة ومُنحطة. أما سلطة الدولة، المُحلقة فوق المجتمع ظاهرياً، فكانت في آن واحد كبرى فضائح ذلك المجتمع ومنبت مواطن فساده جميعها<sup>١</sup>.

هكذا، فقد آمن ماركس بأنّ مسار التاريخ قد أثبت صحّة تكهنه الأوّل، الذي صاغه في الثامن عشر من برومير، بشأن دور البونابرتية في رعاية تطوّر الرأسمالية. والحال أنّ بونابرت، كما توقع ماركس بصورة بارعة قبل عقدين تقريباً، قد جمع فعلاً بين الحرص على «السلطة المادية» للبورجوازية والحدّ من «سلطتها السياسية والإعلامية»:

بكونه حائزاً على السلطة التّفيذية التي جعلت من نفسها سلطةً مستقلةً، يشعر بونابرت أنّ مهمة صون «النظام البورجوازي» تقع على عاتقه. ولكنّ قوّة هذا النّظام البورجوازي تكمن في البورجوازية ذاتها. لذا ينظر بونابرت إلى نفسه كتمثّل عن الطبقة البورجوازية ويصدر قراراته وفق هذا المنطق. ومع ذلك، فهو لم يصبح ذا أهميّة إلا لكونه قد حطّم السلطة السياسية الخاصة بهذه الطبقة البورجوازية، وبواصل تحطيمها يومياً. وبالتّيجة، فهو ينظر إلى نفسه كمنافٍ للسلطة السياسية والإعلامية الخاصة بالبورجوازية. لكنّه، بحماية سلطتها المادية، يولّد سلطتها السياسية من جديد. هكذا فلا بدّ من إبقاء السبب حيّاً؛ أما التّيجة فلا بدّ من التخلّص منها أينما ظهرت<sup>٢</sup>.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفارق في الظروف التاريخية والتّزامن مع رأسمالية أكثر تقدماً في نصف الكرة الغربيّة ومع نموذج دولانيّ غير رأسماليّ مثله الاتحاد السوفيتيّ، فإنّ النموذج البونابرتيّ يقدّم مفتاحاً أساسياً لتحليل نمط تاريخيّ غداً مستشرباً في الشرق الأوسط في القرن العشرين. هناك، استولت سلطة الدولة بقيادة عسكريّة على السلطة السياسيّة الخاصة بطبقة بورجوازية ضامرة، وباشرت بتصفية سلطة طبقة ملاك الأراضي وبحفز تنمية الرأسمالية الصناعيّة، مع تشديد قبضتها على الطبقة العاملة التي تطوّرت مع تطوّر تلك الأخيرة.

فباعتنافه هذا النّموذج في المجال العثمانيّ سابقاً في حقبة ما بعد الحرب العالميّة الأولى، قاد مصطفى كمال التّغيير الجمهوريّ في تركيا والتّحديث الذي أعقبه على

فهو لم يقدّم في أيّ من كتاباته تعريفاً منهجياً بمفهوم البونابرتية، خلافاً لشتى المقولات الاقتصادية التي عرّفها في رأس المال. وقد خلص ماكسيمليان روبل، بعد تتبّعه لتعليقات ماركس الخاصة ببونابرت الأول والثاني (نابوليون الثالث) في مجموع كتابات مؤلف رأس المال، خلص إلى القول إنّه لم يجد «نظرية عن البونابرتية بكلّ ما يمكن قصده بتعبير النظرية»<sup>١</sup>. غير أنّ روبل نفسه ميّز عناصر شتّى لمثل هذه النظرية: وهي تحتاج إلى تجميعها في بناء نظريّ متماسك باللجوء إلى بعض التأويل بهدف ضمان انسجام النظرية بأسرها. هذا ما سعى هال دريبر إلى تحقيقه في المجلّدات التي خصّصها لجمع آراء ماركس الاجتماعيّة - السياسيّة بصورة منهجيّة<sup>٢</sup>.

ودعنا ننطلق هنا من تقييم ماركس للبونابرتية كما ورد في كتابه الحرب الأهلية في فرنسا عند المحطة التي انتهى إليها مسار النموذج الفرنسيّ الذي جسّده نابوليون الثالث، بعد «أن تكشف عفته، وعفن المجتمع الذي كان قد أنقذه، بفعل حراب روسيا»<sup>٣</sup>، أي بعد هزيمة بونابرت في حرب عام ١٨٧٠ بين فرنسا وبروسيا. يتلخّص التقييم المذكور في الجملة الآتية، حيث كلمة «الإمبريالية» تحيل إلى إمبراطوريّتي البونابرتيّين:

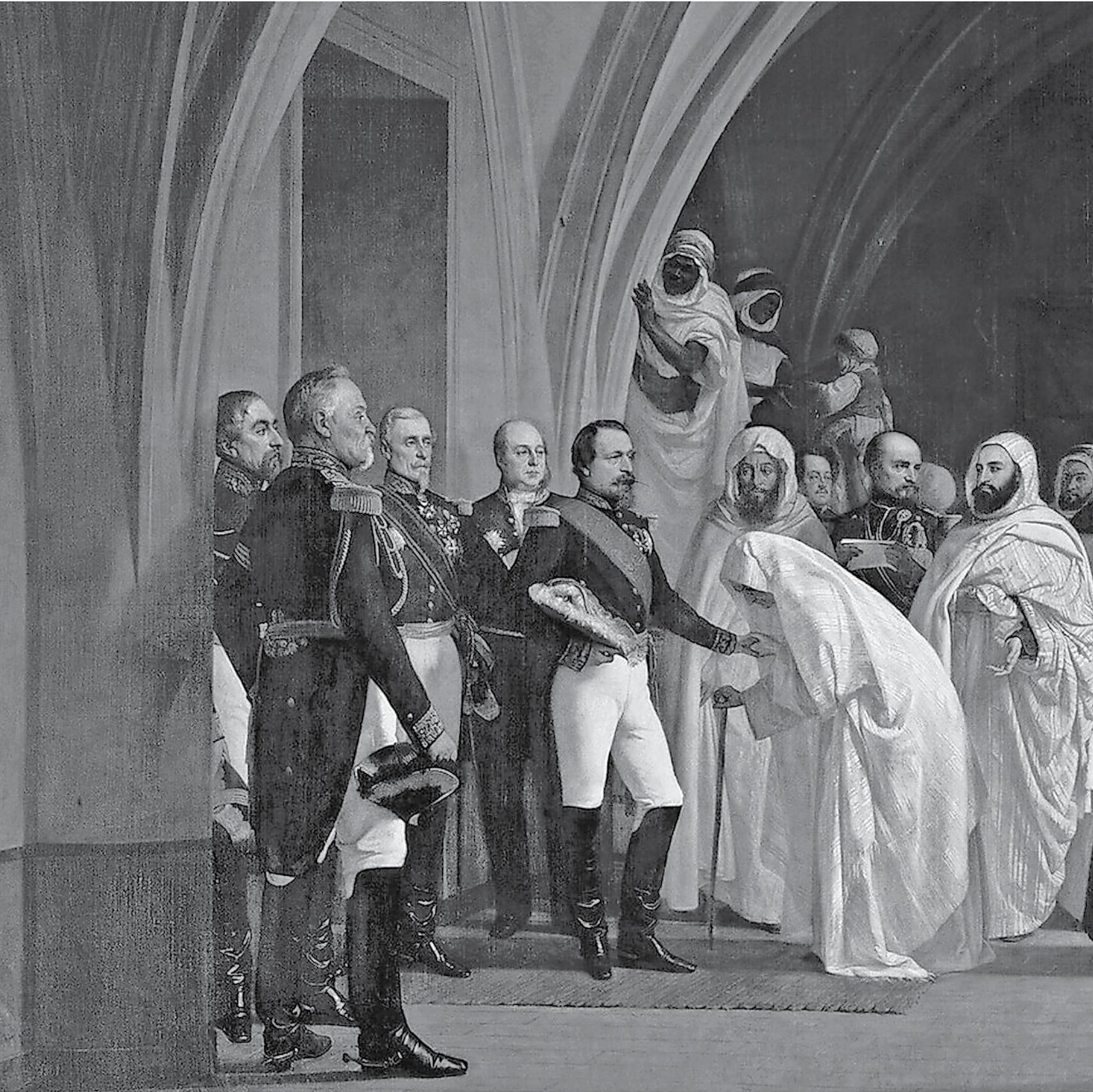
الإمبريالية هي، في آن واحد، الشكل الأعلى والأكثر عهراً من أشكال سلطة الدولة التي شرع المجتمع البورجوازي الناشئ في صياغتها كوسيلةٍ لتحرّره الذاتيّ من الإقطاع، والتي انتهى المجتمع البورجوازيّ مكتبلاً النموّ إلى تحويلها إلى وسيلة من أجل استعباد الرأسمال للعَمال<sup>٤</sup>.

هكذا فإنّ البونابرتية، في نظر ماركس، هي في نهاية المطاف وسيلة تستخدمها البورجوازية في وجه طبقة ملاك الأراضي التي سبقتها في السّلمة كما تستخدمها في وجه الطبقة العاملة التي تتحدّى سلطتها الجديدة. ففي الحالة الأولى، التي جسّدها نابوليون الأول، يمكن تقييم دور البونابرتية التاريخيّ على أنّه تقدّمي؛ لكنّ مثل هذا التقييم يصبح أصعب بكثير في الحالة الثانية، «حينما تكون البورجوازية قد فقدت قدرتها على حُكم الأمة، بينما لم تكتسب الطبقة العاملة تلك القدرة بعد»، وفقاً لتقدير ماركس<sup>٥</sup>. وقد أقرّ مع ذلك بالقفزة في التطوّر التي حدثت في ظلّ الإمبراطورية الثانية فضلاً عن «العفن» المشار إليه أعلاه.

في ظل سيطرتها، اكتسب المجتمع البورجوازيّ، المتحرّر من المشاغل السياسيّة، تطوّراً لم يكن هو نفسه



❖  
الرئيس نابوليون  
الثالث محرراً  
الأمير عبد القادر  
من قلعة أمبواز، في  
١٦ تشرين الأول /  
أكتوبر ١٨٥٢



التصنيع الذي سبق أن شهدته، كان لها سمات مشتركة مع فرنسا وألمانيا في مرحلتها الصناعية الأولى أكثر مما كان لها مع روسيا في بداية القرن العشرين، حيث كانت المدن محصورة تاريخياً وحيث كان تصنيع واسع النطاق قد انطلق برعاية الدولة، بحيث كانت الطبقة العاملة الصناعية طاغية على البورجوازية الصغيرة المدنية. وبالتالي، فإن قسماً كبيراً من تحليلات ماركس وإنغلز بشأن السيرورات الثورية في فرنسا وألمانيا، والموجة الثورية الأوروبية الكبرى لعام ١٨٤٨ على الأخص، ملائم كثيراً لتحليل الاضطراب السياسي الذي شهدته بلدان عديدة في منطقة مينا خلال القرن العشرين.

والحال أن الحركات القومية البورجوازية الصغيرة التي ظهرت في المنطقة بدءاً من ثلاثينيات القرن العشرين، والتي عرف عددٌ كبيرٌ منها تجذراً يسارياً في الستينيات، إنما تشبه في بعض سماتها الديمقراطية البورجوازية الصغار الألمان الذين صاغ ماركس وإنغلز موقفاً تكتيكياً شهيراً إزاءهم عام ١٨٥٠<sup>٩</sup>. بيد أن مقولة «الديمقراطيون البورجوازيون الصغار» السياسية، التي تشير إلى تلك التيارات البورجوازية الصغيرة التي تكافح من أجل التحوّل القومي - الديمقراطي لمجتمعاتها (إلغاء الإقطاع والحكم الملكي، والتوحيد القومي) والتي كانت سائدة في ثورات عامي ١٨٤٨ - ١٨٤٩، تلك المقولة كادت تغيب عن البيان الشيوعي الذي كتبه ماركس وإنغلز فُيبل تلك الثورات<sup>١٠</sup>. فنجد في البيان تقييماً للنزعات السياسية المتضاربة التي كانت تمرّق شتى الفئات الاجتماعية الخاصة بالبورجوازية الصغيرة («الطبقة الوسطى الدنيا»<sup>١١</sup>) على النحو التالي:

أما أعضاء الطبقة الوسطى الدنيا، الصناعي الصغير والتاجر الصغير والحرفي والفلاح، فهؤلاء جميعاً كافحون البورجوازية إنقاذاً لوجودهم كفئات من الطبقة الوسطى. فهم ليسوا بثوريين بل هم محافظون، لا بل رجعيون لأنهم يحاولون جعل عجلة التاريخ ترجع القهقري. وإذا صدف أن كانوا ثوريين، فهذا يكون فقط بالنظر إلى انتقالهم الوشيك إلى البروليتاريا. فيدافعون حينذاك عن مصالحهم المقبلة لا عن مصالحهم الراهنة، ويهجرون موقعهم لينتقلوا إلى موقع البروليتاريا<sup>١٢</sup>.

ومع هذا، فإنّ الحدس أعلاه يوفّر مدخلاً مفيداً جداً إلى فهم التقاطب السياسي الشديد الذي عرفته البورجوازية الصغيرة في الشرق الأوسط في القرن العشرين. ففي أحد قطبيّ الطيف السياسي، انضمّ قسمٌ من البورجوازية

نحو استعمار بعض سمات كلّ من البونابارتيّ الفرنسيّ وإنجازاتها، مع مزجها ببعض الإلهام المستمدّ من الاتحاد السوفييتيّ (الخطة الاقتصادية الخمسية على الأخص). وبات كمال نموذجاً مُلهماً للضباط الشبان المصريّين - وذلك بقدر أكبر بكثير مما ألهمتهم المحاكاة المعاصرة للنموذج الإمبراطوريّ الفرنسيّ التي نقّدها رضا شاه في إيران.

### النسخة الناصرية من البونابارتية الكمالية. كما قادها جمال عبد الناصر في مصر ستصبح بدورها نموذجاً سيحتذى في عدد من بلدان منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

أما النسخة الناصرية من البونابارتية الكمالية، التي تزعمها جمال عبد الناصر في مصر بعد الحرب العالمية الثانية وحرب عام ١٩٤٨ العربية - الإسرائيلية، فقد غدت بدورها نموذجاً تمّ الاحتذاء به في عدد من بلدان منطقة مينا: سوريا والعراق واليمن الشماليّ والجزائر والسودان وليبيا (مع تأثير هام على التطوّرات في كلّ من لبنان وتونس). في تلك المنطقة كانت جاذبية النموذج السوفييتيّ أكبر بكثير مما كانت عليه في تركيا الكمالية. وباستثناء اليمن الشماليّ الذي كان غارقاً في الحرب الأهلية، عرفت مصر والبلدان الخمسة التي تأثرت بالناصرية مزيجاً من التأميمات الشاملة وبناء منشآت تملكها الدولة، بما أفضى إلى قطاع صناعي واقتصادي كليّ يهيمن عليهما القطاع العام إلى حدّ كبير. وبذا فإنّ النسخة الناصرية من البونابارتية قد بلغت درجة عالية من حلول سلطة الدولة محلّ الحكم البورجوازيّ المباشر، وهو حلولٌ تجاوز حدود المجال السياسيّ ليطلّ المجال الاقتصاديّ أيضاً. وكان ماركس قد تصوّر لوهلة قصيرة حدوث هذا الاحتمال عند مناقشته لـ«الاشتراكية الإمبراطورية» الخاصة بالبونابارتية الثانية<sup>١٤</sup>.

### البورجوازية الصغيرة والطوباوية الرجعية

بخلاف البونابارتية التاريخية، جاءت التجارب الناصرية - البونابارتية في منطقة مينا بغالبيتها العظمى بقيادة ضباط تجذّروا من شرائح البورجوازية الصغيرة المدنية أو الريفية. من هذه الزاوية، فقد كان لمنطقة مينا، مع الأهمية التاريخية للحضارة المدنية التي ميّزتها وحدود

الصغيرة إلى الأحزاب الشيوعية التي تعرّف نفسها بأنها أحزاب عمّالية، بينما انضمّ قسمٌ آخر، في القطب المقابل من الطيف، إلى الحركات الإسلامية الأصولية - السلفية، التي شكّلت جماعة الإخوان المسلمين التي تأسّست في مصر عام ١٩٢٨ نموذجها الأوّلي.

وبصورة خاصة، فإنّ التقدير القائل إنّ قطاعات من البورجوازية الصغيرة تعارض البورجوازية «إنقاذاً لوجودها» الاجتماعي، وإنّها بذلك تتعدّى الموقف المحافظ لتكون «رجعية لأنها تحاول جعل عجلة التاريخ ترجع القهقري» - هذه الفكرة الهادية هي مفتاح مفيد جداً لفهم الأصولية - السلفية الإسلامية، التي يقوم برنامجها على إعادة إحياء مؤسسات وشريعة الإسلام الأول، إذ يزعمون أنّها تتمثل الكمال الأزلي ولا تحتاج سوى إلى حد أدنى من التكييف مع الأزمنة الحديثة. وفي واقع الحال، فإنّ أصناف الأصولية - السلفية الإسلامية جميعها تتشارك الالتزام بما يمكن وصفه بأنه في الأساس يوتوبيا قروسطيّة رجعية أو، لو توخينا المزيد من الدقّة، يوكرونيا (uchronia) قروسطيّة رجعية، أي مشروعٌ يصرّح بعزمه على إحياء النظام الاجتماعي والسياسي لماضٍ قروسطيّ جرى تحويله إلى أسطورة.

ومن خلال التشديد على المحفّزات الاجتماعية - الاقتصادية لمثل هذا الحنين إلى الماضي، تسمح وجهة النظر الماركسيّة بتفسير صعوده السياسيّ تفسيراً مادياً - لا كنوع من أنواع الارتداد الوراثيّ ذي الجذور الثقافية بل كرتبة فعل طبيعيّة لبعض قطاعات البورجوازية الصغيرة التي يسحقها تطوّر الرأسمالية، على الأخص حينما تحفز هذا التطوّر وتحرفه في آن واحد إمبريالية راسخة في حيّز ثقافيّ مختلف. ولا يصعب على وجهة النظر هذه فهم التحوّل البورجوازيّ (البُرْجُوزَة) الذي طرأ على أقسام من هذه الحركات، كما هي حال قطاعات كبيرة من الإخوان المسلمين من خلال ارتباطاتهم بمشايخ الخليج. وفي واقع الحال، فالتفسير الماديّ هو وحده القادر على تقديم تفسير اجتماعيّ للفوارق بين مختلف الجماعات الأصولية - السلفية الإسلامية يتعدّى تفسيرها بالفوارق الأيديولوجية القائمة بينها الذي هو أشبه بتفسير الماء بالماء.

علاوةً على ما سبق، فإنّ الاستشراء الراهن الظاهريّ للأصولية - السلفية الإسلامية في الشرق الأوسط يوفّر ما هو ربّما التبيان الأوضح للمفارقة في دور الإمبريالية الغربية عندما تصون سمات عتيقة، متخلّفة من وجهة

النظر الثقافية الغربية. إذ من المعروف تماماً أنّ الولايات المتحدة، في تحالفها مع المملكة السعودية طوال عقود، قد استخدمت السلفية الإسلامية بكثافة في صراعها ضد القوى القوميّة اليسارية والقوى الشيوعيّة في المنطقة. وقد بلغ هذا الاستخدام للسلفية الإسلامية ذروته في الدعم الذي منحه واشنطن والرياض، ومعهما المؤسسة العسكرية الباكستانية، للجماعات الإسلامية السلفية التي حاربت الاحتلال السوفييتيّ لأفغانستان والنظام الذي خلفه بعد انتهائه، وبات معروفاً من الجميع اليوم أنّ هذه التجربة وفّرت ميدان استقطاب وتدريب لأعنف أشكال السلفية الإسلامية، التي كان تنظيم «القاعدة» أبرزها.

وثمة حقيقة لقيت اهتماماً أقلّ، هي أنّ الولايات المتحدة، عند احتلالها العراق للإطاحة بنظام طالمّا كان يُعدّ نظاماً تحديثياً علمانياً، جلبت معها طيفاً من القوى الأصولية الإسلامية، مثل «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق» و«حزب الدعوة الإسلامية» و«الحزب الإسلاميّ العراقيّ». وقد تعمّدت سلطة الائتلاف المؤقتة بقيادة الولايات المتحدة ضمّ هذه الأحزاب إلى مجلس الحكم الذي أسّسته إثر الاحتلال بفترة وجيزة. ومن خلال تمكين مثل هذه القوى الدينية - الطائفية، مع تفكيك مؤسسات اتّحادية أساسية أقامتها الدولة السابقة وذلك بهدف توفير صفحة بيضاء لحلم المحافظين الجدد الأحق في ترسيخ «ديمقراطية» كانوا يظنون أنّها ستصبح نموذجاً للمنطقة بأسرها، لعب الاحتلال الأميركيّ دوراً جوهرياً في إطلاق العنان لدينامية سياسية في العراق سرعان ما طغى عليها طيف الأصولية - السلفية الإسلامية بأكمله. وقد تضمّن الأمر الصنف الأعنف، تنظيم «القاعدة»، الذي تحوّل إلى «الدولة الإسلامية في العراق»، ثم إلى «الدولة الإسلامية في العراق والشام» وصولاً إلى «الدولة الإسلامية»، بلا إضافات مكانيّة إلى الاسم، ولأذرعها التي امتدّت بعيداً. أما كون السياسة الأميركية قد ارتدّت على الولايات المتحدة إلى درجة منحها إيران، الدّ أعدائها، تأثيراً مهيماً على حكومة العراق، فليس سوى أفدح تجلّيات العواقب غير المقصودة لتدخّل واشنطن الإقليميّ.

### المسلك الربيعي

إنّ التحليل الماركسيّ للربيع والنموذج الربيعي، كما صيغ في كتاب رأس المال، أداة إجرائية محورية أخرى في تحليل الشرق الأوسط، وذلك على الأخصّ بفعل الأهمية

السماء، عدا عن ذلك كله فإنّ دَينَ الدّولة أدّى إلى نشوء الشّركات المساهمة، والمتاجرة بالأوراق المائيّة من كلّ نوع، والمضاربة بها، وباختصار إلى نشوء المقامرة في البورصة والطغمة المصرفيّة المعاصرة<sup>١٦</sup>.

إنّ تقييماً ماركسيّاً للربيع والمسلك الربيعيّ أمر جوهريّ من أجل تجنّب مطبّ فصل «الدولة الربيعيّة» عن التحليل الطبقيّ، وهو مطبّ سائد في الأدبيّات التقليديّة التي تتناول المشايخ النفطية<sup>١٧</sup>. ومع هذا، وبسبب قصور في سبر المؤسسات السياسيّة وتطوّرها التاريخي، لا يُقدّم التراث الماركسيّ أدوات ملائمة لتفسير فرادة الدول «الميراثيّة» التي تسم هذه المنطقة، كما لتفسير نزعة معظم الأنظمة للميل إلى هذا النوع من التشكيل. إن إسهامات ماكس فيبر في علم الاجتماع السياسيّ، التي تعوّض نمذجتها المؤسّساتيّة الثريّة عن نقطة الضعف هذه في الماركسيّة، تُوفّر مُكثلاً مفيداً على هذا الصعيد - ولكن، مجدداً، بشرط أن تترافق مقولاتها مع التحليل الطبقيّ وأن تتعمّق في المصالح الماديّة.

### الثورة و«الربيع العربيّ»

أخيراً، فإنّ الانتفاضة العربيّة المدهشة التي اندلعت عام ٢٠١١ تقدّم تبياناً نموذجياً لنظريّة ماركس في الثورة بوصفها نتيجةً للصدام بين تطوّر القوى المنتجة من جهة، وعلاقات الإنتاج التي تُعيق هذا التطوّر، علاوةً على الأجهزة السياسيّة التي تصونها، من الجهة المقابلة. ونجد عرض ماركس لهذه النظريّة الأكثر اقتضاباً في تلخيصه لتفسيره الماديّ للتحوّل التاريخيّ الذي صاغه عام ١٨٥٩: «عند مرحلة معيّنة من تطوّرها، تدخل قوى المجتمع الإنتاجية المادية في تناقضٍ مع علاقات الإنتاج القائمة ... وتحوّل تلك العلاقات من أشكال تتطوّر القوى المنتجة من خلالها إلى قيود تعيق هذه القوى. وعندئذ تبدأ حقبة من الثورة الاجتماعية»<sup>١٨</sup>.

وقد اندلعت انتفاضة عام ٢٠١١ في منطقة كانت تعاني طوال عقود من ركود في النموّ الاقتصاديّ تلازم مع معدّلات هائلة في البطالة الجزئيّة والبطالة الكاملة. وتحوّلنا أدوات التحليل الماركسيّ تحديد سبب إعاقة التنمية هذه وتحديد مكنهه بدقّة، أي في العلاقة الفريدة بين الطبقة والدولة التي تسم المنطقة. وفي هذه الحالة، لا ينبغي أن تُفهم «علاقات الإنتاج» بمعنى النموذج الاجتماعيّ - القانونيّ الكامل للاستغلال - وإنّ كانت هذه العلاقات رأسماليّة بالتأكيد، بهذا المعنى، في الشرق الأوسط

الجوهريّة لاحتياطات المنطقة من النفط والغاز، وبالتالي بفعل أهميّة ربيع النفط والغاز (ربيع منجميّ) في تشكيل اقتصاداتها وسياساتها. وكما أكّد ماركس نفسه، فإنّ تحليله للربيع الزراعيّ «ينطبق عموماً على الربيع المنجميّ أيضاً»<sup>١٩</sup>، حتى مع وجود فوارق واضحة بين ربيع الأرض والربيع الزراعيّ والربيع المنجميّ، أشار إليها ماركس في المجلد الثالث من رأس المال.

وبذا، فإنّ تحليل ماركس للمسلك الربيعيّ يقدّم مفتاحاً هاماً لفهم السلوك والدور الاقتصاديّين اللذين يميّزان الفئات الربيعيّة التي تحكم «الدول الربيعيّة» النموذجيّة في منطقة مينا: المشايخ النفطية الثريّة المنتسبة إلى مجلس التعاون الخليجيّ. فإنّ قسماً من «فائض» ربيع النفط والغاز الذي تملكه هذه الدول يجري تحويله إلى رأسمال شبه ربيعيّ من خلال إقراضه إلى الدول الصناعيّة بشراء سندات دَين عامة، بما يساهم في زيادة الدَين العام، الذي - بعد أن كان «إحدى أقوى روافع التراكم البدائيّ»<sup>٢٠</sup> - بات يشكّل قسماً أساسياً من سيرورة المضاربة وهيمنة الرأسمال المائيّ التي تقع في صميم الرأسماليّة النيوليبراليّة الراهنة<sup>٢١</sup>.

### إن تحليل ماركس للمسلك الربيعيّ يقدم مفتاحاً هاماً لفهم السلوك والدور الاقتصاديّين اللذين يميّزان الفئات الربيعيّة التي تحكم «الدول الربيعيّة» النموذجيّة في منطقة «مينا»: المشايخ النفطية الثريّة المنتسبة إلى مجلس التعاون الخليجيّ.

فهو [الدَين العام] يمنح النقود العاقر، كما لو بلمسة عصا سحرية، القدرة على الإنجاب، ويحوّلها بذلك إلى رأسمال، قاضياً على أيّ حاجة تعرّضها إلى المتاعب والأخطار الملازمة لتوظيفها في الصناعة، أو حتى في أعمال الربا. ولكنّ دائني الدولة لا يعطون شيئاً في واقع الأمر، فالمبالغ التي يقرضونها تتحوّل إلى سندات دين حكوميّة، بسيرة التداول، تظل تعمل بين أيديهم مثلما تعمل النقود الفعلية تماماً. ولكن، عدا عن خلق طبقة من أصحاب الربيع المتبطّرين، وعدا عن الثروة المرتجلة التي يجنيها الممولون الذين يلعبون دور الوسيط بين الحكومة والأمة، وكذلك عدا عن متعهدي جباية الصّرائب والتّجار وصناعيّ القطاع الخاص، الذين يذهب إليهم جزء كبير من كل قرض حكوميّ كرأسمال يهبط من



أزمة حادة مديدة وانهيار، مع تكرار لأحداث عنف كثيفة. إن هذا الفهم الماركسي لطبيعة التغيير المطلوب لتحرير تنمية المنطقة من قيودها هو وحده الذي يُمكن من إدراك كون الشرق الأوسط قد دخل حقبة تاريخية طويلة الأمد من الاضطراب الاجتماعي والسياسي.

#### الهوامش

- ١ Maximilien Rubel, *Karl Marx devant le bonapartisme*, The Hague: Mouton & Co, 1960, p. 150 - 151
- ٢ Hal Draper, *Karl Marx's Theory of Revolution, Vol. I: State and Bureaucracy*, New York: Monthly Review Press, 1977.
- ٣ الفصول ١٥ - ١٨ مخصصة لمسألة البونابرتية Karl Marx, *The Civil War in France*, in MECW, vol. 22, p. 330
- ٤ المرجع عينه
- ٥ المرجع عينه
- ٦ المرجع عينه
- ٧ Karl Marx, *The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte*, MECW, vol. 11, p. 194
- ٨ Draper, *Karl Marx's Theory of Revolution*, pp. 444 - 451
- ٩ Karl Marx and Frederick Engels, «Address of the Central Authority to the League» (March 1850), MECW, vol. 10, pp. 277 - 287
- ١٠ باستثناء الإشارتين إلى الديمقراطيين الاجتماعيين في القسم الأخير من البيان. هذه هي الترجمة الإنكليزية لفردة Mittelstände الألمانية، التي يمكن ترجمتها بـ«الطبقات الوسطى» أو «البورجوازية الصغيرة». ويعود هذا إلى تصنيف الطبقات الاجتماعية في بريطانيا تبعاً لأهمية أرستقراطيتها المعتمدة على الأرض، بحيث كانت مفردة «middle» (وسطى) في عبارة «middle class» (الطبقة الوسطى) محيل عادةً إلى البورجوازية. ومن هنا جاءت إضافة كلمة «الدنيا» كعادل لكلمة «الصغيرة»
- ١٢ Marx and Engels, *Manifesto of the Communist Party*, p. 494 [ص ٩١ من النسخة العربية - ترجمة الغنفي الأخضر]
- ١٣ Karl Marx, *Capital*, Volume 3, trans. David Fernbach with an introduction by Ernest Mandel, Harmondsworth: Penguin Books, 1981, p. 787 [الطبعة العربية (ترجمة فالح عبد الجبار): ٣، ص ٧٦٠]
- ١٤ Karl Marx, *Capital*, Volume 1, p. 919 [الطبعة العربية: مج ١، ص ٩٢٩]
- ١٥ من أجل تحليل موجز لهذه الظاهرة، انظر Wolfgang Streeck, *The Politics of Public Debt, Capitalist Development, and the Restructuring of the State*, Cologne: Max Planck Institute for the Study of Societies, 2013 (paper). وانظر للمؤلف نفسه، «How Will Capitalism End?», *New Left Review*, 87, May - June 2014, pp. 35 - 64
- ١٦ Marx, *Capital*, Volume 1, p. 919 [الطبعة العربية: مج ١، ص ٩٢٩]
- ١٧ من أجل استعراض لهذه الأدبيات، انظر Matthew Gray, *A Theory of «Late Rentierism» in the Arab States of the Gulf*, Doha: Center for International and Regional Studies, Georgetown University School of Foreign Service in Qatar, 2011 (paper)
- ١٨ Marx, Preface to *A Contribution to the Critique of Political Economy*, p. 263
- ١٩ انظر: Gilbert Achcar, *The People Want: A Radical Exploration of the Arab Uprising*, London: Saqi Books and Berkeley: University of Californian Press, 2013. الفصلين الأول والثاني على الأخص [صدر الكتاب بطبعته العربية «الشعب يريد: بحث جذري في الانتفاضة العربية» عن دار الساقي عام ٢٠١٣]
- ٢٠ نجد هذه المقولات في أعظم مؤلفات ماكس فيبر «الاقتصاد والمجتمع»، *Economy and Society* (edited by Guenther Roth and Claus Wittich, 2 vols, Berkeley: University of California Press, 1978) علاوة على مقالته في سوسولوجيا الأديان
- ٢١ Achcar *People Want*

- بل بمعنى السياق الرأسمالي الاجتماعي - القانوني الخصوصي الذي يجري تطوير القوى المنتجة ضمنه، أو يجري حصرها ضمنه بالأحرى<sup>١٩</sup>. وهذا السياق في الشرق الأوسط تسوده نخب سلطة تتراوح بين الميراثية والنيو - ميراثية في ظروف ريعية أو نصف ريعية. وتنتج عن هذا التشكيل الخصوصي رأسمالية خاصة «مُحدّدة سياسياً» - لو استعرنا هنا أيضاً أحد توصيفات فيبر<sup>٢٠</sup> - وذلك بمعنى مزدوج من حيث إنّها مُحدّدة بارتباطها بالسلطة السياسية (رأسمالية المحاسب) كما هي محدّدة بغياب حكم القانون وانعدام استقرار الظروف السياسية اللذين يحولان دون التخطيط بعيد المدى ويكبحان المجازفة طويلة الأمد الخاصة بنوع الاستثمارات الأكثر ملائمة للتنمية.

وبنتيجة ترافقها مع انحصار دور الدولة التنموي - منذ بداية السبعينيات في بعض البلدان ومنذ التسعينيات في معظم البلدان الأخرى - الذي أملاه الإيمان النيوليبرالي بتفوق فعالية القطاع الخاص وفرضه صندوق التّقْد الدولي، أفضت السمات المُشار إليها أعلاه إلى انحسار في الاستثمار الإجمالي، وبالتالي إلى انخفاض في النمو الاقتصادي. وكانت النتيجة ارتفاعاً حاداً في البطالة المُفْتَعَة في القطاع غير الرسمي، وارتفاعاً حاداً - على نحو أخصّ - في البطالة الصريحة، لاسيما بطالة الشّباب، إذ تحتلّ منطقة مينا المرتبة الأولى في العالم في هذا المجال. إنّ سوء الاستخدام العظيم هذا للموارد البشرية - «قوة العمل» التي تشكّل، مع «وسائل الإنتاج»، «القوى المنتجة» وفقاً لتعريف ماركس - إنّما هو نتيجة طبيعية لكون «علاقات الإنتاج القائمة» تعمل بمثابة «قيود» على «تطوّر القوى المنتجة»<sup>٢١</sup>.

من وجهة نظر ماركسية، هذا هو المسبب الأساسي الكامن وراء الهبة المهولة التي هزّت أركان البلاد العربية خلال «الربيع العربي» عام ٢٠١١. وكنتيجة لازمة لهذا التحليل فإنّ «الربيع العربي» لم يكن مرحلة قصيرة وسلسلة من الانتقال الديمقراطي الذي يكفي أن يتكرّس بتغييرات دستورية وانتخابات حرّة، كما اعتقد المنطق السياسي السائد عالمياً، بل لم يكن سوى بداية «حقبة من الثورة الاجتماعية»: بكلام آخر، لم يكن «الربيع العربي» سوى المرحلة الأولى من سيرورة ثورية طويلة الأمد، لا يمكن لها أن تستقرّ من دون تغيير اجتماعي - سياسي جذري، يحزّر تطوّر القوى المنتجة في المنطقة من القيود المفروضة عليها - وإلا، فستواجه المنطقة خطر

# ماركس هجاءً: الأدب مدخلاً لتلقي ماركس

تأثر ديب

كاتب ومترجم سوري.

١

## مطالع أدبية

ليس ثمة جديد في المعلومات التي تشتمل عليها هذه المقالة، فهي متاحة - ولو بصورة مبعثرة - في معظم السَّير الكثيرة التي كُتبت عن ماركس، ومتاحة أكثر في الأعمال التي تناولت علاقته بالأدب والنظرية الأدبية. ولعلَّ الجديد يكمن في جمعها معاً واستكشافها على ذلك النحو الذي يتيح اقتراح الأدب - كما هو واضح في العنوان - مدخلاً أساسياً لا بد منه بين المداخل المتعددة لتلقي ماركس وفهمه، شأنه شأن المدخل الفلسفي والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي والثقافي وسواه مما يندرج ضمن الفهم المادي للتاريخ الذي يُعدُّ جديد ماركس ومُنجزه بين المفكرين والمنظرين.

حفل مطلع حياة ماركس بالكثير مما كان يهينه حياة أدبية تتذكر ابنته إيلانور سماعها من عماتها «إنه كان في طفولته طاغيةً مربعاً حيال أخواته، «يسوقهن» على أتهنَّ جياذ نزولاً من ماركوسبيرغ في ترير بأقصى سرعة، والأسوأ أنه كان يجبرهنَّ على أكل «الفطائر» التي صنعها من عجين متسخ بيديه الأشدَّ اتساخاً، لكنهنَّ كنَّ يتحملن «سوقهنَّ» وأكل «الفطائر» من دون أن ينبثن ببنت شفة، كرمي للحكايات التي كان يحكيها لهنَّ لقاء صنيعهنَّ الحسن<sup>١</sup>. وكان أترابه يخشونه للسهولة التي كان يؤلّف بها الهجاء والأشعار الهجائية. كما كان يعرف، وهو طالب، أوفيد وشيشرون وتاسيتوس، فضلاً عن هوميروس وسوفوكليس وأفلاطون وثوكيديدس. ويبدو أنَّ أستاذاً موهوباً، هو فيتوس لويرس، كان قد

نشر شروحاتاً لأوفيد، أفلح في أن يثير لديه حماسةً تجاه ذلك الشاعر أعقبتها محاولات لترجمة الـ Libri tristium [كتاب الأحران] إلى الألمانية شعراً. أما والده فقد نَمى لديه تذوق الكلاسيكيات الألمانية التي عرفها القرن الثامن عشر، لا سيَّما شيللر، في حين دفعه جارهم في ترير وعمه اللاحق أبو زوجته، لودفيغ فون ويستفالن، إلى مشاطرته إعجابه بشكسبير وهوميروس. قالت إيلانور لفلهم ليكننخت: «كان لا يفتأ يحدثنا عن البارون المسنَّ فون ويستفالن ومعرفته العجيبة بشكسبير وهوميروس. كان بمقدوره تلاوة أغانٍ كاملة من هوميروس من ألفها إلى يائها، وكان يحفظ عن ظهر قلب معظم مسرحيات شكسبير، بالإنكليزية والألمانية على السواء». وأضافت إيلانور: «كان والد ماركس، من جهةٍ أخرى... فرنسيّاً حقيقياً» من القرن الثامن عشر، وكان يحفظ عن ظهر قلب فولتير وروسو كما كان العجوز فون ويستفالن يحفظ هوميروس وشكسبير<sup>٢</sup>.

يكاد أن يكون مؤكداً أنَّ مطامح ماركس الباكورة كانت مطامح أدبية. يقول أوغست كورنو: «لا شكَّ في أنَّ ماركس، الذي كان شديد الميل إلى الشعر ويحسُّ بأنه هو نفسه شاعر، كان يفضّل دراسة الأدب على دراسة الحقوق. وهذا يفسّر لماذا كان يتابع محاضرات في الأدب وعلم الجمال إلى جانب محاضرات الحقوق<sup>٣</sup>. ويقول البروفسور س. س. براور: «قضى ماركس وهو طالب جامعي، في بون أولاً ثم في برلين (١٨٣٥ - ١٨٤١) وقتاً طويلاً ليس في دراسة التاريخ وحده، ولا الفلسفة ولا القانون، بل الأدب أيضاً. واستمع إلى محاضرات أ. و. شليغل عن هوميروس وبروبرتيوس، ومحاضرات ف. ج. ويلكر عن الأساطير اليونانية والرومانية، ومحاضرات برونو باور عن إشعيا، ونسخ كتابات ليسنغ وسولغر

وفينكلمان في علم الجمال، وحاول أن يبقى على اتصال بكل ما هو جديد في الأدب، وطوّز أسلوبه بترجمة تاسيتوس وأوفيد، وانضمّ إلى نادٍ للشعراء الشباب»<sup>٤</sup>.

### إخفاقات الشاعر والمسرحي

بل إنَّ ماركس كتب في هذه الفترة ديواناً شعرياً ومسرحية شعريّة وروايةً عنوانها «سكوريون وفيليكس» أنجزها على عجل وهو مفتونٌ برواية لورنس ستيرن تريسترام شاندي. لكنّه أخفق وأقرّ بالهزيمة بعد هذه التجارب وشارف على الانهيار: «فجأة... بضرية ساحقة... تقوّضت إبداعاتي جميعاً وتلاشت... وكان لا بدّ من تنصيب آلهة جديدة»<sup>٥</sup>.

وبحسب فرانز مهرنغ، فإنَّ ماركس نفسه أصدر حكماً بالإدانة على أشعاره المهداة إلى خطيبته، ورأى مهرنغ نفسه أنّ تلك القصائد «تتكشف... بشكل عام، عن نفس من الرومانسية التافهة، ونادراً ما يتخللها نفس شعري حقيقي. وبالإضافة إلى ذلك فإنّها كانت من الناحية الفنيّة خرقاء وبائسة»<sup>٦</sup>. وكتبت لورا ماركس لافارغ إلى مهرنغ، وهي ترسل تلك القصائد إليه، إنّ أوبوها كانا يضحكان كثيراً بصدها حين يصادف أن يتحدثا عنها<sup>٧</sup>.

السؤال هنا، هل كان ماركس مجرد متلقٍ جيّد للأدب الجيّد، خالياً هو نفسه من المهارة الأدبيّة والموهبة الشعريّة؟ وعلى أيّ أساس إذاً يعتبر كثيرون أنّه قدّر له لاحقاً أن يصبح كاتباً كبيراً تمكن مقارنته بلسنغ ونيثشه من حيث دقّة الأسلوب وقوّته والجمال الرائع لاستعاراته البلاغيّة والأدبيّة، كما قدّر لإحساسه الدقيق بالشعر أن يجعل منه المستشار مرهوب الجانب والمحبوب في الوقت ذاته لشعراء كبار مثل هنريش هاينه وف. فرايليغرات؟ الجواب، بحسب كورنو، أنّ روح ماركس كانت حينئذٍ شديدة القلق والهموم، وخياله محموماً جدّاً، وأفكاره شديدة الاضطراب بحيث كان محتمّاً على شعره أن يضيع وسط الموج. وكان هو نفسه يعي ذلك، إذ وصف في رسالةٍ إلى والده محاولاته الشعريّة الأولى وإخفاقاته فيها: «في الجوّ الذهنيّ الذي كنت فيه حينئذ... وكما كان يحتمّ الوضع الذي كنت فيه وكلّ تطوّرٍ الفكريّ، كان [شعري] شعراً مثاليّاً بحتاً... واقِعٌ ينطمس ويتبدّد إلى ما لانهاية له، واتّهامات ضدّ الآونة الحاضرة، ومشاعر غامضة ومشوشة، وفقدان تامّ للشيء الطبيعيّ، وتراكيب في الغيوم، وتعارضٌ مطلقٌ بين المثال والواقع، والبلاغة

والحجج الفكريّة تحلّ محلّ الإلهام الشعريّ وربما مع بعض الحرارة في المشاعر وبعض الانطلاق الوجدانيّ: تلك هي صفات دفاتر الشعر الثلاثة التي تلقّتها جيني. ويتجسّد فيها، في وجوهٍ مختلفة، كلّ لا نهاية رغبات ومطامح لا تعرف حدوداً... تعطي الشعر الذي يعبر عنها طابعاً عديم الشكل»<sup>٨</sup>.

واضح، إذًا، حضور الأدب في حياة الفتى ماركس وأعماله على نحوين: أدب الآخرين وأدبه هو ذاته، إنّما المخفق. وسوف يتواصل هذا الحضور في حياته وأعماله الراشدة على النحوين ذاتهما، إنّما مع فارقين في ما يتعلّق بأدبه الخاصّ: أوّلها هو أنّ هذا الأدب سيكون منتثراً في أعماله التي لا تقتصر بأيّ حالٍ من الأحوال على كونها أدبيّة، بل التي تبدو في الظاهر وخطأً على أنّها أبعد ما تكون عن الأدب، وثانيهما، هو أنّه سينجح نجاحاً باهراً هذه المرّة. وما من تفسير لهذا النجاح سوى أنّ أفكار ماركس كانت قد تحوّلت منذ مغادرته الجامعة ذلك التحوّل الحاسم والشهير من المثاليّة إلى الماديّة، من المجرّد إلى الفعليّ.

## ٢

### أدب الآخرين لدى ماركس

يحضر أدب الآخرين في أعمال ماركس، لا سيّما في «رأس المال»، إلى جانب ما يحضر فيها من الأنثروبولوجيا والاقتصاد السياسيّ والتاريخ وسوى ذلك من الفروع المعرفيّة والإبداعيّة الواسعة التي أحاط بها واعتاد أن يحشدها في كتاباته بأسلوب اصطفائيّ كلّيّ المعرفة. ويبدو وصف ماركس لديمقريطس في أطروحته للدكتوراه، «الفارق بين فلسفة ديمقريطس وفلسفة أبيقور»، أشبه بصورة له هو ذاته: «يصفه شيشرون بأنّه متبحر تماماً. فهو كفوء في الفيزياء والأخلاق والرياضيات وفي الفروع الموسوعيّة وفي كلّ فنّ»<sup>٩</sup>.

وكان ماركس يقول في بعض الأحيان، وهو يشير إلى الكتب على رفوفه:

«أولئك عبيدي، ويجب أن يقوموا على خدمتي كما أشتهي». فمهمة هذه الكتب، أو قوّة العمل المجانيّة هذه، كانت تتمثّل في أن توقّف له المادّة الخام التي يمكن عندئذٍ أن يشكّلها بحسب أغراضه. وكتب صحافي من

الـ«شيكاجو تريبيون» زار ماركس عام ١٨٧٨ وأجرى معه لقاءً: «لا يجري حديث ماركس على غرار واحد، بل يتنوع تنوع الكتب على رفوف مكتبته. ويمكن عموماً أن نحكم على رجل من خلال الكتب التي يقرأها، وهذا ما يمكنكم أن تفعلوه باستنتاجاتكم الخاصة حيث أقول لكم

**ما من مناسبة إلا ويمكن لماركس أن يقتبس بصددها من الأدب العالمي. لك معاقل خصم أو لبث الحياة في تجريد فاقد للحياة أو كما يحصل حين يتكلم رأس المال ذاته بلسان شاييلوك مبرراً استغلال عمل الأطفال في المصانع.**

إنّ نظرة عابرة قد كشفت عن شكسبير وديكنز وثاكري ومولير وراسين وبيكون وغوته وفولتير وبن، وعن كتب زرقاء إنجليزية وأميركية وفرنسية، وعن أعمال سياسية وفلسفية بالروسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، إلخ... إلخ<sup>١٠</sup>. وفي العام ١٩٧٦، وضع البروفسور س. س. براور كتاباً في نحو ٤٥٠ صفحة مكرساً بأكمله لإحالات ماركس الأدبية. ففي المجلد الأوّل من «رأس المال» نجد مقتبسات من الكتاب المقدس وشكسبير وغوته وملتون وفولتير وهوميروس وبلزاك ودانتي وشيللر وسوفوكليس وأفلاطون وثوكيديدس وزينوفون وديفو وسرفانتس ودرايدن وهائنه وفيرجيل وجوفينال وهوراس وتوماس مور وصموئيل بتلر، فضلاً عن إلماعات إلى قصص الرعب التي تحكي عن المستذئبين ومصاصي الدماء، والقصص الشعبية الألمانية والروايات الرومانتيكية الإنكليزية والأغاني الشعبية والعادية والمقفأة وصنوف الميلودراما والهزليّات والأساطير والأقوال المأثورة.

### استحضار الادب في نقد رأس المال

ما من مناسبة إلا ويمكن لماركس أن يقتبس بصددها من الأدب العالمي: لك معاقل خصم: على نحو ما يهاجم ماركس أولئك الاقتصاديين المغرمين بمثال روبنسن كروزو والذين يؤمنون بنماذج ومقولات فات زمنها شأنهم شأن دون كيخوته الذي «دفع ثمن تصوّره الخاطئ أنّ الفروسية الجوّالة تتلاءم بالقدر ذاته مع جميع الأشكال الاقتصادية للمجتمع»<sup>١١</sup>، أو لبثّ الحياة في تجريد فاقد للحياة: كما يحصل حين يستعير من «فاوست» لغوته

كي تصوّر ما يجنيه الرأسمالي من لقاء العمل الحيّ بالمواد المميّنة: «إنّ الرأسماليّ إذ يحوّل نقده إلى سلع تخدم كموادّ بناء لمنتوج جديد، أي عناصر ماديّة لعملية العمل، ويلقح المادّة المميّنة المميّنة بالعمل الحيّ، فإنّه يحوّل القيمة، قيمة العمل الماضي المميّني، الميتم، إلى رأس مال، إلى قيمة حبلى بالقيمة، إلى وحش مفعم بالحيوية، يشرع في «العمل» وكأنّه جسدٌ مولّه بالگرام»<sup>١٢</sup>، أو كما يحصل حين يتكلم رأس المال ذاته بلسان شاييلوك مبرراً استغلال عمل الأطفال في المصانع: «احتجّ العمّال ومفتشوا المصانع، انطلاقاً من اعتبارات الأخلاق والصحة، لكنّ رأس المال أجاب: فليقع عبء أفعالي على أمّ رأسي! القانون مبتغاي! الجزاء والرهن حسب العقد... أجل لحم قلبه / هكذا ينصّ العقد»<sup>١٣</sup>، أو لإثبات شيء: على نحو ما يثبت أنّ النقد هو ذلك المساواتي الراديكاليّ الذي يحو جميع الفروق بإيراد خطبة من تيمون الأثينيّ لشكسبير عن الذهب بوصفه «موسم الجنس البشري»، تتلوها خطبة من أنتيغونا لسوفوكليس: «ما من شيءٍ شاع بين الناس أكثر شراً من المال، يهدّم المدن ويطرّد الثّاس من بيوتهم. يغوي ويفسد أجمل النفوس نحو كلّ ما هو عازٍ، ويعلمّ الناس إتيان الفسق والفجور»<sup>١٤</sup>، أو ليُحكّم فكرةً من الأفكار يريد لها أن تبقى في الذهن: كما حين تصوّر القيد الذي يربط العامل إلى رأس المال ويجعل بؤسه شرطاً ضرورياً لثروة الآخرين بأنّه «أشدّ من تقييد مطرقة هيفايستوس لبروميثيوس إلى الصخرة»<sup>١٥</sup>، أو حين تصوّر اغتراب العامل عن عمله في مخطوطات ١٨٤٨ فيلجأ إلى واحد من أحبّ الأعمال إليه، ألا وهو فرانكشتاين، حكاية المسخ الذي انقلب على خالقه، كي تصوّر كيف يغدو عمل العامل «كينونة» خارجيّة توجد خارجه، منفصلاً عنه وغريبة عليه، وتأخذ بمواجهته كقوة مستقلة: ذلك أنّ الحياة التي وهبها للموضوع توجد كقوة معاديّة وغريبة<sup>١٦</sup>، وهذا ما يتكرّر في «رأس المال» بعد أكثر من عشرين سنة حيث يرى أنّ الوسائل التي ترفع الرأسماليّة الإنتاجيّة من خلالها «تشوّه العامل وتحيله إلى كسرة من حطام إنسان، وتنزل به إلى درك ملحقٍ تابع للآلة، وتدمّر المضمون الإيجابيّ لعمله بما تضيفي عليه من عذاب، وتستلب منه الطاقات الذهنيّة الكامنة في عملية العمل... وتحوّل أيام حياته كافة إلى وقت عمل، وتقذف أمراته وأطفاله تحت عجلات... رأس المال»<sup>١٧</sup>، أو حين يستحضر جحيم دانتي ليصف مصانع الكبريت الإنكليزية، حيث نصف العمّال

ما هُئِنَّا لأن نَجده لدى رامبو أو نيتشه، لدى ريلكه أو بيتس وما قاله هذا الأخير عن «الأشياء» [التي] تتداعى، والمركز [الذي] لا يقوى على الثبات»<sup>٢١</sup>. ويرى بيرمان في كتابه الآخر «مغامرات في الماركسيّة» أنّ ثَمّة انفتاحاً للنهائيات في أعمال ماركس يصله بعصرنا، وأنّ «رأس المال» يفوق الأعمال الحسنة التي شهدتها القرن التاسع عشر الذي عاش فيه ماركس باتجاه حداثة القرن العشرين<sup>٢٢</sup>. وأتته بدلاً من اعتبار ما في «رأس المال» من سرِّ متشظّ وتقطّع جذريّ ضرباً من الشواش والاستغلاق فإنّ ماركس، حين كتب «رأس المال»، اندفع أبعد من النثر التقليديّ باتجاه كولاج راديكاليّ، جاور فيه بين أصواتٍ ومقبوساتٍ من الأسطورة والأدب، من تقارير مفتشّي المصانع والحكايات الخرافية، على طريقة إزرا باوند في «الكانتوس» أوت. س. إليوت في «الأرض اليباب»<sup>٢٣</sup>.

أما مؤلّف «رأس المال» فهو «واحد من العمالقة العظماء المعدّين في القرن التاسع عشر إلى جانب بيتهوفن وغويا وتولستوي ودوستويفسكي وإيسن ونيتشه وفان غوخ، ثمّ دفعوا بنا صوب الجنون، كما دفعوا أنفسهم، لكنّ عذابهم ولّد قدراً كبيراً من الرأسمال الروحيّ الذي لا نزال نعتاش عليه»<sup>٢٤</sup>. بيد أنّ ذلك كلّه يبقى كلاماً عامّاً خارجياً لا يُظهر أدب ماركس ذاته إظهاراً ناصعاً. ولعلّنا نحتاج إلى التركيز على عملٍ بعينه تركيزاً مفصّلاً كي تظهر تلك الأدبيّة بأكمل الوضوح.

### أمثلة المعطف والمنضدة

يحذّر ماركس قرّاء «رأس المال» منذ البداية من أنّهم يطؤون أرضاً فانتازيّة يختلف فيها جوهر الأشياء أو حقيقتها عن مظهرها أو سطحها الخادع. يقول ماركس في الجملة الأولى من «رأس المال»: «تبدو ثروة المجتمعات التي يسود فيها نمط الإنتاج الرأسماليّ وكأنّها «تكدّس هائلٌ من السلع»، وتبدو السلعة المفردة كأنّها الشكل الأوّل لهذه الثروة»<sup>٢٥</sup>. وما تعنيه هذه الـ «تبدو» وهذه الـ «كأنّها» هو أنّنا ندخل عالم مظاهر خادعة وأشباح وأطياف. وصفحات «رأس المال» تعجّ بعباراتٍ مثل «واقع شبحيّ»، و«شبح وهميّ»، و«وهم محض»، و«شبه كاذب»، فلا يمكن كشف الاستغلال الذي تعتاش عليه الرأسماليّة إلاّ باختراق أحجية الوهم هذه بتوسّل جميع الأسلحة المتاحة ومن بين أهمّها الأدب والشكل الأدبيّ. فكي يوضّح ماركس وجهي العمل أو جانبيه الملموس

من اليافعين (بعضهم في السادسة من العمر) والظروف مرعبة لدرجة أنّ ذلك الجزء الأباس من الطبقة العاملة والأرامل على حافة المجاعة وحدهم من يلقون أطفالهم فيها: «يتراوح يوم العمل بين ١٢ و ١٤ ساعة، أو يمتدّ إلى ١٥ ساعة، مقروناً بعملٍ ليليّ، وعدم انتظام أوقات الطعام والوجبات، وغالباً ما يأكلون الوجبات في ورش العمل نفسها المسمّمة بالفوسفور. وكان حريّاً بدانتي أن يرى في عذابات هذه الصناعة ما يفوق أسوأ العذاب الذي تخيله في جحيمه»<sup>١٨</sup>.

٣

### أدب ماركس الخاصّة

ليس ما سبق سوى غيض من فيض حضور أدب الآخرين في أعمال ماركس. والآن، ماذا عن أدب ماركس الراشد نفسه؟ ماذا عن المكانة الأدبيّة لأعماله ذاتها؟

**م**اركس واحد من العمالقة العظماء المعدّين في القرن التاسع عشر إلى جانب بيتهوفن وغويا وتولستوي ودوستويفسكي وإيسن ونيتشه وفان غوخ. ممن دفعوا بنا صوب الجنون. كما دفعوا أنفسهم. لكن عذابهم ولد قدراً كبيراً من الرأسمال الروحيّ الذي لا نزال نعتاش عليه.

أول ما يلفت الانتباه هو أنّه بدلاً من ماركس الفتى الذي يقرّ بإخفاقه الأدبيّ نجد هنا ماركس الناضج الذي يكتب إلى إنغلز في تموز / يوليو ١٨٦٥: «والآن، في ما يتعلّق بعلمي، سوف أفضي إليك بالحقيقة الواضحة. مهما تكن العيوب القائمة في كتاباتي، فإنّ مزيتها تكمن في أنّها كلّ فنيّ»<sup>١٩</sup>. وإزاء مثل هذا القول الذي يتكرّر بأشكالٍ عديدة، يبقى مدهشاً اقتصار من التقطوا أدبيّة ماركس على قلة قليلة بين الكثرة الكاثرة التي كتبت عن حضور كلّ شيء في أعماله ما عدا الأدب.

يجد الناقد والمفكر الأميركيّ مارشال بيرمان في كتابه كلّ ما هو صلب يتحوّل إلى أثير: تجربة الحداثة<sup>٢٠</sup> أنّ وصف ماركس الشهير للانخلاع في «البيان الشبوعيّ» - «كلّ ما هو صلب يتحلّل ويتحوّل إلى أثير» - قريب

والمجرد نجده يغرق في تأملٍ مُسهَبٍ للقيم النسبية لمعطف وعشرين ياردة من القماش. يقول ماركس: «المعطف، حين يوضع في علاقة قيمة مع القماش، يعني شيئاً أكثر مما يعنيه خارج هذه العلاقة، تماماً مثلما يُعتبر الرجل الذي يتبختر ببزة رسمية مُذهبة أكثر أهمية منه بدونها»<sup>٢٦</sup>. فالقماش، بوصفه قيمة استعمالية، شيء مختلف عن المعطف ذلك الاختلاف الملموس، أما بوصفه قيمة تبادلية، فهو الشيء ذاته في حقيقة الأمر، تعبير عن عمل مجرد. «يكتسب القماش شكل قيمة يختلف عن شكله الطبيعي. ويتجلى وجوده بوصفه قيمة من واقع مساواته مع المعطف، تماماً مثلما أنّ الطبيعة الخروفية للمسيحي تظهر من خلال شبهه بـ «حمل الرب»<sup>٢٧</sup>. ويلاحظ ماركس، في آخر حكايته المتكررة المنهكة عن القماش والمعطف: «تبدو السلعة للوهلة الأولى شيئاً مبتدلاً جداً يُفهم من ذاته. أما تحليل السلعة فيبين أنّها، في واقع الأمر، شيء غريب جداً زاخر بالأحاييل الميتافيزيقية والحذقات اللاهوتية»<sup>٢٨</sup>.

وحيث يرصد رحلة الخشب من كونه مجرد خشب إلى كونه منضدة تنزل السوق، يجد أنّ هذا الخشب، حين يتحوّل إلى منضدة، يبقى خشباً على الرغم من ذلك، أي يبقى ذلك الشيء العادي المحسوس. لكنّه حين يغدو سلعةً يتحوّل إلى شيءٍ عصبيّ على الأفهام. فالمنضدة «لا تكتفي بوضع أرجلها على الأرض، بل تقف على رأسها إذا جاز التعبير، إزاء السلع الأخرى، ويبدأ رأسها الخشبي بإطلاق أفكار غريبة، تفوق في الغرابة «رقص المناضد» من تلقاء ذاتها»<sup>٢٩</sup>.

**يخفي السوق والتبادل العلاقة الاقتصادية الاجتماعية بين البشر. ولا يجد ماركس شبهاً لهذا التحول الغريب إلا في عالم الدين المملح بالضباب: «ففي هذا العالم تظهر منتوجات الدماغ البشري بهيئة كائنات مستقلة تتمتع بالحياة. وتدخل في علاقات بعضها مع بعض ومع الجنس البشري».**

هكذا يخفي السوق والتبادل العلاقة الاقتصادية الاجتماعية بين البشر وما تعكسه السلع المختلفة من عمل منتجها ليُلبس ذلك كله «شكلاً خيالياً بصورة علاقة بين الأشياء». ولا يجد ماركس شبهاً لهذا التحول الغريب إلا في عالم الدين المملح بالضباب: «ففي هذا

العالم تظهر منتوجات الدماغ البشري [أي الآلهة] بهيئة كائنات مستقلة تتمتع بالحياة، وتدخل في علاقات بعضها مع بعض ومع الجنس البشري. وهكذا أيضاً شأن منتوجات يد الإنسان في عالم السلع. هذا ما أسميه الصنمية (الفيتيشية) التي تلتصق بمنتوجات العمل منذ أن يتم إنتاجها كسلع...»<sup>٣٠</sup>، حيث الصنم، بمعناه الديني، شيء يُجَلُّ ويُهاب لما يُنسب إليه من قوى فوق طبيعية. وصنمية السلعة عند ماركس، تتمثل «سيطرة الأشياء على الإنسان، سيطرة العمل الميت على العمل الحي، سيطرة المنتج على المنتج»<sup>٣١</sup>.

وحيث يحاول ماركس أن يبين من أين تأتي القيمة الزائدة، يتفحص هذا اللغز من منظورٍ رأسماليّ تحت التمرين يُدعى «مالك النقد» قبالة عاملٍ يُدعى «صاحب قوة العمل»، يرصدهما في فصلٍ عنوانه «يوم العمل» هو أطول فصلٍ في المجلد الأول من رأس المال، وهو عبارة عن خلاصةٍ لعددٍ من قصص الرعب، يضعها ماركس في إطارٍ يناسبها من الأسلوب القوطي. يقول في الفقرات التمهيديّة: «رأس المال عمل ميت، وهو كمصاص الدماء، لا يعيش إلا على امتصاص العمل الحي، ويزداد حيوية كلما يرتشف المزيد»<sup>٣٢</sup>.

### في منتجات المجرم

ولعلّ أدبيّة ماركس تبلغ واحدةً من أعلى ذراها وأرهفها في الهجاء والسخرية اللذين تنطوي عليهما تلك المقاطع من الجزء الرابع من «رأس المال» الذي يتناول فيه «نظريات القيمة الزائدة» ومحاولات الاقتصاديين الكلاسيكيين التمييز بين العمل «المنتج» والعمل «غير المنتج». وكان آدم سميث قد أدّرج في هذا الصنف الأخير كلاً من «رجال الكنيسة والمحامين والأطباء ورجال الأدب بأنواعهم والممثلين والمهرّجين والموسيقين ومغني الأوبرا وراقصها، إلخ»<sup>٣٣</sup>، وجميعهم «يعتاشون على جزءٍ من النتاج السنويّ لكّد بشر آخرين». لكن هل التمييز بمثل هذا الوضوح وهذه البساطة حقاً؟ يشير ماركس إلى أنّ كلّ مهنة يمكن تصوّرها يمكن أن تكون مُنتجّة، ويشرع في محاولةٍ لإثبات ذلك من خلال مثالٍ يبدو مضحكاً وسخيفاً:

«يُنتج الفيلسوف أفكاراً، والشاعر قصائد، ورجل الدين عظات، والأستاذ الجامعيّ كُتُباً وهلمّ جراً. وينتج المجرم جرائم. وإذا أمعنا النظر في الصلة بين هذا الفرع الأخير من الإنتاج والمجتمع ككلّ، فسوف نُطرح عنّا



ويستنزفهم وحش خلقوه بأنفسهم («رأس المال الذي يأتي إلى العالم ملوثاً من رأسه إلى أخمص قدميه بالدماء التي تنز من جميع مسامه»)، تمكن قراءته أيضاً على أنه

**بعد الانقلاب الفرنسي. كتب ماركس «الثامن عشر من برومير لوي بونابرت» الذي وصفه فيلهلم ليبكنخت بأنه «سهم منطلق مباشر نحو الهدف ومنغرز في الجسم... رمح تطلقه يد ماهرة وبصيب العدو في القلب... كلماته سهام ورماح. وأسلوبه يصم ويقتل».**

ميلودراما فيكتورية، كما رأى ستانلي هيمان في دراسته عن داروين وماركس وفريزر وفرويد بوصفهم كتاباً مبدعين والمنشورة عام ١٩٦٢<sup>٣٦</sup>، أو على أنه تراجيديا إغريقية: «الفاعلون في إعادة ماركس تلاوة التاريخ الإنساني واقعون، مثل أوديب، في قبضة ضرورة لا تلتجئ تتجلى وتكتشف مهما فعلوا»، كما يقول سي. فرانكل في كتابه ماركس والفكر العلمي المعاصر<sup>٣٧</sup>، أو على أنه هزلية ساخرة سوداء (ففي فضح زيف «الواقع الشبحي» الذي تتسم به السلعة بغية تبيان الفارق بين المظهر البطولي والواقع المخزي، يستخدم ماركس إحدى الطرائق الكلاسيكية التي تستخدمها الكوميديا، حيث تجري تعرية الفارس الأنيق من دروعه ليتكتشف في سراويله التحتانية عن رجل قصير وبدين)، كما تمكن قراءته على أنه يوطوبيا هجائية مثل بلاد الهونوهمز (الجياد العاقلة) في رحلات غاليفر، حيث الأشياء جميعاً تبعث على السرور ما عدا الإنسان الشرير. ففي رواية ماركس عن المجتمع الرأسمالي، كما في الفردوس الزائف الذي أقامته الجياد في عمل جونانان سويفت، تُخلق الجئة الزائفة من خلال الحط من قيمة البشر العاديين إلى منزلة الياهو العاجزين والمغتربين<sup>٣٨</sup>.

### الأدب للانتقال من المظهر إلى الجوهر

الهجاء عند ماركس أسلوب وشكل كتابة قديم. فكتاباته الصحافية تتسم بقتالية متهورة تفسر قضاءه معظم حياته الراشدة في المنفى وفي عزلة سياسية. فأول مقالة كتبها في الجريدة الرينانية كانت هجوماً جارحاً على ما اتسم به الحكم البروسي المطلق من انعدام للتسامح وما اتسم به خصومه الليبراليون من بلاهة وحمق. ولم يكتف بما

أوجدته من أعداء في الحكومة والمعارضة على حد سواء، فانقلب على رفاقه أيضاً، واتهم الهيغلين الشباب بأنهم «أفظاظ وأوغاد». ولم يمض شهران على توليه مسؤولية تحرير الجريدة، حتى طلب حاكم الإقليم من وزير الرقابة في برلين أن يقاضيه على «نقده الوقح الصفيق». بل إن القيصر الروسي نيكولا شخصياً رجا ملك بروسيا أن يوقف الجريدة الرينانية، التي أثارت سخطه بنقدها الساخر والنعيف لروسيا. وفي آذار / مارس من العام ١٨٤٣ أُغلقت الجريدة في الوقت المناسب. وهكذا كان ماركس قد امتلك في الرابعة والعشرين من عمره قلماً قادراً على ترويع رؤوس أوروبا المتوجة وإثارة غيظها. أمّا بالنسبة إلى كتبه، فنجد أن «بؤس الفلسفة» هو خطبة لاذعة في ١٠٠ صفحة يقترح فيها بيير جوزيف برودون، وأن أبطال المنفى هو أهجية مطبنة لـ «أبرز حمير» الشنتات الاشتراكي و«أوغاده الديمقراطيين»، والتاريخ الدبلوماسي السري للقرن الثامن عشر هو خطبة عنيفة وطويلة ضد روسيا، وقصة حياة اللورد بالمرستون محاولة لإثبات أن وزير الخارجية البريطاني كان عميلاً للقيصر الروسي، و«الهز فوغت» هجوم كاسح على أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة بيرن أثار حنق ماركس إذ وصفه بالدجال والطفيلي. ورد ماركس: «واحدة بواحدة، والانتقامات تجعل العالم يدور».

وبعد الانقلاب الفرنسي في تشرين الأول / أكتوبر ١٨٥١، كتب ماركس «الثامن عشر من برومير لوي بونابرت» الذي وصفه فيلهلم ليبكنخت بأنه «سهم منطلق مباشرة نحو الهدف ومنغرز في الجسم... رمح تطلقه يد ماهرة وبصيب العدو في القلب... كلماته سهام ورماح، وأسلوبه يصم ويقتل. وإذا ما كان الحقد والاحتقار والشغف بالحرية قد وجدت تعبيراً عنها بكلمات حارقة وفاتكة وشامخة، فإن ذلك في هذا الكتاب الذي يجمع بين صرامة تاسيتوس الساخطة ونكتة جوفينال القاتلة وغضب دانتى المقدس». وهو إذ يقارنه بعمل فيكتور هوغو «نابليون الصغير» الذي يتناول الموضوع ذاته، يجد هذا الأخير «رغوة سطحية زاهية الألوان» وأنه على الرغم من صدوره بطبعات عديدة الواحدة تلو الأخرى، هو الآن منسي، في حين سوف يُقرأ «الثامن عشر من برومير» لماركس بكل إعجاب لآلاف السنين<sup>٣٩</sup>.

كانت العداوات والجذالات عند ماركس تدخلات سياسية أساسية لا مجرد تجليات للغضب والاستياء.

وأبعد وأرفع من ذلك بكثير كان الهجاء والسخرية تقنيتين تزيحان الواقع الظاهر بغية الكشف عن أسراره الأثيمة. ويبقى السؤال الأهم هو ما الصلة بين خطاب ماركس الأدبي، لا سيما الساخر والهجاء وما أراد أن ينجزه من مهمات نظرية وفكرية؟ سبق لماركس أن قال إنه لو تطابق جوهر الأشياء ومظهرها لانتفى العلم وأصبح مستحيلاً. والأدب عند ماركس، عدا عن كونه إبداعاً وإمتاعاً، هو مثل العلم، وسيلة ندلف بها من المظهر إلى الجوهر، من الفهم الشائع أو ما يُدعى خطأً بالحسّ السليم إلى حقيقة الأشياء، إلى حقيقة أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الماء يتألف من غازين قابلين للاشتعال.

وفي مثل هذه القراءة، لا يعود الأسلوب الأدبي الذي يتبناه ماركس قشرةً خارجيةً ملوّنةً توضع فوق لوح العرض الاجتماعي الاقتصادي التاريخي الذي كان سيبدو منفراً لولاها، بل يغدو لغة ملائمة، وحيدة في بعض الأحيان، للتعبير عن «طبيعة الأشياء الخادعة»، ومشروعاً كياتياً [أنطولوجياً] لا يمكن تقييده بحدود وأعراف جنس قائم كالاقتصاد السياسي، أو الأنثروبولوجيا، أو التاريخ. وباختصار، فإن الأدب بعد أساسي من أبعاد فهم ماركس المادي للتاريخ، وهو بذلك مدخلٌ لتلقي ماركس لا غنى عنه، الأمر الذي يقتضي تمحيصاً أوفى لمفاعيل المفارقة السخرة (Irony) وأثار التهكم والهجاء كصناعات أدبية.

#### الهوامش

- ١ المتحدة الأمريكية لدى Simon & Schuster. وصدرت ترجمته العربية بعنوان *حادثة التخلف: تجربة الحداثة*، ترجمة: فاضل جتكر (قبرص: مؤسسة عيبال، ١٩٩٣)، ثم صدرت في طبعة ثانية بعنوان *كل ما هو صلب يتحول إلى أثير: تجربة الحداثة وحادثة التخلف* (دمشق: دار كنعان، ٢٠١٦)
- ٢١ Berman, *All That Is Solid Welts Into Air*, p. 89
- ٢٢ Marshall Berman, *Adventures in Marxism* (London and New York: Verso, 1999), p. 34
- ٢٣ المصدر ذاته، ص ٣٣
- ٢٤ المصدر ذاته، ص ٨٥
- ٢٥ ماركس، رأس المال، المجلد الأول: عملية إنتاج رأس المال، ص ٦٣. لا يتطابق المقبوس الوارد هنا تمام التطابق مع الترجمة في هذا المرجع، حيث يعيّن هذا الأخير «تبدو» و«كانها» في الجملة الثانية بخلاف الترجمة الإنكليزية
- ٢٦ المصدر ذاته، ص ٨٢
- ٢٧ المصدر ذاته، ص ٨٣
- ٢٨ المصدر ذاته، ص ١٠٤
- ٢٩ المصدر ذاته
- ٣٠ المصدر ذاته، ص ١٠٦
- ٣١ المصدر ذاته، ص ١٠٧٤. انظر أيضاً: كارل ماركس، نتائج عملية الإنتاج المباشرة (الجزء المجهول من رأس المال)، ترجمة: فالح عبد الجبار (مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي)، ص ٨٦
- ٣٢ ماركس، رأس المال، المجلد الأول: عملية إنتاج رأس المال، ص ٢٩٧
- ٣٣ انظر هذا المقبوس والمقبوسات التي تليه المتعلقة بما دُعي في الأدبيات الماركسية بـ «دور المجرم في صناعة التاريخ» في فرنسيس وين، رأس المال لكارل ماركس: سيرة، ص ١٠٤ - ١٠٧
- ٣٤ إدموند ولسون، تاريخ الفكر الاشتراكي المعاصر من فيكو إلى لينين، ترجمة يونس شاهين (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣)، ص ٢٥٥. والحال، إن العنوان الأصلي لهذا الكتاب الصادر في عام ١٩٤٠ هو *To the Finland Station: A Study in the Writing and Acting of History* (إلى محطة فنلندا: دراسة في كتابة التاريخ وتمثيله (١٩٤٠))
- ٣٥ المصدر ذاته، ص ٢٥٧ - ٢٥٨
- ٣٦ Stanley Edgar Hyman, *The tangled bank: Darwin, Marx*, ٣٦
- ٣٧ Frazer and Freud as imaginative writers (New York: Atheneum, 1962)
- انظر أيضاً: فرنسيس وين، رأس المال لكارل ماركس: سيرة، ص ١٠٢
- ٣٧ المصدر ذاته، ص ١٠٣
- ٣٨ المصدر ذاته
- ٣٩ ولهم ليبكنخت، «من ذكريات عن ماركس»، في كارل ماركس وفريدريك إنجلز في ذكريات معاصريهما، ص ٣٠٥ - ٣٠٦
- Eleanor Marx, from: «Recollections of Mohr» (1895), in Marx & Engels, *On Literature & Art: a selection of writings*, ed., Lee Baxandall & Stefan Morawski (St. Louis / Milwaukee: Telos Press, 1973), p. 147
- انظر ترجمة عربية لذكريات ابنة ماركس هذه عن والدها في: إيليونورا ماركس - إيفلنغ، «كارل ماركس (ملاحظات موجزة)»، في كارل ماركس وفريدريك إنجلز في ذكريات معاصريهما، ترجمة سليم توما (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٥)، ص ١٣٦
- ٢ انظر: S. S. Praver, *Karl Marx and World Literature*, (London and New York: Verso, 1976, 2011), pp. 1-2
- وانظر: ولهم ليبكنخت، «من ذكريات عن ماركس»، في كارل ماركس وفريدريك إنجلز في ذكريات معاصريهما، ص ٣٨١ - ٣٨٢
- ٣ أوغست كورنو، ماركس وإنجلز: حياتهما وأعمالهما الفكرية، المجلد الأول: سنوات الحداثة والشباب، اليسار الهيجلي، ١٨١٨ - ١٨٤٤، ترجمة محدّ عبتاني (بيروت: دار الحقيقة، من دون تاريخ للنشر)، ص ٨٠
- ٤ Brawer, pp. 3-4
- ٥ فرانسيس وين، رأس المال لكارل ماركس: سيرة، ترجمة: نادر ديب (الرياض: العبيكان للنشر، ٢٠٠٧)، ص ٢٠
- ٦ فرانز مهنغ، كارل ماركس: تاريخ حياته ونضاله، ترجمة خليل الهندي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢)، ص ١٦
- ٧ كورنو، ص ٨٦
- ٨ المصدر ذاته، ص ٨٧ - ٨٨
- ٩ فرنسيس وين، ص ٢٢
- ١٠ المصدر ذاته، ص ١٠٠ - ١٠١
- ١١ كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول: عملية إنتاج رأس المال، ترجمة: فالح عبد الجبار (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٣)، ص ١١١، ١١٧
- ١٢ المصدر ذاته، ص ٢٥٣
- ١٣ المصدر ذاته، ص ٣٦٨ - ٣٦٩
- ١٤ المصدر ذاته، ص ١٧٥
- ١٥ المصدر ذاته، ص ٧٩٢
- ١٦ كارل ماركس، مخطوطات كارل ماركس لعام ١٨٤٤، ترجمة: محمد مستجير مصطفى (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٤)، ص ٧٧
- ١٧ ماركس، رأس المال، المجلد الأول: عملية إنتاج رأس المال، ص ٧٩٢
- ١٨ المصدر ذاته، ص ٣١٥
- ١٩ انظر: فرنسيس وين، رأس المال لكارل ماركس: سيرة، ص ١٤
- ٢٠ Marshall Berman, *All That Is Solid Welts Into Air: The Experience of Modernity* (London and New York: Penguin Books, 1988)
- كانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد صدرت عام ١٩٨٢ في الولايات



## ذاكرة

- ١٨٦ مذكرات جلاله عمر ٧  
التعددية، أم النفط،  
أم الوحدة الفورية؟  
حاورته ليزا ودين
- ١٩٤ كتاب السجن  
العنف، الحب، الجنس  
رؤف مسعد
- ٢٠١ المفكرة المسكوبية  
وموسيقى المستقبل  
عاطف علي

## مذكرات جارالله عمر ٧ التعددية، أم النفط، أم الوحدة الفورية؟

حاورته ليزا ودين

أستاذة العلوم  
السياسية في جامعة  
شيكاغو بالولايات  
المتحدة. من مؤلفاتها  
«السيطرة الغامضة»  
(١٩٩٩) و«الجموع،  
السلطة، الأداء في  
اليمن» (٢٠٠٨).

الوحدة قبل النفط

ظهر النفط، المسبب خصوصاً، بكميات تجارية في الجنوب. والجنوب على وشك أن يصبح دولة نفطية ينتج أكثر من الشمال. وقد بادرت الدول الخليجية، السعودية خصوصاً، للانفتاح على الجنوب وتقديم المساعدات له. وأذكر عرضاً غير رسمي بأن يسدّد المغتربون في الخليج وتحديدًا في السعودية ديونَ عدن.

هل كان هناك تنافس في هذا المجال بين السعودية والجنوب تحديدًا؟ كلاً لم يكن هناك تنافس لأن الجنوب الجديد يمكن أن يقوم بدور لا تستطيع السعودية القيام به، والسعودية أرادت إقامة علاقة مع الجنوب خصوصاً أنها لم تنجح في علاقة أقامتها مع الشمال لأن القبائل كانوا يأخذون منها الأموال ويخدعونها. أراد السعوديون منفذاً تجارياً على البحر العربي. كان بإمكان عدن أن تكون ذلك المنفذ حيث عدن مدينة حديثة ومعاصرة، والسعوديون يعيشون في كبت وبيحثون عن متنفس، كان بإمكان عدن أن تكون منطقة سياحية ومنفذاً إلى العالم والعصر.

خضع الأمر للتقاش داخل الحزب الاشتراكي اليمني، وكان الحديث عمّا نريد من الدولة في الجنوب. وأذكر أنّ علي البيض وآخرين قالوا بصريح العبارة: ينبغي أن نسرع بإقامة الوحدة اليمنية قبل أن يصبح دولة نفطية. كانت هذه نقطة مهمة جداً. حمل علي سالم البيض هذا الرأي الذي وافقناه فيه فقد أردنا أن تقوم دولة الوحدة قبل أن يصبح الجنوب دولة نفطية، فالشعب في الجنوب وكثير من الناس سيعارضون قيام الوحدة وسيرغبون في أن تكون عدن والجنوب واحدة مثل الدول الخليجية الصغيرة، أي بلداً يبلغ عدد سكانه مليوناً ونصف المليون أو مليونين ويملك ثروة نفطية لكنه

لا يملك سكاناً. يمكن أن يعيش هؤلاء في رفاهية، لكن هذه الأمور لا تبني مشروعاً أو وطناً أو دولة أو نهضة. ثم إن مشكلة هذا المشروع أنه صغير وقد رغبتنا بمشروع كبير. قد يقول البعض إننا حاملون وخيالون وقد يقول آخرون إن دولة لوكسمبورغ صغيرة لكن سكانها سعداء، أو سويسرا أو الترويح أو سنغافورة إلخ. لكن هذا ما دار في أذهاننا يومها، وكنّا واحداً من الذين فكروا فيه. لكن أذكر أنّ علي سالم البيض طرح هذه الفكرة وهو لا يستطيع التحدث الآن كما أنه ليس مرتاحاً منّي ولا إلي ولا تعجبه أفكاره. وعلى الرغم من ذلك أريد قول الحقيقة. قال علي سالم البيض إنه إذا ظهر النفط فرتما يصبح هناك دولة صغيرة تزدهر مؤقتاً، لكن ليس المستقبل لهذه الكيانات الصغيرة بل هو لمشروع كبير. وبرأيي، المشروع الكبير الذي يمكن أن يستمر ليس اليمن الحالي، فحتى اليمن الحالي صغير يتعدّد ويتطور، المهم أنّ فكرة الوحدة مرتبطة بالتنمية والتطور والمشروع التوحيدي العربي، أي أنّ المشروع التوحيدي العربي موجود في أعماقنا وثقافتنا وجدورنا وطفولتنا. وبناءً على هذه الخلفية كان الجنوب مستعداً وجاهزاً ولكن بآراء مختلفة.

الوحدة بجلسة واحدة

وفي تشرين الثاني / نوفمبر من العام ١٩٨٩ زار الرئيس علي عبد الله صالح عدن حاملاً مشروعاً لتوحيد اليمن على أساس فيدرالي أي توحيد القوات المسلحة للشطرين وتوحيد الشخصية الدولية، ما يعني أن يكون هناك فيدرالية، كيان يجمع الدولتين أي دولة اتحادية. وكان الحزب الاشتراكي اليمني قد حمل مشروع التدرج - الكونفدرالية بناءً على التوصيات التي

أبدى علي عبد الله صالح رغبةً في لقاء جار الله عمر، وهذا الكلام موجودٌ في كتاب علي محمد الصراري. استغربتُ عندما دعوني، وقد ذهبتُ إلى قصر الضيافة في معاشيق أنا والأخ يحيى الشامي، وكنا أول من زار الرّجلين بعد اتّفاقيهما على الوحدة. طلب علي عبد الله صالح أن نجلس ففعلنا. حكى لنا ما حصل راجياً أن نسمع. قال إنّهما اتّفقا على الوحدة والدمج، ثمّ التفت نحوي وقال: أعرف ما تريده أنت، تريد التعدّدية وهي من حقك، أنا أتعهّد بأننا سنبنّي الدّولة على التعدّدية والديمقراطية كما تقترحون، وأنا مستعدّ لإعلان التعدّدية ولتفضّل أنت ويحيى الشامي والآخرين بعد الاتّفاق بالذهاب إلى صنعاء، نحاوروا مع النّاس وناقشوا واطرحوا أفكاركم ولن أمنعكم. هذا بالطبع بعدما كنّا مطلوبين من قبل. عقدوا فيما بعد محادثاتٍ وحاولوا التّراجع عن فكرة الديمقراطية. استمعنا ولم نقل شيئاً سوى القليل عن الديمقراطية، ثمّ انسحبنا.

بعد ذلك جاء يحيى العرشي، وهو وزير الدولة لشؤون الوحدة من الشمال، وراشد محمد ثابت وزير الدولة لشؤون الوحدة من الجنوب، لصياغة البيان. وأبلغ علي سالم البيض أعضاء المكتب السياسيّ بأننا اتّفقنا مع علي عبد الله صالح على الوحدة. وقد أراد فدرالية أمّا علي البيض فأراد الوحدة فوراً. أراد علي عبد الله صالح والمسؤولون الشماليّون التّخلّص من ثلاثة أشياء:

- ١ — أن لا يكون هناك شخصيّة لدولة في الجنوب
  - ٢ — أن لا يكون هناك جيش جنوبيّ
  - ٣ — التّخلّص من الحزب الاشتراكيّ اليمنيّ
- هذه ثلاثة أشياء مهمّة والباقي سهل. إلى جانب ذلك، اعتبر المسؤولون الشماليّون أنّ الشمال هو الأصل بسبب كثرة عدد سكّانه، وأنّه سيتمّ استيعاب الجنوب واحتواؤه. هنا حصل ارتباكٌ في المكتب السياسيّ. فوجئ البعض ودُهِش البعض الآخر بالسرعة والكيفيّة التي تمّت بها الوحدة. فجرى تذكيرهم بأنّ هناك فترة انتقاليّة لمُدّة ستّة أشهر. من جهتي، لم أحضر اجتماعاً للمكتب السياسيّ قبل المؤتمّر الصحافيّ الذي تمّ فيه الإعلان عن الاتّفاق. حضر أعضاء المكتب السياسيّ المؤتمّر الصحافيّ. أمّا أنا، فلم أحضر لأننا كنّا لا نزال في وضع سرّيّ داخل المكتب السياسيّ [يقصد الوضع السريّ للقادة الشماليّين في المكتب السياسيّ للحزب الاشتراكيّ في الجنوب]. أذيع الاتّفاق وبعد ستّة أشهر تمّ الإعلان عن الوحدة.

تضمّنها وثيقة الإصلاح الاقتصاديّ والاجتماعيّ الشامل - وبعدها تنتقل إلى الوحدة. عقد علي عبد الله صالح محادثاتٍ مع علي البيض. عرض عليه الأخير الوحدة الكاملة على أساس الدستور الذي اقترحه اللّجنة الدستوريّة في العام ١٩٨١ بدلاً من الكونفدرالية والفيدرالية، واقترح فترةً انتقاليّةً تعلن بعدها الدولة الموحّدة. وكانت اللّجنة الدستوريّة قد أجزتُ هذا الدّستور خلال فترة حكم علي ناصر محمد. وعلينا الاعتراف بأنّ آخرين ساهموا في صياغة هذا الدستور. وكان لبعض الشخصيات دورٌ في تحقيق الوحدة اليمنية كعبد الفتاح إسماعيل ومحسن العيني والقاضي عبد الرحمن الأرياني وغيرهم، أي كلّ الشخصيات اليمنية في الشمال والجنوب، وقد كان علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض سبّاقين.

مهما يكن، اقترح البيض أن نفعل دّستور العام ١٩٨١ الموجود في الأدراج والمتفق عليه ونعمل به، وأن يكون هو دستور الدولة الموحّدة. وبالفعل، اتّفقنا بعد ذلك على هذا الأمر.

لماذا تخلّى علي سالم البيض عن فكرته بالتدرّج في قيام الوحدة؟ هكذا هي طبيعته، بيدولي أنّه أراد أن يكون صاحب الدّور الأبرز في تفعيل الدّستور قبل أن يسبقه إليه آخر. وافق علي عبد الله صالح على المقترح وهنا وقعت مشكلة بعدما اتّخذ علي البيض هذا القرار تلقائياً على الرّغم من امتلاك الحزب رأياً قد حدّد مسبقاً.

قبل أن يذهب إلى عدن، استشار علي عبد الله صالح علي ناصر محمد [الموجود بما هو لاجيء سياسيّ في صنعاء] عمّن يمكن أن يتفاهم معه من أعضاء المكتب السياسيّ وأعضاء الحزب بشأن الوحدة. أجاب علي ناصر - كما قال لي بنفسه في ما بعد - أنّ «هناك شخصاً يمكن التّفاهم معه هو الشخص الذي لا أنا أحبه ولا أنت تحبه. لكنّ إذا أردت قضية الوحدة، يمكنك الاتّصال بجار الله عمر ومناقشته لأنّه شخصٌ محترمٌ ومؤثّر ويفقه السياسة»، فقال صالح: «ما إنت كنت تقول إنك ما تحبّس جار الله عمر»، فأجاب: نعم ولكن هذان أمران مختلفان، «أنا وأنت ما نجبهوش»، لكنّه شخصٌ مؤثّر وله دورٌ في المكتب السياسيّ، حاول أن تتصل به وتقلعه في المناقشات. لكنّ جار الله يحمل هموماً معيّنة كقضيّة الديمقراطية والتعدّدية السياسيّة، وهذه مسألة مهمّة لديه. عندما انتقل علي عبد الله صالح وعلي البيض إلى قصر الضيافة في المعاشيق، لمناقشة الفكرة المتفق عليها،

رأس علي سالم البيض اجتماعاً للمكتب السياسي غلبت عليه الدهشة والحيرة و... الفرح. قال له بعضهم إنه تصرف خارج المؤسسات وإنه قرّر من دون العودة إلى المكتب السياسي، أما البعض الآخر فاعتبر أنّ الوحدة الاندماجية ليست جيدة وأنّ الفدرالية أفضل وأننا لو أخذنا برأي علي عبد الله صالح لكان أفضل. وكان هذا رأي الأخ فضل محسن عبد الله.

باختصار، تحفظ أعضاء المكتب السياسي على طريقة علي سالم البيض إذ اعتبروا أنّ الاتفاق يخالف الدستور وأنه لم يراع الوثائق وأنه يجب أن يكون هناك مؤتمر واستشارات ولا بدّ من المناقشة المسبقة. غير أنهم لم يعارضوا الوحدة بل عارضوا الطريقة التي اتبعتها علي البيض في الاتفاق عليها، أما نحن فوافقنا بأغلبية على الخطوة التي اتخذها بعد مشاورات كثيرة. ومما قاله علي البيض «إذا لم تقبلوا بما اتفقت عليه فسأقدم استقالتي»، وكان جازاً. لقد هدّد بالاستقالة ونحن تراجعنا كما فعل من وافق بسبب تهديده بالاستقالة، لماذا؟ لأنهم كانوا يفتقرون إلى البديل. ثم إن مسألة الوحدة مع الشمال والتراجع عنها ستقسم الحزب لأنّ الأغلبية الساحقة ساندت الوحدة. وكان من أكثر المتحفظين المرحوم سعيد صالح سالم، وزير أمن الدولة، وصالح منصر السيللي، وزير الداخلية.

وكان علي عبد الله صالح عندما نزل إلى عدن، استقبله المواطنون استقبالاً حافلاً، فطلب أن يلقي خطاباً أمام الجماهير، قائلاً: إن لم تقبلوا الاتفاق [على الوحدة] سألقي خطاباً هنا في عدن. لكنّ قيادة الحزب اعتذرت منه عن إلقاء الخطاب على اعتبار أنّ الجماهير في الجنوب تريد الوحدة كما هو حال المواطنين في الشمال، ذلك أنّ الوحدة ستخلصهم من الأوضاع القائمة.

## إلى الوحدة الاندماجية

بعد ذلك دُعيت اللجنة المركزية للحزب إلى الانعقاد ووافقت على الاتفاق كلّه، وعلى وثائق الدولة الجديدة وتغيير النظام في الجنوب والسماح بالتعددية السياسية فيه وإعلان حرّية الصحافة. لكن هذا، في رأيي، جاء متأخراً لأنّ هذه الإجراءات جاءت قبل الوحدة بفترة قصيرة ولم يكن أمام النظام في الجنوب وقت كافٍ لتقديم نفسه كنظام ديمقراطي متفرد.

بين الهواجس الخفيفة التي انتابتني هاجس أنّ النظام في صنعاء يكذب ولن يفي بالعهود. فمن خلال

تجربتي كمعارض للنظام في صنعاء أعرف هذا الكلام جيداً وأدرك كيف كنّا نتفق معهم ولا ينفذون شيئاً. لكنّ فرحتي بالوحدة وبأني سأعود إلى صنعاء وإلى قريتي بحرّية طغت على هذه الهواجس وكنّت على ثقة من أنّ الحزب الاشتراكي اليمني أقوى. وكان لدينا اعتقاد أنّهم يمتلكون حزباً، وأننا نمتلك جيشاً قدر ما لديهم جيش، لكنّ لدينا مؤيدين من أعضاء الحزب وأنصاره في الشمال، أما هم فلم يكن لديهم أحد في الجنوب. أعطتنا هذه العوامل ثقة كبيرة، أما أنا فقد ملأني بالتفاؤل. وأما هواجسي فقد عبّرت عنها من خلال بعض التساؤلات تقول إن حكّام الشمال يعيشون في مجتمع قبلي ولا يهتمهم غير الحفاظ على السلطة. ولا يوجد نظام أو قوانين لديهم. لكننا اعتقدنا أنّ موازين القوى ستتغيّر وسنبني دولة جديدة. اعتقدنا ذلك لأننا أصحاب البرنامج والخيار السياسي.

لا الجنوب ألمانيا الشرقية ولا الشمال ألمانيا الديمقراطية هنا بدأت مرحلة جديدة تلت إعلان الاتفاق. انطلقت مفاوضات جديدة تمحورت حول نقطتين:

الأولى: تتعلق بمصير النظام السياسي وشكله. كيف سيكون؟ أحزاباً عدّة؟ حزبين كبيرين؟ ما مصير الحزب الاشتراكي اليمني والمؤتمر الشعبي العام؟ وقد تشكّلت لجنة رسمية، «لجنة التنظيم السياسي»، من الجنوب برئاسة سالم صالح محمد ضمت سيف صائل وآخرين، ومن الشمال برئاسة عبد العزيز عبد الغني، ناقشوا شكل النظام السياسي، وقد طرحت بدائل عدّة. الأوّل دمج المؤتمر الشعبي العام والحزب الاشتراكي اليمني في تنظيم واحد، وهذا مقترح صنعاء. الثاني حلّ الحزبين واعتماد التعددية والسماح للأحزاب الأخرى بأن تعلن عن نفسها. الثالث ترك الحزبين على حالهما وإجازة تشكيل الأحزاب الأخرى، وكان هذا مقترح الشمال.

ثانياً: الفترة الانتقالية. أرادت صنعاء أن تكون الفترة الانتقالية طويلة، لمدة سنتين، وفي النهاية تمّ الاتفاق على مرحلة انتقالية مدّتها ستة أشهر. وافق النظام في صنعاء على اختصار الفترة الانتقالية مخافة أن تحصل تطوّرات عالمية أو داخلية تؤجّل العملية الوحديّة، فقد تمكّ صنعاء في العمق قلقاً على بقاء النظام في الجنوب، فأرادوا ان يستعجلوا إغائه.

أما «لجنة التنظيم السياسي» فقد اختارت بقاء الحزبين كما هما والسماح للأحزاب الأخرى بالإعلان عن نفسها. اعتقدنا أنّ هذا الخيار هو لصالحنا لأنّ الحزب الاشتراكي

موجود ولم نؤيد حله، وقد أيدنا القرار أيضاً لأننا مع التعددية، فمن أراد أن يكون له حزب فليتنفصل. كنا نعتقد أن الحزب الاشتراكي هو أكثر قدرة على العمل والبقاء من المؤتمر الشعبي. وقد قبلت صنعاء هذا الخيار لأنه كانت لديهم خطة كما لديهم استعداد ونفس طويل للاستيعاب. لسان حالهم: «الآن أي شيء، ونستوعبهم فيما بعد. كل هذا مسألة تكتيكية مؤقتة، دعوهم يأتون إلينا ولنسمح لهم بالحزب وأي شيء فالمهم أن ينتهي النظام السياسي في عدن، هم قلة ونحن كثرة، نرتب أمورنا بعد ذلك».

**كانت لديهم خطة كما لديهم استعداد ونفس طويل للاستيعاب. لسان حالهم: «الآن أي شيء. ونستوعبهم فيما بعد. كل هذا مسألة تكتيكية مؤقتة. دعوهم يأتون إلينا ولنسمح لهم بالحزب وبأي شيء فالمهم أن ينتهي النظام السياسي في عدن. هم قلة ونحن كثرة. نرتب أمورنا بعد ذلك».**

كانوا يفكرون على الطريقة الألمانية إذ اعتقدوا أن الوضع يشبه حال ألمانيا الديمقراطية وألمانيا الغربية: هناك نظام صغير وآخر كبير. وإذا نظرنا إلى المسألة جيداً نرى أنه لم يكن هناك ألمانيا شرقية وألمانيا غربية على الإطلاق. ألمانيا الغربية بلد متطور جداً، وصنعاء لا تطوّر فيها ولا رأسمالية، ولا قدرة لديها على شراء ألمانيا الشرقية. وكل مواطن في ألمانيا الغربية يدفع سبعة في المئة من مرتبه من أجل تطوّر ألمانيا الشرقية. لكن في صنعاء، أو الشمال في الشمال عموماً، هناك كثافة سكانية ولكن ليس هناك من تطوّر نوعي. كما أنه لا اشتراكية في عدن ولا رأسمالية في صنعاء. والوضع في ألمانيا الشرقية والغربية مختلف. الوضع في اليمن فيه تماثل أو تشابه في التخلف، لم يطوّر أحد أحداً. هناك اختلاف بين الشطرين من حيث وجود نظام إداري وقانوني وثقافي أفضل في الجنوب، لكن يوجد تماثل اقتصادي واجتماعي بينهما.

#### محاولات شق الحزب الاشتراكي

بعد اتفاق ٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٩ انطلقنا نحو الوحدة. بدأت هنا المناورات إذ حاول كل طرف الوصول إلى الوحدة وهو أقوى من الطرف الآخر. هنا انتعشت المخاوف. الجنوب مهتم بالديمقراطية ومُصرّ عليها أكثر لأنه بدأ بالتعددية معتقداً أن الديمقراطية تحميه

وتعطيه أفضلية على اعتباره حزباً بل وأنها لمصلحته. أما في الشمال فلم يرغبوا بالديمقراطية والتعددية الحزبية لكنهم أبدوا استعدادهم لتطبيق الوحدة أولاً على أن نقبل بشروطهم أيّاً كانت ثم نعيد لاحقاً ترتيب البيت من الداخل.

هنا بدأ «الحزب الاشتراكي اليمني» البحث عن أنصار له في الشمال من الناصريين وغيرهم وراح يجمعهم. كما تحرك الشمال على جبهتين: الأولى البحث في الجنوب عن المعارضين السابقين للنظام من السلاطين وأعضاء «جبهة التحرير» و«رابطة أبناء الجنوب اليمني» والذين انشقوا عن «الجبهة القومية» الموجودين في الخارج، في مصر كما في صنعاء. بحث الشمال عن الذين تضرروا من الإجراءات الاقتصادية كالتأميم والإصلاح الزراعي. وأخذ الرئيس علي عبد الله صالح يجمعهم ويدفعهم للمطالبة بأن يكونوا شركاء في الدولة المقبلة كي يظهر الحزب الاشتراكي اليمني بأنه لا يمثل الجنوب بما يكفي.

أما الجبهة الثانية التي تحرك عليها علي عبد الله صالح فهي جبهة الجماعات الإسلامية، وتحديداً حزب الإخوان المسلمين وقد كان متحالفاً معهم في الماضي. راح ينشطهم ويعطيهم النفوذ وينمي دورهم داخل المؤتمر الشعبي العام. دُعيت إلى صنعاء بعدما تلقيت اتصالاً من علي عبد الله صالح في منزلي في عدن بناءً على مشورة من علي ناصر محمّد. كان ذلك في شهر كانون الثاني / يناير أو شباط / فبراير قبل الوحدة بشهرين أو ثلاثة. قال لي لماذا لا تزور صنعاء. وكان يريدني أن أطلع أنا ومجموعة أخرى [من الشماليين في عدن] اتفقت مع الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني لأنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد أعلن عن عضويتي في المكتب السياسي ولا جرى الإعلان على أن الحزب الاشتراكي اليمني موحد على مستوى اليمن كله.

ذهبنا إلى صنعاء مع وفد آخر من الحزب فاستقبلونا هناك استقبالاً ممتازاً أنا والوفد الذي معي. نزلنا في الفندق على حساب الدولة، كان المرحوم سلطان أحمد عمر موجوداً معنا لكنني لا أذكر ما إذا كان يحيى الشامي في عداد الوفد أيضاً. أقمنا في فندق حدّه - شيراتون. المهم استقبلونا استقبالاً حافلاً ومنحونا إمكانية الحديث مع الصحافة كما وجهوا تعليمات بضرورة التعامل معنا علو نحو جيد، وقد أشرف الرئيس شخصياً على طريقة استقبلنا وأوعز إلى كبار مسؤولي الدولة أن يدعونا إلى الضيافات ويجعلونا نشعر بأننا أصبحنا حاكمين أو

قريبين من الحكم وبأئنا أصحاب نفوذٍ كبير في صنعاء، وقد كنّا مطرودين منها في السابق.

## خلافٌ على تطبيق الحدود

أثناء وجودي في صنعاء وقعت مشكلةً بين علي البيض وعلي عبد الله صالح حول تطبيق الحدود الشرعية المنصوص عليها في الدستور وعلى الكيفية التي سيتم تطبيقها. فهناك نصٌّ في الدستور يشير إلى عدم جواز قطع اليد أو الرجل بطريقةٍ بشعة. دار النقاش حول مستقبل الدولة واختلفوا على قطع يد السارق. قال علي البيض إننا لا يمكن أن نقبل بهذا النوع من الحدود وإن هذا أمرٌ لا تقبله البشرية في هذا العصر، رافضاً القطع والبتير. فردّ علي عبد الله صالح بضرورة قطع الأيدي والأرجل وضرورة أن يُطبّق هذا الحدّ. لم يكن علي عبد الله صالح مع تطبيق هذه التصوص لكنه أراد إرضاء الجناح الإسلامي. ولسان حاله: أنا أفرض على الجنوبيين، على الشيوعيين، هؤلاء الأفكار والقوانين خاصتنا. أدى هذا إلى أزمةٍ بين الرجلين وتأزّم الموقف.

فوجئتُ عندما اتصلوا بي في الفندق وقالوا إنّ الرئيس يريدني في تعزّ عارضين عليّ طائرةً سريعةً لنقلي. استغربتُ هذا العرض وأكدت أن لا ضرورة لإحضار طائرةٍ فأنا أستطيع استخدام سيارتي، وأبلغتهم أنّي سأنتقل إليهم في اليوم التالي. بحلول الظهيرة كنتُ عند الرئيس في تعزّ حيث استقبلني بحفاوةٍ غير معهودة في منزله. تناولنا طعام الغداء وحدنا وانتقلنا إلى غرفة المقيّل، وكان هناك قات جميل من جبل صبر، وهو قاتٌ مميّز. وقد يستغرب القارئ إذا عرف أنّنا تناقشنا من الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً. وأعتقد أن الرئيس علي عبد الله في هذا المقيّل أراد أن يأخذني إلى جانبه كثيراً. وكان عنده يقينٌ بأنّه سينجح إذ اعتمد على خبرته الطويلة جداً في كسب الشخصيات الحزبية وإخراجها من الأحزاب لتقف إلى جانب الحكومة، إلى جانبه. أمّا السبب الأساسي لتلك الدعوة فهو التّقاش في الخلاف الذي وقع بينه وبين علي سالم البيض. لم يُدخلني في قضايا شخصية ولم يسألني عن حياتي الشخصية، فقد طلب من الأجهزة أن توفّر له ما يمكن من معلوماتٍ عن حياتي الشخصية وعن قريتي. لكنّه لم ينسَ في آخر الحديث أن يسألني عن حياتي الشخصية ومشاكلي وحاجاتي وظروفي. لكتّبي شعرتُ بأنّه ليس من الضروري أن أحمّد له عن مشاكلي بنوع

❖

علي عبد الله  
صالح مع أمين  
الحزب الاشتراكي  
حينها علي سالم  
البيض في ٣٠  
تشرين الثاني /  
نوفمبر ١٩٨٩  
خلال التوقيع على  
اتفاقية الوحدة



من المبالغة، وقد حرصتُ علي ألا أتوقف عند هذه المسألة كثيراً، وأخبرته أنّ لديّ منزلاً في عدن ومنزلاً في القرية. وقد كان هذا الموضوع منتهياً بالنسبة لي إذ تجاوزتُ مرحلة الشكوى من ظروفه.

**الحزب الاشتراكي يريد أن يعقد معك  
صفة كاملة. يسلم نفسه لك بشكل  
كامل. كلنا سلمنا أنفسنا. العاصمة. الدولة. صنعاء. وستكون أنت  
رئيسا. سنعطى أنفسنا لك بالجملة وسنصبح تحت قيادتك فلم  
تريد أن تأخذنا بالتقسيم وعلى دفعتين؟**

وفي خِطّة التّفاش التي رسمها أظهر لي أنّه يملك عيوناً داخل الحزب، فبدأ يتحدّث عن الخلافات داخل الحزب الاشتراكي اليمني في عدن، وقال إنّهُ مطلعٌ على الخلاف بأكمله وكان كلّ طرفٍ يستشيرهُ، وقال: عندما أقصي عبد الفتّاح إسماعيل كنتُ أعلم بالأمر. لكن كان هذا تمهيداً لفكرةٍ أخرى. أعترف بأنّ بعض المعلومات التي قالها قابلتُ بعض الحقائق التي حصلتُ عندنا، لكنني كنتُ أعرف أنّ الحزب مخترقٌ وأنّ أعضاءً هربوا سلّموا معلوماتٍ، وقد كان الأمين العامُّ يعرف الكثير هو أيضاً، ولم يعد في الأمر أسراراً.

قال لي علي عبد الله صالح: «في النهاية أنت في الجنوب ويعتبرونك من الشمال، وهو أمرٌ صحيحٌ من ناحية وغير صحيحٌ من الناحية الأخرى. وقد تناقشنا في النهاية مع الإخوة في الجنوب وأخبرتهم عن كيفية توزيع الحكومة المقبلة، فأنا عندي جنوبيّون معارضون لهم، يجب أن أعطيهم نصيباً في الحكومة، وهم لديهم شماليّون هاربون في عدن، قلت لهم: أنتم عليكم أن تعطوهم مناصب من نصيبكم. إلّا أنّهم يرفضون أن يعطوكم وزراءً للهاريين من حزب الوحدة الشعبيّة»، طبعاً هذا الكلام ليس صحيحاً، فهو من كان يعارض وجودنا في الحكومة ومنحنا مناصب فيها، وكان يريد ممارسة الضّغط علينا من عدن. صحيحٌ أنّهم كانوا رافضين منحنا أيّ منصب، كانوا متّفقين، لكنّ هو أيضاً رفض منحنا ذلك بذريعة أنّ هؤلاء مخزّبون.

بعد ذلك، عرض عليّ أن يعطي أعضاء حزب الوحدة الشعبيّة الهاريين في عدن حقيبتين من نصيبه في الحكومة إذا كانت الحكومة مناصفةً بين الشمال والجنوب. وفي

الحوار بيني وبينه، كان يقول: أعطيك وزارة في الحكومة أنت وأحمد علي السلامي ويحيى الشامي أو من ترغب به بجانبك، بشرط أنّكم تخرجون من الحزب الاشتراكي اليمني وننشئ حزباً لنا وحدنا، متساوياً عن سبب تبعيتنا للحزب الاشتراكي اليمني. وراح يقول إنّ الحزب موجودٌ الآن في الدولة لكن نحن الموجودون في الشمال لا نملك صوتاً أو منصباً. وأبدى استعداده لقبولنا لديه وإعطائنا مناصب في الوزارة على الرّغم من معارضتنا له في الشمال وكان ذلك رغبة في التعدّدية، لكن هي تعدّدية لفك الحزب الاشتراكي إلى شمال وجنوب.

لم أعلّق كثيراً على المشاكل داخل الحزب الاشتراكي اليمني. قلت له إنّ ذلك حصل في الماضي ونحن الآن إزاء وضعٍ جديدٍ. لم أخبره ما إذا كان كلامه صحيحاً أم لا. أبلغته أنّ الخلافات التي كانت داخل الحزب والتي يعرفها أو هو جزءاً منها أصبحت من الماضي ونحن الآن نفكر بالمستقبل. وفي ما يخصّ خلافه مع علي البيض أخبرته أنّ هذا الخلاف يحصل اليوم وغداً يمكن أن يحصل خلافٌ آخر، وعلينا أن نتوقّع حصول مثل هذه الخلافات. وأبديتُ استعدادي للمساهمة في حلّ هذه المشكلة وهي بسيطة [كذا] لأنّ الذي نحن عليه كبيرٌ ويجب أن نتوقّع حصول خلافات وعوائق بحجم هذا المشروع الكبير. وبالنسبة إلى العرض حول أن نصيح وزراءً وننشقّ عن الحزب الاشتراكي اليمني، أخبرته «أنتك اتّفقت مع الحزب الاشتراكي اليمني وعلي البيض وآخرين على توحيد اليمن، وتقسيم الحزب الاشتراكي اليمني هو مشروعٌ مضادٌ للوحدة. أن نعيد خلق الحزب الاشتراكي الجنوبيّ والحزب الاشتراكي الشماليّ في ظلّ الوحدة فهذا تقسيمٌ وتفتيتٌ للأحزاب على أساسٍ جغرافيٍّ وأساسٍ رأسيٍّ، ونحن نريد التقسيمات السياسيّة والقبلية على أساسٍ أفقيٍّ في الساحة اليمنيّة كلّها، وهذا يتنافى مع رغبتك في توحيد اليمن كمشروعٍ كبيرٍ، وتقسيم الحزب الاشتراكي اليمني مشروعٌ صغيرٌ ومضادٌ للمشروع الأوّل»، ونصحتهُ بالألّا يفكر بهذا الموضوع، ومن حقّه من الناحية السياسيّة التكتيكيّة أن يمتنع من علي البيض ويردّ عليه ولكن على الرد أن يكون تكتيكيّاً وليس استراتيجيّاً، فهذا الردّ كبير. أمّا بالنسبة إلى الوزارات، فقلت له إنّي لا أحبّ أن أكون وزيراً، أنا شخصياً من ناحيتي لا أطمح إلى ذلك والوزارة ليست مبتغاي، وما أهدف إليه من العمليّة السياسيّة هو موضوع أكبر لأنّ الوزارة صغيرة وأنا طموحي كبير - وكنت مبالغاً في هذا - أنا في المكتب السياسيّ وسكرتير

حزب الوحدة الشعبىة، أنا أكبر من وزير. قال: يعنى يمكن أن تكون فى المجلس الاستشارى، قلتُ ممكن إذا اتفقتم على أن أكون مستشاراً على أن أكون وزيراً، فالوزارة عملٌ إدارى. بعد ذلك قلت له نكتة: «أنا أشكرك على هذا العرض الكبير، لكن الحزب الاشتراكى يريد أن يعقد معك صفقة كاملة. يسلم نفسه لك بشكل كامل، كلنا سلمنا أنفسنا، العاصمة، الدولة، صنعا، وستكون أنت رئيساً، سنعطى أنفسنا لك بالجملة و سنصبح تحت قيادتك فلم تريد أن تأخذنا بالتقسيط وعلى دفعات؟ سنكون أنصارك كرئيس للدولة فلم تريد أن تقسمنا، اتركنا مع بعضنا البعض و سنكون أقوى و سنساندك». يذكرني هذا بتصرفات بعض الضباط السوريين إذ كان عندهم الحزب القومى السورى فى لبنان كله يؤيد سورية، فقام الضباط بتقسيمه إلى قسمين، الحزب الاجتماعى السورى المجلس الأعلى و الحزب القومى الاجتماعى قيادة الطوارئ، فخرس الحزب القومى و خسرت سورية، قسّمت أنصارها، و«أنت تريد تقسيم الحزب الاشتراكى اليمنى». ضحكنا مع بعضنا البعض و انتهى المقيبل. وعدت فى اليوم التالى إلى صنعا.

#### مساعدة مالية أم رشوة؟

بعد فترة سافر هو إلى الأردن فى زيارة، وكان ينوبه هنا من التاحية العمليّة على محسن صالح. وكنتُ فى الفندق عندما أرسل لي رسولاً أو اتصل بي بالهاتف وقال لي إن الرئيس اتصل من الأردن و كلفه أن يبعث لي ولزملائى مبلغاً من المال كي نزر عوائلنا هنا فى صنعا. شكرته و أخبرته أن الحزب أعطانا أموالاً و أننا فى وضع ممتاز، لكنه أصرّ وقال إن هناك ضابطاً يدعى الحاروفى سيصل إلينا. وبالفعل جاء فى اليوم التالى إلى الفندق و معه مبلغ كبير من المال بالنسبة إلينا إذ كان الدولار يساوي خمسة ريالات. حاول هذا الضابط تسليم المال لي من دون أي ورقة أو سند، فأخبرته أنني كلمتُ علي محسن و المسؤول المالىّ وأنه لا بد أن يأخذ سنداً. وكان اسم أمين الصندوق لدينا علي يحيى من أبناء منطقة الحشا فى محافظة الضالع. إلا أن الجماعة أرسلوا لنا المال من عدن، نصرفه متاً أما الفندق فهو على نفقة الدولة. طلبتُ من المسؤول المالىّ إعطائه سنداً بالمبلغ، وقال لنا الضابط إنه ليس مكلفاً بأخذ سندٍ و أنهم طلبوا منه أن يدفع لي الأموال، لكنني أصررتُ على أن يأخذ السند.

ثم دعوتُ زملائي، و منهم عضو المكتب السياسى حسين الهمزة و عضو اللجنة المركزية محمد الشيباني

و القائد العسكرى المرحوم محسن عبد الحميد و آخرون، وكان هؤلاء ممثلين للحزب و الجبهة الوطنية، وكان هناك أيضاً فى صنعا سعيد أحمد الجناحي و علي محمد الصراري، وقد دعوتهم و أخبرتهم أن هذه الأموال صُرفت لنا و نحن نتصرف بها بناءً على قرار جماعى. و اتفقنا على أن ندع هذه الأموال للأمور الضرورية و نصرف المبلغ الأكبر منها من أجل إصدار صحيفة فى صنعا ناطقة باسم الحزب و الجبهة. وقد أودعنا مبلغاً كبيراً فى المصرف مؤلنا من خلاله إصدار صحيفة هي «المستقبل». عملتُ على ألا يكون المبلغ سرىاً شخصياً و أن يُصرف بعلم الجميع.

على هذا المنوال ظللنا فى صنعا نحاور الناس و نناقشهم لكن تغير الجو قليلاً، إذ أصبح البعض يسأل عن سبب رفض «هذا» لمنصبٍ وزارى. لم يُظهر لي الرئيس غضبه إنما برز هناك استفهامٌ عن سبب رفض جار الله عمر للوزارة و للأموال وهو نفسه بحاجة للأموال، وكان هناك أوامر صرف أراضٍ فى صنعا، فقد أخبرني محمد معياد وهو أحد ضباط الشرطة و أصبح فيما بعد المدير العام لأمن حضرموت، أنني تلقيتُ أوامر من الرئيس بقطعة أرض هنا فى صنعا و أن الرئيس طلب منه تبليغي بذلك، شكرته و قلت له إنني لا أريد، سألني عن السبب فقلت إن الأراضى تتحول إلى مشاكل و نزاعات و تشغلني عن عملي. و عندما دعيتُ إلى عدن قيل لي إنه صرف لأعضاء اللجنة المركزية أكثر من قطعة أرض فى عدن. و أستطيع أن أوكد لِنفسي و للجميع أنني لم أتسلم قطعة أرضٍ لا فى عدن ولا فى صنعا.

وقد حصلتُ على هذا البيت [حيث تجري المقابلة] بقرار من الدولة بعد قيام الوحدة، ولما كنتُ لا أملك سكناً فُدمتُ لنا هذه البيوت بثمن قمنا بتقسيطه من المرتب، وقد قدّمت لنا ليبيا هذا المشروع حيث تمكّنا من إقناع العقيد معمر القذافي أثناء زيارتنا إلى ليبيا مع وفدٍ من المؤتمر الشعبى العام بعد الوحدة بتقديم مساعدةٍ لليمن فى حلّ مشكلة سكن المنتقلين من عدن إلى صنعا الذين لا يملكون مساكن فى صنعا. وقد حُدّدت علينا قيمة بأسعار عام ١٩٩١ مقابل أن تقدّم الدولة الأرض مجاناً، وقد دفعتُ ليبيا الدولار و نحن دفعنا سعر التكلفة حيث وصلت القيمة إلى ثلاثة ملايين ريال، و التّشطيب على حسابي، وقد كلّفني ما يوازي أكثر من القيمة و حصل ذلك بدعم من بعض الأصدقاء، وليس لديّ أي قطعة أرض فى صنعا على الرّغم من أنه عُرض عليّ لكنني رفضتُ ذلك، فهذه مرحلة انتهت.

## كتاب السجن العنف، الحب، الجنس

رؤوف مسعد

كاتب وروائي، مصر.

اليوم هو ٢٥ أيلول / سبتمبر ٢٠١٦. بينما أنا أرتب مكتبتي، التي ضاقتُ بكتبها فألقت ببضعها على الأرض، وجدتُ دفترًا طويلًا بغلافٍ مقوَّى. فتحته، فإذا بالصفحة الأولى تحوي عناوين عدّة يبدو أنني كتبتها لأختار منها لاحقاً ما هو مناسب: «كتاب السجن»، «كتاب المراقبة والغدر»، «خارج الزمن داخل الوقت»، والأخير بالطبع عنوانٌ مُلغز.

إلى جانب ما سبق، كنتُ قد كتبتُ عنواناً بلسان السجّناء «العاديّين»: لا سجن اتبني على سجّان، ولا سجن اتبني على مسجون. لكن الأهم من هذا وذاك، تاريخٌ سجّلته، أنا الذي يُهمَل عادةً تسجيل التواريخ، وهو: ١٠ / ٨ / ١٩٨٨.

أمعنتُ النظر في الهوامش، فوجدتُ تفاصيل أكثر دقّةً وحميميّة. في ملاحظةٍ جانبيّة كتبت: شرح الوضع في السجّان:

♦ العلاقات الجنسيّة

♦ الحبّ عند المساجين السياسيّين

يبدو أنني مشغولٌ منذ أعوامٍ سابقةٍ بحكايات السجّان والغدر والمراقبة والحبّ والجنس عند المساجين السياسيّين! هي أوراقٌ في دفترٍ طويلٍ ممزّق بعضها. على بطن الغلاف الأول الداخليّ كتبتُ بخطّ مختلف. أخذتُ متي ثمانية وعشرين عاماً حتّى قرّرتُ نقل ما في الورق الممزّق وتوثيقه داخل العالم الإلكترونيّ والكمبيوتر. قبلها، قرأتُ المكتوب بتأني. لاحظتُ أنني بين عامي ١٩٨٨ و٢٠١٦ ازددتُ نضجاً في حالاتٍ معيّنة، ورعونةً في أخرى، وبالتّضح والرّعونة أعني الكتابة عن السجن وما يتفرّع منها عن العلاقة بين السياسيّين وعن العلاقات العاطفيّة بين «المساجين» عموماً، و«المساجين السياسيّين» على وجه الخصوص. وفي الحقيقة، تردّدتُ بعض الشيء

واجتاحني الأسئلة: هل أعيد كتابة ما سبق وكتبتُ من دون تنقيح وشطب؟ أم أبقى الكتابة على ما هي عليه؟ ولأنّ كُتساؤلاتنا في معظم الأحيان إجاباتٍ بديهية، قفزتُ إلى ذاكرتي أعمالُ التنقيح والشطب والتّغيير التي أجريتها على كتابات السجن، خصوصاً التي قرأتها غير مرّة، وهالني، في كلّ مرّة، كمّ الصّدق الجافّ الذي حوَّته كتاباتي منذ سنواتٍ طوال. لذا، قرّرتُ إعادة الكتابة بأقلّ قدرٍ من التنقيح، على أن أمارج بين الكتابات بطريقةٍ تخدم المضمون أكثر ممّا تعبر التراتب الزمّنيّ في المكتوب أهمّية. لستُ أدري، لعليّ ما زلتُ ذلك الشّخص الأرعن.

خارج الزمن، داخل الوقت

ليس هناك فارقٌ تقريباً في العلاقات الداخلية للمسجونين بين الرّجال والنّساء، والحديث هنا عن السجّناء العاديّين، أي غير السياسيّين، فالسجن يفرض ويخلق هذا التّوع من العلاقات الداخليّة التي تكون السّيادة فيها للأقوى، سواءً بالمفهوم الجسديّ العضليّ الذي تؤازر السجّان فيه سكينّة صغيرة أو سلاحٌ أبيضٌ ما، أو بالمفهوم الاقتصاديّ الذي يمدّ السجّان بقوةٍ خفيّة. بالمحصّلة، لكليهما السّيادة داخل السجّان.

تعطي القوّة أصحابها، نساءً ورجالاً، امتيازاتٍ خاصّةً في الحياة اليوميّة للسجّان. أوّل الامتيازات وأوضحها الإعفاء من العمل اليديويّ، الشاقّ أو العاديّ. يستطيع القويّ استغلال الضّعيف فيعمل بدلاً منه مقابل أجر أو خوفاً من البطش. ثاني الامتيازات متعلّق بالأكل ولذّته، فالسجّان، الذي يملك فائضاً من القوّة عن أقرانه، يحصل على أطايب مطبخ السجّان... ثمّ يأتي الجنس. كلامنا عن الجنس يعني التّطرّق إلى «تابو» محرّم الحديث عنه هو

«العلاقات»، كما أسميتها، بين بعض المسجونين السياسيين، وأنا واحد من الذين أقاموا علاقات داخل السجن. والجنس في السجن مرتبط بالعنف داخله. وللعنف أنواع مختلفة لا تقتصر على الجسد، فالسجين يقاسي خلف القضبان وخلف العين عنفاً نفسياً أيضاً. غالباً ما يتم إكراه السجن على أكل معين، والثوم والاستيقاظ في أوقات محددة لا علاقة لها بالسجين، وكذلك استيلاء السجن على متعلقاته الشخصية من صور فوتوغرافية ومقتنيات عاطفية كخواتم الخطوبة والزواج، ثم هناك حلق شعر السجن الذي يدخل في باب العنف النفسي، وحرمان السجن من كتابة الخطابات وتسلمها لفترات طويلة، والحرمان أيضاً من الكتب والصحف والتلفزيون والمذياع وغيرها.

### الإضراب عن الطعام

لقد عايشتُ شخصياً هذا النوع من العنف داخل السجن. لم أواجه ضرباً أو إهانات، لكنني، كحال الآخرين في «القناطر» وباقي السجون المصرية، كنتُ في «تكديرة» من توابع زلزال مقتل شهدي عطية الفضائحي التراجيدي داخل السجن. لقد نمتُ على البرش الموضوع على الإسمنت مباشرةً وفوقه بطانية متهرئة وغطيتُ جسدي ببطانية أخرى. وكنا بعد الأكل بالقروانات وغسلها نستخدمها كوسادات. وقد اعتدنا كذلك المشي حفاةً في صقيع الشتاء والتجول كذلك ونحن في الطابور في حوش السجن والذهاب إلى المراض. والأخير مروّع، فهو كالأدشاش من دون أبواب أو سواتر، يرانا الجميع ونراهم.

بقينا في هذه التكديرة، أو على الأقل بقيت أنا فيها، من شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٦٠ حتى ترحيلنا إلى الإسكندرية للمحاكمة. حينها فقط سُمح لنا باتعال الأحذية، لكن فقط عند الذهاب إلى المحكمة! أي بعد ثمانية أشهر من التكديرة إياها. بعد المحاكمة، التي كان يرأسها الفريق هلال عبد الله هلال، تقرّر وضعنا في المكان المخصّص للإعدام تديباً لنا وعزلاً نهائياً عن باقي السجناء «العاديين غير السياسيين» الذين كانوا يقدمون بعض الخدمات لنا مقابل أجر طبعاً.

تمّ عزلنا إعلامياً كذلك بأمر من المباحث، فمُنعنا من الصحف والكتب رغم أننا حصلنا على هذا الحق من المحكمة. سمحوا لنا فقط بكتابة خطابات مفتوحة تمرّ على إدارة السجن والمباحث بالطبع قبل توصيلها إلى

الأهالي. وأباحوا لنا تسلّم خطاباتٍ مرّةً واحدةً شهرياً، وألا يزيد حساب السجين الواحد في الكانتين عن خمسة جنيهات، مع العلم أنّ علبه السجائر المصرية كانت حينها تُباع بحوالي جنيه ونصف الجنيه. حينها قرّرنا الإضراب عن الطعام. دخلنا الإضراب بشكلٍ متدرّج، أي على دفعات. كنا مجرد ستة عشر متهماً، وكان المتهّم الأول هو أبو سيف يوسف أبو سيف والثاني هو إسماعيل المهدي. انضممتُ إلى الدفعة الأولى من المضربين فعزلونا في زنابن التأديب، أي انفرادي مع مواصلة تقديم الطعام لنا ثلاث مرّات يومياً. وكان من ضمن الدفعة الأولى في الإضراب أيضاً شوقي خميس ويحيى مختار، لكنّ يحيى فكّ الإضراب وأعلن ذلك قائلاً «يا زملاً أنا فكّيت الإضراب وشربت شوية لبن»، ثمّ اختفى إذ تمّ ترحيله إلى العنبر. لم نعاتبه، بل ولم نناقش معه ما حدث احتراماً له ولقراره.

الإجراء المتّبع مع المضربين عن الطعام من المساجين هو أن يتمّ عرضهم أولاً على طبيب السجن الذي يكشف على أفوههم وألسنتهم ويثبت أنّهم لم يتناولوا طعاماً خلال الأيام الثلاثة الماضية، ثمّ يُحوّلون إلى النياحة حسب طلب المسجون المضرب ليعلن للنياحة أسباب إضرابه بمواجهة تعسّف إدارة السجن. في هذا الوقت، يكون غير المضربين قد اتّصلوا بالأهالي ليلبغهم، فيتصلون بإدارة المحكمة لإبلاغهم بإضراب المتهّمين لأننا لا نزال تحت التحقيق والجهة التي تدير شؤوننا هي المحكمة لا إدارة السجن! هكذا إذاً يُعرض المضرب على الطبيب ثمّ وكيل النياحة، ليُصار إلى ترحيله مرّةً أخرى إلى زنابن التأديب والانتظار بينما هو متعبٌ جداً.

كان أوّل يومين، بالتسبة لي، هما الأصعب، خصوصاً مع رائحة الطعام الذي لم يتغيّر عن الطعام الماسخ اليومي لكنّ الجوع كافر. سمح للمضربين من اللّجنة المشرفة على الإضراب، وفيها رفيق كان في السنة الأخيرة من كلّية الطبّ، بشرب الماء، فكنتُ أملاً معدتي ماءً ودخانَ سجائر، التي لم أعد أستسيغ طعمها في اليوم الثالث وصارت تسبّب لي الدوخة. بعد اليوم الثالث اختفى الجوع عندي وحلّ محلّه إرهاقٌ شديدٌ تبعه هذيانٌ خفيفٌ متعلّق بالأصوات والروائح وأطباق الفول بالبيض المقلّي بالسمن.

أذكر أننا فكّنا الإضراب بعد خمسة أو ستة أيام، وذلك بعدما أمرت المحكمة إدارة السجن بتنفيذ بعض ما وضعناه في مطالبنا، وهو الصحف والخطابات الأسبوعية

فيها تنفيذ أحكام الإعدام. وكان من أكثر الأمور إبلاماً لنا في هذا السجن قربنا من الشارع، فقد كنا نستطيع، إذا أصغينا بهدوء، أن نستمع إلى لفظ الشارع المصري اليوميّ الاعتياديّ، وخصوصاً أننا في المكان المخصّص للمحكوم عليهم بالإعدام.

والعنف الجسديّ ليس أشقى حالاً من التّفسيّ. من حسن حظّي أنني لم أكن في السجن خلال فترة. التعذيب المنهَج الذي امتدّ على مدى ستّة أشهر وتوقّف بمقتل شهدي عطية. لقد سمعت حكايات مروّعة عن التعذيب تقشعرّ لها الأبدان، لكنني لا أملك أدنى فكرة عما إذا كنتُ سأحتمل التعذيب الجسديّ والتّفسيّ كما فعل الآخرون. هو عنفٌ منظّمٌ وممنهَجٌ كتب عنه طاهر عبد الحكيم في «الأقدام العارية» ورفعت السعيد في «وقائع التحقيق في مقتل شهدي» وكذلك أحمد صادق سعد في «الليمان»، وصولاً إلى نجيب محفوظ في «الكرنك»، روايةً وفيلمًا، وقبلهم يوسف إدريس في «العسكريّ الأسود» وغيرهم الكثير.

لكن، والحق يُقال، لم يصل التعذيب الجسديّ الذي لقيه اليساريّون المصريّون منذ أعوام ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ إلى التعذيب الجنسيّ، غير أنّ ما لقوه كان ممنهَجاً ويوميّاً وينتظم في ساعاتٍ معيّنة وأعمالٍ محدّدة متكرّرة كالضرب والإهانات الجنسيّة والإجبار على الهاتف بحياة جمال عبد الناصر والعمل في الجبل لتكسير الأحجار وتحقيق «كوتا» معيّنة من كميّة الأحجار وإلا تعرّض السجّين لمزيدٍ من الضرب والتّعذيب.

يعتمد ما أذكره من تعذيبٍ ممنهَجٍ على روايتين، الأولى مارواه الذين مرّوا خلال شهورٍ بالتّعذيب المنهَج، مارواه لي شخصياً وما كتبه البعض كما أشرتُ سابقاً. والرّواية الثّانية أو المصدر الثاني تجربتي الخاصّة الشّخصيّة التي تعرّضت لها، وهي ما اعتبره تعذيباً ممنهَجاً.

## هل كان عبد الناصر يدري؟

لكن أودّ أن أشير هنا إلى قضيّةٍ أساسيّةٍ متعلّقةٍ بالتّعذيب المنهَج، وهي أنّ الشيوعيين الذين تعرّضوا له انقسموا فيما بينهم بشأن معرفة القيادة السياسيّة في مصر، أي عبد الناصر والحلقة الضيّقة المحيطة به، بما يحدث لهم داخل السجن، فمنهم من اعتبر أنّ عبد الناصر ومن معه على درايةٍ بما تعرّضون له، وآخرون اعتبروا أنّ هناك من أخفى على ناصر وحلقته الضيّقة (قد يكون من الحلقة الضيّقة نفسها) أمرَ التعذيب، ولكن من خلال متابعتي

المتبادلة بين المساجين وعائلاتهم وزيادة مشتريات الكانتين من جنيهين إلى خمسة. كما صرفت لنا إدارة السجن تنفيذاً لتعليمات الطيب كمياتٍ من الحليب لنفكّ بها إضرابنا. هكذا نقلونا مرّةً أخرى إلى زنازيننا الأصليّة منتصرين!

## عند تنفيذ الإعدام

والسجن من أصعب الأماكن التي يستحيل وصفها بدقّة، لأنّ المكان هو نتاج عدّة تخلقه وتعيد خلقه. والسجّين في السجن المصري لا يتسلّم فراشاً أو غطاءً جديداً، هو يتسلّم ما عبّر على أجساد آخرين لا يعرفهم، أشياء تحمل عرفهم وخوفهم وأحلامهم. صحيح أنّها آتية من «المغسلة» العامّة للسجن، والتي يُشرف عليها ويديرها مساجين آخرون، لكن لا خصوصيّة للسجّين حتّى في ملابسه الداخليّة، إلا إذا سمحت له إدارة السجن بتسلّم ملابس داخلية من عائلته فيحافظ عليها ويقوم هو بغسلها ونشرها في الزّزانة بعيداً عن المغسلة العامّة.

**لا تعذيب نفسياً يعلو على ما يتعرض له السجّين المحكوم بالإعدام. في الليلة التي تسبق الإعدام يسود السجن هدوء غير عادي. يختفي صخب المساجين عندما يعرفون بطريقتهم الخاصة «أن بكرة إعدام».**

لا تعذيب نفسياً يعلو على ما يتعرض له السجّين المحكوم بالإعدام. في الليلة التي تسبق الإعدام يسود السجن هدوء غير عاديّ. يختفي صخب المساجين عندما يعرفون بطريقتهم الخاصّة «أن بكرة إعدام». في الصباح لا يخرج المساجين للتريّض، يُرفع فوق صارية السجن العلم الأسود، ثمّ فجأةً ينفجر الصخب. يدقّ جميع المساجين بالقروانات على أبواب الزّنازين الحديدية، لعلّهم بهذا يعلنون احتجاجهم البشريّ على مبدأ الإعدام. لا يتدخّل الحراس بل يقعون في أماكنهم واجمين صامتين حتّى يُنزل العلم الأسود من الصّارية بعد انتهاء الإعدام. حينها يسود السجن مرّةً أخرى صخبٌ عنيفٌ أعنف من الأيام الاعتيادية، كأنّ السجّناء يحتفون بحيواتهم بعدما انتزعت إدارة السجن حياة واحد منهم. وقد كان سجن «الحدره» واحداً من السجون التي يتمّ



❖  
سجناء داخل  
أفقااص الحجز في  
مصر، أف ب

رواندا وحقول القتل في كمبوديا ومقابر صدام حسين و«البعث» الجماعية في العراق وقتلى حلبجة الأكراد العراقيين بالسّم الكيماويّ وخرائب غزّة وفلسطين بقذائف جيش الاحتلال الإسرائيليّ. ما أعنيه من هذا التّعداد أنّي لا أملك إحساساً زائفاً بإنسانية العنف، فالعنف هو العنف مهما كان مصدره، عائلياً أو مجتمعياً أو سياسياً، دولياً وحزبياً.

والسّجين المصريّ لا يستقبل العنف من الأجهزة الأمنية وإدارة السّجن فقط، بل أيضاً من زملائه، يبيع السّجناء لأنفسهم التّجسس على سلوكيات بعضهم البعض الخاصّة وتحديداً الجنسيّة و«الغراميّة العاطفيّة». وحول هذا الموضوع، يذكر صنع الله إبراهيم واقعةً شخصية له في كتابه «أيّام الواحات».

أعتقد أنّ السّجون المصريّة مهتأة لهذا التّوع من العنف. وأيضاً كتب صنع الله في رواية «شرف» عن هذا الأمر، فتحدّث عن امتزاج العنف الجسديّ بالعنف الجنسيّ الذكوريّ والمثليّ. وليس لي علمٌ عمّا إذا كانت هناك كتاباتٌ نسائيّة عن العنف بأنواعه المختلفة، من البدنيّ بين إدارة السّجن والسّجينات إلى العنف الجنسيّ بين المسجونين بعضهم ببعض. لكنّ الأكد أنّ العنف البدنيّ طاقةٌ بشريّة نولد على الأغلب بها، وتلازمنا طوال حياتنا، وقد نموت أيضاً بسبب العنف الموجه نحونا عن قصدٍ أو عن طريق الصدفة.

والسّجون المصريّة مفرّخة للعنف لأنّ القائمين على أمر السّجون يعتقدون في الأصل أنّ العنف هو الطريق الوحيد المتاح لهم «لتأديب وتهذيب وإصلاح» المسجونين. تصوّر أنّ السّجين السياسيّ المضرب عن الطّعام يُحال فوراً إلى زنزانة التأديب، وهي زنزانة انفراديّة تُؤخذ منه فيها حوائجه التي اكتسبها خلال نضاله اليوميّ ضدّ إدارة السّجن. لا يُحال إلى النّياحة إلا بعد اليوم الثّالث على الإضراب، ليدلّي بأسباب إضرابه، وهو إجراءٌ روتينيّ لا يقدّم ولا يؤخّر لأنّ النّياحة هي نياحة أمن الدّولة وهي لا تملك قولاً أمام مباحث أمن الدّولة التي تدير السّجن السياسيّ على الرّغم من عدم اعترافها بهذا، فإدارة السّجن تتعاون بشكلٍ وثيقٍ و«مطيع» مع أمن الدّولة.

بعد مرور الوقت اعتدّ الصّخب واعتدّت عنفه المنظّم داخل السّجن. بدأ هذا الصّخب يتحوّل إلى عنف، وبدأ يتحوّل السّجن معه تدريجياً إلى «جحيم» وجوديّ سارتريّ!

للأميرين، أعتقد جازماً أنّ عبد الناصر لم يعطُ أمراً تفصيلياً بالتّعذيب، أي لعله لم يستخدم المصطلح بلفظه ومعانيه والدلالة، لكنّه بالتأكيد كان يعلم. لذلك عندما انفضحت «دولة مصر» بقيادته في برلمان يوغسلافيا بشأن مقتل شهدي تحت التعذيب، جاء ردّ فعله أنّ أمر فوراً بإيقاف التعذيب والتحقيق لمعرفة من كانوا يمارسونه.

**هل يصدق أحد أن تعذيباً استمر لمدة ستة أشهر متواصلة في سجن «ليمان طره» و«أبو زعبل» ولم يكن عبد الناصر يعلم به؟ مستحيل! هو تواطؤ صريح وواضح لحاكم وجماعته حاولا تطبيق نظرية «المستبد العادل» الفاشلة والمتناقضة.**

هل يصدق أحد أنّ تعذيباً استمرّ لمدّة ستة أشهر متواصلة في سجن «ليمان طره» و«أبو زعبل» ولم يكن عبد الناصر يعلم به؟ مستحيل! هو تواطؤ صريح وواضح لحاكم وجماعته حاولا تطبيق نظرية «المستبد العادل» الفاشلة والمتناقضة. أمّا السّادات فقد تسلّم الحكم وواصل ما اعتبره هو طريقته في الحكم، خصوصاً في ما يتعلّق باليساريين، فأطلق من القمقم جنّي الجماعات الإسلاميّة، والنتيجة التراجميّة معروفة وهي أنّ من قتل السّادات يوم الاستعراض العسكريّ في شهر تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩٨١ هم أفراد الجماعات الإسلاميّة داخل الجيش المصري.

## مشاهدات العنف

صحيحٌ أنّي لم ألمس تعذيباً داخل السّجن عن قُرب، إلا أنّي شاهدتُ أنواعاً من العنف المسلّح في بيروت ولبنان عموماً. لم أرَ الحرب الأهليّة بقصّها وقضيضها، لكن شاهدتُ آثارها المخيفة، وشهدتُ على ما تبقى منها لشعبٍ تملّوك ممارسته العنف استغراباً، فهو الدّوّاقعة للطّعام والغناء والتفاصيل التي تزخر بها الحياة في تلك البقعة من العالم. رأيتُ الاشتباكات المسلّحة تندلع فجأة من دون سبب منطقيّ، أحياناً على ما يطلقون عليه تسمية «أسبقيّة المرور» ليسقط من الجانبين من يسقط بين قتيل وجريح.

رأيتُ مظاهر العنف في منطقة ومدينة سيربينتسا داخل المقبرة الجماعية لقتلى المسلمين على أيدي الصرب. وشاهدتُ أفلاماً تسجيليّة عن الجماع في

## الحق في الجسد

- ولكن ماذا يتبقى للسجين؟

- لا يبقى له سوى الجسد.

الحق الوحيد الذي يمتلكه السجين هو جسده. لا حق خروج الجسد من خلف القضبان، بل حق التصرف بالجسد داخله. هو يضرب عن الطعام (السجين السياسي)، أو يشوه جسده ويجرحه بألة حادة (السجين غير السياسي) كي يتم نقله إلى مستشفى السجن، أو مستشفى عام، فيلتي بعائلته وأطبائه وممرضات وممرضين مختلفين عمن اعتاد رؤيتهم في عيادة السجن، فالطبيب داخل السجن قد لا يحوز على ثقة المريض، أما الممرض فقد يكون متواطئاً مع المباحث أو الإدارة أو كليهما.

الجسد هو الشيء الوحيد الذي يبقى للسجناء، ذكراً وإنثاءً. ليس الحديث هنا عن الرغبة الجنسية التي يمكن إرواؤها بالطبع عن طريق الاستمناء، وهذا يحدث للسجناء بشكل منتظم حين يتدارون ليلاً تحت أغطيهم، لكن الجسد هنا يبحث عن «الحب» بأنواعه المتحدقة والبدائية، البسيطة والمعقدة المركبة، حب عذري وحب جنسي. وكما ذكرنا سابقاً، بين العنف داخل السجن والحب والجنس داخله رابط متين. لا بد للتجمع الإنساني المكون من جنس واحد في مكان شبه مغلق كمعسكرات الجيش والسجون بما تحمل من عنف جسدي، أن يفرخ أيضاً مقابلاً موضوعياً للوحدة الذكورية (أو الأنثوية) بمواجهة هذا العنف.

لقد رأيت في هذا الإطار تجربة في «الواح» تواصلت حتى بعد الإفراج وبعد خروج «الرقيقين» إلى الحياة مرة أخرى وهجرتهم بعيداً عن مصر وحصولهما على درجات علمية عالية وتأليفهما مؤلفات هامة باسم مستعار وقد حظيا بسمعة علمية وإنسانية عالية. وبالطبع أحافظ هنا، قدر الإمكان، على «خصوصيتهما»، فأنا لم ألتقهما بعد السجن، لكنني سمعتُ عنهما وعن عملهما الفكري المشترك الهام وبالتالي أكتفي بهذا القدر من البوح.

أما شخصياً، فتجربتي كانت بالأساس في «الواح» حيث السجن المفتوح «بشكل ما». كان مسموحاً لنا أن «ناخذ نفس»، كما يقال، أي أن نرتاح بعض الشيء من المحاولة المتواصلة للبقاء عبر أشهر طويلة من الحبس المتواصل لأكثر من عشرين ساعة يومياً. وجدنا أنفسنا أخيراً في «معسكر» مفتوح، أي أن ساعات الحبس داخل الزنازين محدّدة بساعات إغلاق السجن مساءً، أي إغلاق الأبواب الخارجية للعنابر وترك أبواب الزنازين مفتوحة

حيث يتحرك السجناء بقدر من الحرّية، فيتواصلون ويتسامرون ويدخنون ويتبادلون الرأي والمشورة حول الأمور التي تعينهم. لقد أُنسنا في «الواح» مسرحاً بسيطاً عرضنا عليه مسرحية «عيلة الدغري» لنعمان عاشور، التي قمتُ فيها بلعب دور «عيشة» وهي الشخصية الأنثوية الوحيدة في العمل. وقد سمحتُ لنا إدارة السجن باستيراد ملابس نسائية وحتى حذاء بكعب عالٍ بعض الشيء، إضافةً إلى وضع كحلٍ وأحمر الشفاه.

## الحاجة إلى حنان

لكن السؤال الأساس هنا كيف يجد السجين نفسه متعلقاً بسجينٍ آخر؟ وهل يستطيع الإفصاح عن «تعلقه» هذا؟ وكيف يفصح إذا ما قرّر الإفصاح؟ تدخل هذه المحاذير ضمن العنف المشار إليه سابقاً والذي يواجهه السجين من قبل زملائه إذا ما كان البوح واضحاً ومكشوفاً. ثمّة اتفاقٌ جماعي صامتٌ وسريٌّ على ألا يصرح أحدٌ علانيةً وبشكل مكشوفٍ عن حبه للآخر، وبالتالي تبقى «المسائل» محفوظةً ضمن إطارٍ من عدم العلانية الفضائحية. هذه «الحشمة» خاصّةً بالسجناء السياسيين الذين لا يزال «الشكل العام» يشغلهم ويؤرقهم، فقد يؤدّي البوح إلى تشويه سمعة المساجين السياسيين، خصوصاً اليساريين، الذين تحيطهم دوماً أقاويل الفجور الجنسي التي يرذدها الأمن ومن خلفه بعض الغوغائيين. و«الحب» هنا قد يصل إلى مرحلة التلامس لا الفعل الجنسي، لكنّه في الأغلب قدرٌ من الحنان يتمثل بالإصغاء إلى شكاوى «الآخر» ورغبته في الإفصاح عن شكوكه المتعلقة بالإفراج وما يحدث أو سيحدث بعده، تبادل سيجارة وكوب من الشاي أو السير خلال ساعات الفسحة متشابكي الأيدي. وقد مررتُ بتجربتين من هذا النوع في «الواح» لكنني كنتُ أيضاً شديد الحذر كي لا أقع تحت طائلة «اللوم» الحزبي.

في «يوميات الواحات» أشار صنع الله إبراهيم بحذرٍ شديدٍ إلى تجربته في هذا الصدد. أما أنا فأعتقد أن حاجتي «الإنسانية البشرية» إلى الحنان شكّلت دافعاً أقوى من الرغبات الجنسية، كما أنني كنتُ في بداية مراهقتي أعيش وسط مجتمع ذكوري مغلق هو «داخليّة كلية الأمريكان» في أسيوط، وذلك لمدة خمس سنوات. كانت هناك أيضاً الرغبات الجنسية للمراهقين تتفجّر بأبجاء مراهقين آخرين تبدو عليهم بعض معالم «الوسامة» أو «الأنوثة» في طريقة سيرهم أو أفعالهم، كالجري أو الصراع الحقيقي أو

التمثيلي. وقد مررتُ كذلك بأكثر من تجربةٍ في هذا الإطار نظراً لكوني التحقْتُ بالداخلية وقد كنتُ أبلغ من العمر حوالي أحد عشر عاماً، قادمًا مباشرةً من «بيت الأسرة» إلى عشِّ الزنابير المراهقين الكبار في العمر والتجربة.

**في أكثر لحظات السجن هدوءاً. أواخر الليل أو قبيل الفجر. تسمع صخباً. قد يكون هذه المرة صخباً جنسياً. قد تسمع صراخاً مفاجئاً من سجين غير سياسي يناشد الحراس تخليصه ممن «يغتصبونه جنسياً». والتوصيف الدقيق للحالة أن أفراد الزنزانة يتبادلونه ويتداولونه جنسياً. يرد الحراس مقهقهين بأنه يواصل مهنة والدته. لتسمع بعدها زغاريد تعقبها عبارات بذينة جنسية صارخة.**

الحراس تخليصه ممن «يغتصبونه جنسياً». والتوصيف الدقيق للحالة أن أفراد الزنزانة يتبادلونه ويتداولونه جنسياً. يرد الحراس مقهقهين بأنه يواصل مهنة والدته، لتسمع بعدها زغاريد تعقبها عبارات بذينة جنسية صارخة. لا يهتم الحراس بندايات الاستغاثة الجنسية إلا في ما ندر. يدير هؤلاء السجن ويحركونه كما يحلو لهم، لا يتدخل مأمور السجن في تفصيلات التسكين أو الإعاشة أو حتى «التكدير»، وكذلك يفعل ضباطه. لقد فهم الحراس والسجانة ومعهم الضباط، عبر سنين طويلة من خبرة الفساد، أن لا يتدخلوا في العلاقات الداخلية للسجن. يغمضون أعينهم عن البطش وعن التهريب الداخلي الذي يقوم به بعض الحراس من ممنوعاتٍ على رأسها المخدرات.

يتحول ذاك الصخب أيضاً إلى نوع من أنواع العنف الإضافي الذي يحاصر السجن. يريد الأخير أن ينفرد بذاته فلا يستطيع. مئات السجناء حوله ينازعونه الفضاء المحدود محدثين صخباً متواصلًا. والزنزانة في «سجن القناطر» التي «سكنتها» بين خمسة إلى سبعة «نزلاء»، بحسب تعبير إدارة السجن، مساحتها لا تتجاوز أمتاراً قليلة، وبالتالي تكون «الأبراش» شبه متلاصقة لا تفصل بين البرش والأخر سوى عشرة سنتمتراتٍ على أبعد تقدير. وكذلك هو الحال في زنازين سجن الحدره في الإسكندرية وغيره من السجون. أما سجن «الواحاح» فتحوي زنازينه عشرة «نزلاء» وما فوق يتواجدون معاً معظم ساعات اليوم إذا كان السجن يمر بتكديرة عقاب جماعي وهو من أساليب العقاب المتبعة في السجون المصرية.

وبين السجناء السياسيين وغير السياسيين يتلمس الحراس فروقات هائلة، أهمها عدم وجود «رقيق جنسي» في زنازين السياسيين. ويرى الحراس أيضاً كيف يتعاون السجناء السياسيون مع بعضهم البعض لتلبية ضروريات الحياة داخل السجن، وكيف أنهم «يشيلوا بعض» مالياً عبر الحياة العامة، وهو المصطلح المتداول الذي يعرفه السجناء السياسيون حين ينتخبون شخصاً أو أكثر من بينهم ليكون هو المتحدث باسمهم أمام الإدارة، ويقوم، إذا أمكن، بترؤس لجنة خاصة بتنظيم التسكين مع مواد الإعاشة الضرورية الإضافية من الكانتين كالشاي والسكر وبعض المعلبات حتى يتمكن السجناء جميعهم، وتحديدًا من لا تصلهم أموال من الأهل، من مواصلة حياة فيها قدرٌ من الإنسانية كذلك التي يعيشها السجناء الذين تصل إليهم النقود والأطعمة من أهاليهم.

هناك ما يبرر تحول العلاقة في السجن السياسي إلى تابو، فالذكر السجن الذي يتستر على علاقة «ما» أقامها داخل السجن قد يفعل ذلك مخافة أن يتم دمه بأنه صيد سهل وبأنه مؤهل لهذا الفعل الجنسي كونه وافق على أن يقيم الآخرون معه فعلاً جنسياً. ويكون ذلك عبر اتفاقٍ أو شبه اتفاق بين المراهقين الذين سمعوا بأن فلاناً «يتم الفعل» به جنسياً. هو نوعٌ من العنف يمارسه الأشداء من المراهقين على الضعفاء منهم. يُعيدنا الحديث هنا إلى ما ابتدأنا به نصنًا للحديث عن علاقة القوة التي يمارسها السجن الأقوى على الأضعف، فالقمع من قبل ذاك على هذا مجرد صورة أخرى للقمع الداخلي الذي تقوم به إدارة السجن على السجن بكامله بين الحين والآخر لتذكر المسجونين بأنهم تحت رحمتها، إلا أن هذه المعادلة لا تمتع قيام علاقات خاصة بين «الإدارة» والقوة الداخلية للسجن، تماماً كما يحدث في الخارج من علاقات بين «الأمّن» والخارجين على القانون.

## صخب العنف والاعتصاب

في المقابل، لا يبالي السجناء الاعتياديون، أي المجرمون في قضايا مالية وأخلاقية، بفعل «فاضح» كهذا، بل يتفخرون به ويقيمون «حفلاً» في الزنزانة الذكورية التي تستقدم «زوجة» لسجين بلطجي أو أكثر، والذي يطلب ذلك من الحارس لقاء أجر من المؤكد يتقاسمه الحراس في ما بينهم. في أكثر لحظات السجن هدوءاً، أواخر الليل أو قبيل الفجر، تسمع صخباً، قد يكون هذه المرة صخباً جنسياً. قد تسمع صراخاً مفاجئاً من سجين غير سياسي يناشد

# المفكرة المسكوبية وموسيقى المستقبل

## عاطف علي

جامعي وخبير  
اقتصادي وكاتب. له  
مؤلفات في المنهجية  
والاقتصاد الزراعي  
والتغذية والثروة  
الحيوانية، من أعماله  
«الحضارة العربية  
الإسلامية ودورها  
في تكوين الحضارة  
الأوروبية»، ٢٠٠٩.

عندما نقول مفكرة، يتبادر إلى الذهن تسلسل الأيام المؤرخة عبر تسلسل الشهور لسنة معينة، لكننا هنا بصدد ما أبقته الأيام في قعر الذاكرة وقد مرّ عليه الزمن، لذلك لا تصلح التسمية، كذلك الأمر بالنسبة إلى المذكرات التي هي على أشد الارتباط بالمفكرة والتي تُسمى بدورها «أجندة». وما تمسكنا بكلمة «مفكرة» إلا على سبيل المجازة ولجميل وقعها على الأذن وحسن الرؤية التخيلية المتأتية عنها عبر الزمن. وما يعنيني في المفكرة ذكرياتها، حيث يمحي التاريخ الزمني - الدقة في الزمن، ويبقى لبّ الحدث وجوهه مرتبطاً بعلامة فارقة إذا أمكن الأمر. والعلامة الفارقة هنا هي زمن حكم خروتشوف، وبين التاريخين العائدين لعام وصولي إلى موسكو، ١٩٦٢، وعام خروجي منها بعد حصولي وبتفوق على شهادة دكتوراه في العلوم الاقتصادية بكامل عدد أصوات اللجنة المشرفة، في أيار / مايو ١٩٦٨.

ستة أعوام قضيتها هناك. تعلمتُ ورأيتُ فيها الكثير. تعلقتُ باللغة الروسية التي لا تزال حبيبةً عندي وقريبةً منّي. هذه اللغة كبيرة الأثر لما تحمل من حضارة وثقافة تعقّق الارتباط الإنساني بين الشعوب. واللغة بالنسبة إليّ خيطٌ غير مرئيّ يصل القلب والعقل عبر الحروف. يقولون «من علمني حرفاً كنتُ له عبداً»، أما أنا فأقول «غدوتُ له صديقاً صدوقاً ولو مرّ الزمن». واللغة أيضاً من عناصر القومية، وليس عبثاً في هذا الإطار تمسك الفرنسيين بالفرانكوفونية والولايات المتحدة الأميركية، اليوم وقبله، بنشر اللغة الإنكليزية التي تفرض نفسها جرّاء التفوق الحضاري لهذه البلاد.

تحمل مفكرتي هذه الكثير مما يطفو على سطح الذاكرة وينبتق من فيض خاطر رجل بلغ من العمر ٩١ عاماً. مفكرتي هذه ذكرياتٌ مضى عليّ وقوعها حوالي نصف قرنٍ من الزمن لسنواتي الست التي قضيتها هناك، في

موسكو. وما هذه المفكرة سوى الشاهد على ما قلتُ حول اللغة وما سأقول تباعاً، والذي يتأرجح بين السلب والإيجاب، فالإيجابي من ذكرياتي كثيرٌ كثير، والسلب ليس بالقليل القليل. وأستميح القارئ عذراً لتركيبي على السلب بما عايشته، ولذلك سببان: جمالي وواقعي. أما السبب الأول فيرجع إليّ أنّ الأدب والمسرح والفنّ وأضرابهما على الإجمال يُركّز فيها على السلب من أيام «أريستوفان» حتى اليوم، والإيجابي شيءٌ طبيعي وواجبٌ طبيعي على الدولة، التي لا تُشكر عليه لأنها تقوم بما يُفترض أن تقوم به. هذا في المبدأ، لكنّ العكس هو الذي يحصل، لذلك فالتركيز على السلب من قبل النقاد في مختلف حقول الكتابة والفنّ. أما السبب الواقعي فيرجع، بحسب رأي المتواضع، إلى أنّ الأحداث السلبية في تلك الفترة هي التي زادت من أرجحية انهيار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي. وانهيار الاشتراكية هناك مرده إلى سببٍ أو مجموعة الأسباب الداخلية أكثر منه إلى الخارجي من تلك الأسباب، ذلك أنّ الداخل يلعب دوراً كبيراً في التصدي للخارج إذا ما كان متماسكاً متيناً على المستوى الشعبي، الأمر الذي نرى أنّه لم يكن متوقفاً في الاتحاد السوفياتي في الجوهر الاجتماعي للحياة سوى في الظاهر وفي «البروباغندا».

أكتبُ ما أكتبُ هنا لتبليغ القارئ رسالته وإفهامه أنّنا من المتمسكين بالاشتراكية، أو أي اسم آخر لها، كحلٍّ لمشكلة المعضلة المزمّنة: الاستغلال الوحشيّ للامبريالية النيوليبرالية الحالية المعولة، والتي، بصفتها هذه، تزيد من صعوبة النضال في وجهها بطريقةٍ غير معقولة. وذكرياتي هنا مجموعة أحداثٍ للحياة اليومية التي عاشتها البلاد في ضوء الاشتراكية، والتي جرى نقلها كما هي إلى باقي دول المعسكر الاشتراكي، الأمر الذي يتناقض جذرياً

أدين لتلك البلاد بتوضيح الصورة عما كنت أحلم به: الاشتراكية، صنو العدالة الاجتماعية بالمفهوم الواسع، في هذا المجتمع الجديد الذي كان للأسف الشديد غير حرّ وينقصه الكثير الكثير من الإيجابيات.

بعد فترة من الإقامة في موسكو وتكرار ما سمعتُ فيها وما شاهدت، وأكّده لي لاحقاً أحد القياديين في الحزب الشيوعي اللبناني بعد عودتي إلى لبنان، أستطيع القول إنّ مصدر الأحداث السلبية في البلاد هو السلطة، وبالأخصّ المسؤولين الحزبيين، والمراقبون منهم على وجه التحديد. ليس أفراد الشعب مصدر ذلك السلبي، فهذا الشعب بشكل عامّ طيّب وبسيط لا تزال في حناياه تركيبة ورائحة الفلاح (الموجيك بالروسية) الكادح في روسيا.

## ١٧ كلباً في طائرة

كانت السنة الأولى من وجودي في موسكو مخصصةً لدراسة اللغة الروسية. كنا نعيش في منامة داخلية قريبة من المدرسة. في هذه السنة صدف أن سمعتُ المسؤول الحزبي في المدرسة، كنت قد بدأت أفهم الروسية، يتحدث عبر الهاتف قائلاً «ما بك؟ طبعاً بالطائرة! وأين نضع ١٧ كلباً للصيد؟». نزل هذا الكلام كالصاعقة عليّ فهو حمل دلالات كثيرة ومرعبة. مسؤول حزبي بسيط في مدرسة اللغة يتمكن من أن يذهب إلى الصيد بالطائرة بصحبة مجموعة من الحزبيين ومعهم ١٧ كلباً! وليس هذا المسؤول سوى مثال بسيط عن سلبيات الطبقة الحاكمة، وخصوصاً المسؤولين الحزبيين.

ذكري ما سمعتُ من «أستاذ الكلاب» بناظم حكمت الذي رفض زيارة الأديب الروسي الكبير شولوخوف عندما قال له: أرسل لك يختي الخاص على نهر الفولغا لإحضارك إلى «الداتشا» خاصتي، والداتشا هي الفيلا الخشبية التي تُبنى في الغابات وعلى ضفاف الأنهر أحياناً. لقد انتشرت الداتشات خلال حصار موسكو من قبل العدو النازي، فبينما كان المستون من السكّان يدافعون عن المدينة بأسلحة الصيد كان بعض الجنود يبنون «داتشات» للجنرالات في غابات لا يطاولها الحصار. عندما تحدثت عن ذلك مع بعض الأصدقاء والصدقات اللواتي اعتدنا السمر معهم قالوا «نعم». قلت كيف؟ أجابوا: عندنا هكذا! (بالروسية «Y Hac Tac») «أوناستاك»، وهم يجيبون بها عندما يعجزون عن الإجابة على ما هو غير منطقيّ. قلت لهم: هذا ليس بجواب، بل هروب إلى الأمام من الجواب. فردّوا: صحيح ما تقول.

والماركسية التي ترفض «الكز» وتقول بضرورة أخذ الظروف الموضوعية التاريخية، الماضية والحاضرة للبلاد، على مختلف الصعد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية وكذلك الثقافية بعين الاعتبار عند بناء الاشتراكية فيها.

تبدأ ذكرياتي خلال فترة حكم الرئيس السابق للاتحاد السوفياتي نيكيتا خروتشوف، التي لم يعد لـ«السبوت الشيوعية» فيها وجود، كما أنّ روسيا في تلك الفترة كانت في قلب السلم التام باستثناء الحرب الباردة. لكنّ الحديث عن ذكرياتي، بسلبياتها وإيجابياتها، يشمل أيضاً فترة حكم جوزف ستالين الرهيب رغم ما شهدته من إيجابيات في بناء الاشتراكية، ولو بشكل بوليسيّ مرعب مع الأسف الشديد ورغم الخلاف عليه. وما يحيرني ويرعبني في الوقت عينه انتصارات الشعب الروسي العظيم الذي قدّم بطولات خلال خوضه الحرب العالمية الثانية وانتصاره على ألمانيا النازية، هذا الانتصار الذي يُحتفل به حتى اليوم وبعد زوال الاشتراكية كونه يُعتبر من قبل الحكم الحاليّ نصراً وطنياً روسياً، والأصح القول سوفياتياً، لأنّ الكثير من الذين نالوا وسام بطل الاتحاد السوفياتي هم من غير الروس وعلى رأسهم التتار. لقد انتصر الشعب الروسي على النازية باسم الوطن واسم ستالين. لكنّ هذا الأخير قام بعد التصر بما لا يقبله العقل: مكافأة التتار الذين كانوا جزءاً أساسياً من صانعي الانتصار بإعادتهم إلى آسيا الوسطى، موطنهم الأصليّ، مشياً على الأقدام فمات نصفهم على الطريق، وأودع في «معسكرات الغولاك» الأسرى لدى الألمان بعد عودتهم إلى بلادهم.

لقد رأيتُ سابقاً في أوّل تجربةٍ للاشتراكية سبيلاً للخلاص من جحيم الإمبريالية النيوليبرالية، لكنّها، وللأسف الشديد، لم تنجح. لكن على العزيمة أن لا تهون ولا تضعف، بل تتضاعف للوصول إلى الهدف المنشود من قبل كلّ الفقراء والكادحين في العالم.

## الصدمة!

قبل مغادرتي إلى الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٦٢، قرأتُ تاريخه واطلعتُ على جغرافيته التي استكملتها لاحقاً في موسكو. ساعدتني القراءات على عقد مقارنات بين ما قرأتُ وروى لي وبين ما شاهدت هناك. لحظة وطئتُ قدمي أرض الاتحاد السوفياتي أصابتنني الصدمة! لم أتوقع ما رأيت فيها لطوباويتي في مقاربة موضوع الاشتراكية، ولثالثيتي التي أحملها بالفطرة والتي اكتسبتها بالتربية العائلية.

هنا تتداخل أفضع السلبيات مع الإيجابيات التي توضع في خانة البطولة، فبفضل هؤلاء الجنرالات الذين بُنيت لهم الداتشات وبفضل علمهم ومعرفتهم الحربية، إلى جانب عبادتهم لستالين، تمكّنوا من ربح الحرب والانتصار على النازيين.

في فرنسا التقيض من «داتشات موسكو». روى لي الروائي المرحوم جواد صيداوي حين كان يقيم في فرنسا ويعمل في إذاعة «مونتي كارلو»، عن لقاء أجراه مع الشاعر الفرنسي والروائي لويس أراغون أثناء الحرب الأهلية اللبنانية. عُقد اللقاء في قصر منيف، وبعد الانتهاء منه سأل الصيداوي الشاعر الكبير «أنت عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي وتسكن قصرًا كهذا؟» انفجر أراغون ضاحكًا وأجاب: «هذا القصر يعود بعد موتي للدولة الفرنسية التي كرمثني بسكنائه مدى الحياة». هذه هي بلاد الثورة الفرنسية، التي على الرغم من كون الحكم فيها غير اشتراكي، تكرم شاعرًا في الحزب الشيوعي الفرنسي وتعزّز به لأنه يرفع رأس فرنسا حضارياً غير أبهية لأيديولوجيته. وهذا ما حدث أيضاً في إنكلترا حين توفي عالم الفيزياء الفلكية وورث آينشتاين، ستيفن هاوكينغ، فكرم بدفنه في كنيسة عظيمة إلى جانب نيوتن، على الرغم من آرائه الفلسفية الملحدة.

تكفي هذه الأمثلة البسيطة لعقد مقارنة واضحة مع ما عاناه الكتاب والشعراء في الاتحاد السوفياتي من تضيق، لاسيما في ما يتعلق بالنشر، باستثناء «فقهاء السلطان» منهم، أمثال شولوخوف الذي امتلك ملكاً خاصاً في ظل الاشتراكية.

### ورق مفتت وبلاد ملأى بالشجر

لقد استعمل في الاتحاد السوفياتي ورق سيئ للغاية، لاسيما بالنسبة إلى الكتب الجامعية التي تكتنز جهد التأليف المشترك. لقد كنتُ شاهداً على ما أقول في كتاب «تخطيط الاقتصاد الشعبي» بمشاركة مجموعة من الأساتذة في كرسي أو كلية التخطيط حيث تخصصتُ وكتبت أطروحتي.

يخرج الكتاب بمضمون ممتاز، أما الورق والإخراج فالويل كل الويل. هل يمكن أن يبدأ فصل جديد في أسفل صفحة بعنوان في أسفلها مع سطرين؟ الورق خشن وينفّت مع الزمن، أما قلة التهوية وضيق الهوامش فيزعجان الطالب والقارئ إذا ما أراد تسجيل

ملاحظات. الحلّ الأمثل هو في صناعة للورق بنفضة تخطيطية كبيرة، والبلاد ملأى بالغابات. من الواضح إذ أن الحلّ للواقع السلبى في الاتحاد السوفياتي يكمن بحل جذري يطاول الكتاب وكل أنواع القرطاسيات والمجلات واستعمال الورق في الإدارة والمحال التجارية وغيرها. كل هذا في وقت لم يتوقّر فيه لدى السوفيات ورق مرحاض كما كان متوقّراً لدينا منذ نصف قرن.

### التنبلة من أسفل والتنبلة من أعلى

في تلك الفترة انتشرت التنبلة بين العمال، وهي من أفضع السلبيات، ولكن في الوقت نفسه، صدر الكسل عن الرفاق المسؤولين في الحزب الشيوعي داخل الاتحاد السوفياتي، أي الكسل «من الأعلى». لم يعمل هؤلاء الرفاق بالشقّ المهم من الاشتراكية، والذي قال به قبلاً الشيوعي الأول في العالم، المسيح عيسى بن مريم: «من لا يعمل لا يأكل». لم يطبق المسؤولون في الحزب هذا الشعار المهم للغاية، لأنه يطاولهم أولاً، فسكنوا عن التنازل في حلقات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك المختلفة والذين يُفترض أنهم كانوا تحت مراقبتهم وتفشيهم. وكيف يفعلون ذلك وهم المدانون قبل أن يُدان المراقب والمفتش؟ لقد عمل الرفاق المسؤولون لنصف أسبوع وارتاحوا النصف الآخر، باستثناء الظروف الطارئة.

تذكرني التنبلة بحادثة كنتُ شاهداً عليها أثناء إجراء عملية جراحية لي في مستشفى بوتكنسكايا - Botkinskaia. خلال مكوثي هناك سمعتُ شخصاً يلخ على الطيبة ويترجّها أن تمدد له الإقامة أسبوعاً آخر. استجابت الطيبة لطلبه بسبب انشغالها وضيق صدرها منه، وقالت بانفعال «هذه هي المرة الثالثة والأخيرة التي أستجيب فيها لطلبك... كفى كفى...». تنبلة حتى في المستشفى يا جماعة؟ ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

أود الإشارة هنا إلى أنّ الشيوعيين العرب، واللبنانيين منهم، نقلوا لنا صورةً مهزوزةً وضبابيةً وغير صحيحة ولا واقعية عن بلاد السوفيات والحياة فيها، صورة مغلفة ببريق الدعاية، والأصح القول «البروباغندا»، وحتى الكذب. وليعذرني الجميع في ذلك، وذلك ربما عن وعي أو لا وعي، على أيّ أرجح الوعي المرفق بالغيرة على أهمية الاشتراكية والتغاضي عمّا سواها. وهذا هو الحال حتى في الكتابات الماركسية الأرثوذكسية حتى اليوم، حيث لا لفتة ولا انتباه كلياً للأخلاقيات (Ethique) وقبول الاتحاد السوفياتي كما كان.

## أهمية الحافز المادي

والواقع أنّ عدم شعور الإنسان بالمكافأة الصحيحة مقابل ما يقدم من عمل مسألة في غاية الأهمية، فلا يمكن مساواة من يعمل بمن يتكاسل في العمل لدرجة نعتة بالتثبل، كما أنّ المكافأة الصحيحة مقابل العمل والأخذ بالحافز الماديّ عاملان أساسيان لتصحيح هبوط مستوى الإنتاج الذي كان قائماً قبل الأخذ بهذا الحافز. ويمكن مداواة هذه المسألة بالعمل بالقطعة مثلاً عند الإمكان، فمن ينتج أكثر يأخذ أكثر والعكس صحيح. وهنا تجدر الإشارة إلى ما كان يحصل في المناجم عند الحاجة الملحة إلى مزيد من فحم حجريّ أو معدنٍ آخر، إذ يُتَّفَقُ مع مجموعة من العمّال على مبلغٍ معيّنٍ إضافيّ إلى الأجر الشهريّ إذا ما أنهوا العمل خلال مدّةٍ معيّنة. يفعل العمّال ذلك، يُنّهون عملهم قبل المدّة المحدّدة بسبب الحافز الماديّ، إلا أنّ الإدارة للأسف لا تفي بوعدها وتخفض قيمة المكافأة. وعلى الرّغم ممّا يولّده هذا من غضبٍ وحنقٍ لدى العمّال، إلا أنّهم لا يملكون خياراً سوى الاستمرار في العمل، ولكن بحماسةٍ أقلّ طبعاً.

لكن أين يذهب الفارق بين المبلغ الموعدود وذلك المدفوع للعمّال؟ هل يذهب إلى ميزانية المنجم أو المعمل أو غيرهما؟ الشك في أنّ ذلك يحصل مشروّع، ذلك أنّ الفساد كان متفشياً إلى حدّ كبير في مختلف مجالات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، وبشكلٍ خاص في المحالّ التجاريّة حيث البضائع الأجنبية المستوردة والوقوف بالدور. إنّ انعدام الحافز الماديّ على الغلّة لمدير المحلّ والباعة يميّت الهمة في العمل طالما أنّ الأجر الشهريّ ثابتٌ مهما بلغت الغلّة. وأودّ الإشارة هنا إلى ضرورة الأخذ بمبدأ «الأوكازيون» كما كان يحصل في بعض بلدان المعسكر الاشتراكيّ الأخرى آنذاك، حيث يؤدّي تخفيض نسبة معيّنة على سعر السلعة إلى زيادة المبيع والخلاص من «الستوكات». الأمثلة على ذلك كثيرة، لكنني أكتفي بالحديث عن الأحذية. تخيل معي صنادل صيفيّة غليظة التعل في واجهة أحد متاجر المدينة بسعر ١٤ روبل للزوج وإلى جانبها أحذية صيفيّة لطيفة فاتحة الألوان (زهري خفيف، ورماديّ خفيف، وعسليّ خفيف إلخ)، بسعر ٩ روبلات للزوج. تتكدّس الصنادل في العنابر وتُباع الأحذية. لا تحريك. التّجارة بحاجة إلى حركة. لو أرسلت هذه الصنادل إلى مدن الأرياف الصّغيرة لنفدت حتّى من دون تخفيض الأسعار، أمّا إذا حصل عليها تنزيل أوكازيون بنسبةٍ مئويّة فتنفد كالخبز في يومين.



الساحة الحمراء  
في موسكو في  
الخمسينات من  
القرن العشرين



هذا ما رواه لي طالبٌ أتى من الريف إلى جامعة موسكو باسم لومونسوف للتّعلم. بالمناسبة، رؤساء الجامعات ملزّمون بأن تكون هناك نسبةٌ معيَّنة من أبناء الرّيف في جامعاتهم، ويُمنع أن تقتصر الجامعة على سكّان المدن من أبناء الأطباء والمهندسين والجراحين والمحامين والقضاة والعمّال وغيرهم. هذا من أهمّ إيجابيات الحياة الاشتراكية، وهو من أهمّ بنود المساواة، ولو التّسببية، بين المدينة والريف.

## نواقص في بلاد التّخطيط والثورة

يتميّز الاقتصاد الاشتراكي عن الرأسماليّ بأمور كثيرة منها التّخطيط. لن أدخل في موضوع التّخطيط الإرشاديّ في الرأسمالية لأنّ موضوعي هو تخطيط الاقتصاد «التّسبيّي» في الأتحاد السّوفياتيّ (او «الوطنيّ») كما يسمّي في بلدان العالم الثّالث. ساد شعورٌ لدى المسؤولين، منذ أيتام خروتشوف، بضرورة الإقلاع عن الجمود والأخذ الحرفيّ بالخطط الخمسية والعشرية، وإدخال المراقبة الدّائمة للمنجز في التّخطيط، سنويّاً، ثمّ المراقبة المستمرة وقد أصبحت أسهل بفضل التكنولوجيا الحديثة. كذلك صار يجري إيقاف بعض المشاريع للتركيز على إنجاز الأهمّ منها. علماً أنّ ما أذكره الآن لا علاقة له بالتّخطيط بقدر ما هو مرتبطٌ بالبيروقراطية ومنها أمثلةٌ متفرّقة للدّلالة على النّواقص في بلاد التّخطيط.

**إن بناء الاشتراكية كميّان ومصانع ومعامل وورشات وغيرها شيء. وبناء الإنسان الاشتراكيّ شيء آخر. البناء الأول أسهل من الثّاني. فالأخير يتناول الإنسان والتّغييرات التي يفترض أن تحصل على صعيد العمل والحياة والنفسية وغيرها.**

في عام ١٩٥٧ حضرْتُ مهرجان الشّباب في موسكو. تصوّروا أنّنا كنّا في اليوم الرّابع منه وبعض المنصّات لم تنجز بعد. أثناء إقامتي في جامعة موسكو، كان بالقرب منها، على تلال لينين «سيرك» قيد الإنشاء، غادرتُ بعد أكثر من ٥ سنوات ولم ينجز.

لم يكن هذا بخافٍ عن النّاس أو المعنويين، لكنّ التّغاضي كان طريقة التّعامل الوحيدة. قالت لنا أستاذة اللّغة منذ أوّل يوم للدراسة: نحن نعرف أنّ هناك نواقص كثيرة عندنا أو هنّاتٍ صغيرة، لكنّنا لا نحبّ أن ننتقد.

وحدّثنا أيضاً مسؤولٌ حزبيّ مسنّ في منتهى التّضح والتّواضع عن الأيتام الأولى للاشتراكية حيث كانت الحرارة في الغرف ١٨ درجة فيفركون أيديهم بالثلج للتدفئة، ويعتبرون الأمر طبيعيّاً. أمّا اليوم فالحرارة ما بين ٢٠ - ٢٢ درجة. كما حدّثنا عن وجود البغاء وأمورٍ أخرى أو عن المسرح الذي لا يؤمّه العمّال بل يكتفون بالسّينما. لقد كان هذا المسؤول صريحاً أكثر من غيره في الاعتراف بالنّواقص. في المطاعم وغيرها كسكك الحديد ومحلات الخياطة لا يعطونك سجّل الشكاوى لتكتب ما لا يعجبك. السجّل من المظاهر الخارجيّة التي تجري في الحديث والكلام ليس إلّا، وفي مجلّة «كروكوديل» (التمساح) الكاريكاتوريّة.

## عييد الاشتراكية

ما يلفت النّظر في موسكو كذلك «الأهرامات» السّتّة ذات الطراز الهندسيّ الواحد، وهي بارتفاع عالٍ جدّاً، لا يقدرن ٣٠ طابقاً حسب ما أذكر. والجدير بالذّكر أنّ النّظام الجديد لم يمسّ الرّسوم الرّمزيّة عليها. أهمّ هذه الأهرامات الستة من القرن العشرين هو جامعة موسكو للدولة باسم لومونسوف، وهي أرحبها سعةً وذات أجنحة متعدّدة ومن طراز من الهندسة الثّقيلة القاسية والجميلة في الوقت عينه. وقد وصف ذلك الإنجاز الهندسيّ الضخم وبالفرعونيّ لأمرٍ آخر. خلال حديثٍ مسائيّ متنوّع متشعب، قال لي جاري الروسيّ إنّّه في أساس هذه الجامعة مدفونٌ أحد المهندسين، فردّ زميلٌ آخر «بل مهندسون». وقصّة ذلك أنّه عندما يختلف عمّال البناء مع مهندسٍ ما حول الأجر لا يجادلون بل يرمون به في جيلة الخرسانة ويصبّونها في الأساسات ولا يسمع عنه أحدٌ بعدها. والذين شادوا هذه الأبنية الأهرامات العصريّة هم من المحكومين بالسّجن المؤبّد، الأمر الذي جعلني أشعر كأني أمام عبيد القرن العشرين ونحن نبنّي الاشتراكية.

قد يتساءل المرء عن سبب وجود هذا العدد الكبير من المحكومين بالسّجن المؤبّد؟ لا بدّ أنّ في الأمر نقصاً في البجوحة المادّية أو فوضى في نمط الحياة. الأهمّ من هذا وذلك هي التّربية القاصرة. إنّ بناء الاشتراكية كميّان ومصانع ومعامل وورشات وغيرها شيء، وبناء الإنسان الاشتراكيّ شيءٍ آخر. البناء الأول أسهل من الثّاني، فالأخير يتناول الإنسان والتّغييرات التي يُفترض أن تحصل على صعيد العمل والحياة والنفسية وغيرها.

وبحسب ما علمت، يُستعاض عن تنفيذ عقوبة الإعدام بحق المحكومين بتشغيلهم في المناجم المشعة وغيرها. لا يموت العمال حينها على حبل المشنقة لكنهم يموتون ببطء بما تنتجه تلك المناجم.

الواقع أنّ المشاكل الاجتماعية كبيرة وتتأتى للوهلة الأولى عن القلّة وضيق الحال في الحياة. لكنّ هذا لا يبدو لنا تحليلاً اجتماعياً عميقاً. يجب الأخذ بعلم الاجتماع التّفسيّ في بناء المجتمع الجديد، أي عدم الانعزال، على الأقلّ علمياً، عن الخارج. وهناك مشكلة «الشكر» و«القتل بالقرعة» التي كانت قد زالت عندما كنّا هناك على ما يبدو. وأقول على ما يبدو لأنّ الصحافة لا تنشر شيئاً حول هذه المواضيع. لكن أين هي السجون التأهيلية؟ لا نعرف عنها شيئاً. أين الدّور التأهيلية لتخليص بعض الشباب الضائع من الشكر والعريضة والقتل؟ ما الحلّ إذاً لفهم المجتمع الجديد والصّبر على بعض الأمور للوقوف في وجه الخارج المتربّص سوءاً بنا وجعلنا نتخلى عن الاشتراكية؟

### حوالة الحسن

بعد هذا حككت رأسي لعلّ شيئاً ممّا هو غائرٌ في الذاكرة يطفو على سطحها. وجدتها! إنها الشقراء حاملة الشمس على كتفيها، الرياضية وممشوقة القدّ. تعرّفتُ إلى هذه الصّبيّة الجميلة في جامعة موسكو لومونسوف. خلال أحد الاجتماعات العامّة التي يُشارك فيها الطّلاب في كرسيّ التخطيط التّابع لكلّيّة الاقتصاد السياسيّ في الجامعة، جرى توزيع الطّلاب الرّوس على الأجنبيّ وذلك بغرض مساعدة الطّلاب الأجنبيّ في اللّغة الرّوسية وغير ذلك أثناء كتابة الأطروحة. وصادف أنّ غالبيّة هؤلاء الطّلاب الرّوس إناث، وكان من نصيبي الفتاة الشقراء.

أثناء تبادل الحديث وشرب الشّاي معها عرفتُ أنّها متفوّقة للغاية في إحدى الرياضات، وعرفتُ أيضاً أنّهم لا يرسلونها للمشاركة في المباريات بين دول المعسكر الاشتراكيّ. سألتها عن السّبب، فردّت بسؤال هي الأخرى: ألا ترى ما في عينيّ؟ قلت: حول، وما المشكلة؟ أجابت: عندنا لا يرسلون أمثالي. لا أستطيع أن أفهم أن يكون الحول، أي ما نسّميه «حوالة الحسن» عندنا، حائلاً دون طموح الإنسان إلى التّميّز وتبوؤ المركز الأوّل. هل كانوا يريدون الوصول إلى استنساخ الإنسان الكامل جسدياً وهم لم يتمكّنوا بعد من الوصول إلى الإنسان الاشتراكيّ تروبيّاً؟ إنّه حقّاً لأمرٌ عجيب.

### الخوف من الخارج!

صحيحٌ أنّ حقوق الإنسان (بالمعنى الملموس المادّي) كانت مؤمّنة ومضمونة أكثر بكثير في الاتحاد السوفياتيّ والبلدان الاشتراكية ممّا كانت عليه في البلدان الرأسمالية. إلا أنّ الواقع التاريخيّ يبرهن أنّه لم يكن أمراً كافياً، على الرّغم من رخص الإيجار الشهريّ للسكن والنقل والاتّصالات (وغيرها كثير مع المعيشة المقتنّة إلى حدّ ما) لتعبئة موقف النّاس للدّفاع عن النظام كما كان يفترض ضدّ الانقلاب الذي حصل عليه من داخل النظام ذاته الذي وصفناه بالزلزال.

عاش مواطنو الاتحاد السوفياتيّ حياةً مغلقةً على الخارج. المراسلة مع الخارج ممنوعة ولكن بشكل غير رسميّ، بل بشكل «تنبهّي» أو من خلال «لفت النظر» ولو كانت مجرد مراسلة صداقة ومعايدة في مناسبات رأس السنة وعيد الميلاد وعيد الثورة وعيد الفصح وعيد العمال إلخ. أمّا الأفلام المصوّرة في البلاد فقد مُنع أخذها إلى الخارج غير محمّضة، وإذا ما حُمّضت لا يُسمح بإخراجها حتّى ولو كانت مصوّرة في أوروبا الشرقية فكيف بالغربيّة؟ وهذا أمرٌ حصل معي شخصياً. كذلك الأمر بالنّسبة إلى محطّات الراديو حينها والتي كانت لا تلتقط المحطّات الأجنبيّة. والشيء نفسه ينطبق على الرياضة، فلعب النّس رياضة بوجوازية لذلك هي ممنوعة. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى بعض أنواع الرقص كال «تويست» كونها غير موجودة في البرنامج الوطنيّ السوفياتيّ.

لم رفض الصّداقة مع الخارج؟ ممّ الخوف؟ أهو خوفٌ من الجاسوسية؟ أين التّربية الاشتراكية الجديدة؟ هل يمكن العيش بمعزلٍ عن العالم؟ إنّ كلّ ممنوع مرغوب. وسعوا فتحة النّافذة المطلّة على الخارج، كما كانت الأحوال قبل ستالين، وانشروا في السّوق السّلع الاستهلاكية البسيطة. وعلاج هذه الأمور هو بحبحة السّلع الاستهلاكية البسيطة وبالاستيراد مباشرةً لإشباع شبق النّاس إليها.

على الرّغم من كلّ تلك السّلبات، يبكي النّاس اليوم وبحسرة ومرارة على تلك الأيّام. حلّت التّيولبيرالية اليوم محلّ ذلك النظام جرّاء الانهيار المفاجئ: زلزال كبير دمر كلّ ما بُني خلال سبعين عاماً، وتأتّت عنه مأسى لا تحصى. لقد عمّق الواقع الجديد الفوارق الاجتماعية، الأمر الذي جدّد التحفيز على النضال. يجب أخذ الدّروس اللّازمة من الحدث التاريخيّ، وإن كان غير موقّ، إن لم نقل غير ناجح، فهو مهمٌّ جدّاً، ولا ينبغي الاهتمام بالناحية الإيديولوجيّة للحدث فقط فهي لا تهّم النّاس البسطاء كثيراً بقدر الواقع الحياتيّ الملموس.

## بانتظار موسيقى الاشتراكية

لا أودّ التّركيز فقط على السّلبيّ من موسكو وإن اتّخذ هذا المساحة الأكبر من ورقتي هذه. لموسكو حقّ عليّ في ذكر إيجابياتٍ عايشتها خلال إقامتي فيها، على رأسها الحياة التّقافيّة والفنيّة. عرفتُ الكثير عن تلك الحياة، فقد شاهدتُ الكثير من المسرحيّات على مختلف أنواعها في هذه المدينة العامرة ثقافيّاً وفنّيّاً. لكن للأسف الشديد، لم يعد بإمكان الذاكرة استرجاع أسماء المسرحيّات والمسارح. كذلك حضرتُ العديد من الحفلات الموسيقيّة الكلاسيكيّة إلى جانب الأوبرا والباليه على مسرح «البولشوي»، وتعني بالروسية «الكبير». كذلك زرتُ العديد من معارض موسكو للفنّ التشكيليّ وبانوراما الحرب والسّلم وكذلك درّة الفنّ التي هي المعرض الزراعيّ في موسكو. ومن لا يزور هذا المعرض عندما تطأ قدماه هذه المدينة القويّة الصامدة في وجه عاديّات التاريخ منذ أيام نابوليون حتّى اليوم؛ ولفت نظري في موسكو كذلك كثرة الـ«باركات»: بارك غوركي، والبارك الحربيّ وغيرهما، الحدائق الغنّاء ومنها حديقة الورود التي تعبق منها رائحة زكيّة بشكل لا يزول من الذاكرة.

بعيداً عن الفنون والمسارح، شحنت مكتبة كبيرة جدّاً بالبحر إلى لبنان، وتحوي مؤلّفات ماركس وإنغلز ولينين، ومعظمها باللغة الروسيّة، مع الكثير من الموسوعات في الجغرافيا والتاريخ والإحصاء وكذلك الروايات ذات الطبعات الأنيقة الفنّيّة الراقية، وهي نادرة والبعض منها من طباعة هنغاريا.

حوّت تلك المجموعة الفنّيّة حوالي ٥٠ ألبوماً من الرّسوم التّشكيليّة المختلفة، وهي الوحيدة التي احتفظتُ بها من مكتبتي التي قدّمها إلى «الحركة الثقافية أنطلياس»، وما ذلك إلاّ لأنّي أجد متعةً في مراجعتها وتقليب صفحاتها من وقتٍ إلى آخر.

ثمّة ضرورة لإقفال هذه المفكرة لجفاف الذاكرة التي أرّطبتها بالعودة إلى صور موسكو والاتحاد السوفيّاتيّ من وقتٍ لآخر مع ألبومات الفنّ التشكيليّ وما تبقى لديّ من كراريس وخرائط السياحة في بلد الاشتراكية الأوّل فأفرح وأسرّ بتذكّر أيام موسكو التي أعتبرها من أشمن أيام حياتي وأغناها. فقد جمعت فيها، إلى جانب اكتساب المعرفة، مرح الحياة والسياحة، متعة المتع بالنسبة إليّ. وقد زرت ١٣ جمهوريّة من تلك البلاد الشاسعة التي عادت متفرّقةً إلى سابق عهدها مع الأسف الشديد والحزن العميق. ساموت ولن أرى بلد الاشتراكية الأوّل

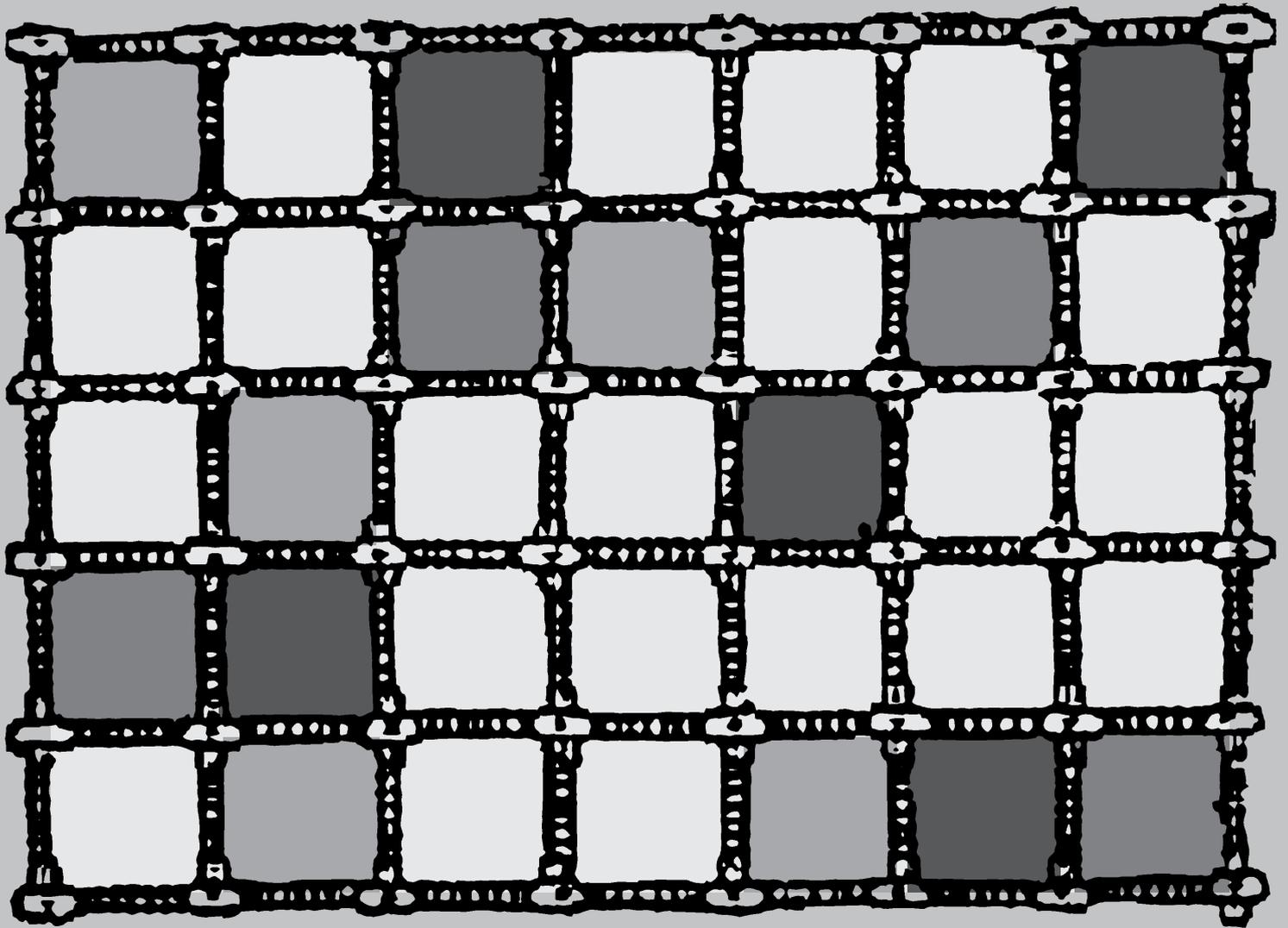
يعود اشتراكياً بأسلوب ديمقراطيّ. أغمض عينيّ على استحالة هذا الأمر، ولذلك استبدلت (ولو مؤقتاً) الإشارة التاريخيّة للاشتراكية ووضعت كلمة «موسيقى» لنصبح أمام موسيقى الاشتراكية والتي سوف تشكّل أذان شعوب العالم، فقرائه وعمّاله وفلاحيه وقد أصبحوا قابضين على ناصية بلادهم يعيشون في رفاهٍ محدود ولكنّه متقاسم فيما بينهم جرّاء تطوّر التكنولوجيا اللامعقول (وهنا أتذكّر النبيل الفرنسيّ الكونت سان سيمون أهمّ اشتراكيّ طوباويّ) في عالم يصبح معقولاً بفعل الإنسانيّة والـ«إتيك» الذي ينفذ إلى كلّ خلايا المجتمع الجديد. وأحد أهمّ تعريفات الـ«إتيك» في نهاية المطاف هو «توضع الذات» وهذا ليس بالأمر السهل ويرقى العمل به إلى مستوى «فوق إنسانيّ» إن جاز التعبير. وقليلون للغاية هم من يتّصفون به أمثال هو شي منه ولينين وتولستوي والأم تيريزا وأضرابهم. ولذلك فالتربية الاشتراكية يجب أن ترمي، ما أمكن الأمر، إلى تلك المرتبة النبيلة من ربط النظريّ بالعمل. هذا الهدف لا مثيل له. ولنعمل له إذا كنّا مخلصين للاشتراكية ومن ثمّ الشيوعيّة. هذا مع الإشارة التاريخيّة إلى أنّ العكس هو الذي كان قد حصل عند رجال السلطة في الاتحاد السوفيّاتيّ آنذاك، مع ستالين ومن أتى بعده. وهذا يمكن اعتباره بمثابة السبب العميق لعدم بناء الإنسان الاشتراكيّ الذي كان يمكن أن يقف في وجه الانقلاب على الاشتراكية. إنّه حلمٌ ليس إلاّ وحتى في المستقبل المنظور. وإنهاء الكلام بحلم أفضل شيءٍ أتى يكن وقت حدوثه المستقبليّ.

عفواً، لقد أخطأت، فالحلم بدأ يتحقّق في كوبا وإن يكن في أوائل خطواته. ذلك أنّ كوبا الصامدة منذ أكثر من نصف قرن على بعد مسافة ٢٠٠ كلم من حدود الولايات المتّحدة الأميركيّة هي بمثابة نجم القطب الشماليّ على الأرض - منارة المستقبل تهدي من يريد أن يهتدي إلى اشتراكية جديدة ذكرناها وشبّناها بالموسيقى. وهذا أمرٌ ينطبق جيّداً على هذا البلد الحارّ الذي غدا مستشفى وكيّة طبّ وجامعة بالنسبة إلى أميركا الجنوبيّة وأفريقيا والعالم العربيّ وعلى رأسه فلسطين، وكلّ ذلك مجاناً. وها هنا كوبا تذكّرنا بقائدها العظيم فيدل كاسترو ومثيله الإنسان العربيّ العظيم جمال عبد الناصر. والإشارة والتلميح أمر كافٍ هنا ويُنفي عن الشرح والإطالة. إذا صحّ الحلم فبالإمكان إسدال الستارة. توقّف الموسيقى عن العزف. لم يصنّف الجمهور! أين هم الجمهور؟ إنهم ممّن سيقرّأني في المستقبل!



# ثقافة للناس للناس

٢١٠ موزيكا! عمر الزعني، شاعر الشعب  
أكرم الرئيس



## موزيكا! عمر الزعني، شاعر الشعب

أكرم الرئيس

باحث في

انثروبولوجيا الفنون.

الدينية والاجتماعية. وتشير عتاني إلى أنه «رغم كافة التغيرات التي شهدتها المنطقة منذ بداية القرن العشرين، بقيت النظرة إلى الموسيقى والمسرح نظرة سلبية في المجتمع<sup>١</sup>. لذلك اتسمت الأعمال المسرحية بطابع أدبي نهضوي يمجّد القيم الفروسية الأخلاقية وأحياناً الدينية في حاضرة مدنية ما زالت مترددة في إعطاء الفن المسرحي المحلي شرعيته الاجتماعية خارج إطار المدارس والجامعات والجمعيات الخيرية.

### تحوّلات بيروت وتحوّلات الفن

كان يتولّى الكادر التعليمي إعداد المسرحيات التي تقدّمها مدارس بيروت وإخراجها استناداً إلى نصوص مترجمة ويمثلها الطلاب. وأصبحت تقليداً سنوياً عُرفت به مدارس الثلاثة أقمار، وزهرة الإحسان، والبطركية (ومنها انطلق زكي ناصيف)، والمقاصد، والحكمة بالإضافة إلى الكلية العثمانية التي ساهمت في تكوين شخصية عمر الزعني وإبراز مواهبه الفنية حيث كان يشارك فيها تأليفاً وأداءً مع رفاقه. ويذكر محمد كريم بعضاً من تلك الأعمال كما وردت في جريدة «لسان الحال» ومنها رواية «امرؤ القيس» (١٩٠٩) و«واقعة ذي قار» (١٩١٠)، وهما من تأليف الشيخ أحمد عباس مؤسس المدرسة. واستمرّ اهتمام الزعني بالمسرح ليظهر لاحقاً على المسارح العامة وليشارك بتشجيع من الأديب رائف فاخوري (١٨٨٤ - ١٩٥٣) في مسرحياته تمثيلاً وغناءً وبالأخصّ في رواية «جابر عثرات الكرام» في دور «حنين»، وهي مسرحية «أدبية تاريخية أخلاقية تهذيبيّة»<sup>٢</sup> ذات فصول خمسة قُدّمت على مسرح الكريستال (١٩٢١) كما عرضت على مسارح أخرى في بيروت وطرابلس والقاهرة. قدّم الزعني مونولوجات

وُلد عمر محمد الزعني في بيروت عام ١٨٩٨ ونشأ في كنف عائلة محافظة تنتمي إلى الطبقة الوسطى. درس في الكلية العثمانية التي تخرّج منها أعلام نهضويون نذكر منهم عمر فاخوري، وعبد الله اليافي، وعبد الله المشنوق، ومحمد ومحمود المحمصاني والشهيد عمر حمد وعبد الغني العريسي اللذين أعدمهما جمال باشا. خدم في الجيش العثماني برتبة ضابط إداري خلال الحرب العالمية الأولى وانتقل بعدها للعمل في التعليم ومن ثمّ في محكمة البداية في بيروت قبل الحصول على منحة لدراسة الحقوق في الكلية اليسوعية.

كانت بيروت آنذاك تحمل إرثها العثماني وتنمو تدريجياً من مدينة صغيرة ذات طابع شبه ريفي إلى حاضرة إقليمية، ولم تصبح بعد مركز استقطاب فني على غرار القاهرة أو حلب. سبقت هذه المرحلة موجات من الهجرة لأهل الثقافة والفن إلى القاهرة التي أغرتهم بانفتاحها واستقرارها والهامش الواسع من الحرية التي افتقدوها في بلادهم، فبرز منهم أعلام في الصحافة والفنون أمثال جرجي زيدان (الهلال)، وأسيا داغر (الإنتاج السينمائي)، وبديعة مصابني (الفن الاستعراضية). وتصف ديانا عتاني المشهد الموسيقي، إذ كانت تقام في المدن الحفلات الخاصة في «منازل خاصة بدعوة من شخصيات مهمة، غالباً بمناسبة (اجتماعية) معتنة، واقتصرت على طبقة الأغنياء والحكام هدفها التسلية وإظهار أهمية المضيف وكرمه». وازدهرت المربع الليلية ودور المسارح على النمط الأوروبي خلال مرحلة الانتداب حين ساد التهافت على تقليد كل ما هو إفرنجي في الحياة اليومية بما فيها أنماط اللهو والتسلية والأعمال المسرحية الوافدة من فرنسا ومصر. أمّا في الأرياف الشامية، فأقيمت الحفلات الشعبية خلال المناسبات



نويهض الإذاعة المصرية وتبعثها الإذاعة العراقية ومن ثمّ إذاعة فلسطين. وقد تأسست فيها «اللجنة الفنيّة الأدبيّة» التي كان من مهمّاتها «تمية الروح القوميّة في نفوس الشعب، لأنّ الغناء والتمثيل هما من أقوى الوسائل تأثيراً في ذهنيّات النّاس وميولهم، ولا يجوز بأيّ حال أن تُترك هذه الوسائل تُعمل فساداً في الأذواق والنّفوس»<sup>٧</sup>. وازدهر الشعر الشعبيّ الذي اهتمّ بالتعبير «المباشر عن التّعيرات السكّانية والثقافيّة والقيميّة التي شهدها»<sup>٨</sup>. واكتسب الرّجل شعبيّة فائقة منذ أن ارتحل من القرية ومناسباتها الاجتماعيّة إلى المسرح المنبري في بيروت مع جوقة شحرور الوادي (١٩٢٨) التي ترسّخ عبرها الشّكل المنبري المعاصر المؤلّف من أربعة شعراء ورديّة وعازفيّ دف. وعبر أثير الإذاعة اتّسعت رقعة انتشار الرّجل في لبنان وخارجه، فقد خصّص مديرها ألبير أديب قسماً خاصّاً للغناء البلديّ (١٩٣٨)، وأوكل إدارته إلى الشاعر وليم صعب الذي منع «الغزليّات المائعة والتّوابع والأين وكل ما يمس بالأخلاق»<sup>٩</sup>، ونظّم مسابقات شهريّة وفتح مجالاً للحفلات المنبريّة في سبيل تشجيع الشعراء الشعبيّين.

### لبنة الرّجل

توالى القرارات التنظيميّة لرفد الإذاعة بالإنتاج الغنائيّ المينيّ على «الرّجل باللغة اللبنايّة الدّارجة»، ومنها المذكرة الإداريّة رقم ١١ / ٤٧ التي عمّمها المدير الفنيّ للإذاعات العربيّة في راديو الشرق جورج فرح<sup>١٠</sup> في ٢٥ حزيران / يونيو ١٩٤٤: «يُرجى من جميع الملحنين في إذاعة «راديو الشرق» وخارجها أن يمتنعوا بتاتاً عن تلحين جميع الأغاني الزجلية المعروفة باللغة المصريّة - بل المطلوب منهم جميعاً أن يلحنوا من الآن وصاعداً الأغاني الزجلية المعروفة باللغة اللبنايّة الدارجة. ويمكنهم اختيار هذه الأغاني اللبنايّة من نظّم الشعراء اللبنايين أمثال: إميل مبارك، أسعد سباب، أسعد السّبعلي، فؤاد قرداحي، كميل خليفة، وليم صعب، وغيرهم من شعراء الرّجل اللبنايين». أصبح راديو الشرق الإذاعة اللبنايّة الرسميّة بعد ثلاث سنوات من نيل لبنان استقلاله. وقد دارت التّقاشات حول هويّة الأغنية اللبنايّة وكيفيّة الارتقاء بها نصّاً، ولحناً وغناءً. وكان لعمر الزعتي دور مؤثّر في «فضيّة النّصوص» كما سمّاها توفيق الباشا حيث إنّ «الرّجل المنبري لا يتماشى مع الأغنية، فقام بتوجيه (الشعراء الشباب) نحو الأغنية وأعطاهم القلب

وطنيّة خلال فصول الرواية «طرب لسماعها الحضور وصقّفوا لها مراراً»<sup>١١</sup>. ولعلّه أصبح يوقّع قصائده باسم «حنين» بعد نجاح هذا العمل ليخفي اسمه الحقيقيّ لأنّه كان لا يزال موظّفاً حكوميّاً.

استمرّ عطاء الزعني حوالي أربعة عقود منذ نهاية العقد الثاني من القرن الماضي حتى وفاته في العام ١٩٦١. وتمتاز هذه الفترة بكونها مسرحاً لتحوّلات كبيرة وأحداث حاسمة على كلّ من المستويين المحليّ والإقليميّ. في بدايتها قام الانتداب الفرنسيّ على لبنان وسورية نتيجة سقوط الإمبراطوريّة العثمانيّة وتقسيم الولايات العربيّة فيها حسب اتفاقية سايكس - بيكو (١٩١٦) وإعلان لبنان الكبير (١٩٢٠) الذي انقسم أهل البلاد حوله بعد جحيم الحرب العالميّة الأولى وما شهدته من مجاعة وتفشي الأمراض والقمع العنيف للحركات الاستقلاليّة في بيروت وجبل لبنان. عزّز الانتداب مركزيّة دور بيروت على حساب الأرياف اللبنايّة ودعم المستوردين والمصرفيّين والزعماء التقليديّين بما يناسب مصالحه<sup>١٢</sup>. وكانت الثلاثينيّات مرحلة «الاضرابات العظمى في المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة»<sup>١٣</sup> التي ضاعفت أزمة الكساد الاقتصاديّ العالميّ (١٩٢٩) من نتائجها. فتوالى الاضرابات العماليّة ضدّ البطالة والفساد والاحتكارات وتّصاعد الاصطفاف الطائفيّ السياسيّ حول العلاقة مع سورية والاستقلال عن فرنسا. وما لبثت الحرب العالميّة الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) أن مهّدت طريق الاستقلال بعدما انهارت فرنسا تحت وطأة الاحتلال الألمانيّ ودعمت النخب الاقتصاديّة المحليّة بأن «تتحرّر من قيود منطقة الفرنك الفرنسيّ الضعيفة والضيّقة»<sup>١٤</sup>.

**اكتسب الرّجل شعبيّة فائقة منذ أن ارتحل من القرية ومناسباتها الاجتماعيّة إلى المسرح المنبري في بيروت مع جوقة شحرور الوادي التي ترسّخ عبرها الشّكل المنبري المعاصر المؤلّف من أربعة شعراء ورديّة وعازفيّ دف.**

وشهدت حقبة ما بين الحربين العالميّتين ترسيخ تحديث النّظّم والمؤسّسات الإداريّة والتربويّة والثقافيّة والفنيّة بناءً على النموذج الأوروبيّ بما فيها إنشاء راديو الشرق في بيروت (١٩٣٨) الذي سبقته حسب مذكّرات عجّاج

والطريقة، لأنه رأى لديهم شاعريّة يمكن الاستفادة منها في الأغنية»<sup>١١</sup>. ويعبّر الزعتني عن طموحه وخيبته في أن واحد في مقالة نشرها في مجلة الإذاعة في ١٠ آب /

**تنبأ أعماله مظاهر أوربة الحياة البيروتية. والتفاوت بين الطبقات الاجتماعية. ونهضة المرأة (قصيدة «لا تحرموها»). كما ناهض الانتداب وتدهور الاقتصاد والفساد (قصيدة «الطقس جميل» و«ضيعانك يا بيروت»). وأغضبت أولى أغنياته «حاسب يا فرنك» الفرنسيين وأدت إلى عزله من وظيفته الحكومية وطرده من الكلية اليسوعية.**

أغسطس ١٩٤٧: «أريد أن أسمع من المحطة اللبنانية صوت لبنان قبل كل صوت... ويؤلمني أننا لم نحسن إسماعه جيداً إلى الناس كما تمكن من إسماعه بعض فتانينا خارج لبنان كنور الهدى وصباح وبيضا وسلمان».

**فُن مشغولٌ بواقعية اللحظة الراهنة**

تمثّل نصوص عمر الزعتني في هذا المشهد سجلاً للأحداث والتحوّلات الحاضرة بحسب التّاقدة خالدة سعيد، يفترق عمّا كان يقوله أهل الرّجل ويكتبه أدباء الجبل حيناً إلى قرية في طريقها إلى الزوال «شعراً يتداخل بحسّ وطني سياسي»<sup>١٢</sup>. هو انشغالٌ بواقعية اللحظة الحاضرة بدلاً من رومانسيّة استرجاع الماضي يتطلّب «وعياً خاصاً ومميّزاً لفهم دور الأدب والأديب، وجهداً واضحاً وجريئاً على مستوى التقنية الفنّية»<sup>١٣</sup> ارتبط فنّ الزعتني بالأغنية والأداء المسرحيّ المثقن فجمع بين الغناء والتمثيل في التّوادي والمسارح والصالونات الأدبية، والأسطوانات، والإذاعة، ولاحقاً التلفزيون. اتّسم هذا الوعي بمنحى أخلاقيّ رسّم ملامح التعبير الفنّي في تلك المرحلة ونقّده اجتماعي وسياسي للنّظام القائم ممزوج بحسّ فكاهي هادف يتنقل بين المرّح والسخرية والمضحك المبكي. وقد اختار الزعتني ثوب «اللهجة (البيروتية المحليّة) الوسيطة بين الفصحى والعامية»<sup>١٤</sup> الذي انتشر قبل تأسيس خطاب هويته التي تمحورت حول «الخصوصية اللبنانية» وعلاقة الإنسان مع الطبيعة والأرض منذ الخمسينيات مع انطلاقة الليالي اللبنانية في مهرجانات بعلبك الدولية حتى زمن الحرب الأهلية. ولبيّ بذلك «شروط البلاغة في المعنى والفصاحة في التركيب»<sup>١٥</sup> عن هذه الجتّة الخراب

- وطننا، والعروس النّائحة - حياتنا، والغاية المهجورة - عاميتنا، والشجرة الشرقية الغربية - ثقافتنا كما كتّب عمر فاخوري في مقالة مبكرة تعود إلى العام ١٩٢٤. ورسم الصور الكاركاتورية بالكلمات وازدواج المعاني مستعيناً بالرّموز والأمثال الشعبية والمفردات والتّعابير التي كان يقطفها من أحاديث النّاس وتناقضات الحياة اليومية وإيقاعاتها لتقود إلى «خلاصات مفاجئة تشكّل عنصراً هاماً من عناصر تكوّن الصورة»<sup>١٦</sup> في نصوصه. وقد تأثّر بأعمال سيّد درويش وفنّ المونولوج<sup>١٧</sup> المصريّ والشانسونيه الفرنسيّ وكانت ألحانه الخالية من المقامات الشرقية في مجملها وسيلة لإيصال المعنى مباشرة إلى الوجدان الشعبيّ والتّخّب الاجتماعيّة في آن. كما أثر في مجموعة من أعلام تلك المرحلة ومنهم سامي الصيداوي، ولور دكاش، وفيروز ماميش، وإيليا بيضا، وعبد القادر التّبير. ساعده في الموسيقى في بداية مسيرته الأخوان فليلف، وكميل شامبير من حلب، ولاحقاً توفيق الباشا الذي عمل مع فرقة العازفين التي رافقت الزعتني في حفلاته الصيفيّة في الفنادق الجبلية كالجبيلي وطانيوس في عاليه، وصوفر الكبير، والإمباسادور في بجمدون، وفندق قاصوف في ضهور الشوير<sup>١٨</sup>. وتناولت أعماله مظاهر أوربة الحياة البيروتية، والتّفاوت بين الطبقات الاجتماعية، ونهضة المرأة (قصيدة «لا تحرموها»)، كما ناهض الانتداب وتدهور الاقتصاد والفساد (قصيدة «الطقس جميل» و«ضيعانك يا بيروت»). وأغضبت أولى أغنياته «حاسب يا فرنك» الفرنسيين وأدت إلى عزله من وظيفته الحكومية وطرده من الكلية اليسوعية قبل استكمال دراسته في الحقوق. يصف الزعتني واقع حاله وشعوره بالظلم في قصيدة حردان: «من وظيفتي فصلوني / من معاشي حرموني / من حفلاتي منعوني / ربع ساعة في الإذاعة / يا جماعة، ما عطوني / وبتقولوا لي، ليش حردان؟ / اللي بيطلب أو اللي بيطنطن / صفّي مغني، صفّي ملحن / ولولا منّي، لولا فتّي / مين بيغني، مين يبلحن / في سوريا، وفي لبنان؟».

**السجن زمن الاستقلال**

وأتى زمن الاستقلال، وهلّل له الزعتني. كتب عن الجلاء ودعا إلى دعم الرئيس بشارة الخوري ومن ثمّ الرئيس كميل شمعون. وأتهم بأنّه انقلب من ناقد لاذع الى مدّاح متطرّف<sup>١٩</sup>، لكنّه ما لبث أن اصطدم بخيبات الواقع الجديد وبأداء التّخّب المحليّة، فكلّ «البرامج فاسدة» و«الفوضى



قائمة قاعدة»<sup>٢٠</sup>. راح ينتقد الرئيس مباشرةً بدايةً منتقلاً إلى هجاء الإدارة الوطنية ومواسم الانتخابات والرشوة والمحترفين بعدما سُجِن في العام ١٩٥٠ بسبب قصيدة «جَدِّدْ له ولا تفرِّع»، فكتب يقارن بمراةٍ بين زمنين: «على أيام الانتداب / عهد الظلم والإرهاب / ما كنت خاف ولا هاب / لا حكومة ولا نواب / أمّا اليوم ألف حساب / صرت إحسب للأذنان». انتقل إلى العمل في إذاعة الشرق الأدنى مبتعداً عن السياسة، ذلك لأنّ «لها مجالاً غير مجال الإذاعات في الحفلات العامة»<sup>٢١</sup>. وكانت هذه الإذاعة التي أسسها الحكومة البريطانية بداية الأربعينيات من القرن الماضي في يافا قد اتخذت لها استوديوهات للإنتاج في بيروت عام ١٩٥٢، وكان مديرها الفني صبري الشريف<sup>٢٢</sup>. وساهم بنظم الأغاني ومقدمات البرامج والإعلانات، كما اشترك في برامج المنوعات مثل «مفتاح السعد»، و«انس همومك»، و«استعراض أهل الفن»، و«غزل البنات» إلى جانب نجيب حنكش وشامل ومرعي ومطربين وشعراء، وتولّى إخراجها عبد المجيد أبو لبن وقاد الفرقة الموسيقية توفيق الباشا. عبّر الزعتي في إحدى مقابلاته عن تغيير الدائقة العامة في منتصف الخمسينيات بعدما انحسرت حفلاته في مواسم الاصطياف وأغلقت بعض منصات البيروتية أبوابها مثل الكريستال والأوبرا: «لمين بدّي غنيّ ولمين أعرض فتيّ؟ يللي بيّفهموني من أهل بلادي كتار، بس للأسف ما في معهم فلوس (...) ويللي معهم فلوس مقسومين إلى قسمين، قسم بيحبّ الغناء الفرجي وهم أكابر بلدنا، وقسم بيحبّ الرقص الشرقي، والاثنين ما بيّفهموني. إذا غنيت مع الحكومة، ما حدا بيرضى عنيّ، إذا غنيت ضدّ الحكومة، الحكومة بتحبسني وما لقيت حدا يدافع عنيّ»<sup>٢٣</sup>. انتقل الزعتي إلى التلفزيون بعد عام من افتتاحه وقدم في أواخر أيامه برنامجاً بعنوان «ألوان من لبنان» بالاشتراك مع الشعراء أسعد سابا وأسعد السبعلي وعبد الجليل وهبي. تطرّق البرنامج إلى المواضيع الاجتماعية وقدم فيه الزعتي إحدى أشهر السجلات الشعرية مع أسعد سابا حول الجبل والمدينة. رحل شاعر الشعب في شباط / فبراير ١٩٦١ جرّاء إصابته بنوبة قلبية حادة. كتب توفيق يوسف عوّاد في رثائه: «على أنّ ما يجهله الناس أنّ الرجل الضاحك الذي كان يُشيع البهجة في نفوسهم كان يُخفي وراء ضحكه نفساً تقطر دماً، ليست نفس شاعر الشعب، بل نفس الشاعر وحسب»<sup>٢٤</sup>.



## الدنيا قايمة والشعب غافل

الدنيا قايمة والشعب غافل  
راحت بلادكم ما حد سائل  
الحق عليكم والاعامين؟

شوفوا البلايا شوفوا الرزايا  
والشعب قايم على الملاية  
نسيوا الحماية نسيوا الوصاية  
ما حدا فاهم إيه الحكاية  
والطاسة ضايعة يا مصلحين

عيونكم نايمه يا رجال غليظه  
ودمي فاير زي الكازوزة  
قمتوا عا حيلكم على العنطوزة  
وهمتكم رخوة زي البالوظة  
بتبيعوا الاوطان بسلة تين

منكم ومنا ظهرت شناعة  
زدنا خلاعه زدتوا فظاعة  
على المسكينة فزجوا الشجاعة  
فرجونا حالكم يا أهل البراعة  
في حفظ بلادكم يا مدعين

العيب ما هو شي عاللي لابسه  
الكعب العالي وكمان الكورسه  
العيب على اللي اطباعه شرسه  
العيب على اللي اخلاقه نحسه  
وعامل لي حاله إمام في الدين

إن كان في مرادكم تأدبونا  
لا تبهدلونا لا تعزرونا  
اخلاق بلادنا عليها رتونا  
إلى المدارس بللا ودونا  
الجهل يا ناس دا قلة دين

كل البلية من الأجنب  
افتروا علينا زي الثعالب  
بيفروقونا شوفوا المصايب

بيعلمونا كل المعايب  
قوموا عليهم يا مصلحين  
(١٩١٨)



## يا طالعة يا نازلة

يا طالعة يا نازلة ٢٥  
يا بنت عمي صالحة

أحوالنا اليوم واقفة  
والدنيا غلبانة  
البورصة زادتنا  
مية بلة في الطينة

أحوالنا بتبكي  
لا منحكي ولا منشكي  
وشبابنا مشغولة  
في البيرة والويسكي

ما شاطرين غير نسهر  
في المرصد ونسكر  
نسواننا وأطفالنا  
من جو عها بتثمر مر

ما شاطرين غير نحنا  
العالم ونحنا،  
يا جماعة شو نحنا؟  
العالم بيزيحنا

ما شاطرين غير نحكي  
ونعيط مين يحمينا

الكلمة بتاخذنا  
والثانية بتجيبنا

فين كنا، وفين صرنا  
الجهل اللي قاتلنا  
شو لنا غير ديننا  
بالدنيا شو بقي لنا

المغاربة دفناها  
الحكاية عرفناها  
ما كنا نتربى  
ولسانا منساها

آمالنا اللي باقية  
وأيماننا اللي فاضلة  
ما هي إلا بورصة  
يا طالعة يا نازلة  
(١٩٢٠)

## صندوق الفرجة

شوف تفرج آه يا سلام  
شوف أحوالك بالتتمام  
شوف قدامك عجائب  
شوف قدامك غرايب  
يا حبيبي لو بتشوف  
شوف أحوالك عالمكشوف

شوف جبال وشوف وديان  
سوريا وجبل لبنان  
كانت قطعة من الجنان  
أما اليوم يا حسرة  
الأرض حفرة نفرة  
ما فيها عشبة خضرة  
يا حفيظ ويا أمين  
من غدرات الزمان

الفلاح شلح التبان  
وعاف السكة والغدان

ونسمة هوا بتطير البرنيطة  
(١٩٢٨)



### بلا عصبه

بلا عصبه لا مجمع  
كل واحد الو مطعم  
والحق يايده القوة  
والقوة ببوز المدفع  
كل واحد الو غاية  
وعامل المجمع برداية  
كلهم بالوش مراية  
وبالقفا الله أعلم

لا تغتر بالظواهر  
العبرة للسراير  
كل واحد صالي وناظر  
وفاتح تمه تا بيلع

كلهم صافيين النية  
ومن عشاق الحرية  
لما ضعفت تركيا  
عملولها عملية  
جر حوها بالسكين  
واحد سكن فلسطين  
أرض النفط والبنزين  
وواحد في بلادنا تررع

والثالث قال كان نايم  
لما قسموا الغنائم

ويطلع ورق الليمون  
وبسقيك بالوعد يا كمن  
بين ما تطلع هالاوراق  
ويجي الترياق من العراق  
بيكون العليل فارق  
يا حفيظ ويا أمين...

شوف ملوك بني عثمان  
كانوا ملوك على الزمان  
وناموا عامخدة أمان  
علوا ناس وطوا ناس  
وطرفهم عمره ما انداس  
كانوا ملوك وصاروا ناس  
يا حفيظ ويا أمين...  
والدنيا صندوق فرجة  
لا تغرك منها البهجة  
من يوم ما خلقت عوجة  
لا تبكي عليها وتنوح  
ما بتحرز ما فيها روح  
تفرج في عينيك وروح  
(١٩٢٤)

### البرنيطة

ما بدها عيطة ولا بدها شبيطة  
وقع المقدر ولبسنا البرنيطة<sup>١٦</sup>  
قبل بعشر سنين كنا فلاحين  
كنا مرتاحين قبل البرنيطة

يا ما تمدنا، يا ما تقدمنا  
يا ما تعلمنا بعد البرنيطة  
العين بتبكي والقلب بيشكي  
ومين قادر يحكي، غير البرنيطة  
سلمها لأله، ومشيها يا لله  
ما في غير الله، فوق البرنيطة  
ما منها نوا، حتى نعيش سوا

وراح تعين عند فلان  
مغرور بحب الألقاب  
وما حاسب للغزل حساب  
كان سلطان وصار بواب  
يا حفيظ ويا أمين...  
من غدرات الزمان...

صار مأمور ماله صوت  
عاش من قلة الموت  
شخاد لابس ردنحوت  
عرق جبينك بيغيدك  
وعزة نفسك بتريديك  
وأشرف من مدة إيدك...  
يا حفيظ ويا أمين...

بتركض بتركض عالتسعة  
بتشد وتكد وبتسعى  
بينوبك واحد من تسعة  
العصفور بيتسلى  
يسرح بيرمح بيتغلى  
والصباد بيتغلى  
يا حفيظ ويا أمين...

بعشرة فول وبخمسة زيت  
كنت تعشي أهل البيت  
أما هالأيام يا ريت  
ليرة واتنين ما بيكفيك  
يا محلا يوم المتليك  
والسحتوت ونحاسه ديك  
يا حفيظ ويا أمين...

شوف الناس عما تبكي  
واللي ما بيبكي بيشكي  
واللي ما بيشكي بيحكي  
مرضك منك لا تخفيه  
وان كنت شاطر داويه  
دود الخل منه وفيه  
يا حفيظ ويا أمين...

كلها يوم يومين بتهون

ستعشر سنة صايهم  
وفضل ساكت حتى جاع  
لما جاع فار دمو  
مد إيدته فتح تمو  
عمرت خربت ما هممه  
وعن أفكاره ما بيرجع

هددوه ما تأبى

قاطعوه ما تربى

قامت عليه أوروبا

وفرضوا عليه العقوبات

مع هيدا وكله ما انهز

لا أثر فيه ولا اهتر

أخذ الحبشة وصار يفز

ويهدد الكون أجمع...

## اختلط الحابل بالنابل

اختلط الحابل بالنابل

تساوى العالم بالجاهل

صعب كثير بقى تفرق

بين العالي والسافل

العتال<sup>٢٧</sup> حامل باستون

والشوفير فاتح بانسيون

والكرسون والمارمطون

آخر الليل بالكاربون

سبقوا سرسق مع فرعون

صعب كثير بقى تفرق

بين البيك والكرسون

شوف ماريكا شوف جانيت

شوف حبوية وهنرييت

موضة واحدة وتوالييت

مرمغين عالزلمات

صعب كثير بقى تفرق

بنت الهوى وبنت البيت

شوف آدمون شوف ميشيل

شوف ماريكا شوف راشيل  
راكبين أوتو وسايقين خيل  
صعب كثير بقى تفرق  
بين الشاب والمزمازيل  
(١٩٣٠)

## لو كنت حصان

لو كنت مثل سلطان

والاهدبان كان فضلي بان

لو كنت حصان مثل عدنان

والاسرحان كان نسلي انصان

لو كنت حصان في هالأيام

كان لي خدام ورا وقدام

مثل الحكام وأحسن بزمان

لو كنت حصان شو عابالي

أبو زيد خالي راسي عالي

من الهمم خالي عايش سلطان

لو كنت حصان كان من بختي

اهتموا بصحتي فرشوا تختي

فوقي وتحتي ورد وريحان

لو كنت حصان في بيت سرسق

باكل فسطق، باكل بندق

ما كنت بسرشق زي الزعران

لو كنت حصان في بيت فرعون

كان لي بنسيون عشرين كرسون

ما كان بالكون مثلي إنسان

لو كنت حصان الشرقاوي

والصقلاوي والدنكلاوي

كنت بساوي ألف أم حصان

لو كنت حصان في بيت بيهم

بعيش بفيهم أو في حيهم

باكل زيهم أشكال ألوان

لو كنت حصان وحصان عيان

أهل الإحسان والأميركان  
جابو لي كان دكتور «دبران»

من سوء حظي مخلوق إنسان  
في جبل لبنان دليل مهان  
جوعان هفيان حافي عريان  
(١٩٣٠)

## تعا ودع

تعا ودع هي أكلة والوداع

الشرف عطاك عمره

والحيا انتهى أمره

والوفا اختفى إتره

أما الدين باقي قشره

الكذاب ماشي حاله

والخاين يا نياله

ما عاد يستحي بحاله

الحيا شد رحاله

الكرم سكر بابيه

والمعروف صفى حسابه

والعدل في عز شبابه

مات وماتت أربابه

الخواطر مكسورة

والنفوس مقهورة

والمعابد مهجورة

والصلاة فيها صورة

الغني صار قمارجي

وابن العيلة خمرجي

وابن الأمرا عربنجي

والعز اللي راح ما يبجي

الوجيه أبو الوجهين

بيلاعب دوره هالحبلين



مع إنه بأربع دينين  
حارق دين الأخصرين

السما استغنت عنا  
والأرض ضجرت منا  
مبارح هزت جيراننا  
خايف بكرة يجي دورنا  
(١٩٣٠)



## يا مال الشام يا عوجة

يا مال الشام يا عوجة<sup>٢٨</sup>  
من أصلك عوجة يا عوجة  
الدنيا عوجة يا عوجة

أولاد الحرام أحبابك  
والأردال أصحابك  
أكلين شاربين على بابك  
بتيجي من تحت «الفرش»  
رأساً دوغري فوق العرش  
ولك إخص عليك وعلى أصلك  
من أصلك عوجة يا عوجة

ياما في الدنيا رجال  
ما ناقصهم إلا جلال  
عائشين في العز والإجلال  
فين إنصافك فين عدلك  
آه يا دنيا الله يذلّك

العالم بايت جوعان  
والجاهل فاتك شبعان

والرزقة رايحة ضيعان  
بتطعمي ناس وبتحرم ناس  
ما بتكترم إلا الأنجاس

بنات ملوك بيندلوا  
عافراش الموت بيتقلوا  
والناس عنهم بيتخلوا  
واللي ما بيسوى خبره  
صاير حاكم بأمره...  
(١٩٣٠)

## السينما

- يا سلام يا سلام الناس بتنغل  
نغل، مثل قفير النحل، الإيد  
علايد والرجل عالرجل يعني لو  
ترمي حزمة دبائيس ما بينزل منها  
دبوس، لا عالرّصيف ولا عالوحل،  
يعني الصّحيح، يللي ما شاف  
يجي ويشوف، الرايحين والجايين،  
والفايتين والضّاهرين، بالميات  
والألوف، وأسعارها أضرب وأطرح.  
- معلوم، ما تقول إلا قيامة وقيامة  
وحركة دائمة.

- شي عجيب، ما حدن شاف أبداً،  
قدّيش التّاس بخلا، وقدّيش هن  
عالسينما كرما.  
- معلوم، صارت السينما من دمهم،  
وما عاد في شي بيهّمهم، صاروا يعزّو  
اللّقمة عن تمهم، حتّى يروحوا على  
السّينما، لذلك، ما عاد في شي ماشي  
غير السّينما والرّقص والفقش  
وباللو البيجاما.

ما في شي ماشي غير السّينما  
والرّقص والفقش وباللو البيجاما

ما عاد في شي إلو معنى  
إن كان تمثيل وإلا مغنى

المسرح مات والمغنى مات  
صبت عالفن كلّ الويلات  
عبد الوهاب  
كان نجمة غاب  
عالمغنى تاب  
لولا السّينما

صار فين ما مشيت بالليل بالنهار  
بتشوف سينما على جنبه بار  
بتشوف التّاس طفّات طفّات  
كلّ الأجناس كلّ الماركات

رايحين جايين  
فايتين ضاهرين  
كلّهم هاجمين  
على السّينما

السّينما بتعلي ناس  
من غير مبنى من غير أساس  
رجال الفنّ من غير تقدير  
قضوا الحياة شقا وتعتبر  
وأّم الغزّة  
غنت مرّة  
وصارت درّة  
وكوب سينما

الصّناعة والتّجارة  
كلّها خسارة كلّها عزارة  
ما عاد في كار عمّا يوفي  
كلّ الكارات رايحة تصفي  
عيطا حلس  
شيطا فلس  
ما حدا جلس  
لولا السّينما  
(١٩٣٦)

## كله نضيف

كله نضيف، كله ظريف  
كله مهفهف، كله نحيف

يا لطيف تتلطف بالضبايا  
يا لطيف

هرج ومرج وسوق افرنج  
وتكسيات بتكرج كرج  
كله جديد كله خلنج  
والأسواق مثل الشطرنج  
نضيقة ظريفة زي التلج  
فيها الشبان تتمايل  
والبنات بتعنج غنج

قتل وضرب مثل الحرب  
والنسوان على عرض الدرب  
ما في شي اسمه عيب  
إيد البنت يايد الشب  
بعلم الأم، وعلم الأب  
غر قانين بين النهيرين  
نهر ابراهيم ونهر الكلب

لو كندات وتياترات  
عالصقين خمّارات  
الله يبارك بالبارات  
والنسوان عالترتوارات  
مبودرات محمّرات  
طول النهار أوادم  
وطول الليل نطناطات

### لا تحرموها

لا تحرموها، لا تحبسوها  
افتحوا الأبواب  
لا تعلوا سورها،  
لا تحرموها من الشمس ونورها،  
احسبوا لها حساب

خلوها تسرح، خلوها تمرح  
ضمن الآداب،  
لا الحيس بينفع، ولا السور ييمنع  
عنها الأسباب

البنت الحرة، بتمشي بين كرة  
من غير حجاب  
شرفها غالي، مقامها عالي  
بين الشباب

البنت الليها، سكر عليها  
كل الأبواب  
بتعمل عملتها بواسطة جارتها  
تحت السرداب

### يا سلام ملا حرب

يا سلام ملا حرب  
ما في قتل ولا في ضرب  
ما في هم ولا في كرب  
مين انضاق ومين جاع؟  
ومين بات على الدرب؟  
يا سلام ملا حرب

العمار قايم قاعد  
والخير كتران وزايد  
كنز الصاد والوارد  
هالحرب كله فوايد  
كل واحد متا رايد  
تدوم عليه نعم الحرب

البر والبحر مفتوح  
بوابير عم تجي وتروح  
والسفر برضه مسموح  
علم العز عم يلوح  
والشعب صدره مشروح  
ما حاسس أبداً بالحرب

البلاد عمرانة  
والتجارة ربحانة  
والجيوب مليانة  
والقلوب فرحانة  
مين حامل هم الحرب؟

النسوان بتمخطر  
والشبان بتتعتبر  
ليل نهار بتتفكر  
بتشرب وسكي وبتسكر  
لولا الطباط والعسكر  
ما كان باين هيئة حرب

كيف ما كان في بروغرام  
في تنظيم، في انتظام  
في إجلال في إكرام  
في تعظيم في احترام  
للقانون والنظام

شي ما انشاف قبل الحرب  
كيف ما كان في إصلاح  
في جورايق وبال مرتاح  
في أشغال، وفي أرباح  
في نجاح، وفي فلاح  
ما شفناهم لولا الحرب

نبال قلبك يا لبنان  
برك وبحرك في أمان  
أم مثلثة الألوان  
رمز الحب والحنان  
حامية بلادك من زمان  
قبل الحرب وبعد الحرب

### نايلون

ويلن للناس ويلن  
من شر بلاد النايلون

صار وين ما مشيت  
أو رحت وجيت  
مشمّع، كبابيت،  
كرتون، وشبيت،  
ودم العفريت  
نايلون

على كل فاترين

بخط تخين  
حرير بوبلين  
وكريب دوشين  
وسخام الطين  
نايلون  
في كل ضيعة  
في كل صنعة  
في كل بيعة  
كل شي سلعة  
البضاعة خسعة  
نايلون  
ساكوش الست  
كلسات البنت  
كل شي بيحت  
كل شي بيقت  
وبياكله العت  
نايلون

طابات ومشاط  
كمر وقشاط  
لاسيك مطاط  
ما في نشاط  
هوا عابلات  
نايلون

كل شي عتيق  
كل الحراطيق  
كل شي تقريق  
جوا الصناديق  
كله خوازيق  
نايلون

كل مأكولك  
كل مشروبك  
كل ملبوسك  
من طربوشك  
لبابوجك  
نايلون

المجالات

بالات بالات  
والشخافات  
والذعايات  
حتى الويلات  
نايلون

ما خلّي باب  
دفتر وكتاب  
شعرا وكتاب  
عاملين حساب  
بيعت نواب  
نايلون  
(١٩٤٠)

### الكرسي

ما حدا بيعمل إحسان  
غير للجاه والإعلان  
وإن قدم خدمة خفيفة  
بكون طمعان بنيشان  
يا موعود بوظيفة  
مين بيدعي وبصلي  
وما بيطلب الغفران؟!  
والدليل والبرهان  
ما حدا اهتّم بمشروع  
إلا وقال يا رب نفسي،  
وكل غايته من الموضوع  
إنه يوصل للكرسي  
قطيعة تقطع هالكرسي

الكرسي سز الأسرار  
أقوى من سحر السحار  
هو الطمع للأنظار  
هو الميزان والمعيار  
وركوبه ركوب الأخطار  
ونعيمه جحيم ونار  
وللصبيبة كبار وصغار  
واقعين بحب الكرسي

أكبر ناسك لو جابوه  
عالكرسي بينسي أصحابه  
بينسي أهله وأحبابه  
وأبوه لو بقصد بابه  
ما يبلاقي غير حجابيه  
مين رح يوصل أعتابه  
مين بيحضى بجنابه  
ما دام راكب هالكرسي

الكرسي معشوق فتان  
بيشيب عقل الإنسان  
بيفرق بين الإخوان  
بيوطي مين كان له شان  
وبيعلي قدر الهفيان  
بيز غزغ النية والوجدان  
وأهل الدين والإيمان  
بيفسدهم حب الكرسي  
قطيعة تقطع هالكرسي  
(١٩٤٤)

### بالمقلوب

كل شي صاير بالمقلوب  
على هالحال يا صبر أيوب

شوف الدنيا وأحوالها  
البت بتخطب لحالها  
وبدال ما الشب يسعي لها  
ويترجى أبوها وخالها  
هي بتعرض راسمالها  
بتضحى حالها ومالها  
وبتدفع لعريسها دهب

شوف الحال كيف صاير  
النسوان الحراير  
تتوظف في الدواير  
والشّب الجدع الشاطر  
عايش بطلال ودائر  
ليل ونهار حاير باير

من همه طافش عالدروب

شوف الدّنيا والزّمان  
العالم فيهما منيهان  
والسّافل له قدر وثمان  
والجاهل شبعان رويان  
والعالم جوعان هفيان  
مشلوح بزوايا النّسيان  
مثل الشمعة عمّا يدوب

شوف الحقيقة المّرة  
آدم حقّه يتعزّى  
من توبه جواً وبرّة  
وحواً اللي كليها عورة  
كان الأوّلى والأحرى  
تتستّر أجمل سترة  
من راسها حتّى الكرعوب

نادر حتّى تشوف واحد  
صاحب منصب أو وارد  
بيعمل ناسك أو عابد  
ويذكر الله الواحد  
ما منشوف في المعابد  
في الخلوات والمساجد  
إلا الدّرويش والمجدوب  
(١٩٤٥)

## النوفوريش

كان جليوط وأسلاميش  
صار له لحم، و صار له ريش

جمع المال بالجبل  
وبنى قصور بالعجل  
في البلد والجبل  
واجا يندس بالعيل  
ويخفي عيوبه والعلل  
بالهدايا وبالبخشيش

لما فاض رسماله  
اضطربت أحواله  
وانقلبت أشكاله  
غدير بذل شرواله  
من جواً على حاله  
ومن بزّا على الريش

ريش عا أهون سبب  
ما في علم ولا أدب  
ولا في حسب ولا نسب  
سعدان وما له دنّب  
جلده محشي بالذهب  
ومش عارف كيف يعيش  
(١٩٤٦)



## حاسب يا فرنك

حاسب يا فرنك، يا فرنك حاسب  
فهمنا فين بعدك صاحب  
ما خلّيت لا مُحَبّ ولا صاحب  
أهلك جفوك والأجانب:  
فرحانين، شمتانين  
ناويين محوك، ما بتاسب  
يا فرنك، دخلك حاسب

حاسب يا فرنك وشوف بقى شو  
وراك  
تسعين مليون رايجين في هواك  
ما عاد إلهم معين سواك  
عايفين سماهم دخيل سماك  
طفرانين حيرانين

طالبين عفوك ورضاك  
يا فرنك، دخلك حاسب

حاسب يا فرنك وشدّ فرامك  
شوف المارك والكرون قدامك  
من لطفك أو من إنعامك  
ترحمنا نحنا بفرامك  
مجبورين، محرومين  
طالبين عفوك وإحسانك  
يا فرنك، دخلك حاسب

حاسب يا فرنك وخذلك دورة  
بتطلع سنتي بتتزل عشرة  
مش كل مرّة بتسلم الجرة  
الله يجبرك من هالمرة  
قولوا آمين، يا سامعين، يا مفلسين  
العيشة بعدك مرّة  
يا فرنك، دخلك حاسب

حاسب يا فرنك الله يخليك  
ويرفع مقامك ويعليّك  
ويهديك بقى على مين يهدّيك  
قبل ما نفلّس يا شريك  
طفرانين، عدمانين  
أرواحنا مربوطة فيك،  
يا فرنك دخلك حاسب.

## الاحتكار

كل شي صار احتكار  
المي والنور والنار  
احتكار باحتكار  
التنباك والدخان  
مزروعات الأوطان  
لا محصول الألمان  
ولا منتوج اليابان  
ما منحكم على زرعه  
ولا منشرف على بيعه  
حتى بمالنا مش أحرار

وما منحكم على المي  
لا عالشمس ولا عالفي  
كل شي نافع كل شي حي  
طار من إيدنا شوي شوي



## السياسة

السياسة ما إلهها دين  
وبتتمايل شمال يمين  
هي بسز الكذابين  
هي روح الظالمين

يوم عازتهم بييجونا  
على روسهم بيحطونا  
لوز وسكر بيطعمونا  
لبعد العازة بيهملونا  
وسط السكة بيقطعونا  
بيبيعونا بيشترونا

قال مباديهم شريفة  
قال نواياهم عفيفة  
للمالك الضعيفة  
كل دعاويهم سخيفة  
كل نواياهم مخيفة  
والمعاملة اللطيفة  
في سوريا أو فلسطين

كله تجليط ودعاية  
كل دولة وإلهها غاية  
كلهم بالوش مراية  
وفي الزوايا في خبايا  
وفي الخبايا سوء نوايا  
في بلايا في رزايا  
في خوازيق وأسافين  
(١٩٤٦)

## في كل ضيعة قديسة

في كل ضيعة قديسة  
فيها جامع وكنيسة  
بدنا مين يخلصنا  
من هالحالة التعيسة

السن بيضحك للسن  
والقلب جوا ما بيحن  
والمشاكل ما بتكن  
شو هالأمة التعيسة

بالظاهر كلنا إخوان  
بالباطن أشكال ألوان  
منتظاهر بحب الأوطان  
تحت ستار الدسياسة  
عالعلي بدنا استقلال  
عالواطي جيش احتلال  
يا ضيعان هيك رجال  
وهالنفوس الحبيسة

في الجرايد منهلل  
في المعابد منلعل  
في كل مشكل مندخل  
محمد وموسى وعيسى

وعلتنا منا وفينا  
واللي فينا بيكفيينا  
بدنا مين يشفيينا  
من الأمراض الخبيثة  
(١٩٤٧)

## بدنا وبدنا

بدنا وبدنا وما بدنا  
ومش عارفين شو بدنا  
بدنا وبدنا وما بدنا  
وما طالع شي بيدنا  
بس اللي ما فينا ليه  
بدنا منه وتفو عليه

يوم منكزه يوم منحب  
يوم منمدح يوم منسب  
يوم منسكت يوم منهب  
بس اللي ما فينا ليه  
بدنا منه وتفو عليه

يوم منمدح الرئيس  
ومنقول عال وكويس  
وبكرة منرجع منوسوس  
ومنطلب حل المجلس  
بس اللي

في الجرايد منهلل  
في المعابد منلعل  
منخطب ومنكلل  
وبكرة منرجع منبطل  
بس اللي

يوم طربوش يوم برنيطة  
يوم زمور يوم ترمبيطة  
يوم منمشي مع عبيطة  
يوم منشد مع شبيطة  
بس اللي

ما في خطة مرسومة  
ولا في وجهة معلومة  
ولا غاية مفهومة  
كل أعمالنا ملغومة  
بس اللي...  
(١٩٤٧)

# بيروت

بيروت زهرة في غير ارض  
بيروت ما حلاها وما حلاها  
بيروت يا حبيبتنا ربا صيغنا  
تدري على ارض دمشق بيروت

- ١ -

شرب الدق لصبا الورق  
خيل السبعه رصدا احمم (والبحر)  
اسماء بيروت  
لبيك العز شرم الازوا  
اكل الازوا شاكل عقده  
سنان بيروت

- ٢ -

اكل وشرب  
نسط ركب  
حياته بيروت  
الفنونه والفقيره  
والسهره وكثر اليطر  
هلاك بيروت

## يا ريت في تلفونات

والكلام للمدفع  
للقنابل والغازات

- معك حق يا أبو محمود، صحيح هالزمن، زمن مكنا، زمن آلات، وزمن ويلات. يا لطيف قدّيش صار في تسهيلات ومواصلات لجميع الجهات. - صحيح صار في مواصلات لجميع الجهات، بس انقطعت بين الأرض والسماوات.

- كيف يعني؟ عمره ما كان في مواصلات بين الأرض والسماوات. - مسكين عقلك، كان في مواصلات روحانية، أما اليوم، ما عاد في شي روحاني، ولا عاد في شي رثاني، كله برنيش برثاني، والديانة صيصاني، وكل واحد صالي للتاني، والحياة دكات برعبات.

- شو بدك أنظم من هيك حياة، وأعظم من هيك تسهيلات، في البيوت صار في غسالات، دقّيات، برادات، سخانات، كتاسات، جلايات.

- صحيح، صحيح، بس يا ريت في تلفونات، بين الأرض والسماوات، حتى نحكي، حتى نشكي، بلكي بتخف الضربات. (موسيقى وغناء)

ما عاد في غير آلات  
ولا عاد في غير مكنا  
كيف ما مشيت سينمايات  
في القهاوي وفي الصالات  
في الدكاكين راديوها  
يا ريت في تلفونات  
بين الأرض والسماوات  
حتى نحكي، حتى نشكي  
بلكي بتخف الضربات  
أهل الأرض ما بتقنع  
لا بترحم ولا بتشفع  
والنصيحة ما بتنفع

## من إيد هالك

انسدت كل الممالك بوش الفلاح  
كل دروبنا مهالك كيف ممكن نرتاح  
يا بلادي كل أموالك رسمال وأرياح  
رايحة ديون وهوالك وموسم تفاح  
من إيد هالك لمالك لقباض الارواح

فوضى وقايمة حالتنا ومن أسوأ ما  
يكون  
ربطنا بحيلة رقبنا كرمال كم مليون  
هوا عابلاط فرحتنا يا رغوة صابون  
رايحة خسارة غلطنا ومشروع الإصلاح  
من إيد هالك لمالك لقباض الارواح

خربنا جوا وبرّا زعلنا مع الكل  
طلعنا زميط بالمرّة عم نشكي ونعل  
النحس عنا مرّة، ما استنصف يحل  
حلوتنا صفت مرّة وموسم السواح  
من إيد هالك لمالك لقباض الارواح

كل مرّة منقول بكرة، بكرة بيهدا النو  
وبتصفي المي العكرة بروق معنا الجو  
ما صحت معنا فكرة ولا شعشع الضو  
برضه غلطنا عالخطرة وسلمنا المفتاح  
من إيد هالك لمالك لقباض الارواح  
(١٩٥٨)

## شي بيحير

شي بيحير، شي بيظفر  
شي بيكفر، شي بشيل الدين

منعمر، منتعمر، وطفرائين  
منصيف، ومنكيف، ومديونين  
مناكل حاف، وبلا لحاف، ومبودرين  
منتامبر، منتشتر، وجوعانين  
منتستر، ومنتبرز، وعربانين

ناصر النور وانطفي  
وتعوكر نهر الصفا  
وقل الخير والوفى  
والوجدان والوفا  
والإنصاف في الدنيا مات

لا تغترّ بالعهد  
لا تنغش بالعود  
كل شي تغير بالوجود  
والكلام للبارود  
أما الباقي سخافات

الحديد والبولاد  
والبنزين أعظم زاد  
واللي عليه الاعتماد  
في الكفاح والجهاد  
طيارات ودبابات.

والأنكى من هيك، إن  
كل الكتب السماوية  
والتعاليم الدينيّة،  
بتحبّ الإنسان بالإنسان  
وبتشر بالشفقة والإحسان،  
وللأسف، في الحياة  
الذنيويّة الإنسان عدو  
الإنسان.

(١٩٥٣)



حاربت أكبر جنرال  
أعظم قايد وماريشال  
أكبر راس كنت طال  
أما اليوم، البطل  
والعطل صاروا أبطال  
ما فيك تحاكي (العتال)

بسكت بقولوا قابض  
بحكي بقولوا معارض  
لا مريض ولا ممتارض  
قاعد في بيتي ورايض  
والمال بإيدي فايض  
وعايش من علمي وفني...  
(١٩٥٩)

## معركة الساحل والجبل أسعد سابا وعمر الزعني

تحدي الشاعر أسعد سابا الزعني  
قائلاً: «إذا عملنا شي معركة أنا وانت  
فيك تتحمل؟»  
أجاب عمر بلهجته البيروتية العريضة:  
معلوم. وهنا قال أسعد سابا:

أوعى يغزك سكوتي  
بتهز الصخر بيوتي

هات الليلة شو عندك  
يللي بتحكي بيروتي

عمر:  
لو عندك بالضبعة توت  
وكلامك كلو مشبوت

ما كنت تركت الضيعة  
وجايي تسكن ببيروت  
سابا:  
ما بعطي بالشعر سكوت

يا ما في يا ما في

في فلاسفة ومحامين  
في دكاترة ومهندسين  
في صيادلة ممتازين  
في أساتذة وفنانين  
ومكتشفين ومخترعين  
من هالثمرة يا معين  
يا ما في يا ما في



## على أيام الانتداب

على أيام الانتداب  
عهد الظلم والإرهاب  
ما كنت خاف ولا هاب  
لا حكومة ولا نواب  
أما اليوم ألف حساب  
صرت إحسب للأذنان

على أيام الأجنبي  
كنا نشكي ونعاتب  
كنا نحتج ونطالب  
أما اليوم أكبر كاتب  
ما فيه يناغش ويداعب  
لا وزير ولا نايب

حاربت بخصوص القمار والاستعمار  
لما تم الانتصار، والمقدر صار  
عملوا أشرارهم أنصار  
وسلاح وحشيش وقمار...

منركض ركض، منطوي الأرض  
ومسبوقين  
منطبل، ومنزمر، وحزنانيين  
منعيط، ومنشيط، وملجومين  
راح المال، والزسمال، ومبسوطين  
حال وحال وما في حال وفرحانيين  
منفرح يوم منبكي دوم وفرحانيين  
والمساسس بضمهر الناس، وممنونين  
عيشة خلط، وما في ضبط،  
وكيف عايشين؟

## بالفلوس كل شي في

في وفي ليش ما في  
انبلى في  
كيف ما في ياما في  
بالفلوس كل شي في

في شوارع مرصوفة  
وتاكسيات مصفوفة  
في بضائع مستوفة  
ومستوردة ومكشوفة  
ومشهورة وموصوفة  
ومن هالثمرة المعروفة  
يا ما في يا ما في

في مخازن في واجهات  
في قهاوي بمرايات  
في ملاهي وحمّامات  
وأوتيلات وبانسيونات  
من هالثمرة وهالماركات  
يا ما في يا ما في

في معامل صناعة  
في أوائل زراعة  
في شطارة وبراعة  
في وسایل خلاعة  
وفي أفلام فظاعة  
من هالثمرة وهالبضاعة

## وأقوالى دروبا فوت

بيروت شعري بيعيش  
وبالضبعة شعرك بيموتعمر:  
في الضبعة وفي المدينة  
أشعاري فرحة وزينةبكل الدنيا بقدر عيش  
من أشعاري الثمينةسابا:  
عاشطاي ضلك مرتاح  
ما فيك تحلق ما فيكأشعارك ما إليها جناح  
عراس التلة توديك!عمر:  
كل الدنيا بتنادي  
باسمي والطير الشاديبفرد جناح عالتلة  
وجناح بقلب الواديسابا:  
حاجي تهجم عالتلي  
مقصر ما فيك تعلي

المزيكا ما بتفيدك

## بيزيد الطيني بلي

عمر:  
المزيكا بتعلي الفن  
بتزيدو قدر وقيمةوالصوان لان وحن  
من نغمتها الرخيمةسابا:  
حاجي تعمل بولتيكا  
وتعني رصد وسيكاالشعر الممتاز بيمشي  
من غير طبل ومزيكا

## الهوامش

- ١ ديانا عبّاني، الموسيقى في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، رواد الطرب في بلاد الشام: سورية، لبنان، فلسطين، مؤسسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربية، ٢٠١٤
- ٢ محمد كزيم، المسرح اللبناني في نصف قرن: ١٩٥٠ - ١٩٥٠، بيروت: دار المقاصد، ٢٠٠٠ (ص ٣١٢، ٣١٩)
- ٣ جريدة الأحرار، عدد ١٢٠، ٧ تموز / يوليو ١٩٢٤، في: محمد كزيم، المسرح اللبناني في نصف قرن: ١٩٥٠ - ١٩٥٠، بيروت: دار المقاصد، ٢٠٠٠ (ص ٣١٦)
- ٤ ألبير داغر، لبنان المعاصر: النخبة والمخارج وفشل التنمية، بيروت: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، ٢٠١٧
- ٥ فواز طرابلسي، تاريخ لبنان الحديث: من الامارة الى اتفاق الطائف، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨ (ص ١٦٠ - ١٦١)
- ٦ فواز طرابلسي (ص ١٧٥)
- ٧ فايق الخوري، مجلة الإذاعة، تموز ١٩٤٨
- ٨ خالدة سعيد، المشروع الرجائي - الفيروزي: من المؤسسين الى الثائر، في: زياد الرجائي: سائد التحولات والانكسارات، ملف من إعداد أكرم الرئيس، مجلة الآداب، العدد ١١ - ١٢، السنة ٥٧، ٢٠٠٩
- ٩ وليم صعب، حكاية قرن: سيرة ذاتية، بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠١
- ١٠ جورج فرح (١٩١٣ - ٢٠٠١): ملحن ومؤسس ورئيس القسم الشرقي في المعهد الموسيقي الوطني (١٩٥٢) ومدير فني في الإذاعة اللبنانية (١٩٤٤). لحن زجل إميل مبارك كما لحن أغاني الأوبرا باللغة العربية وألف القطع الموسيقية السمفونية والسماعات والبشارف. له ثلاثة كتب، منها مبادئ العلوم الموسيقية (١٩٤٦)
- ١١ توفيق الباشا، كلمات وشهادات في عبد الجليل وهبي، في: عبد الحسين الجواهري ومروان أبو نصر الدين، ديوان عبد الجليل وهبي: شاعر المطلق، بيروت: إصدار خاص، ٢٠٠٦
- ١٢ خالدة سعيد، المشروع الرجائي - الفيروزي: من المؤسسين الى الثائر، في: زياد الرجائي: سائد التحولات والانكسارات، ملف من إعداد أكرم الرئيس، مجلة الآداب، العدد ١١ - ١٢، السنة ٥٧، ٢٠٠٩
- ١٣ وجيه فانوس، دراسات في حركة الفكر الأدبي، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩١
- ١٤ عمر فاخوري، الباب الموصود، بيروت، دار المكشوف، ١٩٣٨
- ١٥ المصدر نفسه
- ١٦ وجيه فانوس، مخاطبات من الضفة الأخرى للتقد الأدبي، بيروت: اتحاد الكتاب اللبنانيين، ٢٠٠١
- ١٧ يذكر محمد أمين فرشوخ في كتابه «أدب الفكاهة في لبنان» أنّ الأغنية الفكاهة تتألف من فقرة لازمة تُردد بين غناء مقطوع وآخر، وقد تكون أحياناً قصيدة موزونة مقفلة من الشعر العائلي حتماً يلقيها صاحبها بمرافقة الموسيقى في جمل بسيطة أهم ما فيها الإيقاع، وهي حكاية حال يمثلها شخص واحد.
- ١٨ محمود غزاله، توفيق الباشا: يقظة الموسيقى، منشورات مجلة التنمية، ١٩٩٨
- ١٩ كيف ولماذا انتهى عهد المونولوج الانتقادي في الشرق، مجلة الإذاعة، ١٧ / ١١ / ١٩٥٤
- ٢٠ عمر الزعّني، يا صالحه، ١٩٤٧
- ٢١ شاعر الشعب عمر الزعّني: القاسم المشترك في برامج «الشرق الأدنى»، مجلة الإذاعة، آذار / مارس ١٩٥٦
- ٢٢ صبري الشريف (١٩٢٠ - ١٩٩٩): ترأس القسم الموسيقي في إذاعة الشرق الأدنى في فلسطين ولغاية إغلاقها في بيروت وقبرص في ٣٠ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٦. ساهم في تأسيس الإذاعات الأردنية واللبنانية والتونسية. انضم بعدها إلى فريق «الشركة اللبنانية للتسجيلات» LRC (١٩٥٦ - ١٩٦٥) التي أسسها رجل الأعمال بدیع بولس وقد تحوّلت إلى «ستديو بعلبك» الذي أغلق أبوابه نهائياً عام ٢٠٠٤. تفرّغ للعمل مع الأخوين رحباني وفيروس منذ العام ١٩٦٠ وأسس معهم «الفرقة الشعبية اللبنانية» وشركة «فينيسا فيلم»، وتولّى الإدارة الفنية وإخراج جمع أعمالهم المسرحية، والغنائية، والتسجيلات الإذاعية، والرحلات الفنية في الدول العربية، والأوروبية، والأميركيتين حتى عام ١٩٧٢. عمل مستقلاً منذ عام ١٩٧٣ وأنشأ «مؤسسة الإنتاج التلفزيوني»، كما أخرج مسرحية «وتضلو بخير» في مهرجانات بعلبك لعام ١٩٧٤ ومهرجان «برجاس» (١٩٧٧) ومسرحية «مارد الخير» (١٩٧٨) في الأردن
- ٢٣ عمر الزعّني يتحدث عن المادّة وعن غزل البنات، مجلة الإذاعة، آب / أغسطس ١٩٥٦
- ٢٤ توفيق يوسف عوّاد، عمر الزعّني، ١٦ / ٢ / ١٩٦١ (نشرت في كتاب فرسان الكلام)
- ٢٥ يا طالعة يا نازلة: اسم شعبي لأرجوحة الأطفال
- ٢٦ البرنيطة: قبعة الرأس الإفريقية للرجال
- ٢٧ العتال: الحمال. الباستون: عصا
- ٢٨ العوجة: اسم اللوز عندما لا يزال ثمره أخضر



## شؤون

٢٣٠  
الفنّانة التّونسيّة أمال الحمروني:  
أغاني الفرح والحريّة واللذة  
أجرى الحوار أسامة سليم

## الفنّانة التونسيّة أمال الحمروني: أغاني الفرح والحرية واللذة

أجرى الحوار  
أسامة سليم

ناقد ومترجم  
من تونس، والمنسق  
العام لمجلة  
«مدوّنة نظر»  
المختصة بترجمة  
العلوم الإنسانية  
والاجتماعية.

الفنّ الملتزم، ترفيهُ فكريّ يُصار إلى استساغته فنيّاً، انطلق من هموم صاحبه نحو أزمات شعبه، فنادى من أجل تحرّر وطنه ومن أجل الكرامة والحرية والعدالة الاجتماعيّة.

في هذا الحوار، نستضيف إحدى أيقونات الفنّ الملتزم في تونس، الفنّانة أمال الحمروني. أمال فنّانة ذاع صيتها، ألهمت أجيالاً متتالية من اليسار التونسيّ والعربيّ، وحزّرت في مدارج الكليات من أجل الحرية. تركت الحمروني بصمتها في الأعمال التي أنتجتها. تنوّعت صنوف أغانيها، لكنّ همّ شعبها كان يلاحقها دائماً.

أسلوب حياة بسيط من دون بذخ أو ثراء، وكثير من التواضع، هكذا هي أمال. استلّت الأثير وهي تمزجه في الموسيقى لتقدّم لنا أغاني خلّدها الزمن في وجداننا، نحن الأجيال التي تماوجت بغصّة الحرمان والحاجة وهي تعزّي نفسها بأغنية «خذ البسياسة والتّمّر يا مضموني». استفرت أغانيها الخونة وكانت حضاناً للثائرين، فكانت أغنية «يا شهيد»، التي سبق أن أدّاها عميدُ الفنّ الملتزم الأستاذ الأزهر الضاوي، إداةً للثابت والمعروف ووصيّةً للثبات والنضال، فمن سقط قد خان في النهاية.

ينبع الهمّ الجماعيّ الذي تحمله أمال من شقاء ذاتي، فتتوالى على أثره أغانيها الملتزمة. تصبغ ابنة تونس من أبنائها والمها الأغانى. أغان مضمونها ألم ذاتي، وموضوعها شقاء جماعيّ. غنّت لجميع منهيكي هذا الوطن، فالهمّ الجماعيّ في النهاية يتقاطع مع ذواتنا للتشابه والتفاعل في أغنية غنّتها أمال، وهذا ما يفسّر رواج أغانيها لدى مختلف الفئات الاجتماعيّة.

ولا يسعفنا الحديث هنا أن نذكر جميع أغانيها، فقد قدّمت أمال للموسوعة الفنيّة التونسيّة الكثير من الأعمال التي أثّرتنا. وكما قدّمت أغاني عن الألم والالتزام السياسيّ والنقاء الثوريّ، غنّت للبهجة والفرح والسعادة والشوق والحنان واللذة والشبق، وعن المرأة والمرأة، غنّت: يا أمي، يا أختي، يا حبيبة، يا رفيقة العمر والدروب.

- ١ أخبرينا عن نشأتك والطفولة.
- ٢ أنا أصيلة قابس، مدينتي التي أعشق، تربّيت بين أبوين حبيبين، في بيئة علمتني معنى أن يكون للإنسان مبادئ يسير عليها ويدافع عنها، أن نعطي لمرورنا في الحياة معنى، أن نحيا ونعمل لأنفسنا ولكن أيضاً من أجل الآخرين.
- ٣ ما تحصيلك العلميّ وتخصّصك؟
- ٤ لا علاقة لاختصاصي بالفنّ، فأنا تخرّجت من «المدرسة الوطنيّة للإدارة»، اختصاص ماليّة عموميّة. أنا «عموميّ»، أحبّ هذه التسمية لأنّها تحيل إلى مفهوم «المرفق العموميّ»، هذا المرفق الذي تُبنى عليه كلّ الدول التي تحترم شعوبها.
- ٥ كيف كانت النقلة الفجائيّة من الإدارة إلى الفنّ؟
- ٦ كان ولعي بالغناء والفنّ عموماً سابقاً للاختصاص المهنيّ. أحببتُ الغناء وأصبح رفيق مهجتي في عمر مبكر جدّاً، أمّا تكوين «مجموعة البحث الموسيقيّ» في قابس وبداية المسيرة التي تعرفون، فهي تزامنت مع دخولي الجامعة عام ١٩٨٠.
- ٧ عرفتُ كفنّانة ملتزمة تنطلق من قضايا شعبها وترجمها في أغانٍ وجدتُ صدقاً لدى الطلاب والعمّال، لماذا اخترت هذا اللون الموسيقيّ؟
- ٨ في صغري غنّيتُ كلّ ما لانتُ له أذني وهفّت له مهجتي، لكن لم أفكر إطلاقاً، رغم حبّي للغناء والموسيقى،

أن أمتنهما. أعتقد أن اكتشاف تجربة الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم كانت لحظة فارقة في حياتي. حينها فهمت أن الفن تعبير عن الوجدان الشخصي والجمعي في كل حالاته، وهو وحده، ما يمكن أن ينفذ إلى مغاور الوعي.

٥ ما معنى أن تكوني فنانة ملتزمة في بلد ديكتاتوري، أي الصعوبات والعواقب الوخيمة؟

٦ أعتقد أن بناء الوعي عملية طويلة نراكمها عبر تجربتنا الحياتية اليومية، اطلاعاً، معرفة، ممارسة، إلخ. يجب التذكير بأننا جيل نشأ في مناخ مختلف، أواسط السبعينيات. في سن السادسة عشرة، انخرطت مثل الكثيرين في حركة تلمذية واعية لقضاياها الخاصة ولقضايا شعبها، كنا نطالع بنهم، نشاهد الأفلام المهمة بشغف، نتابع التجارب العالمية، سياسة، فناً وفكراً بدهشة الشباب الحالم بمستقبل يليق بشعبنا. فأن أكون فنانة ملتزمة بكل الوعي الضروي في سن التاسعة عشرة، كان جزءاً من المسار الطبيعي لحياة كانت بعد مختلفة ومنخرطة في التنايا الوعرة.

٧ كيف كانت الحفلات الموسيقية بالنسبة إليك؟ هل هي عمل أم التزام؟

٨ الالتزام يتجلى طبعاً فيما اخترت أن يحمله صوتي، من قضايا ومواضيع، لكنه يتجلى أيضاً في البعد الجمالي لما نقتحه على المتلقي. لا يمكن لأغنية أن تصل إلى وجدان الناس ووعيهم ووسائل عقلهم إذا لم تكن لها مقومات الأغنية الجميلة، والجميل هنا، قد يكون مستحدثاً جديداً، غير خاضع لضرورة لمقاييس «الجميل» بالمعايير القديمة أو السائدة. لذلك أعتقد، بكل تواضع، أن تجربتنا كانت رائدة، لأن «جديّة» المواضيع وجرأتها وفرادتها وطاقاتها، أحياناً، خلقت شكلاً للتعبير الموسيقي مختلفاً ومخصوصاً.

٩ حدثنا عن مغادرتك «فرقة البحث الموسيقي»، وعن تجربتك الجديدة في فرقة «عيون الكلام».

١٠ هذا موضوع لم أشف منه، وقد لا أشفى أصلاً، ولا ضرر في ذلك لأنني علمت منذ زمن بعيد بأننا نكبر أيضاً ونتقدم وسط أحزاننا، وقد يكون بفضلها. سألخص ما قلته في العديد من المناسبات ولكن لم يحتفظ منه مع كل الأسف، إلا بما لا قيمة له. كانت تجربة «مجموعة البحث الموسيقي» تجربة أغنية مختلفة، متفردة، قصة ملحنين مبدعين وشعراء موهوبين، وهو الأهم، لكنها كانت أيضاً مسيرة شباب ارتبطوا بعلاقة إنسانية خاصة جداً. كانت المتن الحقيقي الذي واجهوا بفضل وعيهم وبفضله أدغال تجربة كانت تتجاوز أكتافهم الغضة. لقد نجحوا في نحت تلك «الشخصية الجماعية» التي أحبها الناس وتمأهوا معها لأنها

كانت تشبههم وتحذتهم عن أنفسهم. والناس بحدسهم الفطري، كانوا يعلمون ويحسون بما يجمعنا ويحركنا، حتى من لم تكن له معرفة شخصية بأفراد المجموعة.

١١ إن المجموعة التي تأسست عام ١٩٨٠ ونحن بين سن ١٩ و ٢٢، لم يكن لها قائد فرقة. كنا نقدم أغانينا على أنها «أغاني المجموعة»، وإن كانت في الواقع من تلحين نبراس أو خالد أو خميس، وكنا نتكلم بصوت واحد وموقف واحد عندما نُسأل أو نجري حواراً ما. كان وعينا أكبر من أعمارنا، وكنا، عن طريق الممارسة، نقدم الدليل على أن العلاقات الفنية المختلفة لما نراه ونسمعه في السائد منها ممكنة. هل تلاحظ كم أعيدت كلمة «كنا»، ذلك بيت القصيد وسبب حزني ووجعي حتى الآن! فقد انقطعنا وعدنا إلى الغناء بعد ثماني سنوات من التوقف بسبب سجن بعضنا، كان الشوق إلى العودة عميقاً وشديداً لدى كل واحد منا من دون استثناء. لكن اللقاء، بالنسبة إلي، كان مقبرة حقيقية لأجل الأحاسيس التي عشتها مع أقرب الأصدقاء إلى قلبي وأكثرهم حميمية، ولن أتوقف عند التفاصيل، فلا معنى لها عندما تبلغ الإساءة وخيبة الأمل درجة أن نبتغي البعد من أجل أن نحافظ فقط على أجمل ما تحتفظ به الذاكرة نفسها. أكثر الأشياء التي منعت تجاوزي العاطفي للمحنة هي إعادة كتابة تاريخ مزيف للمجموعة، على قياس الزاهن، مع أن عناصرها كلهم أحياء يرزقون. قد أغفر ذلك ولكن هل يغفر التاريخ؟! لم تكن محنة الفراق محتني الخاصة بل كانت محنة خميس أيضاً، فنحن جزء من البحث الموسيقي وهي جزء منا، وسنبقى كذلك دوماً، فلا أحد يستطيع فسخ الذاكرة، تلك الذاكرة عنيدة.

١٢ ولأننا كنا تقريباً على نفس الموقف بما عشناه، كان تجاوزنا رهين مواصلة ما حملنا بتحقيقه عند العودة مع باقي رفاقنا، وإن بشكل جديد، وكانت «عيون الكلام»، حقناً معاً الكثير، أغاني جميلة، مجموعة من العازفين حملوا معنا مشروعنا بكل الموهبة والحب. وما زال سيتحقق الكثير، إن بقي في العمر أنفاس. المؤكد الآن أن الفضاء رحب، وصداقتي مع خميس بلغت من النضج درجة تسمح بخوض كل الممكنات، معاً دون شك، ولكن أيضاً، كل حسب رغباته الفنية الخاصة وميوله الشخصية التي قد يحققها على أفراد أو مع مبدعين آخرين، بشكل مواز لتجربتنا. تلك ميزة التجربة والنضج المترامية، فالحياة حبات لؤلؤ ثمينة يجب أن نجد نظمها.

١٣ واليوم كيف تنظرين إلى تجربتك الفنية بعد مراكمتك إرثاً فنياً وشعبية وجمهوراً على مدى أربعة عقود؟ وما





غرست في الذاكرة والوجدان لأنّ الزمن أثبت قيمتها، ولأنّها ارتبطت أيضاً بفترةٍ عسيرة.

٥ لا وجود لأغنية ملتزمة من دون شعراء ملتزمين، كيف كانت تجربة العمل مع شعراء ملتزمين؟

٦ ما قلته حول الشعر والشعراء صائبٌ جداً، لم يكن لتجربتنا أن ترى النور من دون وجود شعراء موهوبين، كانوا ولا يزالون، أصدقاء ورفاق دروب. كلمتهم أعطت لأغانينا أجنحةً ولمشروعنا ألقاً ومعنى. أحبّ عالمهم وأعشق سماعهم وهم يقرؤون ما تحدّثه عنّا أشعارهم.

٧ الصغير أولاد حمد، آدم فتحي، الطيب بوعلاق، جمال قصادة، وغيرهم كثيرون اليوم في تونس ممن لا يتسع المجال لذكرهم، قدّموا للشعر العامي أو الفصيح، هل كانت تجربتهم ناجحة في رأيك؟

٨ يُسعدني ذكرهم بالأسماء لأنّ أسماءهم وشمّ نحتة الزمن في وجداننا، بلقاسم اليعقوبي، عبد الجبار العشي، كمال أحمد بديعة، وفي مرحلة لاحقة غنيّنا من كلمات خالد الحمروني، الناصر الرديسي. طبعاً كلّ هؤلاء الشعراء مختلفون بكلّ المقاييس ولا يستوي أبداً وضعهم على قدم المساواة، وفي كلّ الحالات اعتبر أنّي لست مؤهّلة أبداً لتقييمهم شعرياً، إلا أنّ كتابتهم للأغنية تحديداً أضافت لتجربتهم الشعرية الكثير.

٩ بصفتك فنانة ملتزمة يسارية الهوى، هل عانيت من الرقابة بعد الثورة في عهد الإسلاميين؟

١٠ إطلافاً، لم يحدث هذا قط، لأنّهم لا يقدرّون. ثمّ ما كان وما زال يثيرني، سلباً طبعاً، هو تعبيرهم لي دائماً كلما سنحت الفرصة، عن إعجابهم وتقديرهم والتأكيد على حفظهم لأغانينا، لكنني أشير لهم دوماً بأنّهم قطعاً لا يحفظون الأغاني التي تدبّنها فكراً وممارسةً، وأمثال تلك الأغاني كثير. سلوك المهادنة والخطاب المزدوج والمخادع هو أهمّ ما يميّز الإسلاميين. أذكر أنّهم كانوا يرافقون حملتهم الانتخابية في العام ٢٠١١ بصوتي، وبمضخّم صوتٍ يجوب شوارع المدينة. إنهم لا يستحون.

١١ ماذا كان شعورك بعد اغتيال شكري بلعيد ومحمّد البراهمي، والاعتداء على قصر العبدلية، ومنع عرض بعض الأفلام، والاعتداءات المتتالية على الفنانين؟

١٢ اغتيال الشهيدين هي قضية اغتيال سياسيّ بامتياز، اغتيال كان وما زال وسيبقى جرحاً نازفاً في نفس كلّ الأحرار، هو جرح وطنٍ بأكمله، وهو عارٌ بكلّ المقاييس. لن نتمكّن من التّجاوز طالما لم تر الحقيقة النور. تتوهم الأطراف المستفيدة بأنّها، عبر إيقاف منقّذي الجريمة،

هي نقائص تجربتك الفنّية برأيك؟ وهل طوّرت من أساليب عملك؟

١٣ أشعر بالفخر والحزن في آن معاً. الفخر بسبب ما حفرته أغانينا في وجدان النّاس حتّى أصبحت جزءاً من الذاكرة الجمعيّة، والحزن لأنّها لم تسجّل كلّها في محامل مُرضية على المستوى الموسيقيّ والتّقني، كان سيعطيها ألقاً وإشعاعاً إضافياً ويمدّد في حضورها عبر الأيّام.

**سلوك المهادنة والخطاب المزدوج والمخادع هو أهم ما يميز الإسلاميين. أذكر أنّهم كانوا يرافقون حملتهم الانتخابية في العام ٢٠١١ بصوتي. وبمضخّم صوتٍ يجوب شوارع المدينة. إنهم لا يستحون.**

لقد شاب تجربتي الشّخصيّة الكثير من التّواقص، أولها وأهمّها، بحسب رأيي، أنّي لم أنجح بتاتاً في امتلاك تقنيّات الغناء الحرفيّ ولم أجتهد كفايةً لتحقيق حلمي في مواصلة تعلّم الموسيقى، كان ذلك سيعطي حتماً قيمةً مضافةً لكلّ ما أدّيته. لم أكن شرسةً في تحقيق كلّ ما كنت أصبو إليه، وتلك مسؤوليّة الشّخصيّة. لكنني، على الرّغم من تقدّمي في السن، واستحالة الرّجوع بالزمن إلى الوراء، أنوي تحقيق الكثير ولو بعد الخروج إلى التّقاعد.

١٤ يعني أنّك لم تتوقّفي عن الغناء؟ ولكن ما سبب هذا الانقطاع المفاجئ؟ هل هنالك مشروعٌ فنيّ مستقبليّ لك؟

١٥ لا أشعر أبداً بأنّ الوقت حان كي أتوقّف عن الغناء، وإن كنت أعرف أنّي لن أتأخّر عن ذلك في اللّحظة الحاسمة. كلّ ما في الأمر أنّني في الخارج للعمل، ولحاجة ملحة في الملمة نفس متعبّة جداً. أتمنى أن يكون في الأنفاس بقيةً لتحقيق بعض ما تمثّيت تحقيقه لأغنيّتنا.

١٦ كانت «عيون الكلام» محطةً أخرى في درب الفنّ الملتزم؟ هل لقيت المجموعة الجديدة رواجاً وذاع صيتها أم كان الأمر عسيراً في بدايتها؟

١٧ أرى أنّ «عيون الكلام» كانت محطةً أخرى تضاف إلى مسيرتنا أنا وصديقي خميس، وهي كانت مراكمة لما عشناه في «مجموعة البحث الموسيقيّ»، ولا أعتقد أنّ البدايات كانت متعشّرة لأنّ وجدان الجمهور كان يرانا، كما اعتبرنا دائماً، ثنائياً ولد من رحم مجموعة أحبّها بصدق، وواصل كذلك لأنّ هذا الجمهور أحبّ أغانينا الجديدة وحفظها، لكن لا يمكن إنكار أنّ الأغاني القديمة

ستدفن الحقيقة كلها. تتجاوز الحقيقة عملية الاغتيالين لتعزّي واقعا يتغلغل فيه الإرهاب بالآيات ووسائل ونتائج ووجبت محاسبة المسؤولين عنها.

أما الاعتداء على التعبير الحرّ وعن كلّ المدافعين عنه من الفنانين فقد كان أول مظاهر تغلغل فكر أرادوا له أن يغيّر من واقع التونسيّين نحو الظلمات. وقد بدأ بالتعبير عن نفسه في الأشهر الأولى من عام ٢٠١١، وإن حاول البعض التقليل من خطورته. وقد كان الفنانون أول من أطلق صيحة الفزع لأنهم فهموا باكراً ما يتربّص بالوطن آنذاك.

٥ واليوم، كيف تشاهدين السّاحة الفنّية في تونس؟ هل ساهمت الحرّية اللامحدودة في تطوير المشهد الثقافيّ في تونس؟

٦ قد يبدو المشهد قائماً برجوع تعبيرات فنّية غاية في الرّكاكة وانحدار الذّوق. إلا أنّ المستقبل مفتوح على كلّ الممكنات الجميلة لأنّ هناك جيلاً من الشّباب في العديد من المجالات الفنّية ما فتئوا يبهروننا بخطاب وجماليّة جديدين ومتفردين. أعتقد أنّ لجيلكم، وعلى عكس المعتقد السّائد، قدرات وإمكانات كبيرة تعبّر عن نفسها بكلّ إبداع كلّما سنحت فرصة ولو ضئيلة لذلك. أنا متفائلة بقدرتهم على المقاومة وإبلاغ أعمالهم رغم الواقع الرديء.

٧ ماذا عن الفنّ الملتزم في تونس على ضوء تجربتك خلال أربعة عقود؟ هل هو محصور في الدّول الاستبداديّة؟ أنت التي غنّت في ثلاث فترات مختلفة في عهد تونس الحديث: فترة بورقيبة، فترة بن علي وفترة الحرّية والديمقراطيّة.

٨ نتحدّث هنا عن الأغنية الملتزمة بما أنّ الفنّ الملتزم مجاله أرحب ويمسّ كلّ التعبيرات الفنّية تقريباً. صحيح أنّ تجربتي الشّخصيّة تمتدّ على حوالي أربعة عقود، لكنّ عمر هذه الأغنية التي تستمدّ مواضيعها من العيش في شتّى مجالاته، وجمالها الموسيقيّة من الموروث الشّعبيّ المشوم في الذاكرة والوجدان، أقدم بكثير من تجربتنا أو تجربة الجيل الذي سبقنا. والمختصّون في تاريخ الأغنية الشّعبيّة في تونس، يؤكّدون أن هذه الأغنية تطرقت كثيراً إلى المواضيع المنوعة، وخاصّة تلك التي عارضت السّلطة (السياسيّة، أو العائليّة أو غيرها). أمّا عدم معرفة الرّأي العام الواسع بها، علاوة على حفظه لها، هو تحديداً لأنّها أغنية محاصرة بطبعها من السّلطة التي تنتقدها أو تتحدّثها والتي تقرّر (السّلطة) طبيعة ما يجب أن يروّج أو لا بسبب امتلاكها تحديداً وسائل التروّيج والآيات المنع والقمع، فالأغنية

السّائدة هي ضرورة أغنية تمدح السّلطان وتروّج له أو هي أغنية لا تقلقه أو كما هو الحال دائماً، عند شعوبنا، أغنية الحبّ والهجر والوصل والحرمان. والسؤال الذي يطرح هنا، كيف لفنانين مبدعين، شعراء، موسيقيّين أو مغنّين، أن يمارسوا على أنفسهم تلك الرّقابة الذاتيّة ولا يفجّروا ملكاتهم إلا بما «يرضي» الحكّام أو يتحدّث عن جانب وحيد للحياة؟ لطالما اعتقدت أنّهم يملكون أثراً لم يقدر لها أن ترى النور، بإرادتهم الشّخصيّة، ما يجعل منّا شعوباً منفصمة حقاً.

٩ لا أعتقد أنّ الأغنية الملتزمة حكراً على العيش في ظلّ الدّول الاستبداديّة، لأنّ كلّ زمان وكلّ مكان وكلّ ظرفي يعبّر عنه فنّ هادف، منحاز للشّعوب، معارض للحكّام، مشاكس للعقليّة السّائدة ومحرك لمياه الفكر الرّائدة. لكنّ الحاجة الوجدانيّة لمثل هذه الأغاني تكون ملحة أكثر في حكم الأنظمة المستبدّة، لأنّها تترجم توقاً للانعتاق وحاجة حياتيّة لاستبدال القديم بجديد يتناغم مع الطّموح الجماعيّ لتغيير الواقع.

١٠ لا تختلف فترتا بورقيبة وبن علي في رفض أغنيتنا وقمعها وحشرها في الزاوية أو محاولاتها الفاشلة استمالة أصحابها، إلا أنّ السّلطة في زمن بورقيبة كانت تمنعنا صراحةً لمعارضتنا النّظام، أمّا زمن بن علي، فقد كانت تمارس القمع تحت تعلّات مضحكة أو بضغوطات على المبادرين بدعوتنا، في بعض المناسبات.

١١ وفترة ما بعد الثورة؟ كيف كانت التجربة؟ وما هي خصوصيّة كلّ فترة؟

١٢ لقد عرفنا في نهاية العام ٢٠١٢، وخاصّة بعد ١٤ كانون الثّاني / يناير ٢٠١١ نشاطاً مكثفاً، لحاجتنا أولاً إلى مشاركة شعبنا لحظات تاريخيّة من حياته، ولأنّ جزءاً كبيراً من هذا الشعب اكتشفنا كمن يكتشف صورة أخرى من ملامحه. كانت عروضاً وحفلات عالية التركيز، أحاسيس، أشجاناً وأفراحاً. لكنّ تلك الفترة لم تعرف إنتاجاً كثيفاً ولم تلد أغاني، متفردة ترتقي لما عشناه، كما كان متوقّعا. أعتقد أنّ ذلك يرجع إلى أنّ الواقع نفسه كان بديعاً، ثمّ لأنّ الشعراء الواعين بخطورة اللحظة، كانوا حذرين وفي منأى عن كتابة نصّ يعبّر عن لحظة متحرّكة ومتغيّرة بمثل ما عشناه. أتذكر أنّنا ردّدنا أغنية جميلة جداً، بداية اندلاع الاحتجاجات في ليبيا، لكننا تخلّينا عنها حالما اتّضحت الصورة، فلم تعد كلماتها تترجم عمّا توقّعنا من عدوي جميلة سرّت من تونس إلى ليبيا. أظنّ أنّ المستقبل كفيل وحده بفرز أعمال فنّية تؤسّس لما نعيشه بكلّ الوعي الذي تهديه المسافة مع الرّاهن.

## توزيع المجلة

الأردن	وكالة التوزيع الاردنية، عمان
تونس	الشركة التونسية للتوزيع، تونس
فلسطين	دار الايام للطباعة والتوزيع والنشر
العراق	مكتبة منشورات المتوسط، بغداد
الكويت	الشركة المتحدة للتوزيع، الكويت
المغرب	الشركة الشريفة للتوزيع، الدار البيضاء
اليمن	مكتبة ابو ذر الغفاري، صنعاء
مصر	طبع وتوزيع «دار مرايا للانتاج الثقافي»
فرنسا	مكتبة معهد العالم العربي، باريس
إنكلترا	مكتبة الساقى، لندن
لبنان	شركة الناشر لتوزيع الصحف والمطبوعات
بيروت:	

— مكتبات: مكتبات انطوان (الاشرفية، الحمراء، فردان، الاسواق، سن الفيل، ABC)، ABC Virgin (الاشرفية، الدورة)، مكتبة الشرقية، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمراء)، مكتبة انترناشيونال (جفينور)، مكتبة البرج (وسط البلد)، داواين (الجميزة)، النديم (الظريف) — اكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمراء) المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيم)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين)، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة انطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية) فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)، مكتبة جبل عامل (عشرون)

## الاشتراكات (بما فيها أجور البريد)

لبنان	افراد \$٣٣	طلاب \$٢٠	مؤسسات \$٧٠
البلدان العربية	افراد \$٥٠	مؤسسات \$١٠٠	
باقي البلدان	افراد \$١٠٠	مؤسسات \$٢٠٠	
	يمكنكم اقتناء الأعداد العشرة الأولى مقابل \$٦٠		
	والاعداد العشرين الاولى مقابل \$١٠٠		

Bidayat SARL

Banque Libano-Française

Agence Gefinor - Beirut - Lebanon

IBAN: LB86001000000017101842001840

SWIFT: BLFSLBXX

Account: 017101842001840

صندوق بريد ٥٧٤٨/١٣

شوران - بيروت - لبنان

للاشتراك: info@bidayatmag.com

رقم هاتف المجلة: 81 45 23 62 (961) +

www.bidayatmag.com - facebook.com/bidayatmag

## الحقوق

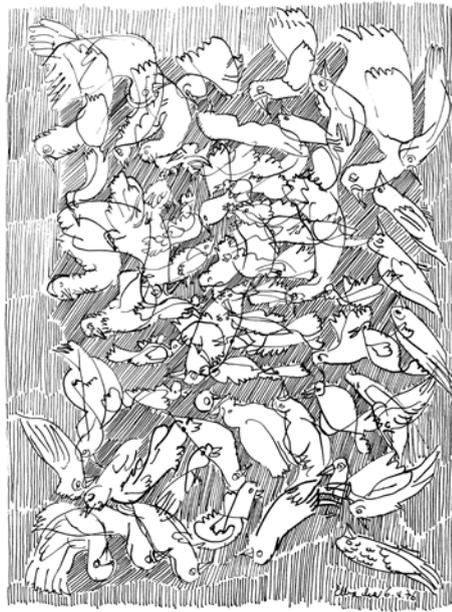
- أمين الباشا، ص ١
- غيدوم فاتح، ا ب، ص ٦ - ٧
- أمين الباشا، ص ٨
- الصورة لكلود باريس، ا ب، ص ١١
- خالد عبد الله، رويترز، ص ١٤ - ١٥
- أشرف شاذلي، ا ف ب، ص ١٩
- رويترز، ص ٢٤ - ٢٥
- الثورة الروسية في ١٩٠٥، ايفان فلاديميروف، ص ٣١
- بيبل، لبيكنخت، ماركس، تولكي، ولاسال، Aus Socialdemokratie Im Wandel، ص ٣٥
- جسر لشتنتسناين (الذي سمي بجسر روزا لوكسمبورغ) على قناة لاندفر في برلين. لقطة من فيلم «وردة» لغسان سلهب، ص ٤٠
- لقطة من فيلم «وردة» لغسان سلهب، ص ٤٤ - ٤٥
- متحف الحرب الإمبراطوري، ص ٥١
- مجموعة تاك، جامعة مدينة لندن، ص ٥٦ - ٥٧
- صندوق رالف شايكس. صندوق حقوق الفنانين / نيويورك؛ بيلد كونست / بون، ص ٦٢ - ٦٣
- جمعية حقوق الفنانين، نيويورك / بيلد كونست، بون، ص ٧٢ - ٧٣
- Flash 90، ص ٨٥
- أرشيف مدينة لندن، ص ٩٤ - ٩٥
- أرشيف مدينة لندن، ص ١٠٠ - ١٠١
- من كتاب «اليمن: الحرب المجهولة» لدانا آدم سميث، ص ١١٥، ١١٩، ١٢٣
- لوحة لأنج تسييه، ١٨٦١، من مجموعة قصر فرساي، ص ١٦٦ - ١٦٧
- الصورة لرمزي حيدر، ص ١٧٥
- الصورة من ويكيبيديا، ص ١٩٠ - ١٩١
- دوغلاس سميث، أرشيف مانهوف، ص ٢٠٤ - ٢٠٥
- مجلة الإذاعة في ١٠ آب ١٩٤٧، ص ٢١١
- فاروق الجمال، عمر الزعني: حكاية شعب، بيروت: منشورات دار الافاق الجديدة (الطبعة الثانية)، ١٩٨٣، ص ٢١٤ - ٢١٥
- مصطفى فروخ، وجوه العصر، اعداد واشرف مصطفى هاني فروخ، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠، ص ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٧
- محمود نعمان، عمر الزعني: شاعر الشعب، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢١٩
- أغاني حنين، رسم مصطفى فروخ، المصدر: فاروق الجمال، عمر الزعني: حكاية شعب، بيروت: منشورات دار الافاق الجديدة (الطبعة الثانية)، ١٩٨٣، ص ٢٢٤
- سمير الزعني (الزعني الصغير) ونادي لكل الناس، عمر الزعني: مولير الشرق: بيروت، دار الفارابي بالاشتراك مع وزارة الثقافة، ٢٠١٠، ص ٢٢٥
- وسيم بن عمار، ويكيبيديا كومنز، ص ٢٣٢ - ٢٣٣

إن الخط المستخدم في الشبائيك من تصميم جويل حداد، Jeem.

حاولنا جهدنا العثور على اصحاب حقوق النشر والتصوير المنشورة. الرجاء من أغفل إسمه الاتصال بنا.



Chagall 1967



Les Femmes d'Alger (O. J. 1967)  
Chagall 1967



Chagall 1967



Chagall 1967



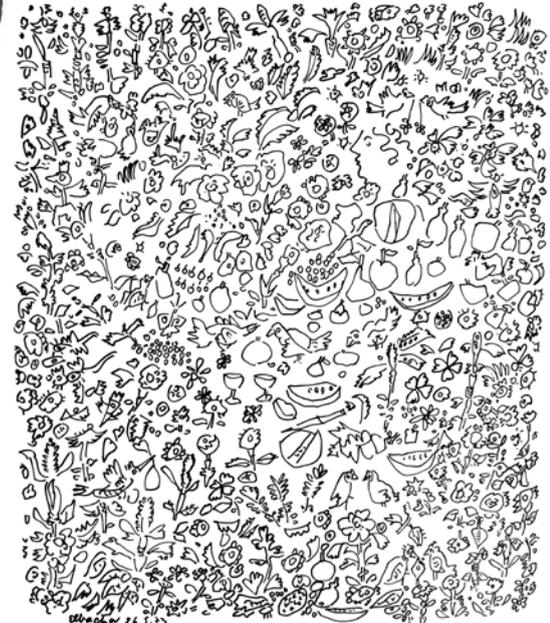
Chagall 1967



Chagall 1967



Chagall 1967



Chagall 1967



elbada 92